نزهة القارئ

للمدارس الثانوية

الجزء الأول

تأليف

الشيخ احمد الاسكندرى

المدرس بدار العلوم

يطلب من

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

« الطبعة الاولى »

١٣٤٠ هـ = ١٩٢١ م

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الفتَّاحِ العليمِ ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ الرسولِ الكريمِ ، وعلى آلهِ وصحبهِ أُولِي الفضلِ العَمِيمِ

أمّا بعدُ فإني وجدتُ الشُّداةَ مِن قرَّاءِ العربيَّةِ يتشوَّفون إلى كتابٍ تُحَبِّبُ عبارتُه السَّهلةُ القراءةَ إليهم ، وتُطابقُ فنونُه المتنوِّعةُ الأَعِنّةَ لعقولهم ، وتقوِّمُ أساليبُه المختلفةُ من لَهْجةِ ألسنتِهم ، وتسَرِّى طرائفُه السأَمَ عن نفوسِهم ، ورأَيْتُ أنَّ تأليفَ مثلِ هذا الكتابِ فَرْضُ كِفايةٍ على طائفةِ المعلِّمين ؛ غيرَ أنه تطاولت الأيامُ والأعوامُ ، والأمرُ على ما كان

فاستخرتُ اللهَ أن أقومَ بهذا الفرضِ واهبًا كلَّ أوقاتِ راحتي لخدمةِ طائفتي ونابتةِ لغتي ، ووضَعْتُ هذا الكتابَ مشتملاً على حكاياتٍ خُلُقيّةٍ ، وأخبارٍ تاريخيّةٍ وجُغْرافيّةٍ ، ومُقطّعاتٍ شعرية ، ونماذجَ إنشائية ، ورسائلَ أدبية ، وخطبٍ بليغةٍ ، ومقالاتٍ علمية أقر بصحتها العلماء الموثوق بهم في تدريس علمها

وبذلتُ وُسْعي في شرحِ غريبِه والتعريفِ برجالِه وأماكنِه وضَبْطِ ألفاظِه متنقِّلاً من مُعْجَماتِ الألفاظِ الى مُعْجَماتِ المعانِي

فإن أرضيتُ به إخواني المعلمين ، وسدَدْتُ مِن حاجة أبنائي الطالبين ، فتوفيقٌ من ربِّ العالَمين ، وإن كانتِ الأُخرى ، فقد أبليتُ عُذْرًا

واللهَ أسألُ أن يَهدِيَنَا جميعًا إلى خيرِ أُمّتنا ولُغتنا ؛ وهو المأمولُ ، لإجابة السُّول ؟

أحمد الاسكندرى

المدرس بدار العلوم

وكُتب بالقاهرة ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٠ هـ : ٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ م

حَمْدُ اللهِ تعالى والاستعانةُ بِهِ

سُبحانَكَ اللهُمَّ[1] وبِحمدِكَ ، نحمَدُكَ على نِعَمِكَ التى لا نُحصيها عَدَدًا ، ولا ينقطِعُ لها مَدَدٌ[2] : وَهبتَ لنا نِعمةَ الحياةِ فظهرْنا إلى هذا الوُجودِ المُبدَعِ بعظيمِ قُدرتِكَ ، المُفعَمِ[3] بغزيرِ حِكمتِكَ : لِننتَظِمَ فى سِلْكِ نِظامِهِ ، ونترقَّى فى معارِجِ[4] كمالِهِ . وكرَّمْتَنا بالعقلِ لِنتفكَّرَ فى عجائبِ مخلوقاتِكَ ، وننظُرَ إلى آثارِ رَحمتِكَ وآياتِكَ ، ونتعرَّفَ سُنَنَكَ[5] فى خَلْقِكَ ، ونتفهَّمَ كُتُبَكَ المُنزلةَ على رُسُلِكَ ، (عليهم صلواتُكَ) ؛ فنُذعِنَ[6] لكَ بالرُّبوبيَّةِ[7] ، ونُؤدِّيَ شعائرَ[8] العُبوديَّةِ ، ونتبيَّنَ الرُّشْدَ من الغَيِّ ، والنافعَ من الضارِّ ، ونجعلَ ما فى البرِّ والبحرِ كما شِئْتَ مُسخراً لنا ، ومُيَسَّراً لأمرِنا . ومَنَحْتَنا مِنَ الحواسِّ والجوارحِ[9] ما تتكمَّلُ بِهِ حياتُنا ، وتتيسَّرُ حاجاتُنا ، وينكشِفُ بِهِ الضُّرُّ عنا : مِنْ بَصرٍ نُشاهِدُ بِهِ السماءَ وزينتَها ، والأرضَ وبَهْجَتَها ، ونهتدِي

---

(١) مصدر لسبَّحَ ، ثم جعل اسمًا للتسبيح (أى التنزيه والتبرئة من النقص) ونصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ؛ فمعنى سبحان الله : تنزيهًا لله . واللهم مركب من لفظ الجلالة والميم ، وهو منادى حذفت فيه ياء النداء وألحقت به الميم عوضًا عنها . والواو فى (وبحمدك) زائدة كما فى نحو (ربنا ولك الحمد) بدليل استعمال التسبيح بالحمد مجردًا من الواو فى قوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) (٢) الزيادة بما يُستعان به من جيش ومعونة (٣) المملوء (٤) جمع مَعْرَج وهو السُّلَّم والمصعد (٥) السنن الطرق ، أى عاداتك فى خلقك (٦) نقرّ (٧) اسم من لفظ الرب أى (كونه ربًّا) (٨) جمع شَعيرة وهى من الدين معالمه التى ندب الله اليها وأمر بالقيام بها (٩) جمع جارحة ، وهى من الانسان العضو الذى يكتسب كاليد والرجل

بهِ فى طلَبِ أرزاقِنا ، ومُحاولةِ أعمالِنا ، وندرُسُ بهِ من الكتبِ ما ينفعُنا فى دُنيانا ودِينِنا ؛ ومنْ سَمْعٍ ومَنْطِقٍ يتِمُّ بهما تفاهمُنا ، ويكْمُلُ أُنْسُ اجتماعِنا ؛ وَمِنْ شمٍّ وذَوْقٍ قاما على ممْلكتِنا الباطنةِ حارسَيْنِ يقِظَيْنِ ، وحاجبَيْنِ رفيقَيْنِ يُجيزانِ إليها ما تَستمرئُهُ(١) ، ويدرَأَانِ(٢) عنها ما تستبشِعُهُ(٣) ؛ ومن أيدٍ بها نَبطِشُ ، وعليها نعتمِدُ : فهى أداةُ حياتنا ، ومصدرُ أعمالِنا ؛ ومن أرجلٍ بها نسعَى إلى مقاصدِنا ؛ وعليها ننتقلُ من حَزْنٍ الى سَهْلٍ ، ونتحوَّلُ من جَدْبٍ إلى خِصْبٍ

فسبحانَكَ اللهمَّ ما أجلَّ مِنَّتَكَ(٤) ! وأعظمَ قُدرتَك !

اللهمَّ إنا جِئنا لِبابِ كرَمِك مُستفتِحين ، ولدعوتِك الى طلَبِ العِلْمِ مُستجيبينَ ، وبنورِ هِدَايتِك مُستهدِين ، ومن جليلِ عوْنك مستمدِّين ، فلا ترُدَّنا خائبين

اللهمَّ وهَيِّئْ لنا مِنْ أمرِنا رَشَدا ، وأمِدَّنا فى أبداننا بصِحَّةٍ وعافيةٍ ، وأنِرْ بصائرَنا لمعرفةِ دُروسِنا ؛ فسهِّلْ علينا صعْبَها ، واهدِنا الصَّوابَ فى فَهْمِها ، وانفعْنا بها فى حِفظ أنفُسِنا ودِينِنا ولُغتِنا وَوَطَنِنا

اللهمَّ واعطِفْ علينا قُلوبَ والدِينا ومعلِّمينا ورُؤَسائنا وَوُلاةِ أُمورِنا ، وَوفِّقْنا إلى طاعتِهم والعملِ بنصائحِهم ، وألْهِمْنا وإيَّاهمْ السَّدادَ(٥) فى الرأْىِ والنَّجاحَ فى العَمَل ؛ لنعيشَ آمِنِين فى أسْرابِنا(٦) ، مُعتزِّينَ فى أوطانِنا . إنك سميعُ الدعاء ، آمين !

---

(١) تجدُه هنيئًا حسَنَ المَغَبَّة (٢) يدفعان (٣) تستكرهه (٤) نعمتك
(٥) الصواب (٦) جمع سِرْب وهو النفس والبال

قِراءةُ الكُتُبِ

بسم الله الرحمن الرحيم «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ من عَلَقٍ(١) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»

القِراءةُ غِذاءُ النفْسِ، وَثِقافُ(٢) العقلِ، وقِوامُ(٣) الخُلُقِ، ونُزْهةُ الخاطرِ وهى أُنْسُ المستوْحِشِ، وسَلْوةُ المحزُونِ، وشُغُلُ الخَلِيِّ(٤)، ولَذَّةُ البائِسِ(٥). حثَّتِ الشَّرائعُ على تعلُّمِها، ونَزلتِ الكتُبُ لِتفهَمَ بها، واُسْتَنْبطَ الإِنسانُ حُروفَها مُنْذُ خطَا أَوَّلَ خَطوةٍ فى سبيل الحَضَارةِ. وَلِعظَمِ شأنِها وجليلِ نَفْعِها كانتْ أوَّلُ آيةٍ نزلتْ مِن القرآنِ الكريمِ آمِرةً بها مُنوِّهةً بفضلِها(٦). ولأمرٍ ما جعل رسولُ الله (صلى اللهُ عليهِ وسلمَ) فِديةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لهُ مالٌ مِن أَسْرَى بَدْرٍ تَعليمَ عشرةٍ مِن أصحابِهِ الأنصارِ القراءةَ والكتابةَ.

والقراءةُ مِعْيَارٌ(٧) يُعرفُ به تقدُّمُ الأُمَمِ وتَقَهْقُرُها: فانتشارُها فى أُمَّةٍ وكثرةُ إِقبالِ قُرَّائِها على الكتُبِ والصُّحُفِ والمَجلَّاتِ علامةٌ على نُبوغِها وعُلُوِّ كَعْبِها فى العلمِ والأدبِ؛ وعلى عَكسِها غيرُها

وقراءةُ الكتُبِ درسٌ دائمٌ لا يرتبط بمكانٍ ولا زمانٍ. ولا غِنًى ولا فقرٍ؛

---

(١) من دم (٢) أصل الثقاف الآلة التى تثقّف بها الرماح: أى تعدّل، والمراد بها هنا الأمور التى تقوّم العقل (٣) قوام الأمر نظامه وعماده وملاكه، أى الذى يستقيم به (٤) الفارغ من العمل (٥) الفقير المحتاج (٦) وهى قوله اقرأ باسم ربك الآية (٧) المعيار والعيار ما جُعل نظاماً وأساساً لمعايرة الموازين والمكاييل والنقود ونحوها

فيتلقاه القارئ امام المعلم، وفى ساحة المدرسة، وبين مقاصير[1] القصور، ومفاوز[2] الصحارى، وتحت ظلال الأشجار، وعلى شواطىء الأنهار والبحار وفى عجلة القطار، وعلى ظهر السفينة، وفى شرخ[3] الشباب، وعجز الشيخوخة، وفى بسطة الغنى وعوز[4] الفقر. وربما كانت القراءة هى اللذة الوحيدة التى أصبحت ميسرة للغنى والفقير؛ لقلة أثمان الكتب والصحف بكثرة انتشار المطابع

والقراءة أستاذ عالم بكل علم، ماهر فى كل فن؛ فبينما هى تقص علينا أخبار التاريخ، وما صنعه الإنسان منذ استخلفه الله فى الأرض، واستعمره فيها، وتحدثنا بأنباء الرسل وما لاقوه من أممهم، وتعدد لنا الملوك وفتوحهم، والشعوب وحضاراتهم، إذا هى تصف لنا الأرضين والبحار، والسهول والجبال وما فيها من حيوان ونبات، ومعادن وأحجار، ومسالك وممالك. ثم تكشف لنا بعض الحجب عن بديع خلق السموات وما فيها: من شموس مضيئة، وأقمار متشكلة، وسيارات[5] سابحة، ونجوم ثابتة، وشهب متساقطة. ثم لا يزال هذا الأستاذ العليم يمدنا كل حين من حقائق العلوم ودقائق الفنون بما أفنى الآباء والأجداد ألوف السنين وبدر الأموال فى استنباطه وتحقيقه، وتجربته وتهذيبه، حتى صار قواعد مطردة يغنينا العلم بها عن كثير من

---

(١) جمع مقصورة وهى الحجرة (٢) المفازة البيداء المهلكة، جعلت كأنها مكان للفوز تفاؤلا لسالكها (٣) شرخ الشباب أوله (٤) العوز الحاجة (٥) جمع سيار وسيارة. وأصل السيار الكثير السير، أطلقت على الكواكب التى تطوف حول غيرها كالمشترى والمريخ والأرض لأنها تدور حول الشمس

تجارِبنا الفعليّة المَشوبةِ[1] بالمتاعب والآلام. فلو أنَّ رُبّاناً[2] لا يَمْهَرُ في الملاحة حتى تَكثُرَ عَلَى يديهِ حوادثُ الغرَق لكان رُبّاناً شَقِيّاً محْروماً من التّوفيق. والتاجرُ الذى لا ينجَحُ فى تجارتهِ إلاَّ بعد كَثرةِ الخسائر، وتعدُّدِ الإفلاس عاجزٌ سَيّئُ الحظِّ. وإن الحكمة التى لا تُكسَبُ إلاَّ بالمِحَن والمصائب لَهِيَ حكمةٌ غالِيةُ الثَّمَن.

وقراءةُ الكتب مُحَدّثٌ لا يكذِبُ، وَراوٍ لا يَشُكُّ ولا يَنسى، مهما تطاولتْ على الكتُب الدُّهورُ، واختلفت العُصور

وقراءةُ الكتب إذا استوْفَت شروطَها أعدَّت الطالبَ بعد خروجه من المدرسة إلى أن يقفَ فى مَصافِّ العلماء وعظماءِ الرجال؛ فإننا نرى الطلبةَ يَدْرُسون على مِنهاجٍ واحد، وينالون شهاداتٍ مُتّحِدَةَ الصفةِ، ثم يصيرُ بعضُهم بعد سنين عالماً عظيما ونابهاً شهيراً، ويُصبح الآخرُ خاملاً مستضعَفاً؛ ذلك بأن الأوّلَ أكبَّ على القراءةِ والتحصيلِ وتكميلِ معارفِه، ونسِيَ الآخرُ ما تعَلّمَه بانغماسِه فى غِمار الكسالَى القانعين بضَئيلِ المكاسب، المتساقطين على أخْونَةِ القهواتِ تساقُطَ الذُّباب، حيثُ يقتُلون — كما يقولون — أوقاتَهم فى لَعِبِ النَّرْدِ، أو القهقهة من نُكْتَةٍ لفظية، أو الشَّغَبِ والصَّخَب فى مناقشةٍ عقيم

وإذا أحْسَسْنَا من القراءة ضَجَراً وسَأماً وقلةَ فائدةٍ فلعلّ العيبَ منا لا منْها: بأن لم نكن تخَيّرْنا الكتبَ المناسبةَ لنا ولم نسألْ أهلَ الذكرِ عنها. فإذا انْتَقَيْنَا كتاباً نقرؤُه ينبغى أن نتفهَّمَهُ بتمعُّنٍ حتى ترسَخ لهُ صورةٌ مجمَلةٌ

(١) الممزوجة (٢) ريس السفينة

فى أذهاننا نَستَمِدُّ منها عند الحاجةِ إليها. وألاّ نَطرَحَه من أيدينا حتى ننقلَ إلى كُنَّاشاتنا الخاصةِ أسماءَ مَباحثِه النافعةِ لنا فى أعمالنا ومُناقَشاتنا ومحاضراتنا وأرقامَ صَفَحاتها.

وعلى من أراد التَّوَسُّعَ فى فنٍّ ألاَّ يكتَفِىَ بقراءة كتاب واحد، وإنما يَسأل علماء الفن وأُمناءَ خزائن الكتب والورَّاقين عَمَّا أُلِّفَ فيه ويستَوْعِبَ ما يعثُرُ عليه منها بحثاً وتمحيصاً

نُجباءُ الأَبناءِ

لَمْ يَحْوِ التاريخُ بيْنَ دِفافِ[1] كُتُبِه أخباراً أغزرَ نفْعاً ولا أبْقَى أَثَراً مِنْ أخبارِ عُقلاءِ الناسِ وأذكيائهم، إذْ كانوا أُستاذِى العالَمِ ومُحْكِمِى نظامِه وَوَاضِعِى علومِه ومُؤسِّسِى حِضارته. ولقد كان فى قَصَصِهم عِبْرةٌ لأُولى الألباب مِمَّنْ خَلَفَ مِنْ بعدهم ليقتفوا آثارَهم، ويُكْمِلُوا ما لم تصلْ إليه طاقتُهم.

وإذا ثبتَ أن صُحْبَةَ العُقلاءِ تَزيدُ اللبيبَ عقلاً على عَقْلِه فسماعُ أخبارهم لا يقلّ كثيراً عنها فى هذا الأثر. وسُمِعَ المأمونُ يقولُ: لا شىءَ أطيبُ مِنَ النظر فى عقول الرجال

وليس أسرُّ لِلْقارئ ولا أعجَبُ للسامع من وُقوفِه على ما كان يحدُثُ مِنْ هؤلاءِ العُقلاءِ، وَهُمْ أطفالٌ يلْعَبُونَ أمامَ دُورِهِم، أو فتيانٌ يدرُسُونَ فى مَكاتِبِهِمْ. وَيَكادُ يَكُونُ من المتَّفقِ عليه أَنْ لا شىءَ أشْهَى لِنَفْسِ الوالدِ ولا أشْرح لِصَدْرِ الأُمِّ مِنْ أَنْ يكونَ لهما وَلَدٌ نجيبٌ يُصْبِحُ بذكائه واجتهادِه

---

[1] دفتا الكتاب ضِمامتاه اللتان تضمان بينهما صحائفه من الجلد والقرطاس المقوّى

قُرَّةَ أعينهما إبَّانَ الصِّبا وَسَلْوَةَ أفئدتهما زمَنَ الشيْخُوخةِ. ولقدْ يعرِفُ كثيرٌ من الآباء والمعلمين الذين طالَ عهدُهم بممارسةِ ترْبيةِ الناشئين بعضَ أماراتٍ يستدلّون بها على نجابةِ الفتيانِ وعُلُوِّ همَّتِهم وعَظَمَةِ مُسْتقبلهم أوْ عَلَى فَسَالتهم (١) وَخمُولهم. فمن دلائلِ النجابةِ فى الطفلِ شدّةُ تيقُّظِه لما يُلقَى عليه، وسكينتُه، وقلّةُ تلَفُّتِه، وسلوكُهُ جادَّةَ التوسُّطِ فى الملْعَبِ والمأْكَلِ والملْبَسِ، واجتنابُهُ ما يَخشَى ضررَه من صحبةِ الأشرارِ ومُخالطةِ الكُسالَى. وأقوَى الدلائلِ على نُبْلِه وعُلُوِّ همَّتِه صَراحَتُهُ فى القَوْلِ معَ توخّى (٢) الأدبِ، وتوقيرُ الكبيرِ، وشدّةُ رغبته فى تَجْويد ما يصنَعُه وتثْبيتِ ما يفهمُه، والعملُ على فوْقِ أقرانِه، وإعجابُه بأعمالِ عظَماءِ الرجال

والى القارئ بعضَ حكاياتٍ قصيرةٍ أُثِرتْ عن عُظماءِ الامم فى صَراحة القول واحترام المعلم وإفحام المجادِل نقصها عليه من حينٍ لآخر؛ علّها تثيرُ كامنَ همّتِه، وتحرِّكُ الى المجد نفسَه

نبل عبد الله بن الزبير (٣)

مرّ عمرُ بنُ الخطاب (رضى الله عنه) بصبيانٍ يلعبون، وفيهم عبدُ الله بنُ الزبيرِ، ففرّوا حينَ رأوْه، وثبتَ عبدُ الله. فقال عُمَرُ: ما لَكَ لا تفرُّ معَ أصحابِك؟ قال: لَمْ أجرِمْ فأخافَكَ، ولم يكنْ فى الطريقِ ضيقٌ فأُوسعَ لك

(١) قلة المروءة والنفع (٢) توخى الأمر تحرّاه وتعمده بعد تأمل

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، دعا لنفسه بالخلافة زمن يزيد، وبايعه أهل الأقطار ما عدا الشام، وبقى فى مكة حتى زمن عبد الملك، فبعث اليه بجيش على رأسه الحجاج فقتله سنة ٧٣ هـ

عقل المأمون

رُوِيَ عن أبي محمدٍ اليزيدي[1] أنه قال : كنتُ أُؤَدِّبُ المأمونَ ، وهو في كفالة سعيدٍ الجوهريّ ، فجئتُ دارَ الخلافةِ ، وسعيدٌ قادمٌ إليها . فوجَّهتُ إلى المأمونِ بعضَ خُدامِه يُعلِمُه بمكاني ، فأبطأ عليَّ ، ثم وجَّهتُ آخرَ فأبطأ . فقلتُ لسعيدٍ : إنَّ هذا الفتى رُبَّما تشاغل بالبَطالةِ وتأخَّر . فقال : أجَلْ ! وَمَعَ هذا إنَّه اذا فارقك تعرَّمَ[2] على خَدَمه ، ولَقُوا منهُ أذًى شديداً . فقوِّمْه بالأدب . فلمَّا خَرَجَ تناولتُه ببعض التأديب . فإنه لَيَدْلِكُ عينَيْه من البُكاء إذْ قيل : جعفرُ بن يحيي (الوزير) قدْ أقبلَ . فأخذ مِنْدِيلاً فمسح عينيه ، وَجَمَعَ ثيابَه ، وقام الى فِراشِه ، فقَعَدَ عليه متربِّعاً . ثم قال : ليدخلْ . فقمتُ عن المجلس ، وخفتُ أن يشكوَني اليه فألقى منه ما أكْرَهُ . (قال) فأقبلَ عليه بوجهه ، وحدَّثه حتى أضحكه وضَحِكَ اليه . فلما همَّ بالحركة دعا المأمون بدابَّة جعفر ، ودعا غِلمانَه فسعَوْا بَيْنَ يديه . ثمَّ سأَلَ عنِّي ، فجئتُ . فقالَ : خُذْ عليَّ بقيةَ حِزْبي[3] . فقلتُ : أيها الأميرُ ، أطالَ اللهُ بقاءَك ، لقد خفتُ أن تشكوَني الى جعفرِ بنِ يحيي . ولو فعلتَ لتنكَّرَ لي . فقال : تُراني يا أبا محمدٍ كنتُ أُطلِعُ الرشيدَ عَلَى هذه ؟ فكيفَ[4] بجعفرِ بْنِ يحيي حتى أُطلِعَه أَنني أحتاجُ الى أدب ! خذْ في أمرِكَ ، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تراهُ أبداً ، ولو عُدتَ الى تأديبي مائةَ مرة

---

(١) هو أبو محمد يحيي بن المغيرة المقرئ النحوي توفي سنة ٢٠٢ هـ (٢) اعتدى عليهم (٣) اسمع لي بقية درسي (٤) الباء زائدة ، وكيف خبر مقدم ، وجعفر مبتدأ مؤخر

ولد المأمون

نظرَ المأمونُ الى ابنٍ صغيرٍ له فى يده دَفْتَرٌ، فقال : ما هذا الذى بيدِك ؟ فقال بعضُ ما تُسَجَّلُ بهِ الفِطنَةُ، وينُبِّهُ من الغفلة، ويُؤْنِسُ مِنَ الوَحشةِ. فقال المأمونُ : الحمدُ لله الذى رزقنى من وَلدَى مَنْ ينظرُ بعينِ عقلِه أكثرَ مما ينظرُ بعينِ جسمه وسِنّه

نباهة عبد الله بن المعتز[1]

قال محمد بن ظَفَر[2] الصَّقَلّى بلغنى أن أبا العباس عبدَ الله بنَ محمد المعتز بالله نطق بالحكمة صغيراً ؛ فكان مما حُفظ عنه فى صباه أن مؤدِّبَه قال له : لقد هممتُ بتأديبك لشىء كان منك ، ثم رأيتُ التجاوُزَ عنك أولى . فقال له عبدُ الله : أصلحك الله ! إنك تُرادُ للتأديب لا للتجاوُز ، وإنه يلزم الحازمَ قبل أن ينُبِّهَ على عفوِهِ أن ينبِّهَ المسىءَ على إساءتِه : ليتجافَى عن أشباه زَلَّتِه، ويُنزِلَ العفوَ بمنزلته .

وسأله مؤدِّبُه أن يكتُبَ كتابَ شفاعةٍ لإنسان يَعِزُّ عليه ؛ فجعل يتباطأُ فى كِتابته ، ويطلُبُ التأملَ . فقال له مؤدِّبُه : اكتبْ على ما خيَّلْتَ ؛ فلستَ ممَّن يُتَفَقَّدُ عليه . فقال : كلاَّ ! إن عقلَ الكاتب فى قلمِه .

---

(١) هو ابن المعتز الخليفة العباسى كان عالماً كاتباً شاعراً، خرج رؤساء الكتاب على المقتدر خليفتهم وبايعوا ابن المعتز فثار غلمان المقتدر وقتلوه من يومه (٢٩٦هـ) (٢) أحد علماء صِقلّية ومؤلف « أنباء نجباء الأبناء » و « سلوانة المطاع » توفى بحماة سنة ٥٦٥هـ

فضل العقل

(قال الأصمعي)[١] قلتُ لغلام حَدَثِ السنِّ من أولاد العرب أيسُرُّك أن يكون لك مائةُ ألف درهم وأنك أحمقُ ؟ فقال : لا والله ! قلت ولِمَهْ ؟ قال : أخاف أن يَجنِيَ عليَّ حُمْقى جنايةً تُذهِبُ مالى ويبقَى عليَّ حُمقى .

صبي يفحم فيلسوفا

قال ثُمامةُ بن أشرسَ أحدُ كبار المتكلمين من المعتزلة زمنَ المأمون : دخلتُ الى صديق لى أعُودُه ، وتركْت حمارى على الباب ، ولم يكن معى غُلامٌ ، ثم خرجتُ واذا بصبيّ عليه فقلت : أتركَبُ حمارى بغير إذنى ؟ قال : خفتُ أن يذهبَ فحفِظتُه لك : قلت لو ذهبَ ما باليْتُ بذهابه . قال : فإن كان هذا رأيك فى الحمار فاعمَلْ على أنه قد ذهبَ وهَبْه لِى ، وأربَحْ شُكرِى . فلم أدْرِ ما أقول .

مُقَطَّعات شعرية

التعلم فى الصغر

أنشد أبو عبد الله نِفْطَوَيهِ لنفسه رحمه الله[٢]

أُرَانِيَ أَنْسَى مَا تَعَلَّمْتُ فى ٱلْكِبَرْ وَلَسْتُ بناسٍ مَا تَعلّمْتُ فى الصِّغَرْ
وَمَا ٱلْعِلْمُ إلاَّ بالتَّعَلُّمِ فى الصِّبَا وَمَا ٱلْحِلْمُ إلاَّ بالتَّحَلُّمِ فى ٱلْكِبَرْ

---

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب كان راوية زمانه توفى سنة ٢١٦ هـ

(٢) هو ابرهيم بن محمد بن عرفة النحوى المقرئ الشاعر توفى سنة ٣٢٣ هـ

وَلَوْ فُلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فِى الصِّبَا لَأُلْفِىَ فِيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فِى الْحَجَرْ
وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إِلاَّ تَعَسُّفٌ إِذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرْ
وَمَا الْمَرْءُ إِلاَّ اثْنَانِ: عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ فَمَنْ فَاتَهُ هَذَا وَهَذَا فَقَدْ دَمَرْ[1]

التعلم فى الصغر أيضا

ومما يُنْشَدُ لخلف الأحمر[2]

خَيْرُ مَا وَرَّثَ الرِّجَالُ بَنِيهِمْ أَدَبٌ صَالِحٌ وَحُسْنُ ثَنَاءِ
هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالأَوْ رَاقِ[3] فِى يَوْمِ شِدَّةٍ وَرَخَاءِ
تِلْكَ تَفْنَى وَالدِّينُ وَالأَدَبُ الصَّا لِحُ لاَ يَفْنَيَانِ حَتَّى اللِّقَاءِ[4]
إِنْ تَأَدَّبْتَ يَا بُنَىَّ صَغِيرًا كُنْتَ يَوْمًا تُعَدُّ فِى الْكُبَرَاءِ
وَإِذَا مَا أَضَعْتَ نَفْسَكَ أُلْفِيـ[5] ـتَ كَبِيرًا[6] فِى زُمْرَةِ الْغَوْغَاءِ
لَيْسَ عَطْفِى لِلْعُودِ إِنْ كَانَ رَطْبًا وَإِذَا كَانَ يَابِسًا بِسَوَاءِ

العلم والعمل

ومن شعر لمنصور الفقيه

أَيُّهَا الطَّالِبُ الْحَرِيصُ تَعَلَّمْ إِنَّ لِلْحَقِّ مَذْهَبًا قَدْ ضَلِلْتَهْ
لَيْسَ يُجْدِى عَلَيْكَ عِلْمُكَ إِنْ لَمْ تَكُ مُسْتَعْمِلاً لِمَا قَدْ عَلِمْتَهْ
قَدْ لَعَمْرِى اغْتَرَبْتَ فِى طَلَبِ الْعِلْـ ـمِ وَحَاوَلْتَ جَمْعَهُ فَجَمَعْتَهْ
وَلَقِيتَ الرِّجَالَ فِيهِ وَزَاحَمْـ ـتَ عَلَيْهِ الْجَمِيعَ حَتَّى سَمِعْتَهْ

(١) أى هلك (٢) كان راوية للشعر والأدب وشيخا من شيوخ النحويين البصريين توفى سنة ١٨٠ هـ (٣) جمع وَرِق مثلثة وهى الدراهم المضروبة من الفضة (٤) يوم اللقاء أى لقاء الله وهو يوم القيامة (٥) أى وُجدت (٦) نصب على الحال

ثُمَّ ضَيَّعْتَ أَوْ نَسِيتَ ، وَمَا يَنْـ ـــــفَعُ عِلْمٌ نَسِيتَهُ أَوْ أَضَعْتَهْ

وَسَوَاءٌ عليكَ عِلمُكَ إِنْ لَمْ يُجْدِ نَفْعاً عليكَ أَمْ مَا جَهِلْتَهْ

كَمْ إلى كَمْ تُخَادِعُ النفسَ جهلاً ثُمَّ تجرِى خِلافَ مَا قَدْ عَرَفْتَهْ

تَصِفُ الْحَقَّ والطريقَ إليهِ فإذَا مَا عمِلتَ خالفتَ سَمْتَهْ(١)

عجائب الدنيا

فُطِرَ الإنسانُ على العَجَبِ مِمَّا لم يأْلفْه ، أو مَا حوَى سرًّا يعجَزُ عن تأْويله ؛ فكان فى أوَّل أطوار بَدَاوتِه وأعْصار جاهليَّته يُدْهَشُ لرُؤْية الدوابِّ الهائلة الخِلْقة أو الدقيقةِ الإلهام أو المُبَرْقشة الألوان أو الرفيقةِ العَمل ، ويَعُدُّ مِنَ العجائب شُروقَ الشمسِ وغُروبَها ، وتفاوُتَ حرِّها وبَرْدِها ، وتزايُدَ القمرِ وتناقُصَه ، وبُزوغَ الكواكب وأُفولَها ، وتساقُطَ الشُّهُبِ ، وانتيابَ الزلازل ، وكان مع فَرْط حَيْرته فى معرفة كُنْهِها(٢) وإكباره لأمرها يرى لها مِنَ النفْع والضَّرَر ما جعلَه يُعَظِّمُ النافعَ منها ابتغاءَ نَفْعِه ، ويتملَّقُ الضارَّ اتقاءَ شرِّه . وليس تعظيمُه هذا وتملُّقُه ذاك الا ضُروباً مِنَ العِبادة ؛ فعبَدَ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ والفِيلَ والبَقرَ كما عبد التماسيحَ والحيّاتِ

فلما أَلِفَ نَظَرُهُ هذه المخلوقاتِ الفِطْرِيَّةَ ، وَتَفَهَّمَ أَسْرارَ الكثيرِ مِنَ المَشَاهد الكونيّة ، وَأَصبحَ بَنُو جنسه يُقيمون بأَيْديهم ما يُسامِى الجبالَ

---

(١) السمت الطريق (٢) حقيقتها

ويُناطِحُ السَّحابَ : من البُروج المشيّدة وَالمصانِع العظيمة وَالمَناوِر الشاهقة، وَمَا يُماثِلُ الحيوانَ مِنَ التماثيل الهائلة والصُّوَرِ البديعةِ ، وَما يُحاكِى أصواتَ المُغَرِّداتِ: من الآلاتِ المُطْرِبة ، وَما يُضاهِى أَلوانَ الزَّهْرِ وَرِيشَ الطَّيْرِ وَأَجْنِحةَ الفَرَاشَ من الأَصْباغ المُؤْتَلِفة والمختلفة التى زَخْرَفَ بها القُصورَ ، وَنمَّقَ بها البُسُطَ وَالطَّنافِسَ، أخَذَ مَجْرَى عَجَبِهِ يَنْحَرِفُ رُوَيْدًا الى ما هو بديعٌ مِنْ صُنْعِ الإِنسانِ ؛ حتى رأَينا مُؤَرِّخِى السَّلَفِ وَجَوَّابةَ الآفاقِ مِنَ القُدَماءِ اذا أَحْصَوْا عَجائبَ الدُّنيـا فقلَّمَا يَدرُجون فى إحصائهم بعضَ العجائبِ الفِطْرِيَّة

فقال الرومانُ مثلاً : إن عجائبَ الدنيا سبعةٌ[1] ؛ عَدُّوا منها أسوارَ بابلَ وحدائقَها المعلَّقةَ ، وتمثالَ رُودِسَ الهائلَ ومَنارةَ الاسكندرية . ثم لمّا ضرَبَ السائحون لِعهْدِنا هذا فى الأرض وَطوَّفُوا المَمالِكَ وَالأمصارَ صارتْ عجائبُ الدنيا تُعَدُّ أَكْثرَ من سَبْعة فى جملتها سورُ الصين الأعظمُ وَبُرْجِ بيزا الهائلُ. وَاُتفق المتقدّمون وَالمتأخّرونَ عَلَى أَنّ من أَعجبِها هَرَمَى الجيزة منْ مِصْرَ

---

(١) هى الأهرام والثلاثة المذكورة فى الصلب ، والخامس معبد ديانة بأَفَسُوس من الجانب الغربى لآسيا الصغرى بناه مهندسو الإغريق فى أيام الاسكندر وتم بناؤه حوالى سنة ٣٣٠ ق. م، ودمره القوط سنة ٢٦٢م، وكُشف سنة ١٨٨٣م وقدّر أنه كان ٤١٨ قدم فى ٢٣٩ قدم . والسادس تمثـال جُبتير (المشترى) بأولمبيا صنعه فدياس الشهير سنة ٤٥٠ ق . م فى اليس بالمورة ، وكان ارتفـاعه ٤٠ قدمًا يمثل جبتير جالسًا مرتديًا قابضًا بيده اليمنى على رمز النصر، والمظنون أنه كان مكسىّ الصدر والوجه بالعاج المكَفَّت بالذهب على صور أزهار . والسابع ناوُس أرتيميزيا فى هليكرناس على شاطئ الجنوب الغربى لآسيا الصغرى، بنته أرتيميزيا لزوجها أحد ولاة الفرس سنة ٣٨٠ق.م

أسوار بابل

فأمَّا أسوارُ بابِلَ فكانتْ أسواراً هائلةَ الشانِ، سامِقةَ البُنيانِ، تُحيطُ بمدينةِ بابلَ العظيمة التى كانت فى إبَّانِ عظَمَتِها أى منذ ٢٥٠٠ سنة تقريباً تَشْغَلُ من بَسيطِ الأرض ما يبلغ نحوَ مائةِ ميلٍ مُربَّعٍ

وكان عُلوُّ الأسوارِ فى بعضِ جِهاتِها يبلغُ ٣٣٥ قَدَم فى سَمْكِ ٨٥ قدماً، عليها نحوُ مائة باب كلُّها من الصُّفْر [١]

وكان بالمدينة جملةُ صُروحٍ كالأهرامِ المدرّجة كثيرة الغرف والنوافذ ومن بينها بُرْجُ بابلَ العظيم المضروبُ بِهِ المثلُ فى الارتفاع

وكان من مرافق القصر المَلَكىّ بالمدينة (حدائقُ بابلَ المُعَلَّقَةُ) المشهورة وهى حدائقُ بديعةٌ غُرِسَتْ أشجارُها فى أُصُصٍ [٢] هائلة من الفخّار، مُلِئتْ بالطين، ونُصِبَتْ عَلَى قناطِرَ رُفِعتْ عن الأرض بنحو ٧٥ قدماً. فى شكلٍ مُربَّعٍ، ضِلعُهُ نحوُ ٤٠٠ قدم. وكان الماء يصِل إليها من نَهْرِ الفُراتِ بطُنْبُورٍ لَوْلَبِيّ عجيبٍ يدُور عَلَى مِحْوَرِه

تمثال رودس

وأما تمثالُ رُودِسَ الهائلُ فكان تمثالاً عظيماً من الشَّبَهِ [٣] يُمثِّلُ أحَدَ معبوداتِ اليونان، ارتفاعُهُ ١٢٠ قدمٍ، أُقيم عند مَدْخلِ مِيناء رودس سنة ٢٨٠ ق. م، ثم سقط سنة ٢٢٤ ق. م على أثرِ زِلْزالٍ شديد، فتهشَّم، وبقيت أنقاضُه

---

(١) النحاس الأصفر (٢) جمع أصيص وهو وعاء شبه نصف جَرّة تغرس فيه الرياحين (٣) هو ما يسمى (البُرُنْز)

هنالك الى أنِ أستولى العربُ على جزيرة رودس سنة ٦٥٦ م ، فبيعتْ من احد تجار اليهود ، فسخَّر فى حملها ألفَ جمل

منارة الاسكندرية

وأمّا مَنارةُ الإِسكَندريَّةِ أو مَنارةُ فارُوسَ(١) فهى مَنارةٌ عظيمةٌ بناها بَطْلَيْمُوسُ الثانى ما بينَ سَنتىْ ٢٨٣ و ٢٤٧ ق . م لِتكونَ هِدَايةً للسُّفَّار(٢) فى البرّ والبحر ومَرْقباً تُلْمَحُ منه السُّفُنُ على بُعْدٍ عظيمٍ؛ وكان يُوقَدُ فى رأسِها النّيرانُ، فتُرَى على أكْثرَ من سبعين مِيلاً . وَلَمْ يُعْلَمْ مِقدارُ ٱرتفاعِها بالضبط زَمَنَ البطالِسَة . وَأعْدَلُ الأقوالِ فيـهِ أنه أربعُمائة ذِراعٍ بالذراع السوداء(٣) . والمشهورُ أنهُ سقَطَ من أعلاها زَمَنَ الوليد من بنى أمية مِقدارٌ عظيمٌ حامَتِ الظنونُ والتخرُّصاتُ حولَ سبب سُقوطِهِ

وكانتْ هيئتُها مُرَكَّبَةً مِنْ ثلاثَةِ أشكال: الأوّل مَنْشُورٌ مُرَبَّعٌ، والأوسطُ منشورٌ مُثمَّنٌ مِساحةُ قاعدتِه أضيقُ ذَرْعاً ممّا قبلهُ، والأعلى مُدَوَّرٌ أُسْطُوانىٌّ. ولَعلَّ المِصريين قد حاكَوْا هذا الشكلَ فى بِناءِ مَنارات مساجدهم ولا سيما ما بُنِىَ منها زَمَنَ المماليكِ

ولما ٱستبدّ أحمدُ بن طُولونَ بمُلكِ مِصْرَ رَمَّها، وَبَنَى عليها قُبّةً من خشبٍ أطَارَتْها الرّياحُ بعدَ زمنٍ، وكذلك أصلحَ ما تشعّثَ من جانبها ٱبنُه أبو الجَيْش خُمارَوَيْهِ . ثم حَدَثَتْ فى سنة ٣٤٤ هـ زَلْزلةٌ عظيمةٌ أسقطتْ مِنْ أعلاها نحوَ

---

(١) نسبة الى جزيرة فاروس وكانت منفصلة عن الاسكندرية ثم وصلت بها

(٢) جمع سافر لا فعل له (٣) هى الذراع العباسية النيلية

ثلاثينَ ذِراعاً . وشاهدَها ابنُ جُبَيْر(١) الرحّالةُ المشهورُ سنة ٥٧٨ هـ في عُلُوّ نحوِ خمسينَ ومائةِ قامةٍ ، وذَرَعَ ضِلَعَ قاعدتِها السُّفلَى ، فكان ذَرْعُها أكثرَ من خمسينَ ذِراعاً ، وذَكَرَ أنهُ صَعَّدَ فيها وَصَلَّى في المَسْجد الذى بُنِيَ في أعلاها ، فشاهدَ مِنْ شأنِ مبْنَاهُ عَجَباً لا يَسْتَوْفيه وَصْفُ واصف ؛ وفي أيام الملك الظاهرِ بيبرْسَ البُنْدُقداريّ تَدَاعَى بعضُ أرْكانِها ، فأمرَ بِبِنَاءِ ما تهدّمَ سنةَ ٦٧٣ هـ وأعادَ بناءَ المسْجدِ ، وَلكِنَّهُ سَقَطَ في سنة ٧٠٢ هـ في زِلْزالٍ عظيمٍ ، ثم جَدَّدَهُ الأميرُ رُكنُ الدينِ بيبرْسُ الجاشنْكيرُ سنة ٧٠٣ هـ

وَوَصفَها بَعْدَ ذلك الرَّحّالَةُ ابنُ بَطوطة(٢) عند وُصُوله الى ثغرِ الاسكندرية ابْتداءَ رِحلَتِه سنة ٧٢٦ هـ فقال ما خلاصته :

قَصَدْتُ المنَارَ فرأيتُ أحَدَ جوانبِهِ مُهَدَّماً . وَصِفَتُه أنهُ بِناءٌ مُرَبَّعٌ ذاهبٌ في الهواء ، وبابُه مرتفعٌ على الأرضِ ، وَإزاءَ بابه بِناءٌ بقدر ارْتفاعِه وُضِعَتْ بينهما ألواحُ خشبٍ يُعْبَرُ عليها إلى بابه فإذَا أُزيلتْ لم يكنْ له سبيلٌ ؛ وداخلَ البابِ موضعٌ لجُلوسِ حارسِ المنارِ ، وداخلَ المنار بيوتٌ كثيرةٌ ، وَعَرْضُ الممَرّ بداخلِهِ تسعةُ أشْبارٍ ، وَعَرْضُ الحائط عشرةُ أشبارٍ ، وَعَرْضُ المنارِ من كلّ جهة من جهاته الأربع أربعُون ومائةُ شِبرٍ ، وهو على تَلٍّ مُرْتفع الخ . ثم قال :

---

(١) هو الرحالة المشهور الكاتب الشاعر الأديب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي ، جاء الى مصر وحج ودخل العراق والجزيرة والشام ورجع الى بلاده ثم عاد الى الاسكندرية وتوفي بها سنة ٦١٤ هـ

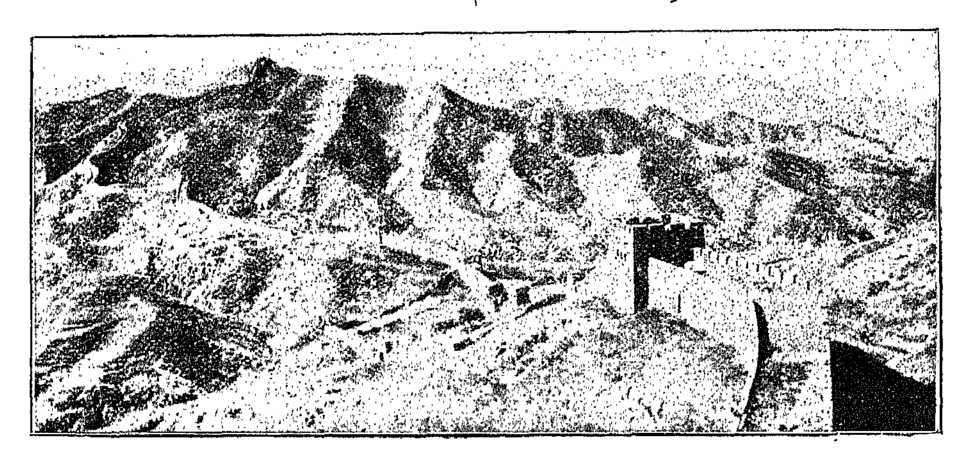
(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي ذهب الى مصر والحجاز والعراق والروم وفارس وبلاد الترك والهند والصين والسودان والاندلس.

وَقَصَدْتُ المنارَ عند عَوْدِى إلى بِلادِ المَغْرِب سنة ٧٥٠ ﻫ فوجدتُه قد اُستولى عليه الخرابُ بحيث لا يمكن دخولُه ولا الصعود الى بابه اﻫ

ثم تساقطتِ المنارةُ عَقِبَ ذلك . فلما زارَ السلطانُ الملكُ الأشْرفُ قايتْباىُ ثغرَ الاسكندرية سنة ٨٨٢ﻫ وكان مُولَعاً بالعمارة ، رَسَمَ بأن يُبْنَى على أساسِها بُرْج عظيمٌ فبُنِيَ ثمَّ تَهَدَّمَ ، وَبَنَى عَلَى أساسِهِ مُجَدِّدُ مِصْرَ محمدُ على باشا حصناً سُمِّيَ وَلا يَزَالُ يُسَمَّى حِصْنَ (طابية) قايتْباىَ، وقد شَعَّثَتْه الأساطيلُ الانجليزيةُ عِنْدَ ضرب الاسكندرية زَمنَ الثورةِ العرابيَّة . وَبقِيَ مأوًى لبعض خفر السواحل ، وهو الآنَ فى حكم الخرائب

سور الصين

وأما سُورُ الصِّينِ أو السَّدُّ الأعظمُ فهو أهْوَلُ ما بَنَتْهُ أيدِى الجبَّارين



سور الصين

من بنى آدم . أمرَ بإقامتِه عاهلُ الصِّين العظيمُ شِى هُوَنْجَ تِى فى أواخر القرنِ الثالث من الميلاد شمالىَّ بلادِه ؛ ليدفع عنها غاراتِ المُغولِ والتتار ؛ فمدَّه

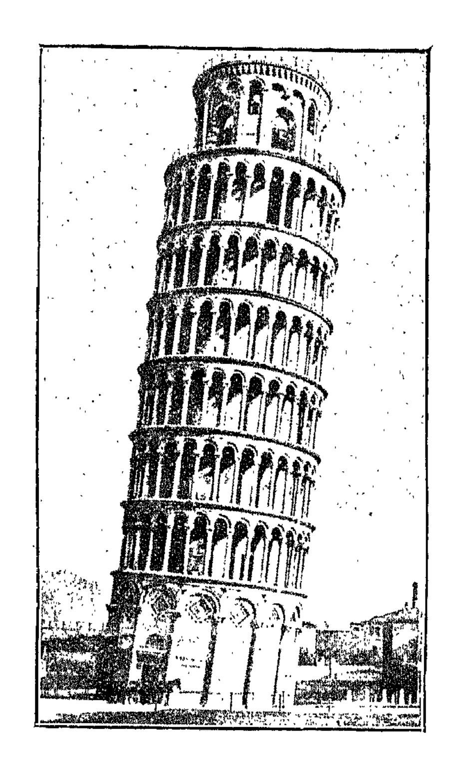
على طُول أَلْفَىْ مِيلٍ وأكثر، وأقام عليه من الأبراج والقِلاع ما لا يقلُّ عن ٢٥٠٠٠ قلعةٍ . وقد طال عليه الزمانُ، وَعَبِثَتْ بِهِ يَدُ الحدَثان، ولكنّه لا يزالُ موضعَ دَهْشَةِ الناظرين وإِكبارِ السائحين، فلم يقع عليه نظرُ انسانٍ الاَّ وقد هالتْهُ رُؤْيتُه، وَعدَّهُ أعجبَ عجائبِ الدنيا، وأيقنَ أن لا يُضاهيَهُ بناءٌ آخرُ فى ضَخامته وكثرةِ مَنْ سُخِّروا فى بنائه . ولا عَجَبَ فقد قال كاتبٌ من الثقاتِ : إِنّه لو اُستُعْمِلَتْ أَنْقاضُهُ فى بناء مِنطَقة على طُول خطِّ الاستواء لأَوْفَتْ عَلَى إِقامةِ سُورٍ حول الكرة الأرضية يبلغُ عُلُوُّه ثمانِىَ أقدام، وَسَمْكُهُ ثلاثَ أقدام : وإنَّ ذلك ليُقَرِّبُ الى أذهاننا مقدارَ مئاتِ الألوف من الناس الذين سُخِّرُوا فى بِنائِه، وَمَبْلَغَ ما عانَوْهُ هُمْ وأهلُوهم من التَّعْسِ والشقاء خَلَفاً بعد خَلَفٍ . ولقد كان من الجائز أن يغتفرَ الصينيُّونَ لِعاهِلِهم هذا العَسْفَ المبينَ لو بقِىَ السور مانعاً لهم من أعدائهم؛ ولكنْ أتتِ المقاديرُ على عَكْسِ ذلك؛ فلم يمض عَلَى إتمام السور عهدٌ طويل حتى تواترتْ غاراتُ التتار والمُغولِ عَلَى الصين الى مُنْتَصَفِ القَرْنِ السابعَ عشرَ من الميلادِ

برج بيزا المائل

وأما «برجُ بيزا[1] المائلُ» فكان بُرْجاً للكنيسة الأُسقُفيّة لتلك المدينة يُدَق مِنْه ناقوسُها، بُنِىَ فى سنة ١١٧٤ م من الرُّخام الأبيض عَلَى يد اُثنين من مهندسى مدينة أنْزِبْرُوكَ من أعمال التِّيرول . وقد حدَثَ فى قاعدَةِ أساسه بعض اُرتجاج فُجائى أفضى الى اُرتكازه فى موضعه المائل الذى يرى

(١) من مدن ايطاليا

عليه الآنَ . وإن الناظر الى هذا البرج لَيُدْهَشُ من بقائه ثابتاً مع شدَّةِ مَيلهِ؛ إذْ يبلغُ انحرافُ قِمَّتِهِ عن الخَطِّ العموديِّ نحو أربعَ عشرةَ قدما . والظاهرُ أنه



برج بيزا المائل

حَدَثَ قريباً بعضُ اهتزازاتٍ أخرى فى أساسه جعلتْ هذا الأثرَ العجيبَ مُهَدَّداً بالسُّقوطِ . ومع ما يقومُ به الآنَ أُولو الشأن من الاحتياط لتلافى ذلكَ يقول العارفون إنه سيسقُطُ عما قريبٍ لا محالةَ . والمظنون أن الذين ينظرون الى صورته المدرَجة فى هذا الكتاب لا تُتاحُ لهم مشاهدتُه قبل سُقوطه

ملهى رومية (الكولسيوم)

وأما مَلْهَى الكُولسْيُوم بِرُومية فهو بَنِيَّةٌ عظيمةٌ بَيْضِيَّةُ الشكل شاهقه الجُدران، كثيرةُ الطيقان، محيطُ دائرها ٥٢٧ ذِراع فرنسيةٍ، وقُطرُهُ الأصغرُ ١٥٥ ذراعٍ، والأكبرُ ١٧٨ ذراع

بَنَاهُ العاهلُ الرومانيُّ فسْبَسْيانُ حولَ بِركةٍ كانتْ وسَطَ حدائقِ الطاغية العاهل نيرونَ، وأتمّه العاهلُ طِيُطسُ ليكونَ ملهًى يجمعُ أعيانَ رومِيَةَ ورجالَ حكومتها

وكان يستنِدُ الى جِدارِه العظيمِ من الداخل مَقَاعدُ مدرَّجةٌ بعضُها فوقَ بعض تتَّسِعُ لِجُلوسِ خمسينَ ألفَ مُشَاهِدٍ، وتُطيفُ بقاعٍ متَّسِعٍ من الأرض: وهو بركَةُ نيرون. وقد صُنِعَ لها أقنِيةٌ وجداولُ تنسابُ فيها المِياهُ من بُحَيْرَةٍ قريبةٍ بحيثُ يمكنُ تجفيفُها فتصبِحُ مَسْرَحًا، أو مَلْؤُها فتعودُ بُحَيْرَةً

وقد نُصِبَتْ عَلَى الملهى قُبَّةٌ عظيمةٌ من أقواسٍ ووشائجَ[1] من الحَدِيدِ، نُشِرَتْ عليها مِظَلَّةٌ من النسيجِ المُزَوَّقِ بِصُورَةِ السَّماءِ والكواكب، يتخلَّلُها أنابيبُ تَنْبَعِثُ منها الروائحُ الذكيةُ

وكان به لقياصرة الرومان وحاشيتهم مقاصيرُ خاصة بهم وبنسائهم، تليها مراتبُ أهلِ الدَّولةِ وقوّادِها وحُكّامِها الذين يهْرَعُونَ إليهِ في أيامِ الزينةِ والحَفْلِ بنَصْرٍ أو عِيدٍ، ويدخلونه من ثمانينَ بابًا

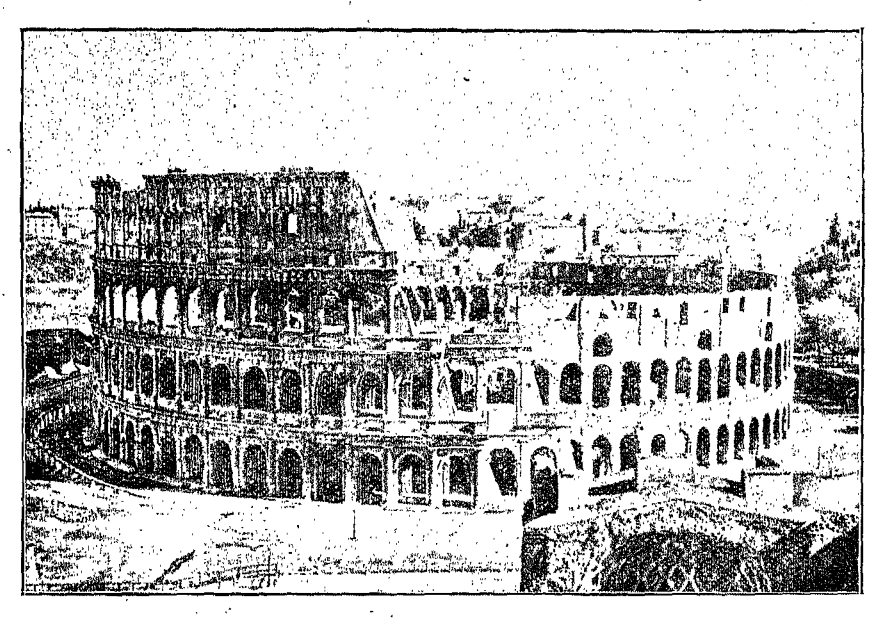
---

(١) أصل الوشائج جمع وشيج ووشيجة وهي ما التف من عروق الشجر أو أغصانه المشتبكة شبهت بها قضبان الحديد المشتبكة

وفى عام ٢١٧ م أنقضّتْ على المَلْهَى صاعقةٌ دمّرتْ منه جانباً ، فرمّمَه بعضُ القياصرة

وكانتِ المشاهدُ التى تقام فى هذا الملهى صُنوفاً شتّى : منها المقبولُ المحمودُ ومنها المستهجَنُ الفظيع ، وان كان كلاهما مُسْتَمْلَحاً فى عُرْفِ الرومان

فمنَ المقبولِ — وهو أقلُّها — تَمْثِيلُ بعضِ القِصَصِ والأساطيرِ وإجراء بعْضِ الألعابِ الرياضيــة والتمرينات العسكَريةِ : من مُبارزةِ الأقرانِ ،



ملهى رومية (الكولسيوم)

ومُصارَعة الفِتيان ، ومُسابقةِ الجِيادِ والعجَلاتِ . ومُباراة المدّائين . وكانت المياهُ اذا أُطلِقتْ عَلَى ساحــةِ الملهى من البُحَيْرَةِ القريبة دخلَ من جداولِها بعضُ القواربِ ذواتِ المجاديفِ والشُّرُعِ فتجرى فى البِرْكةِ مُتَسابِقةً عَلَى رِهانٍ

ومنها غيرُ المقبول وهو أكثرُها ، كإطلاق بعض السباع الكواسر على

بعض أو على العبيدِ والاسارَى . وعند ما أُفتتحَ العاهلُ طِيطُسُ الملهى بدأَ الافتتاحَ باُحتفالٍ أُمتدَّت مُدّتُه الى مائةِ يَوْمٍ هلَكَ فى خلالِها نحوُ خمسةِ آلافِ وَحْشٍ

وكان للسّباعِ من الأسود والنُّمورةِ والفِيَلة ونحوها فى الطبقة السُّفلى من الملهى وتحتَ الأرض أوْجِرَةٌ وأقفاصٌ عليها أَسْوِجَةٌ من حديدٍ تُفتحُ أبوابُها الى ساحةِ الملهى . فاذا أرادُوا مشاهدةَ قتال الكواسر فتحُوا بابَ أسدٍ مثلاً فمرَّ يعدُو الى ساحةِ الملهى ؛ فما هو إلاَّ أنْ يُشاهِدَ تلك الجُموعَ المتراصَّةَ ، ويستمع ضَجيجَها المرتفِعَ الى السماءِ طَرَباً وحبُوراً حتى يُذهَلَ وَيقفَ مبْهُوتاً مُتَحَيِّراً ؛ فلا يفيقُ من ذُهولِهِ إلاَّ بسبُعٍ آخرَ يُطلَقُ عليهِ كَفِيلٍ أو نمرٍ أو كَرْكَدَّنٍ[(١)] . فيقعُ بينهما من الخَمْشِ والنَّهْشِ والنِّطاحِ والصِّيالِ ما يشغَلُهما بأنفُسِهما عن الناسِ حتى يفتِكَ أحدُهما بالآخَرِ . وتارةً يُطلِقون جُملة سباعٍ بعضِها على بعضٍ فيكونُ المشهدُ أَهْوَلَ وأفظعَ ؛ ولكنه كان يُعْتَبرُ ينبُوعَ سرورٍ وابتهاجٍ فى عُرْفِ أولئكَ الجبابرةِ القُساةِ القلوب

ولمَّا دخلتِ الديانةُ النَّصرانيةُ بلادَ الرومان كان يُؤْتَى بالفِرَق المتنصِّرَةِ الى ساحة هذا الملهى أفواجاً ، حيث يُقطَّعُون أو يُصَلَّبُون ، أو تُطلَق عليهم السباعُ فتفترسُهم

ولقد لبِثَ هذا الملهى مَسْرَحاً لإحْدَاثِ هذه الفظائع الى انقراضِ الدولة

---

(١) هو حيوان عظيم من ذوات الجلد الصفيق قصير القوائم غليظها له قرن واحد فوق أنفه يقتل به أحياناً الفيل والأسد

الرومانية الغربية من رومية ، فأُغفِلَ أمرُه إلاَّ قليلاً حتى القرنِ التاسع؛ فأُهمِلَ شأنُه جُملةً ، وتخرّبَ . وشرَع أُمراءُ القُرونِ الوُسطى ينقُلون أحجارَه لِبناءِ قصورِهم وكنائسِهم الى أن منعَ ذلك بعضُ البابواتِ في مُنتَصفِ القرن التاسعَ عشرَ، وبَنَى فيهِ معْبَدًا صغيراً ليكونَ تذْكاراً لِقُدماءِ المسيحيين الذين سُفِكتْ دماؤُهم في ساحتِه

وَيُعَدُّ هذا الملهى الى الآنَ من أشهرِ آثارِ رُومية القديمةِ ، ويُبذَلُ في سبيل حِفظِه كثيرٌ من المال . ومع أنه لم يبقَ من جِداره الاَّ نحوُ الثُّلثِ قوَّمَ بعضُ المهندسين ما بقِيَ فيهِ من الحجارة والرُّخام بثمانية آلافِ ألفِ دِرهمٍ (فرنك) . ولا غروَ فقد قال بعضُ المؤرّخين : إنهُ لم يتمَّ بناءُ هذا الملهى الاَّ بَعْدَ أن جرَى فيهِ نَهْرٌ من الذهب

أهرام مصر

وأما أهْرامُ مِصْرَ فقد وَقفَنَا العلمُ الحديثُ على حقيقتِها ، وكشف لنا السِّتارَ عن إنشائِها، وَتبيَّنّا بَواطنَها وظَواهرَها ، حتى أصبحَ حديثُ المعاصرين عنها ليْسَ بأعجبَ لدينا من وصفِ المتقدّمين لها . فمن أقوال المتقدّمين ما وَصفها بِهِ الرَّحَّالةُ الحكيمُ المُتَطبِّبُ المؤرّخُ عَبْدُ اللطيف البغداديُّ عند زيارتِه مِصْرَ أواخرَ القرن السادسِ من الهجرةِ في كتابه المختصَر الذى سماه الإفادةَ والاعتبارَ قال رحمه الله :

أما ما يُوجدُ بمصرَ من الآثارِ القديمةِ فشيْءٌ لم أرَ وَلَمْ أسْمعْ بمثلِه في مثلِها ؛ فأقتصرُ على أعجبِ ما شاهدتُه

فمن ذلك الأهرامُ . وقد أكْثَرَ الناسُ من ذكرِها ووَصْفِها ومساحَتِها وهى كثيرةُ العددِ جدًّا ؛ وكلُّها ببرّ الجيزةِ ، وعَلَى سَمْتِ مِصْرَ القديمةِ . وتمتدُّ فى نحوِ مسافةِ يومين . وفى بُوصِيرَ منها شىءٌ كثيرٌ . وبعضُها كبارٌ، وبعضُها صِغارٌ ، وبعضُها طِينٌ ولَبِنٌ ، وأكثرُها حَجَرٌ؛ وبعضها مُدَرَّجٌ ، وأكثرُها مَخْروطٌ أملَسُ ؛ وقد كان منها بالجيزةِ عَدَدٌ كثيرٌ لكنها صِغارٌ، فهُدِمَتْ فى زمن صَلاحِ الدين يُوسُفَ بنِ أيُّوبَ عَلَى يَدَىْ قَراقُوشَ بعضِ الأمراء، وكان رُومِيًّا سَامِيَ الهِمَّة، وكان يتولَّى عمائرَ مِصْرَ، وهو الذى بَنَى السورَ من الحجارةِ مُحِيطاً بالفُسْطاط والقاهرةِ وما بينهما وبالقلعة التى على المُقَطَّم، وهو أيضاً الذى بَنَى القلعةَ ، وأنبط فيها البئرَيْنِ الموجودتَيْنِ اليومَ، وهُمَا أيضاً من العجائبِ ، ويُنْزَلُ اليهما بدَرَج نحو ثلثمائةِ درجةٍ . وأخذ حجارةَ هذه الأهرامِ الصِّغارِ وبنى بها القناطرَ الموجودةَ اليومَ بالجيزة ، وهذه القناطرُ من الأبنيةِ العجيبةِ أيضاً ومن أعمال الجبَّارين، وتكونُ نيِّفاً وأربعين قنطرةً . وفى هذه السنة وهى سنةُ سبعٍ وتِسْعِينَ وخمسمائة تولى أمرَها مَنْ لا بصيرةَ عندَه فسدَّها رَجاءَ أن يحتبسَ الماءُ فيرْوِى الجيزةَ، فقوِيتْ عليها جَريةُ الماءِ، فزُلْزِلَتْ منها ثلاثُ قناطرَ وانشقتْ ، ومع ذلك فلم يُرْوَ ما رَجا أن يُرْوَى . وقد بقِىَ من هذه الأهرامِ المهدومةِ قلبُها وحَشْوتُها ، وهى رَدْمٌ وحجارةٌ صِغارٌ لا تصلُحُ للقناطر فلأجل ذلك تُرِكَتْ .

وأما الأهرامُ المتحدَّثُ عنها المشارُ اليها الموصُوفةُ بالعِظَم فثلاثةُ أهرامٍ موضوعةٌ على خطٍّ مستقيمٍ بالجيزة قُبالةَ الفُسْطاطِ ، وبينها مسافاتٌ يسيرةٌ ، زواياها متقابلةٌ نحوَ المشرق واثنان منها عظيمان جدًّا وفى قَدْرٍ واحدٍ ؛ وبهما

أُولعَ الشعراءُ . وهما متقاربان وَمَبنيّان بالحجارةِ البيض . وَأَمَّا الثالثُ فصغيرٌ عنهما نحو الرُّبع لكنه مبنيٌّ بحجارة الصَّوَّانِ الأحمرِ المُنَقَّطِ الشديدِ الصَّلابةِ ولا يؤثّر فيه الحديدُ الاَّ فى الزمنِ الطويل. وتجدُه صغيراً بالقياس الى ذَيْنك؛ فإذا قرُبْتَ منه وأفردتَه بالنظر ، هالَكَ مرآه ، وحسرَ الطرْفُ عند تأمُّلهِ .

وقد سُلِكَ فى بنايةِ الأهرام طريقٌ عجيبٌ من الشكل والإتقانِ ، ولذلك صبَرتْ على ممَرّ الزمان ، بل على ممرّها صَبَرَ الزمانُ ؛ فإنك إن خبَرْتَها وجدْتَ الأذهانَ الشريفةَ قد اُسْتُهْلِكَتْ فيها ، والعقولَ الصافيةَ قد أفرغَتْ عليها مجْهُودَها ، والأنفُسَ النيّرةَ قد أفاضتْ عليها أشرَفَ ما عندَها ، والملَكاتِ الهندسيةَ قد أَخرجتْها الى الفعلِ مثَلاً هو غايةُ إمكانها ؛ حتى إنها تكادُ تُحَدّثُ عن قوْمِها ، وتُخْبِرُ بحالِهم ، وتنطِقُ عن عُلومِهم وأذهانِهم ، وتُتَرْجِمُ عن سِيَرِهم وأخبارِهم ؛ وذلك أنّ وَضْعَها عَلَى شكلٍ مخروط يبتدئ من قاعدة مُرَبَّعةٍ ، وينتهي الى نقطةٍ ، ومِنْ خواصّ الشكلِ المخْرُوطِ أنَّ مركَزَ ثِقَلِه فى وَسَطِه ، وهو يتساندُ على نفسه ، وَيتواقَعُ عَلَى ذاتِه ، ويتحاملُ بعضُه عَلَى بَعْضٍ ؛ فليْسَ له جهةٌ أُخرى خارجةٌ عنه يتساقطُ عليها . ومن عجيبِ وَضعِه أنه شَكلٌ مُرَبَّعٌ قد قُوبِلَ بزواياهُ مَهابُّ الرّياحِ الأربعِ؛ فإن الريحَ تَنكسِرُ سَوْرَتُها عند مُصَادَمَتِها الزاويةَ ، وليست كذلك عندَ ما تَلقَى السَّطحَ

ولْنرجعْ الى ذكرِ الهرمَيْنِ العظيمين فإن المُسَّاحَ ذكَرُوا أن قاعدةَ كُلٍّ منهما أربعُمائةِ ذراعٍ طولاً فى مثلِها عرْضاً ، وارتفاعُ عمودها أربعُمائةِ ذراع ، وذلك كلُّه بالذراع السوداء . وينقطعُ المخروطُ فى أعلاه عند سطحٍ مساحتُه عَشْرُ أذرعٍ فى مثلِها . وأما الذى شاهدتُه مِنْ حالهما فإنَّ رامياً كان مَعِي

رَمَى سَهْمًا فى قُطْرِ أحدهما وفى سَمْكِهِ، فسقط السَّهْمُ دُونَ نصفِ المسافةِ. وخُبِّرْنا أنَّ فى القريةِ المجاورةِ لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاءَ الهرَم بلا كُلْفَةٍ، فاستدعينا رجلاً منهم، ورضَخْنا(١) له بشيءٍ، فجعلَ يُصَعِّدُ فيه كما يَرْقَى أحدُنا فى الدَّرَج، بل أسرع؛ وَرَقِيَ بنعليْه وأثوابه، وكانت سابغةً، وكنت أمَرْتُهُ أنهُ اذا استوَى على سطحه قاسَه بعمامتِه، فلما نزل ذرَعْنا من عمامتِه مقدارَ ما كان قاسَ، فكان إحدى عشرةَ ذراعاً بذراع اليد. ورأيت بعضَ أربابِ القياس قال: ارتفاعُ عمودِها ثلثُمائة ذراعٍ ونحو سبعَ عشرةَ ذراعاً، يُحيطُ به أربعةُ سُطوحٍ مُثَلَّثاتُ الأضلاعِ، طولُ كلِّ ضِلَعٍ منها ستون وأربعُمائةِ ذراعٍ وأرى هذا القياس خطأً. ولو جعَلَ العمودَ أربعمائةِ ذراعٍ لصحَّ قياسُه. وإن ساعدتْ المقاديرُ توليتُ قياسَه بنفسي

وفى أحد هذيْن الهرَمين مَدْخَلٌ يَلِجُهُ الناسُ يُفْضِي بهم الى مسالكَ ضيِّقةٍ، وأسْرابٍ مُتنافذة، وآبارٍ، ومَهالِكَ وغير ذلك مما يحكيه مَنْ يلِجُه ويتوغَّلُ فيه؛ فإن ناساً كثيرين لهم غرامٌ به وتخيُّلٌ فيه فيُوغلون فى أعماقِهِ ولا بُدَّ أن ينتهُوا الى ما يَعجِزون عن سُلوكه. وأما المسلوكُ فيهِ المطروقُ كثيراً فزَلَّاقةٌ تُفضِي الى أعلاه، فيُوجَدُ فيه بيتٌ مُرَبَّعٌ فيه ناوُسٌ من حَجَرٍ. وهذا المَدْخلُ ليس هو البابَ المتَّخذَ له فى أصلِ البناء، وانما هو منقوبٌ نَقْباً صُودِفَ اتِّفاقاً. وذُكِرَ أن المأمونَ هو الذى فتحَه. وجُلُّ مَنْ كان مَعَنا وَلَجُوا فيه، وصعِدُوا الى البيت الذى فى أعلاه. فلما نزلوا حدَّثوا بعظيم ما شاهدوا، وأنه مملوءٌ بالخفافيش وأبوالها حتى يكادَ يُمنَعُ السالِكُ. ويعظُمُ فيها الخُفَّاشُ حتى

(١) رضَخ له: أعطاه عطاءً غيرَ كثير

يكونَ فى قَدْرِ الحمام. وفيه طِيقانٌ ورَوَازِنُ نحوَ أعلاه، وكأنها جُعِلَتْ مسالِكَ للريح ومنافِذَ للضَّوْء. ولَجْتُه مرَّةً أخرى مع جماعةٍ، وبلغتُ نحوَ ثُلُثَى المسافة فأُغْمِىَ علىَّ من هَوْلِ المطْلَع، فرجعْتُ بِرَمَقٍ

وهذه الأهرامُ مبْنِيَّةٌ بحجارةٍ جافيةٍ يكونُ طولُ الحجَر منها ما بين عشْرِ أذرعٍ الى عشرين ذراعاً، وسَمْكه ما بين ذِراعين الى ثلاثٍ، وعرضُه نحوَ ذلك. والعجبُ كلّ العجبِ فى وضْع الحجر على الحجر بهنْدامٍ ليس فى الإمكان أصحُّ منْه؛ بحيثُ لا تجدُ بينهما مدخَلَ إبْرةٍ، ولا خالَ شعْرةٍ، وبينهما طينٌ كأنهُ الوَرَقةُ لا أدرى ما صِفتُه، ولا ما هو. وعلى تلك الحجارةِ كتاباتٌ بالقلم القديم المجهولِ الذى لم أجدْ بديار مِصْرَ من يزعُمُ أنه سمِعَ بمنْ يَعْرفُه. وهذه الكتاباتُ كثيرةٌ جدًّا، حتى لو نُقِلَ ما عَلَى الهرَمَيْن فقط الى صُحُفٍ لكانتْ زُهاءَ عشرةِ آلاف صحيفة

وكان الملكُ العزيزُ عثمانُ بنُ يوسُفَ(١) لما استقلَّ بَعْدَ أبيه سوَّلَ له جَهَلَةُ أصحابه أن يَهْدِمَ هذه الأهْرامَ، فبَدَأَ بالصغيرِ الأحمرِ — وهو ثالثةُ الأثافىِّ(٢)، فأخرج اليه الجَبَلِيَّةَ والنقاَّبينَ والحَجَّارِينَ وجماعةً من عُظَماءِ دَوْلتِهِ وأُمراءِ مملكتِهِ، وَأمرهمْ بهدْمِهِ، وَوَكَّلَهُمْ بخرابِهِ. فخيَّمُوا عنده، وَحشَروا عليه الرجالَ وَالصُّنَّاعَ، وَوَفَّرُوا(٣) عليهم النفقَاتِ، وأقاموا نحوَ ثمانيةِ أشْهُرٍ بخَيْلِهم وَرَجْلِهم، يهدِمون كلَّ يَوْمٍ بَعْدَ بَذْلِ الجهْدِ واُستفراغِ الوُسْعِ الحجَرَ والحجَرَيْنِ؛ فقَوْمٌ مِنْ فَوْقُ يَدْفعونَهُ بالأَسافِين(٤) وقَوْمٌ من أسفلُ

(١) أى يوسف صلاح الدين الأيوبى (٢) جمع أُثْفِية: أحجار تُنصَب عليها القِدر (٣) أكثروا (٤) جمع إسفين يريد به الإزميلَ والعتلَة

يَجْذِبونه بالقُلوسِ والاشْطَانِ[١] . فاذا سقَطَ سُمِعَ له وَجْبَةٌ عظيمةٌ مِنْ مَسافةٍ بَعيدةٍ ؛ حتى ترْجُفَ الجِبالُ ، وتُزَلْزَلَ الارضُ ، ويغوصُ فى الرَّمْلِ . فيَتْعَبُونَ تَعبًا آخرَ حتى يُخرِجُوه . ثمَّ يَضرِبونَ فيه بالأسافين بَعْدَ ما ينقبون لها مَوْضِعًا ، ويُثَبِّتُونها فيه ، فيتقَطَّعُ قِطَعًا ، فتُسْحَبُ كلُّ قِطعةٍ على العجَل ؛ حتى تُلْقَى فى ذَيْلِ الجَبَل ، وهى مسافةٌ قريبةٌ . فلما طالَ ثَوَاؤُهم[٢] ونفِدَتْ نفقاتُهم ، وتضاعفَ نَصَبُهم ، وَوَهَتْ عزائمُهم ، وخارَتْ قُواهم ، كَفُّوا مَحْسورِينَ[٣] مَذْمُومِينَ ، لم ينالُوا بُغْيَةً ، ولا بلَغُوا غايةً ؛ بل كانت غايتُهم أن شَوَّهُوا الهرَمَ وأبانوا عن عَجْزٍ وفَشَلٍ . وكان ذلك فى سنةِ ثلاثٍ وتسعين وخَمْسمائةٍ . ومع ذلك فان الرائىَ لحجارةِ الهَدْمِ يَظُنُّ أنَّ الهرَمَ قد اُستُؤْصِلَ ، فاذا عايَنَ الهرَمَ ظنَّ أنه لم يُهدَمْ مِنْهُ شَىءٌ وانما جانبٌ منه قد كُشِطَ بعضُه . وَحِينما شاهدتُ المَشقَّةَ التى يجدونها فى هَدْمِ كُلِّ حجَرٍ سألتُ مُقَدَّمَ الحَجَّارِينَ ؛ فقلتُ له : لو بُذِلَ لكم ألفُ دينارٍ على أن تَرُدُّوا حجَرًا واحدًا الى مكانه وَهِنْدامه فهل كان يُمكِنُكم ذلك ؟ فاقسمَ بالله تعالى إنهم لَيعْجِزون عن ذلك ، ولو بُذِلَ لهم أضعافُه

وبازاءِ الأهرامِ من الضَفّةِ الشرقية مغايرُ[٤] كثيرةُ العدد كبيرةُ المِقْدارِ عميقةُ الأَغْوارِ ، مُتَداخِلةٌ[٥] . وفيها ما هو ذو طبَقاتٍ ثلاثٍ . وتُسَمَّى المدينة ؛

---

(١) جمع قَلْس : الحبل الضخم . والأشطان جمع شَطَن : الحبل الطويل

(٢) مُكثهم (٣) المحسور : المعْيَا المُتعَب (٤) جمع مغارة والقياس مغاور ولكنه ورد فصيحًا أيضًا مغاير ومغائر بالهمز (٥) يُشير الى ما يُسمَّى الآن معبدَ أبي الهول وما كُشِف حوله حديثًا

حتى لَعَلَّ الفارسَ يَدخلُها برُمحه، ويتخلَّلُها يوماً أجمعَ، ولا يُنْهِيها لكثرتِها وَسَعَتِها وبُعدِها، ويظهرُ مِنْ حالِها أنها مقاطِعُ حجارةِ الأهرام

وَأما مقاطِعُ حِجارةِ الصَّوَّانِ الأَحمرِ فيقال إنها بالقُلْزُمِ وبأُسْوانَ

وَعِنْدَ هذه الأهرامِ بأكثرَ منْ غَلْوةٍ[1] صورةُ رأْسٍ وَعنُقٍ بارزةٌ من الأرض فى غايةِ العِظَمِ يُسَمِّيهِ الناسُ أَبا الهَوْل، وَيزعمون أنَّ جُثَّتَهُ مَدْفونةٌ تحتَ الأرضِ[2]. وَيَقْتَضِي القياسُ أن تكونَ جُثَّتُهُ بالنسبةِ الى رَأْسِه سَبْعينَ ذِراعاً فصاعداً. وفى وَجْهه حُمرةٌ وَدِهانٌ يلمعُ عليه رَوْنَقُ الطَّرَاوةِ. وهو حسَنُ الصُّورةِ مقبُولُها، عليهِ مَسْحَةُ بَهاءٍ وَجَمالٍ؛ كأنَّهُ يضحكُ تبسُّماً. وسألني بعضُ الفضلاء ما أعجبُ ما رأيتَ؟ فقلتُ: تناسبُ وَجْهِ أبي الهَوْلِ؛ فان أعضاءَ وَجْهِهِ كالأَنف والعَيْنِ والأُذُنِ متُناسبةٌ كما تصنعُ الطبيعةُ الصُّوَرَ متناسبةً؛ فإنَّ أَنْفَ الطِفْلِ مثلاً مُناسِبٌ له، وهو حَسَنٌ به؛ حتى لو كان ذلك الأَنْفُ لرجُلٍ كان مُشَوَّهاً به، وكذلك لو كان أنفُ الرجل للصَّبيِّ لتَشوَّهَتْ صُورتُه، وَعَلَى هذا سائرُ الأَعضاءِ؛ فكلُّ عُضْوٍ ينبغِي أن يكونَ على مِقْدَارٍ وَهيئةٍ بالقِياسِ الى تلك الصورةِ وَعَلَى نِسْبَتِها؛ فإنْ لم تُوجَد المناسَبَةُ تَشَوَّهَتِ الصُّورةُ. وَالعَجَبُ من مُصَوِّرِه كيفَ قدَرَأَنْ يحفَظَ نِظامَ التناسُبِ فى الأعضاء مع عِظَمِها، وَأنَّه ليس فى أعمالِ الطبيعة ما يُحاكيهِ وينقلُه اه. انتهى بحذف يسير

---

(١) الغَلوة رمية سهم . ويقال هى قدر ثلثمائة ذراع الى أربعمائة

(٢) كأنه كان يظن قبل إزاحة الرمال عن أبي الهول أنه تمثال رجل واقف

وقد وصف الأهرامَ الشعراءُ بما لا يُحصى . ومن ذلك قولُ محمودٍ سامى البارُودِى يصِفُ هرَمَى الجيزةِ وأبا الهول :

سل الجيزةَ الفيحاءَ عن هرَمَىْ مِصْرِ؛ لعلَّكَ تدرِى غيْبَ ما لم تكُنْ تدرى

بناءانِ ردَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عنهما ، ومِنْ عَجَبٍ أن يَغْلبا صَوْلَةَ الدَّهْرِ

أقاما على رَغْمِ الخُطوبِ ليَشْهَدَا لبانيهما بينَ البريَّةِ بالفخرِ

فكَمْ أُمم فى الدهر بادتْ وأعْصرٍ خلَتْ وهما أُعْجُوبَةُ العينِ والفِكْرِ

تلوحُ لآثارِ العقولِ عليهما أساطيرُ لا تنفكُّ تُتْلَى الى الحشْرِ

رُمُوزٌ لو اْستَطْلَعْتَ مكْنونَ سِرِّها لأبصرت مجموعَ الخلائقِ فى سطرِ

فما مِنْ بِناءٍ كانَ أو هو كائنٌ ، يُدانيهما عندَ التأمُّلِ والخُبْرِ

يُقصِّرُ حُسْناً عنهما صَرْحُ بابلٍ ، ويعترفُ الإيوانُ[1] بالعجزِ والبَهْرِ

كأنهما ثَدْيانِ فاضَا بِدِرَّةٍ من النيلِ تَروى غُلَّةَ الأرضِ إذ تجرى

وبينهما بَلْهِيبُ[2] فى زِىِّ رابضٍ أكَبَّ عَلَى الكَفَّينِ منه الى الصدرِ

يُقَلِّبُ نحوَ الشرقِ نظرةَ وامِقٍ ؛ كأنَّ له شَوْقاً الى مَطلَعِ الفجرِ

مَصانعُ فيها للعلومِ غوامضٌ تَدُلُّ عَلَى أنَّ ابنَ آدمَ ذُو قَدْرِ

رسا أصلُها ، وامتدَّ فى الجوِّ فرْعُها ، فأصبحَ وَكْراً للسِّماكَيْنِ[3] والنَّسْرِ[4]

أقمتُ بها شهراً ، فأدركتُ كلَّ ما تَمَنَّيْتُه مِنْ نعمةِ الدَّهْرِ فى شَهْرِ

---

(١) هو ايوان كسرى كان بهواً عظيماً فى قصره بالمدائن ، سقفه أزَج معقود وبه سمى قصره الأبيض (٢) اسم لأبى الهول عرف به صدرَ الاسلام . ولعل أبا الهول محرف عنه (٣) السماكان نجمان نيران فى السماء أحدهما السماك الرامح والثانى السماك الأعزل (٤) النسر كوكبان : الواقع والطائر . وفى النسر تورية

نروحُ ونغدو كلَّ يومٍ لِنجتَنِى أزاهِرَ علمٍ لا تَجِفُّ مع الزَّهرِ
وَما ساءنى الاَّ صنيعُ مَعاشرٍ أَلَحُّوا عليها بالخيانةِ والغَدْرِ
أبادُوا بها شملَ العلومِ ، وشوَّهُوا محاسِنَ كانتْ زينةَ البرِّ والبحرِ
فكَمْ سَمَلُوا عيناً بها[1] تُبْصِرُ العُلا ، وَشَلُّوا يداً كانت بها رَايةُ النَّصْرِ
ألاَ قبحَ اللّهُ الجهالةَ ، إنَّها عَدُوّةُ ما شادَتْه فينا يَدُ الفِكرِ

أمثالٌ على ألسنةِ الحيوان

لا يحيق المكر السيئ الاّ بأهله

زَعَموا أَنَّ عُلْجُوماً[2] عشَّشَ فى أَجَمَةٍ كَثيرةِ السَّمك ، فعَاشَ بها مَا عاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صيداً . فأصابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شديد . فجَلَسَ حَزِيناً يَلْتَمِسُ الحِيلةَ فى أمْرِه . فَمَرَّ بهِ سَرطانٌ ، فرأى حَالَتَه وَما هو عليه مِنَ الكآبَةِ والحُزْنِ . فدنَا منه ، وَقَالَ : مَالِى أَراكَ أيها الطَّائِرُ هكذَا حَزِيناً كئيباً ؟ فقالَ العُلْجُومُ : وكيف لا أَحْزَنُ ، وقد كُنْتُ أَعيشُ مِنْ صيْدِ ما هَا هُنا مِنَ السمكِ . وَإِنّى قَدْ رَأَيْتُ اليومَ صيَّادَيْنِ قد مَرَّا بهذا المكان . فقالَ أَحَدُهُما لصاحِبه : إِنَّ هَهُنا سمكاً كثيراً أفَلاَ نَصِيدُه أَوَّلاً . فقالَ الآخَرُ : أَنِّي قد رَأَيْتُ فى مكانِ كَذَا سَمَكاً أكثرَ مِنْ هذا السَّمك ؛

---

(١) يشير الى ما فعله جماعة من المتورعين والصوفية من تشويه وجه أبي الهول ومنهم الشيخ محمد صائم الدهر سنة ٧٨٠ هـ (٢) هو طائر أبيضُ

فلنبدأ بذلك ؛ فاذا فرغنا منه جئنا الى هذا فأفنيناه . وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هنالك انتهيا إلى هذه الاجمة فاصطادا ما فيها . فإذا كان ذلك فهو هلاكي ونفاد مدتي . فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك ، فأخبرهن بذلك . فأقبلن إلى العلجوم ، فاستشرنه ؛ وقلن له : إنا أتيناك لتشير علينا ، فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه . قال العلجوم : أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بها ، ولا أعلم حيلة إلا المصير الى غدير قريب من ها هنا فيه سمك ومياه عظيمة وقصب . فإن استطعتن الانتقال إليه كان فيه صلاحكن وخصبكن . فقلن له : ما يمن علينا بذلك غيرك . فجعل العلجوم يحمل فى كل يوم سمكتين حتى ينتهى بهما الى بعض التلال ، فيأكلهما ؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين ، فجاء السرطان فقال له : إنى أيضاً قد أشفقت من مكانى هذا ، واستوحشت منه ، فاذهب بى إلى ذلك الغدير . فاحتمله وطار به ، حتى إذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه نظر السرطان ، فرأى عظام السمك مجموعة هناك ، فعلم أن العلجوم هو صاحبها ، وأنه يريد به ذلك . فقال فى نفسه : إذا لقى الرجل عدوه فى المواطن التى يعلم أنه فيها هالك ، سواء قاتل أم لم يقاتل ، كان حقيقاً أن يقاتل عن نفسه كرماً وحفاظاً . ثم أهوى بكلبتيه على عنق العلجوم ، فعصره ، فمات . وتخلص السرطان الى جماعة السمك ، فأخبرهن بذلك

عاقبة إسداء النصيحة لمن لا ينتصح

زَعمُوا أَنَّ جماعَةً مِنَ القِرَدَةِ كانُوا سُكَّاناً في جَبَلٍ . فَالْتمسُوا في لَيْلَةٍ باردَةٍ ذاتِ رِيَاحٍ وأَمْطارٍ ناراً ، فلم يجدوا . فرَأَوْا يَرَاعَةً[١] تَطيرُ كأَنّها شَرَارَةُ نارٍ ، فظنُّوها ناراً ، وَجَمَعُوا حَطَباً كَثيراً ، فأَلْقَوْهُ عليها ، وَجَعلوا يَنفُخُون طمَعًا في أَنْ يُوقِدُوا ناراً يَصْطلُون بها مِنَ البَرْدِ . وكان قريباً منهم طائرٌ عَلَى شجرةٍ ينظرون إليه وَينظُرُ إليهم ، وقد رَأَى ما صَنَعُوا ، فجعَل يُنَاديهم ويقول : لا تَتْعَبُوا فإنّ الذي رأيتموه ليس بنار . فلمَّا طَالَ عليهِ ذلك عَزَم عَلَى القُرْب منهم لينْهاهُم عمَّا هم فيه . فمرَّ به رجلٌ ، فعرَف ما عَزَم عليه فقال له : لا تَلْتَمِسْ تَقْويم ما لا يستقيمُ ؛ فإن الحجرَ المانعَ الذي لا يَنقطِعُ لا تُجَرَّبُ عليهِ السُّيُوفُ ، والعُود الذى لا ينْحَنِى لا تُعْمَلُ منهُ القَوْسُ ، فَلاَ تَتْعَبْ . فأَبَى الطَّائرُ أَنْ يُطيعَه ، وَتَقَدَّم الى القِرَدَةِ ليُعَرِّفَهُمْ أَن اليَرَاعَةَ لَيْسَتْ بنار ، فتَنَاوَلَه بَعضُ القِرَدةِ ، فضَرَب بِهِ الأَرضَ فماتَ .

عاقبة من يتعرض لما ليس من شأنه

زَعَمُوا أنَّ قِرْداً رَأَى نجَّاراً يَشُقُّ خَشَبَةً ، وهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْها ، وَكُلَّما شَقَّ مِنْها ذِرَاعاً أَدْخَل فيها وَتِداً . فوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيهِ ، وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذلِكَ . ثُمَّ إن النَّجَّارَ ذَهَبَ لبعضِ شأْنِهِ . فقَامَ القِرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا ليس مِنْ شَانِهِ ؛ فرَكِبَ الخَشَبَةَ ، وَجَعَل ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِدِ وَوَجْهَهُ قِبَلَ الخَشَبَةِ ، فتَدَلَّى ذَنَبُهُ في الشَّقِّ وَنَزَعَ الوَتد فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيهِ ، فكادَ يُغْشَى عليهِ مِنَ الأَلَم . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فأَصَابَهُ عَلَى تِلْكَ الحالةِ ، فأقبَل عليْهِ يَضْرِبُهُ . فكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النجَّارِ مِن الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابهُ من الخَشَبَةِ

---

(١) اليراع ذباب يطير بالليل يضيء كأنه نار

شؤم الوشاية

قال مؤيّد الدين الحسين بن محمد الطُّغْرائىّ صاحب لاميّة العجم المقتول عام ٥١٣ هـ

لَقَدْ جاءَ فى أمثالِهِمْ أنَّ ثعلباً ... وذِئباً أصابا عِنْدَ لَيْثٍ تَقَدُّما
أضرَّ بِهِ جُوعٌ شديدٌ ، فَشَفَّهُ[1] ... وَأَبقَى له جِلداً رَقيقاً وَأعظُما
ففازَ لديهِ الذئْبُ يوماً بِخَلْوَةٍ ... فقال : كَفاكَ الثَّعْلبُ اليومَ مَطْعَما
فكُلْهُ ، وَأطْعِمْهُ[2] ؛ فما هو شَكْلُنا ، ... وَلستُ أرَى فى أكْلِهِ لكَ مَأْثما
فلما أحسَّ الثُّعلُبانُ[3] بكَيْدِهِ ... تطبَّبَ عند الليْثِ ، وَاْحتال مُقْدِما
وقال : أرَى بالمَلْكِ داءً مُماطِلاً ... تَهَدَّمَ منه جِسمُهُ وَتَحَطَّما
وفى كَبِدِ الذئبِ الشِّفاءُ لدائِهِ ... فإن نالَ منها يَنْجُ منهُ مُسَلَّما
فصادف منه ذا قبولاً . فعندها ... أحالَ[4] عَلَى الذئبِ الخبيث ، فصمَّما
فأفلتَ مسلوخَ الإهابِ[5] مُرَمَّلاً[6] ... فلما رآهُ الثُّعلُبانُ تبسَّما
وَصاح به يا لابِسَ الثوبِ قانئاً[7] ! ... متى تخْلُ بالسلطان فأسْكتْ لتَسْلَما

أثرُ النَّقْد فى القول والعمل

أثره فى تحرير العبارة

حُكِيَ أنّ حاكمَ بلدةٍ كان سائراً ذاتَ ليلةٍ مُظلمةٍ فى أحدِ شوارعها ، فصدَمَهُ انسان . فأصْدَرَ من غَدِه منشوراً ألاَّ يَسْرِيَ أحدٌ ليلاً إلاَّ وفى

---

(١) شفه الهم والمرض أنحله (٢) أى وأطعمنا منه (٣) الثعلب الذكر
(٤) أقبل (٥) الجلد (٦) أى ملطخاً بالدم (٧) أى شديد الحمرة

يدِه فانوسٌ[١] . وبينا هو يعُسُّ الليلةَ التاليةَ فى أنحاء البلدة إذ لاقى الرجلَ عينَه وَجهًا لوَجْه . فقال له ، وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيْظِ : وَيْلَكَ ! أَلَمْ تعلَمِ الأمرَ الذى أمَرْتُ ! فقال الرجلُ : بَلَى يا مولاى ! قد قرأتُه ، وها هو ذا فانوسى . فتأمَّلَه الحاكمُ ، وقالَ : ولكنَّه خالٍ من الشمَعِ . فقال الرجلُ : إنك يا مولاى لم تذكرْ فى أمرك ما يُوجِبُ علىَّ أنْ أضعَ فيه شمعًا . فذهب الحاكمُ ، وأصدرَ فى الغدِ أمرًا يقضى على السارين أن يضَعُوا الشموعَ فى فوانيسهم . ولما خيم الليلُ انطلق يعُسُّ فى الأزقة والدُّروب ؛ علَّهُ يعثُر برجلٍ قد خالف أمرَه ، وأهمل طاعته . فقضَى سوءُ الحظ أن يصطدِمَ بصاحبه مرَّةً أُخرى . فقال له : وقد تملَّكه الغضَبُ : لا أُمَّ لك ! لقد ظفِرْتُ بك هذه المرةَ وسأُنْزِل بك من النَّكال ما يجعلُك عِبرةً لغيرك ؛ فقد استَخْفَفْتَ بأمر حاكِمك ، وسرتَ بغيرِ فانوس . فقال له الرجلُ : هَوِّنْ عليكَ يا مولاى ! أليس هذا فانوسًا ؟ فقال له الحاكمُ : ولكن لا شمعةَ فيه ! فقال له الرجلُ بلى ! فيه شمعةٌ ، ومدَّ يده فاستخرج مِنْ باطن الفانوس شمعةً غيرَ مُشْعَلةٍ . فزاد غضبُ الحاكمُ ، وقال له : إنك لم تُشعِلْها ! فقال الرجلُ من فورِه : وأنت يا مولاى لم تذكرْ فى منشورك ما يُوجِبُ علىَّ إشعالَها

عند ذلك اُضطُرَّ الحاكمُ الى أن يُصدِرَ أمرًا آخرَ يقضى على الناس بأن يُوقدوا الشموعَ فى فوانيسهم حين يُدلجُون . وأخذ من ذلك اليوم يُدقِّقُ فى تحرير أوامره تدقيقًا لا يتركُ للناس ذريعةً بها يعتذِرون اذا كانوا لأوامره يخالفون

---

(١) الفانوس فى اللغة النمّام نقله القاموس عن المازَرى شيخ القاضى عياض ، قال وكأنّ فانوس الشمع منه . اذن فهو حقيقة عرفية منقولة عن المجاز ، جارية على أسلوب العربية

أثره فى الصناعة

اشتهرت الصينُ من غابر الأزمان بالنقش والتصوير ، حتى لا تخلو آنيتُهم وماعُونهم وملابِسُهم وفُرُشُهم وأدوات عملهم من صُوَر الحيوان والنبات والمنازل والأنهار والجبال . فبلغ عاهلَ الصين أن فى الروم مُصَوِّراً يفوقُ مُصَوِّرِى بلاده مَهارَةً وإتقاناً، فأشخصَهُ اليه، وأمره بعَمَلِ شىءٍ مما يقدِرُ عليهِ من النقش والتصوير ليَعرِضَه على الناس بباب قصره . فنقش له فى رُقْعةٍ صورةَ سُنْبُلَةِ حِنْطةٍ خضراءَ قائمةٍ ، وعليها عُصفُورٌ ، وأَتقن نَقْشَه وهيئتَه ؛ حتى اذا نظرَه أحـدٌ لَمْ يَشُكَّ أنه عصفورٌ حىٌّ على سُنْبلَةٍ خضراءَ ، ولا يُنكِرُ شيئاً من ذلك غيرَ عدم النُّطق والحركة . فأعجبَ العاهلَ ذلكَ ، وأمر بتعليقه ، وبادَرَ بإدرار الرزق عليـه الى انقضاءِ مُدَّةِ التعليق . فمضتْ سنة الاّ بعضَ أيامٍ، ولم يقدِرْ أحدٌ على إظهار عَيْبٍ أو خلل فيه . فحضَرَ شيْخٌ مُسِنٌّ، ونظر الى المِثال ، وقال : هذا فيهِ عيْبٌ . فأُحْضِرَ الى العاهل، وأُحْضِرَ النَّقَّاشُ والمِثالُ ، وقال : ما الذى فيه من العيب ؟ فأَخْرُجْ عمَّا وقعتَ فيه بوَجْهٍ ظاهر ودليل جلىّ وإلاّ حَلَّ بك الندمُ ، فقال الشيخُ : أسعدَ الله العاهلَ ! وألْهَمَهُ السَّدادَ ، مثالُ أىّ شىءٍ هذا الموضوع ؟ فقال العاهلُ : مثالُ سُنبلةٍ من حِنطةٍ قائمةٍ على ساقها ، وفوقها عُصفورٌ؛ فقال الشيخُ : أصلَحَ اللهُ العاهلَ ! أما العُصْفورُ فليس بهِ خللٌ، وإنما الخَلَلُ فى وَضع السُّنْبلةِ . قال العاهلُ : وما الخللُ ؟ وقد امتزج غضباً على الشيخ . فقال : الخللُ فى استقامةِ السُّنْبلة : لأن فى العُرْفِ أن العُصْفورَ إذا حطَّ على سُنبلةٍ أمالَها لِثِقَلِ العصفورِ وضَعْفِ ساقِ

السُّنْبُلَةِ . ولو كانت السُّنبلةُ مُعْوَجَّةً مائلةً لكان ذلك نهايةً فى الوضع والحِكمة . فوافقهُ العاهلُ على ذلك وأجازه

وليمة مصرية قديمة*

يقرأُ المرءُ كتبَ الأخبارِ وأسفارَ التواريخ فلا يَقْنَعُ بما تصِفُ مِنَ الحروبِ والغاراتِ ، ولا يكتفى بما تقُصُّ من الهزائم والانتصاراتِ ، وما تُورِدُ من أسماءِ المُلوكِ والسلاطينِ ، وما تَسْرُدُ من أرقام الشهورِ والسنين ، بل يتوُقُ الى معرفةِ ما كان عليـهِ الناسُ فى خاصّة أنفسهم ، ويهَشُّ الى الوقوف على طرُق معايشهم ، وأدبهم فى اجتماعهم وتعاشُرِهم . وأشدُّ ما تكون رغبتُه اذا تُليتْ عليهِ أخبارُ أسلافهِ الأوَّلين ، وأجدادِه الغابرين ؛ إذ كان تاريخُه تكْمِلَةً لتاريخهم ، وسيرتُه تتِمَّةً لِسيَرِهم

لهذا كان موضوعُ قراءتِنا اليومَ وصفَ وليمةٍ من ولائم قدماءِ المصريين أُقيمت فى مدينـة طِيبةَ عَلَى ضِفافِ النيل منذُ ثلاثة آلافٍ من السنين . ولْنفرضْ أننا كُنَّا من المدْعُوّين فنَصِفُ لغيرنا ما شاهدناه

سِرْنا الى دار داعينا وبلغناها وقتَ الظَّهيرة ، فإذا غيرُنا من الضِّيفانِ مُقبلون : من بين سائرٍ عَلَى قدميْه أو مَحْمولٍ فى مَحَفَّةٍ أو مستظهِرٍ فوق عجلة . واستشرفنا الدارَ ، فرأيناها مُشَيَّدَةً عَلَى أجمل نظام وأبدعِ طِرازٍ ، يُحيط بها سُورٌ عالٍ ، منقوشٌ بأبدعِ الخطوط ، مُزوّق بأعجب التهاويل . وقُبالةَ الباب

* ترجمها المرحوم عبد القادر حسن افندي الذي كان مدرّساً بدار العلوم ونقحها المؤلف

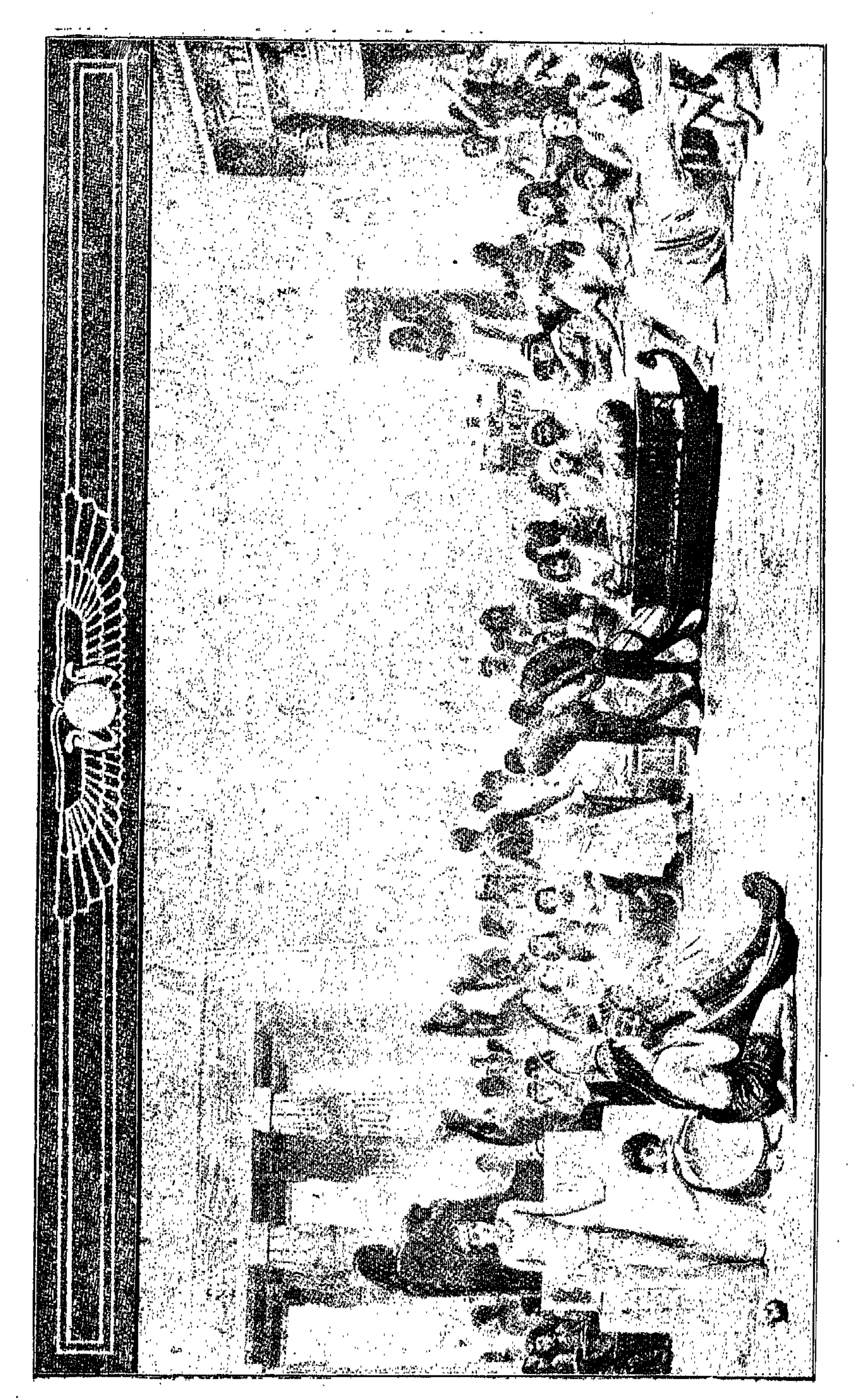
مِسَلَّتان حفُرِ عليهما اسمُ صاحبهما، ودُوِّنتْ مآثرهُ ومفاخرُه. ثم دخلنا من باب السُّور العظيم، وقد جُعلتْ عِضادَتاه[١] بُرْجين شاهقين

وسرنا فى طريق طويل متَّسع تَصافَّتْ عَلَى جانبيهِ الأشجارُ، حتى بلغْنا داراً مبنية بالآجُرّ مكتوباً عَلَى بابها بالفِرْعَوْنيـةِ (الهيروغليفية) « البيت المبارك » . ولقد زاد هذا البيت رونقاً وبَهْجَـةً كثرةُ ما فيهِ : من الأَبْهاءِ الأنيقة والأَرْوقة البديعة والسَّاحات المُـكَشَّفة التى تُظَلّلها العرائشُ والمَظالُّ المبرقشة بمُؤتلفِ الألوان، وزاهى الدِّهانِ، وحَوالَىْ ذلك حدائقُ الأزهارِ وَدَوالِى الكُروم وَعوالِى المراقب والمناظر

وقد وصلَ الى الدار فى هذه الهُنَيْهَـةِ وَجيهٌ راكبٌ عجلةً، يسوقُ جوادَها بيده ويُطيف بهِ غِلْمَـةٌ من حَشَمِه. فلم يكَدْ يقفُ حتى نزَلَ أحدهُمْ فقرَعَ البابَ، وبادرَ آخرُ الى الأخذِ بعِنانِ جَوادِه، وَغيرُه الى مُعاوَنتِهِ عَلَى النُّزولِ وَآخرون الى حَمْلِ ما يحتاجُ اليهِ من الملابسِ وَالأدوَاتِ؛ وَدَخلَ الدِّهلِيز، فتَسَلَّمَ خادِمٌ من الدار نَعْلَيْهِ، وَأَتَى بماءٍ فغَسَل بهِ رجْلَيهِ. حتى إذا فرَغَ من ذلك دُعِيَ الى حُجْرة الوليمة حيث يجلس فى صدرِها صاحبُ الدار وَزوْجهُ وقد ربَطَا الى كراسيِّهما قِرْدَهما الذى يُعزِّانِه ويُداعِبانه

ولَحظنا أن صاحبَ الدارِ مَحْلوقُ الرأسِ لابسٌ شَعْراً مُستعاراً تَسْترسِلُ منه لِمَّةٌ طويلةٌ خَلْفَ أُذنيهِ، ولهُ عُثْنُونٌ قصيرٌ فى ذَقَنهِ إذْ كان من آدابِ المِصْريين ألاّ يُؤْذَنَ لأحدٍ غيرِ المَلِكِ بإطالة عُثْنُونه. وعليه ثَوْبٌ مِنَ الكَتَّانِ الأبيضِ رَقيقُ النَّسْجِ واسعُ الأَرْدَانِ[٢]، وأعضاؤهُ مُحَلاَّةٌ بالعُقود والأساور

(١) جانباه (٢) جمع رُدْن وهو أصلُ الكم



وليمة مصرية قديمة

والخواتم . وتلبسُ امرأتُه ثوباً مثله إلاّ أن ذوائبَ شعرِها تلتوى من خلفِ أُذُنيْها منعطفةً على صدرِها، ولها من قُرْطَيْها وعِقْدِها وخَلْخالَيْها وَصائلُ عِدّة

ولما دخلَ الضيفُ حيّاهما، فردّا تحيتَهُ بأحْسَنَ منها، وأتيا اليه بكرسىّ جلس عليه، وتقدم اليه خادمٌ فغلّفَ رأسَهُ بالطّيبِ، وناوله زهرةً من زَهرِ البشنين وكلّلَ رأسَه وعنقَهُ بالزّهر، وقدّم اليه قدَحاً من الشَّرابِ، وبهذا أُنتهى اُستقبالُ هذا الضيفِ الكريم

وشاهدْنا أن لكلِ سيدة جاريةً قائمةً فى خدمتها . ثم عَزَفت المعازفُ، ورقصَتْ الراقصاتُ أثناء قُدوم الزائرين ؛ حتى اذا تمّ استقبالُهم جلسوا على الكراسىّ متُقابلين ، وجعلوا يتحدّثون ويتسامرون . ويُدورُ حديثُ النساءِ حَوْلَ ما يلْبَسْنَ من الجواهر والحُلِىّ . ويُحَيّى بعضُهن بعضاً بتبادُل أزهار البشنين

ورأينا فى الحجرة كثيراً من الأرائِك والوسائدِ والمَساور[1] والكراسىّ المتخذة من خشب الآبنُوس المُكَفَّتةِ بالعاجِ المُزَيَّنةِ بأشكال الحيوان المكسوّة المَقَاعد بالفِراءِ

وشاهدنا السُّقوفَ مُجَصَّصَةً مُزَخرفةً بأَزهَى الألوان، والحوائطَ منقوشةً بالكتابةِ المُتْقَنةِ وشُكولِ الزّهرِ البديعة، والموائد مَمْدودةً والنمارقَ[2] مَصْفوفةً

وبدأْنا بتناوُلِ الطعام، فغسلنا أيدينا، وأخذنا مجالسَنا، كلُّ اثنين منا على خِوَانٍ. وطِيفَ علينا بألوانِ الأَطعمةِ من خُضَرٍ ولُحُوم وسَمَك وطُيور ودار علينا النُّدُلُ[3] بأكوابِ الشراب يملئونها من جِرارِ الفخّار

---

(١) جمع مِسور أو مسورة وهو متكأ من جلد (٢) الوسائد الصغيرة (٣) خَدَمُ الوليمة

ولما طاب سرورُ القوم وعظُم ابتهاجهم، أُتِيَ لهم بتمثال يُمثل مُومِيَّةً[1] بشرية. فدار به عبدانِ على القوم تذكرةً لهم بالموت والفناء، وإشعاراً بالزوال والانقضاء، وكأنه يقول لكل منهم ما يقوله أبو العتاهية

عِشْ ما بدا لَكَ سالماً في ظلّ شاهقةِ القُصُورِ
يُسْعَى إليك بما اشتهيـــتَ لدَى الرَّواحِ وفي البُكور
فإذا النفوسُ تغرغرتْ[2] بزَفير حَشْرَجةِ الصدور
فهناك تَعْلَمُ مُوقناً ما كنتَ إلاّ في غُرُور

ولَمْ يُعكِّرْ علينا هذا الأمرُ كثيراً من صَفْونا. ذلك أن تمثالَ المومية لم يكن يُحدثُ في قدماء المصريين هذا الشعورَ ويُنغِّص عليهم ما كانوا فيه من السرور، لتعوُّدِهم رؤيتَه في ولائمهم، ومشاهدتَه في مآدبهم

غيرَ أن هناك من بين أولئك المدعوّين ضيفاً لم تُقدَّم له هذه التذكرةُ ولم يذكَّرْ بتلك العِبْرة، وهو وإن غُلِّف بالطِّيب رأسُه وقُلِّد بالزهر عنقُه ونُصِبَ أمامَه خِوانُه، لا يتناول مما وُضع أمامه من أطايب المآكل ولذائذ المشارب فما ذلك الاّ أنه مُومِيّةُ ميت من أعضاء الأسْرة قد استبقاه صاحبُ الدار بضعةَ أشهر قبلَ أن يُغيَّبَ في الرَّمْس، ويُوضَعَ في ظلمة الناوُس؛ بل هو الذى من أجله قد أُقيمتْ هذه الوليمةُ تكريماً له وتوديعاً، واحتفاءً بِهِ وتشريفاً. وتكون أمثال هذه المُومِيّة التي ليست الاّ جثةَ قريبٍ عزيزٍ أو صديقٍ حميمٍ من أشدِّ أسباب سرورِهم، وأعظم دواعي ابتهاجهم وحُبورهم حين اجتماعهم

(١) جثة، منسوبة الى الموم، وهو معرب قديم: دواء يعالج به كالشمع أو هو نوع منه ومنه دواء يركب وقد يؤخذ من قبور قدماء المصريين – عبد اللطيف وابن البيطار وابن سينا وغيرهم (٢) التغرغر والحشرجة تردُّد الصوت والنفس في حلق المحتضَر للموت

أذكياء القضاة

الملاّحُ والتاجر

حَدَثَ فى إحدَى مُدُنِ أورُبَّةَ أن تاجراً فَقَدَ هِمْياناً[1] بِهِ أربعمائةِ دِينارٍ، فاستأجرَ مُنادياً يَنْشُدُه فى الأسواق ويقول: من وَجَدَ هِمْياناً صفتُه كذا وكذا فلَهُ نصفُ ما فيهِ حَلالاً سائغاً إذا ردَّه الى صاحبه. وكان قد التقطه مَلاَّحٌ فقيرٌ، فدفعتْه أمانتُه وكَرَمُ نفسِه الى أن يُخبِرَ المنادىَ أنهُ وجده. فذهب به الى صاحب الكيس، فحمَله لؤمُ نفسِه أن يغدُرَ بالملاَّح، ويُخلِفَ وَعدَه؛ فقال: إن الهِمْيانَ كان فيهِ زُمُرُّدَةٌ ثمينةٌ فهل هى فيه؟ فدُهِشَ المَلاَّحُ وأدرك كَيدَه وأنهُ يُريد حِرمانَه؛ فاختصما وترافعا الى القاضى

فسأل القاضى الملاحَ عن الزُّمُرُّدةِ، فأقسم أنهُ لم يجدْ إلاَّ الدنانيرَ، فسأل التاجرَ عن أوصاف الزُّمُرُّدةِ، فتلعثَمَ، وأَخذَ يتخبَّطُ فى قوله. فأدركَ القاضى مكرَه وَخُبْثَ نِيَّتِه. وقال: يا هذا! تقولُ: إنك فقدتَ هِمْياناً فيه زمردة صفتُها كذا وكذا، وما فى هذا الهميان زُمردةٌ، فايس به؛ فأنشُدْ هِمْيانك الذى فيه الزمردة علَّكَ تجِدُه، ثم التفت الى الملاّح وقال له: احفَظْ هذا الهِمْيانَ أربعين يوماً، فإذا لم يحضُرْ مَنْ يسألُك عنه فهو لك. فعندها اضْطرَّ التاجرُ الى الإقرار على نفسه بالكذب، وأنهُ كان يُريدُ حرمانَ الملاح، وَاستدلَّ بما يُثبتُ أنهُ هميانُه حقًّا، فعزَّرَه[2] القاضى على كذبه، وأعطى الملاحَ نصفَ ما فى الهميان

---

(١) الهميان وعاء للنقود كالحزام يتخذ من جلد ونحوه ويشدّ على الوسط وهو المسمى بالعامية (الكمر) (٢) أدَّبَهُ

فراسة إياس[1]

استودع رجلٌ آخرَ مالاً ، ثم طلبه . فجحده . فخاصمه الى إياسٍ القاضى فقال الطالبُ : إنى دفعتُ المالَ اليه . فقال القاضى : ومن حضرك ؟ قال : دفعتُه فى مكان كذا وكذا ، ولم يحضُرْنا أحدٌ . قال : فأىُّ شىءٍ فى ذلك الموضع ؟ قال : شجرةٌ . قال : فانطلِقْ الى ذلك الموضع ، وانظر الشجرةَ ، فلعلَّ اللهَ تعالى يُوضِّحُ لك هناك ما يتبيَّنُ به حقُّك ، لعلّكَ دفنتَ مالَك عند الشجرة ونَسيتَ فتتذكّرَ إذا رأيتَ الشجرة . فمضى الرجلُ . وقال إياسٌ للمطلوب : أجلِسْ حتى يرجعَ خصمُك . فجلس ، وإياسٌ يقضى وينظرُ اليه ساعةً . ثم قال له : يا هذا ! أترى صاحبَك بلغَ موضعَ الشجرة التى ذكرَ؟ قال لا ! قال : يا عدُوَّ الله إنك لخائنٌ ! قال : أقِلْنى[2] أقالَكَ الله ! فأمر مَن يحتفظُ به حتى جاء الرجلُ . فقال له إياس : قد أقرّ الله لك خصمك بحقك فخُذْه

ذكاء قاضى واسط[3]

تقلّدَ القضاء بواسطٍ رجلٌ ثِقةٌ كثير الحديث . فجاء رجلٌ فاستودع بعضَ الشهود[4] كيساً مختوماً ، ذكَر أن فيه ألْفَ دينارٍ . فلما حصل الكيسُ

---

(١) هو أبو واثلة إياسُ بن معاوية بن قُرة المُزَنى المضروب به المثل فى الذكاء والفِراسة ، أمر عمرُ بن عبد العزيز الخليفةُ الأُموىُّ عامله عَدِيَّ بن أرْطاة أن يستقضيه على البصرة ، فولّاه قضاءها ، ومات سنة ١٢٢هـ عن ٧٦ سنة (٢) أقاله عثرته : أنهضه ، والمراد سامِحْنى (٣) مدينة على دجلة بين بغداد والبصرة ، بناها الحجاج ، وهى الآن خراب الّا قليلاً (٤) كان بكل مدينة شهودٌ عُدول يثق بهم القضاةَ ويستشهدونهم فى عقودهم ، وكادت هذه العادة تبطل فى زماننا

عند الشاهد، وطالت غيبةُ الرجل، قدَّر أنه قد هلك، فهمّ بإنفاق المال. ثمَّ دبَّر وفتق الكيسَ من أسفله، وأخذ الدنانيرَ، وجعل مكانها دراهمَ، وأعاد الخياطةَ كما كانتْ. وقُدِّر أن الرجلَ وافى وطالَب الشاهدَ بوديعته، فأعطاه الكيسَ بختْمِه. فلما حصَل فى منزله فضَّ ختْمَه، فصادفَ فى الكيس دراهمَ، فرَجعَ إلى الشاهد، فقال: عافاكَ اللهُ! أرْدُدْ علىَّ مالى؛ فإنى اُستودعتُك دنانيرَ، والذى وجدتُه دراهمُ. فأنكر ذلك؛ واُستعدى عليه القاضىَ المقدّمَ ذكرُه، فأمر بإحضار الشاهد مع خصْمه. فلما حضرا سأل القاضى الشاهدَ منذ كم أودَعَك هـذا الكيس؟ قال منذ خمسَ عشرةَ سنة. فأخذ القاضى الدراهمَ وقرأ سِكَّتَهَا، فإذا هى دراهمُ منها ما قد ضُرِبَ منذُ سنتين وثلاث ونحوها. فأمره أن يدفع الدنانيرَ إلى صاحبها فدفعها إليه. وأسقطه من الشهادة. ونادى مناديه: ألا إن فلانَ بن فلان القاضىَ قد أسقط فلانَ بن فلان الشاهدَ فاعلموا ذلك، ولا يغتَرَّنَّ به أحدٌ بعدَ اليوم. فباع الشاهدُ أملاكَه بواسطٍ، وخرج عنها هارباً. فلم يُعلَم له خبَرٌ، ولا أُحِسَّ منه أثر.

مِثالُ الطالبِ النجيب[1]

مَنْ مُنْشِدٌ مِنْ كَثَبٍ[2]   شِعرَ كِرامِ العَرَبِ؟

ومَنْ أراهُ مُحْسِناً   نُطقَ اللسانِ الأَجنبي

ثُمَّ يَكُرُّ دارِساً   لِلْعِلْمِ بَعْدَ الأَدَبِ

---

(١) من نظم المؤلف (٢) قريب

يكونُ حِيناً رَاكِضاً وَمُمْعِناً[١] فى اللَّعِبِ
ثُمَّتَ[٢] لا يَلْبَثُ أنْ يَجْلِسَ بيْنَ الكُتُبِ
فلا قَرِيبات لَهُ يُوصِينَهُ بالدَّأبِ[٣]
ولا أَبٌ يلومُه فى طَلَبٍ لَمْ يُجَبِ
حَذْقُ الدُّروسِ عنده يرُوقُ إنْ لَمْ يَجِبِ
إخالُ هذا طالباً يَرُومُ أسمَى مَطْلَبِ
وأنَّه ابنُ قُرَّة لِعَيْنِ أمٍّ وأبِ
كأننى بِهِ[٤] وَقَدْ سما رفيعَ الرُّتَبِ
وعُدَّ فِى أوْطانِه مِنَ الفُحُولِ النُّجُبِ
ودُوِّنَتْ أخبارُه فى صَفَحَاتِ الحِقَبِ[٥]
إذ ليس بَعْدَ العِلْمِ فى دَرْك العُلا مِنْ سَبَبِ

---

(١) امعن فى الأمر تباعد فيه وتوغل (٢) لغة فصيحة فى ثم (حرف العطف)
(٣) الدأب بسكون الهمزة وتحريكها كما هنا الجد فى العمل (٤) معنى كأن هنا التقريب – أى قريباً نراه قد سما الخ وفيه اعرابات ، أمثلها أن مدخول كأن اسمها والباء زائدة والضمير خبر على حذف مضاف تقديره مبصره . أو الباء أصلية أى كأننى بصير به وجملة « وقد سما » حال متممة للمعنى نحو فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
(٥) جمع حِقبة اسم المدة من الدهر لا حد لها والسنة

الأرضُ التى نَعيشُ عليها

لما كانت الأرضُ مَسْكَنَ الإِنسانِ، ومَنبتَ مَعاشِه، ومَيْدانَ أعمالِه، ومثْواهُ الأخيرَ، لم يكنْ بُدٌّ مِنْ أن تَصيرَ مَوْضِعَ بَحْثِه وَمقصِدَ عُلومِهِ وفنونِه

فمنذُ عقَلَ الإِنسانُ، تأمَّلَ فى مَلَكُوتِ السموات والأَرض، وأخذ يَفرِضُ فى حقائِقِها فُروضاً، ويتخَيَّلُ أَخْيِلَةً : بعضُها بايَنَ الحقيقةَ، وَبعضُها قارَبَها ؛ غيرَ أنهُ لَمْ يستنِدْ فى جميعِها الى بُرهانٍ مَنْطِقِيّ إِلا بَعْدَ أن تَمَدْيَنَ ودَرَسَ الفنونَ والصِّناعاتِ واُستدلَّ بالقياس

وقلَّمَا وَافَقَ رأىُ أُمَّةٍ من القدماء رأىَ غيرِها فى حقيقة شَكْلِ الأرض : فتوهَّمَ بعضُهم أنها مُسَطَّحَةٌ كالحصير. وقال قومٌ إنَّها كأُسْطُوانةٍ. وقال آخرون إنَّها عَلَى هيئةِ طَبْلٍ. وخالفَهُم غيرُهم فقال إنهـا كَقاربٍ، ونحو ذلك من الأشكال ؛ الى أن ظهر بعضُ حُكماءِ اليونان، وفرَضَ أنها كُرَةٌ تَشْغَلُ وَسَطَ العالَمِ، وأن العالَمَ فَلَكٌ مُحيطٌ بها وهى ثابتةٌ فى وَسَطِه. وقفَا أثرَه غيرُه من حكمائهم، وقال بحركَتِها هى، وإِنَّ الفلَكَ ثابتٌ

دُوِّنَتْ هذه الآراءُ وغيرُها فى الكُتُبِ، وجاءَ الإِسلامُ بحَضارتِه حاثًّا عَلَى النظرِ فى مَلكوتِ السمواتِ والأرض والاستدلالِ منهـا على بدائِعِ صُنْعِ الخالق، وقرأَ العرَبُ كُتُبَ الجميع، وعمِلُوا عَلَى تحقيق كلّ مذهَبٍ، واُفترقوا فِرَقاً، ما بين عالِمٍ مُدَقّقٍ أو قاصّ مُتَمَشْدِقٍ. فأمَّا العلماءُ فجَنَحُوا الى المعقولِ الصحيحِ من أقوالِ اليونانِ، وأَكْمَلُوا عليها، وكَشَفُوا فى شكل

الأرض وقياسِ دَرَجتها وأنواعِ حركاتِها ما كان سبيلاً مُعَبَّداً[1] لمن أتى بعدَهم مِنَ الأوربيين . وكتُبهم الفلكيةُ مملوءةٌ بإثبات كُرِيَّة الأرض وما يتعلق بكُرِيَّتها؛ وعلى هذا الأساس بَنَوْا حِسابَهم فى عِلْمَيِ الفَلَكِ والمِيقات وغيرهما

قالوا بذلك ودرَسوه ودوَّنوه ولم يُكَفِّرْهم مُكَفِّرٌ أو يُحرِّقْهم مُمَلَّكٌ جبَّارٌ كما فعلَتْ بَعْدَهم أوربة بعُلَمائِها وفلاسفتها ، فإنه ما كادَ يَنْتَشِرُ العلمُ فيها ويَنْقُلُ العلماءُ أقوالَ اليونانِ والعرب فى شَكْلِ الأرضِ حتى ثارتْ بهم عاصفةُ المُتَعَصِّبَةِ من جَهَلَة القساوسَةِ والمُلوكِ والأُمراء ، وسجنُوهم وعذَّبوهم وحرَّقُوهم؛ ولكنَّ العلمَ والنورَ يغلِبانِ الجَهْلَ والظلامَ؛ فما زالَ العلماءُ منهم فى جِهادٍ حتى أَحْنَوْا رُءُوسَ المُتَعَصِّبينَ ، وَهَبُّوا يتفهمون أقوالَهم فى الأرض والسماء ، وظهر لهم من أسرارها قَدْرٌ لا يُستهانُ بهِ

والرأىُ الذى عليهِ عالَمُ العِلْمِ الآنَ أنَّ الأرضَ سَيَّارٌ من السَّيارات التى تَدُورُ حول الشمسِ، وهى تدورُ على نَفْسِها أيضاً . وهى السيارُ الذى نعرِفُ من أَحوالِهِ أَكْثرَ مما نعرِفُ من أحوال غيره لأننا نسكُنُهُ ، أما السياراتُ الأخرى فبعيدة عنا لا نعلَمُ منها إلاّ بعضَ أُمورها العَرَضيَّةِ كالبُعْدِ والضَّوْء والكَثافةِ ونحو ذلك

والأرضُ فى رَأْي أَعْيُننا جِرْمٌ مُسْتَقِرٌّ فى وَسَطِ الفَلَكِ وهى فى الحقيقة سابحةٌ فى الفضاء على مَدارٍ خاصٍّ بها حَوْلَ الشمس وَعَلَى أَبْعادٍ محدودةٍ بينها وبين الكواكب وتجاذُبٍ فيما بينها يُمْسِكُها أن تتصادمَ . ذلك تقديرُ العزيزِ العليم

---

(١) ممهّداً

ولقدْ يُخَيَّلُ لنا بسكنِنا إيَّاها أنها أعظمُ الأجرامِ الفلكيةِ مع أنها تصْغُرُ عن بعضِ نجومِ السماءِ بما لا تُقَدَّرُ معه بذرَّة . ونعمْ إنهـا قد تكبرُ عن بعضِ الكواكب كالزُّهرةِ وعُطاردَ مِنْ زميلاتها سيَّاراتِ الشمس، ولكنَّها تَصْغُرُ عن بعضِ هذه السيارات كالمُشترى وزُحَلَ

وما نراه مِن اختلافِ الليلِ والنهارِ وشُروقِ الشمسِ وغُروبها وطُلوعِ الكواكب وأُفُولها ليس إلاَّ نتيجةَ حركةِ الأرض على محْورها، لا أنَّ هذا العالَمَ بأسره يدُورُ حوْلَنا . وهذه الحركةُ هى إحدى حركاتٍ عِدَّةٍ للأرْض تنشأُ منها فصولُ السنة الأربعةُ وطولُ النهارِ وقِصَرُه

وليس هنا مكانُ التدليلِ عليها وإثباتِ براهينها؛ فقد تكفَّلَ بذلك عِلْمُ الفَلَكِ والجُغرافية والرياضة

تَكْوِينُ الأَرْضِ

يقولُ العلماءُ الآنَ : إنَّ العالَمَ كُلَّه مخلوقٌ مِنْ مادَّةٍ واحدةٍ، أجزاؤُها نهايةٌ فى الدِّقةِ نُسَمِّيها مادَّةَ الكَوْنِ ومِنْ هذه المادَّةِ ما هُوَ باقٍ على دِقَّتِه، ومنْها ما تكاثفَ بدرجاتٍ مختلفةٍ، فيكونُ تارةً صعَّاداً[1] متَّقداً أو بارداً، وطَوْراً سائلاً متقداً أو بارداً، وحيناً جماداً صُلباً أو هشًّا، وآونةً نباتاً أو حيواناً

وقد كانتِ الشمسُ وسيَّاراتُها كُتْلَةً واحدةً مِنْ دُخانٍ[2] متَّقِدٍ كغيرِها

(١) الصعاد هو ما يسمى (الغاز) وجاء فى كتاب الحيوان للجاحظ أن الأجسام إما صلبة وإما سائلة وإما صعادة (٢) يشير الى ذلك قوله تعالى « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » ويسمى هذا الدخان الآن السَّديمَ وأصله لغةً الضبابُ الرقيق

من أجْزام السماء، ففتَق[1] اللهُ بعضَ الكواكب مِنْ بعْضٍ، وفتَق الأرْضَ مِنَ الشمسِ، فسبَحَ كلٌّ فى فلَكِه[2]، ودارَ حوْلَ نفسه، وحوْلَ ما هو أكْبرُ منه على نِظام مُطَّرِدٍ وتقديرٍ حكيم

فصارتِ الأرْضُ بدَوَرانها علَى محْوَرِها كُرَةً تُضِيءُ بذاتها كالشمسِ وبعض الكواكب. وبدَوَرانها حوْلَ الشمسِ فى طبَقاتِ الفَضاء الباردِ جدًّا شفَّتْ حرارتُها وبرَدتْ شيئًا فشيئًا حتى صارتْ كُرةً سائلةً، وتناقصَ حجْمُها تناقُصًا عظيمًا، وانْتفختْ قليلاً مِنْ وَسَطِها، وتَفلْطَحَتْ مِنْ قُطْبَيْها تبَعًا لقانونِ دَوَرانِ السوائلِ. إلاّ أنه لم تَسِلْ كلُّ كُتْلتِها، وبقىَ بعضُها جوًّا صعَّادًا حوْلَها تخلَّله بعد حين بُخارُ الماءِ. وبازْدِيادِ البرْدِ علَى تراخى الزمانِ جمدَ سَطحُها، وتغطَّتْ بقِشْرةٍ أخذت تغلُظ وتيبَس بالتدريج

ولمَّا انْخفضتْ دَرجةُ حرارةِ الجوّ المُحيطِ بها سالَ بُخارُ الماءِ، فكانَ يسقُطُ مطراً على الارضِ، حتى إذا لامَسَها أصَّعّد ثانيةً لِحرارة سَطْحِها، ثمَّ يَسْقُطُ ببُرودةِ الجوّ، ثمَّ يَصَّعَّدُ وهكذا؛ حتى أصبحَ سطْحُها ملائماً لاسْتِقرار الماءِ علَيْه فى حالةِ سُيولة، فغمَرَ جميعَ سطحها وصارَ بحْراً واحداً. ولكنَّ تقبُّضَ قِشْرةِ الأرض وتقلُّصَها بالبرُودة كما تَتَقبَّضُ قِشرةُ التُّفاحةِ والخِيارةِ إذا جفَّتْ رُطوبتُها جعَل بعضَ سطحها يعلو عن بعض، فتكوَّنَ من العالى القارّاتُ والجزائرُ والجبالُ، وتكوَّنَ من المنخفض البحارُ. ثم لما ازدادَ التقبُّضُ والتغضُّنُ[3]

---

(١) يشير الى ذلك قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) (٢) يشير الى ذلك قوله تعالى فى سورة يس (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) بعد ذكر الأرض والشمس والقمر (٣) تغضن الشيء تشنج وتثنى

انحسرت البحارُ عن بعض البقاع فزادت على مساحة القارات كثيراً من الوديان والسهول والجبال؛ يُعلَمُ ذلك بما نُشاهده في أحافيرها من بقايا الحيوان المائيّ. وهذا هو طَوْرُ التكوين الأول. وكلُّ أرضه صخرية بلّورِيّةُ التركيب والشكل. ومنها عامّةُ الجبال والصخور.

وإذ كانت الأوديةُ والسهول تحفُّ بها جبالٌ شاهقة تَصُدُّ بُخارَ الماء المتشبّعَ به الهواء بَرَدَ ذلك البُخارُ عَلَى سَطْحِها أو بجوارها وتكاثف وصار مَطَراً. فإذا اشتدَّ البَرْدُ صار ثَلْجًا وجَمَدا. ثمَّ يَسيلُ المنخفِضُ منه بالحرارة، ويندفِعُ سُيُولاً وأنهاراً تحُتُّ الجَبَلَ، وتجرُفُ ما يُوهنُه اختلافُ الحرّ والبرد وخفْقُ الرياح، وتحمله وتُلْقيه في البحار والسهول. فمنه ما يصلُبُ بضغْطِ حديثه لقديمه ويثبتُ في مكانه ويكون طِباقاً مِنَ الجِير والجِصّ والطُّفَال[1]، ومنه ما يَبْقَى هَيْلاً وينتقِلُ مِن مكان إلى مكان كبعض الحَصَى والرّمال والتّراب. وهذا الراسبُ من فِعْلِ السُّيولِ والأنهارِ أو انحسار البحارِ القديمة يسمى أرْضَ الرُّسوب.

ثمَّ لمَّا أصبحت الأرضُ صالحةً للحياة خلقَ اللهُ النباتَ عَلَى أطوار، فكَثُرَ وعَظُمَ، وتكاثفَ آجاماً وغاباتٍ غَيْبَاءَ[2] ثمَّ جرفته السُّيولُ وحطَّمته العواصف ونبتَ غيرُه، وهكذا حتى كان منه طبقاتٌ مدفونة في باطن الأرض استحالَتْ بعد حين فَحْماً حجريًّا. ثمَّ خَلَقَ اللهُ أوائلَ الحيوان المائيّ ثمَّ ذوات القُشور والمَحار كبعض أنواع السَّراطين والحلازين[3]. ثم توالِيَها من ذوات الفِقار كالتنانين وبعض الأسماك، ثم أنواع الزواحف والوَرَل ذوات الحياتين البرية

---

(١) الطُّفال: الطينُ اليابسُ الناعم (٢) ملتفة (٣) ذوات المحار المُحَوَّى

والبحرية، ثم الدوابّ والوحوش والسباعَ؛ حتى عمّت الأرضَ، وبادَتْ وَخلفها غيرُها، ثمّ غيرُها وغيرُها فى دُهُورٍ طويلةٍ تُعدُّ بألوفِ الألوف[١]. وامتزج بعض ما تخلَّفَ من بَقايا الحَيوانِ والنباتِ بأرضِ الرُّسوب، فتكوَّنتْ الأراضى لزِراعيةُ الحديثة التى يكثُرخِصبُها بكثرةِ الموادِّ الحَيَويَّةِ فيها ﴿٢﴾

الجراءة والاقدام

قال صاحب كتاب الأذكياء[٣]: حدثنى أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال حدثنى بعض الأشراف بالكوفة: أنه كان بها رجل حسنىٌّ يُعرفُ بالأَدرَعِ شديدُ القلب جدًّا قال: وكان فى خرائب الكوفة شيءٌ يظهرُ للمجتازينَ فيه نارٌ يَطولُ تارةً ويقصُرُ أخرى يقولون هو غُولٌ يَفزَعُ منها الناسُ. فخرج الأدرعُ ليلةً راكباً فى بعض شأنه، قال لى الأدرعُ: فاعترضَ لى السوادُ والنارُ؛ فطال الشخصُ فى وَجهِي، فأنكرتُه، ثمَّ رَجعتُ الى نفسى. فقلتُ: أمّا شيطانٌ وَغُولٌ فهَوَسٌ، وليس إلاّ إنساناً. فذكرتُ اللهَ تعالى،

---

(١) ولا ينافى ذلك ما ورد فى القرآن الكريم من أن الله خلق الارض وقدر أقواتها فى أربعة أيام فان أيام الله ليست كالأيام التى نعدّها. قال تعالى: (تَعْرُجُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ إِليهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) وهذا من قبيل التمثيل والاّ فلا يعلم مقدار أيامه الاّ هو ﴿٢﴾ قد اطلع على هذه المقالة الأستاذ «ميخائيل فرج بك» مدرس علم التاريخ الطبعى بمدرسة المعلمين السلطانية وأقرّ بصحة ما فيها من الحقائق العلمية

(٣) هو الزاهد الواعظ المحدث القاصّ المؤرخ الشاعر أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى عين أعيان بغداد فى القرن السادس الهجرى

وصلَّيْتُ على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجمعتُ عِنانَ الفرس ، وَقرعتُهُ بالمِقْرَعة ، وطرحتُهُ على الشخص ، فازدادَ طُولُه ، وَعَظُم الضوءُ فيه ، فنفرَ الفرسُ ، فقرعتُهُ ، فطرَحَ نفسَه عليه ، فقصُرَ الشخصُ حتى عادَ عَلَى قَدْرِ قامةٍ . فلما كادَ الفرسُ يخالِطُه ولّى هارباً . فحركتُ الفرسَ خلفَه ، فانتهى الى خَرِبةٍ فدخلَها . فدخلْتُ خلفَه ، فاذا هو قد نزل سِرداباً فيها . فنزلْتُ عن فرسى وَشدَدْتُه وَنزلتُ ، وسيفى مجرَّدٌ . فحِينَ حصلتُ فى السِّرداب أَحْسَسْتُ حركَةَ الشخص يُريد الفِرارَ منى ، فطرحتُ نفسى عليه . فوقعتْ يَدِى على بَدَنِ إنسانٍ فقبضْتُ عليه فأخرجتهُ ؛ فإذا هى جارية سوداء . فقلتُ : أىُّ شىءٍ أنتِ ؟ وإلاّ قتلتُكِ الساعةَ . قالت : قبلَ كلِّ شىءٍ أنت إنسىٌّ أم جنىٌّ ؟ فما رأيتُ أقوى قلباً منك قطُّ . فقلتُ : أىُّ شىءٍ أنتِ ؟ قالت : أَمَةٌ لآل فلان (قومٍ بالكوفة) ، أَبقْتُ مِنْهم مُنذُ سنين ، فتغرَّبْتُ فى هذه الخَرِبة ، فولَّد لى الفِكْرُ أن أحتال بهذه الحيلة وأُوهِمَ الناسَ أنى غُولٌ حتى لا يَقْرُبَ الموضعَ أحدٌ ، وأتعرضُ ليلاً للأحداثِ ؛ وربَّما رمَى أحدُهم منديلاً أو زادا فآخذه فأبيعهُ نهاراً وأقتاتُ به أياماً . قلتُ : فما هذا الشخصُ الذى يطولُ ويقصُر ؟ والنارُ التى تظهرُ . قالتْ : كِسَاءٌ معى طويلٌ أسودُ (وأخرجتْه من السرداب) وقَصَباتٌ هِنْدِيَّةٌ أُدْخِلُ بعضَها فى بعض فى الكِساء وأرفَعُه فيطول ؛ فاذا أَردتُ تقصِيرَه دفعتُ من الأنابيب واحدةً فى واحدةٍ فيقصُرُ . والنارُ فَتيلةُ شمعٍ معى فى يدى لا أُخرجُ الاّ رأسَها مقدارَ ما يُضِئُ الكِساءَ (وأرتنى الشمعةَ والكِسَاءَ والأنابيبَ) ثمَّ قالت : قد جازت هذه الحِيلةُ نَيِّفاً وعشرين سنة ، واعترضتُ فُرسانَ الكوفة وشُجْعانها وكلَّ أحَدٍ ، فما أقدمَ أحدٌ

عليّ غيرُك ولا رأيتُ أشدَّ قلباً منك . فحملها الأدرعُ الى الكوفة، فردَّها الى مواليها . فكان يُحدِّثُ بهذا الحديث ، ولم يُرَ بعد ذلك أثرُ غول ، فعلِم أن الحديث حق

وصايا الآباء للأبناء

حسن الاستماع

أوصى الحسنُ البَصْرىُّ[1] أبنَه فقال : يا بُنَىَّ اذا جالستَ العُلماءَ فكُنْ على أَن تسمَعَ أحرصَ منك على أن تقولَ . وتَعَلَّمْ حُسْنَ الأستماع كما تتعلَّمُ حُسْنَ الصَّمْتِ . ولا تقطَعْ على أحدٍ حديثاً وإن طالَ حتى يُمْسِكَ[2]

أدب السؤال والجواب

أوصى يَحْيَى[3] بنُ خالدِ بن بَرْمَكَ ابنَه جعفراً فقالَ : لا تَرُدَّ على أحدٍ جواباً حتى تفهَمَ كلامَه ؛ فإن ذلك يَصرِفُك عن جوابِ كلامِه الى غيره ، ويُؤكِّدُ الجهلَ عليك ؛ ولكن افهَمْ عنه ، فإذا فهمتَه فأجِبْه . ولا تعْجَلْ بالجواب قبل الأستفهام . ولا تستحْيِ أن تستفهِمَ اذا لم تفْهَمْ ؛ فإنَّ الجوابَ قبلَ الفهْمِ حُمْقٌ . وإذا جهِلْتَ ما قِيلَ فسؤالُك واستفهامُك أجمَلُ بك وخيرٌ من السكوت على العِيِّ

---

(١) كان من خيار التابعين علماً وفقهاً وتورعاً وفصاحة توفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ

(٢) يمسك : ينهى كلامه

(٣) كان وزيراً للرشيد ثم خلفه ابنه الفضل فجعفر ثم نكبهم الرشيد فقتل جعفراً سنة ١٨٧ هـ وسجن يحيى والفضل فتوفى يحيى سنة ١٩٠ هـ فى السجن

وصية قيس بن عاصم[1]

لما احتُضِرَ قَيْسُ بن عاصِمٍ قال لبنيهِ : يا بَنِيَّ احفَظُوا عني ثلاثاً ، فلا أحدَ أنْصَحُ لكم منى : إذا أنا مُتُّ فسوِّدُوا[2] كِبَارَكُمْ ، ولا تُسَوِّدوا صِغَارَكُمْ ؛ فَيُحَقِّرَ الناسُ كِبَارَكُمْ وتهونوا[3] عليهم . وعليكُمْ بحفظ المال ؛ فإنهُ مَنْبَهَةٌ[4] للكريم ، ويُسْتَغْنَى به عن اللئيم . وإياكم والمسألةَ ؛ فإنّها آخرُ كَسْبِ الرجل

مجالسة أهل العلم

روى أبوعلى القالى[5] فى أماليه من كلام العرب ووصاياها : «جالِسْ أهلَ العلمِ ، فإن جَهِلْتَ علَّمُوك ، وإن زَلَلْتَ قَوَّمُوك ، وإن أخطأت لم يُفَنِّدُوك[6] ، وإن صَحِبْتَ زانُوك ، وإن غِبْتَ تَفَقَّدُوك[7] . ولا تجالِسْ أهلَ الجهل ؛ فإنك إن جهلتَ عنَّفُوك ، وإن زَلَلْتَ لم يُقَوِّمُوك ، وإن أخْطأت لم يُثَبِّتُوك

وصية عبد الله بن معاوية[8]

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب لابنه : أى بُنَيَّ ! إنِّى مُؤَدٍّ حقَّ الله فى تأديبك ، فأدِّ الىَّ حقَّ اللهِ فى الاستماع مِنى . كُفَّ الأذى

---

(١) هو سيد أهل الوبر فى الجاهلية وسيد بنى تميم جاهلية واسلاماً أسلم سنة ٩ ﻫ ثم رحل الى البصرة ومات بها (٢) أى اجعلوهم سادة ورؤساء (٣) يسهل أمركم عليهم أى تصغرون فى أعينهم (٤) أى مُشْعِرٌ بقدره ومُعْلٍ لشأنه

(٥) هو اللغوى الأديب الراوية رحل من المشرق الى الأندلس وحظى عند ملوك بنى أمية بها وله كتب جليلة منها أماليه توفى سنة ٣٥٦ ﻫ (٦) يكذبوك (٧) بحثوا عنك

(٨) خرج على مروان آخر خلفاء بنى أمية واستولى على فارس ثم هزم والتجأ الى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية فسجنه ومات في السجن

وأرفض البذا[1]، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشًّا؛ لأنه يرديك[2] بمشورته. واعلم يا بنى أن رأيك اذا احتجت اليه وجدته نائماً، ووجدت هواك يقظان، فإياك أن تستبد برأيك؛ فإنه حينئذٍ هواك. ولا تفعل فعلاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك، وأن نتيجته لا تجنى عليك

بُمْبَيْيه

ذكرت كتب التاريخ القديمة أنه كانت تقوم بسفح ويزوف الى الجنوب الشرقى من نابلى مدينة جميلة الدور والقصور كثيرة الشوارع والحمامات والبرك والفورات، رائقة الهياكل والملاهى والملاعب، يسكنها نحو اثنى عشر ألف نسمة. تلك هى مدينة بمبييه التى بناها اليونان قبل المسيح بمئات من السنين واستحوذ عليها الرومان فى جملة ما استحوذوا عليه من المستعمرات اليونانية

بنوها، وقد أمنوا غائلة ويزوف الذى خمدت أنفاسه قبل بنائها بعدة قرون، وما دروا أن أتون[3] جوف الأرض ما زالت تغلى مراجله[4]، وأن

---

(١) البذاء الكلام الفاحش . قصره للسجع (٢) يهلكك

(٣) هو الموقد العظيم لعمل الجير والجص وللحمامات وأفران الخبز

(٤) جمع مرجل وهى القدر الكبيرة

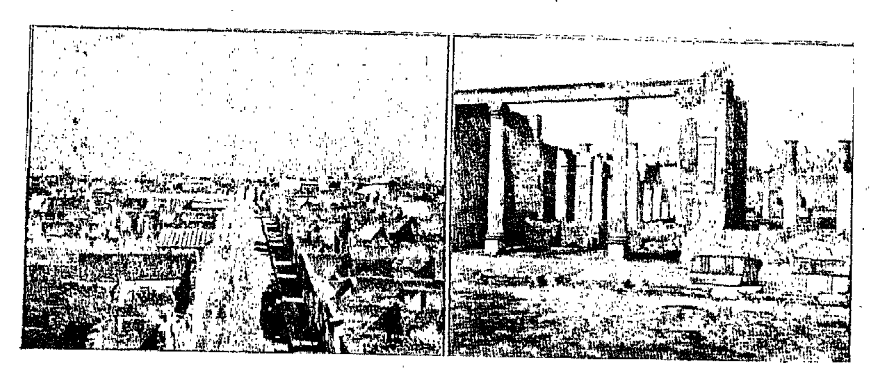
الغِطاءِ الذى طمّ أحــدَ منافذِ لهيبِهِ ليس إلاّ طُفاوةً[1] لا تلبثُ أن تطيرَ بنبْضةٍ من تيّارِ قلْبِه الخافقِ

قطنَها الرومانُ فى أزمانِ ترفِهم وبذَخِهم ولهْوِهم ولعبِهم، وشادوا فيهـا القصورَ والهياكلَ: وإنّهم لفى سَكْرتِهم يعْمَهونَ[2] إذا ويزوفُ يُنذِرُهم أنْ قدْ آنَ الرّحيلُ، ووجبَتِ الهجرةُ، فزَلْزلَهم زلْزالاً شديداً أتى بنْيانَهُم منَ القواعِدِ، فانتقَضَتِ الهياكلُ والأبراجُ، وتداعتِ القصورُ والملاهى، ولم يبْقَ بالمدينةِ إلاّ البيوتُ الصغيرةُ الأُحاديّةُ الطِبّاق. فنهتِ الدّولةُ عن تجديدِها خشيةَ كرّةِ ويزوفَ عليها. فلَبِثَتْ ردَحاً[3] منَ الزّمنِ خاويةً على عروشِها نحوَ ستَّ عشرةَ سنة؛ حتى أذِنَتْ لهُمْ ببنائِها، فجدّدوها على الطّرازِ الرُّومانىّ الحديثِ إلاّ أنّهم فى هذه المرّةِ أخذُوا بالحيْطـةِ؛ فبنَوْا دُورَها أُحاديّةَ الطِّباقِ أو ثُنائيّتَها، ومَنْ رغِبُوا فى التّعالى بنَوْا أسْفلَ المبانى بالحجارةِ وعلاليّها بالخشَبِ. وهيْهاتَ أن ينْفعَ حذَرٌ مِنْ قدَرٍ؛ فلم يكْتفِ ويزوفُ أن يأخذَهم بالرّجْفةِ فى غضْبَتِه الأخرى حتى شفَعها بكِسَفٍ من الحُمَمِ[4] والرّمادِ المُتوقّدِ والصواعقِ، فأصْبحُوا فى دِيارِهم جاثِمين كأن لم يغْنَوْا فيها

حدَثَتْ هذه الداهيةُ المُدْلهمّةُ[5] فى شهر أغسطس سنة ٧٩ م، والقومُ مُحْتشِدون فى ملهَى المدينةِ الكبيرِ مُحْتفِلون بيومِ زينةٍ غارِقونَ فى بحارٍ من اللّهْوِ واللّعِبِ؛ فلم يَشْعُروا إلاّ وقد زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزالَها، وأخرجَتْ أثقالَها تتطايَرُ من حلْقِ ويزوفَ العظيم. فانبعثَتْ منه سحابةٌ سوداءُ من

(١) ما طفا من زبد القدر (٢) يضلون (٣) مدة طويلة، لبثت خربة ١٦ سنة
(٤) الفحم (٥) السوداء

الرَّمادِ طبَّقت الافُقَ ، وتساقطَتْ عَلَى المدينةِ . فطار أهلُها من المَلْهَى سِراعاً طالبين النَّجاةَ . وبهم من الذُّعْرِ[١] ما يعجزُ القلمُ عن وصفه . ومَنْ ساعدتْهم المقاديرُ، وهم الأكثرون، نَجَوْا قبلَ أن يمُدَّ ويزوفُ رَماده بالحُمَمِ والصُّخورِ الملتهبَةِ . ومن عثَرتْ بهم جُدُودُهم[٢] ، وهم الأقلُّون، أدْرَكَتْهم كِسَفُ ويزوفَ المشتعِلةُ ، فأَصبحوا فى ديارهم جاثِمين وعَلَى الطُّرُق مُصرَّعين



منظران فى بُمْبِيَيه

وكأنَّنا بهؤلاءِ المتخلِّفين وقد ظنّ بعضُهم أن سحابةَ ويزوفَ الرَّمادية سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقشَّعُ، فالجَئُوا الى مَخادِع[٣] ديارهم، فكانَتْ مقابِرَ لهم . وقد ظنَّ آخرون أن فى استطاعتهم استنقاذَ أموالهم وجواهرِهم، فدُفِنَتْ معهم . يُعلَم ذلك من مشاهدةِ مَصارعِهم بعْدَ كشفِ الزمانِ الغِطاءَ عن مدينتهم

ظَلَّ ويزوفُ ذلك اليومَ يُمْطِرُ المدينةَ وابلاً[٤] من ناره ، فحرَّقَ طِباقَ الخشبِ ومَصاريعَ الأبوابِ والطِّيقانِ، ثم زفَر فطَمَرَ المدينةَ بطبقةٍ من الرَّمادِ

(١) الخوف (٢) حظوظهم وبخوتهم (٣) جمع مِخْدَع ومُخْدَع وهو الخزانة والبيت داخل البيت . (٤) المطر الشديد الضخم القطرات

تعلو الأرضَ بأكثرَ من عشرين قدماً . وتعدَّتْ قذائفُه المدينـةَ الى المدنِ المُجاورةِ والممالكِ المصاقبةِ؛ حتى بلغَتْ شواطئَ إفريقيَّةَ، وظنَّ الناسُ أن قد آذنَتِ الساعةُ بالقيام

سُوِّيَتِ المدينةُ بالأرض وشُغِل الناسُ بأنفُسِهم عنها، وأغفلَ خلائفُهم أمرَها، فضَلُّوا مكانَهـا، وحرَثُوا أرضَها حُقولاً ومَزارعَ قُروناً طويلةً، وأصبحتْ نَسْياً مَنْسِيّاً

وبينما كان أحدُ المهندسين يُجرى قناةَ مياهٍ سنة ١٥٩٢م الى مدينةٍ قريبةٍ منها عثَرَ على خرائبِها، ولكنَّ دولةَ الطَّلْيانِ لم تُعْنَ بكشفِها إلَّا مُنْذُ سنة ١٧٤٨م فظهَرتِ المدينةُ بدُورِها وشوارعِها وحمّاماتِها . وعرَفوا من أطلالِ المبانى وبقايا الماعونِ والآنيةِ كيف كانت معيشةُ الرومانِ ونظامُ بُيوتِهم، وعرَفوا من رُفاتِ الموْتى كيف كانت مصارعُهم، وعلى أيِّ حالٍ دهمَتْهم غاشيَتُهم[1] وحاقَتْ بهم بَلِيّتُهم

فمِنْ أُمٍّ رَءُومٍ[2] ضمَّتْ طِفلَها الى صدرِها للوَداعِ لا للرَّضاعِ

ومِنْ ربِّ بيتٍ بينَ زوجِه وأولادِه، وافَتْهم منَاياهم فى لحظةٍ، وضمَّهم من الدار قبرٌ واحدٌ

ومن اسارى صُرِّعوا والأغلالُ فى أعناقِهم والسَّلاسلُ والأَدَاهمُ[3] فى أرجلِهم، فأراحتْهم الفاجعةُ من تعذيبِ مُعْتقِليهم

ومن خيلٍ وبِغالٍ عاشتْ دهراً فى خدمةِ البشرِ، ثم هلكتْ فى جرّائِهم وساوتْهم فى مدافنِهم

---

(١) الغاشية من أسماء النار (٢) الرءوم التى تعطف على ولدها وتلزمه

(٣) جمع أدهم وهو القيد

وإذْ كان الفَعَلةُ منذُ عهدٍ قريبٍ يُفرِغُونَ شارعاً صغيراً من الرَّدْمِ والأَنْقاضِ رَأَوْا فَراغاً يحتوى عظاماً، فدعَوْا مُديرَ العملِ اليه فسكَبَ فيهِ جِصًّا مائِعاً حتى كسا العِظامَ، وملأَ الفراغَ. فلما أَزاحَ ما حوْلَه إذا بأَرْبعةِ أشخاصٍ من الجِصّ الصُّلبِ لا ينقُصُهم الاَّ الحياةُ والنُّطقُ : ثلاثِ نِساءٍ، بجانبِ إحداهنّ قِطَعُ نقودٍ وقدَحانِ من فِضّةٍ ومفاتيحُ وجواهرُ، وفى أُصبع الأخرى خاتَمُ حديدٍ، ورجلٍ مُسْتَلْقٍ على ظهرهِ، وجُرْمُوقاه[1] مشدودانِ على ساقَيْه، ولم تَزَلِ المساميرُ فى نعلَيْه، وفى يدهِ خاتَمُ حديدٍ، وفمُه مفتوحٌ، وبعضُ أَسنانِه مفقودٌ. وكان بقُرْبِ هذه المدينةِ ثلاثُ مدُنٍ، وهى «هِرْكُيولانيوم» و«رِزِينا» و«بِلنتة» نُكبت فى يوم بمبيه بمثل نكبتها. وفى خبر بمبيه ما يُغْنِى عن خبرِها

عقلاءُ المجانين

قال ابن القصاب الصُّوفىُّ : دخلتُ المارستانَ فرأيتُ فيه فتًى مُصاباً. فولِعتُ به[2]، وزدت فى الولَعِ، فأَتبعْتُه، فصاح، وقال : أُنظروا إلى شعورٍ مُطَرَّرَة[3]، وأجسادٍ مُعَطَّرة، قد جعلوا الوَلَعَ بضاعةً، والسُّخْفَ صِناعةً. فقلت له : مَنِ السخىّ؟ قال الذى رَزَق أمثالكم، وأنتم لا تساوون قوتَ يوم. قلت له : من أقلّ الناسِ شكرا ؟ فقال : مَن عُوفى مِن بَلِيّتِهِ، ثم رآها فى غيره فترك الشكرَ. فانكسَرْتُ بذلك. وقلت له : ما الظَّرفُ ؟ قال : خلافُ ما أنتم عليه

---

(١) مثنى جرموق وهو العصابة التى تشد فوق الخف (الألشين)

(٢) أى سخرتُ به (٣) من طرَّرت الجاريةُ اتّخذت لها طرة

كان فى بنى أسد مجنونٌ، فمرّ به قوم من بَنِى تَيْمِ اللهِ فعَبِثُوا به وعذّبوه، فقال: ما أعلمُ فى الدنيا قوماً خيراً من بنى تيم الله! قالوا وكيفَ؟ قال: بنو أسد ليسَ فيهم مجنونٌ غيرى، وقد قيَّدونى وسَلسلونى. وكلكم مجانين وليس فيكم مقيَّد

مرَّ بُهلولٌ[1] بقوم فى أصل شجرة، وكانوا عشرةً. فقال بعضُهم لبعض: تعالَوْا حتى نسخَرَ ببُهلول. فسمِع بُهلول ما قالوا فجاءهم. فقالوا: يا بُهلول! تَصْعَدُ لنا رأسَ هذه الشجرة وتأخذُ عشرةَ دراهمَ؟ قال: نعم! فأعطَوْه عشرةَ دَراهم، فصيرها فى كُمّه، ثم التفتَ، فقال: هاتوا سُلَّماً. فقالوا: لم يكن هذا فى الشرط! فقال: كان فى شرطى دونَ شرطِكم!

مُقَطَّعات شعرية

قال محمودُ سامى البارُودِى[2]

بادِرِ الفُرصةَ ، واحذَرْ فوتَها	فبُلوغُ العزِّ فى نَيْلِ الفُرَصْ
واغتنِمْ عُمرَك إبَّانَ الصِّبا	فهْوَ إن زاد مع الشَّيْب نقَصْ
وابْتَدِرْ مَسعاكَ ، واعلَمْ أنَّ منْ	بادرَ الصَّيدَ معَ الفجْرِ قنَصْ
إن ذا الحاجةِ إن لمْ يغترِبْ	عن حِماهُ مثلُ طَيْرٍ فى قفَصْ

---

(١) هو أبو وُهَيب الكوفى محدث زاهد مُوَسوس كان فى زمن الرشيد وتوفى سنة ١٩٠ هـ (٢) كان رئيس الوزارة المصرية زمن الثورة العرابية واشترك فيها ونفى الى سرنديب فمكث بها ١٧ سنة ثم عمى وعفى عنه وجاء مصر ومات سنة ١٣٢٢ هـ

وأجتنِبْ كلَّ غبيٍّ مائقٍ   فهْوَ كالعَيْرِ[1]؛ اذا جَدّ قَمَصْ
إنَّما الجاهلُ في العينِ قذًى   حيثُما كانَ، وفي الصدر غُصَصْ
وأختَبِرْ مَنْ شئتَ تعرِفْهُ؛ فما   يعرِفُ الأخلاقَ إلاَّ من فَحَصْ

وقال أبو اسحاق إبراهيمُ الغزّيُّ[2]

فاجعَلْ كَرَاكَ[3] إذا اعتزمتَ سُهادا[4]   بمسيرِهِ نقَصَ الهلالُ، وزادا
مَشْحُوذةً لم تَفضُلِ الأغمادا   لولا انصلاتُ[5] البيض[6] من أغمادها[7]
لولا منافعُه لكان جَمادا   وفضيلةُ الحيوانِ في حركاته
ما العمرُ إلاَّ راحلٌ، وأظنه اتّخذ الشبيبةَ للمسافةِ زادا
وتَوَقَّ فَرْطَ جِماحِه المُعتادا   لا تخلَعَنَّ عن اللسانِ لِجامَهُ
مَثْنًى، وجارحةَ الكلامِ فُرادى   فاللهُ خصَّ الإستماعَ بآلةٍ

وقال أبو نصرٍ عبدُ العزيز بنُ نُباتة السَّعديُّ[8]

حاوِلْ جسيماتِ الأمورِ، ولا تقُلْ   إنَّ المحامدَ والعُلاَ أرزاقُ
وارغَبْ بنفسِكَ[9] أن تكونَ مُقصِّرا   عن غايةٍ فيها الطِّلابُ سِباقُ

---

(١) الحمار (٢) هو ابراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي شاعر مجيد صاحب مطولات، وله ديوان اختاره لنفسه، ولد بغزة سنة ٤٤١ هـ وتصرفت به الأحوال فذهب الى المشرق ومات بين مَرْو وبلخ سنة ٥٢٤ هـ (٣) الكرى النوم
(٤) السهاد السهر (٥) تجرّد (٦) السيوف (٧) جمع غِمْد وهو قِراب السيف
(٨) هو أبو نصر عبد العزيز ابن عمر المشهور بابن نباته، ويُنْسَبُ الى سعد تميم، وعدَّ في شعراء سيف الدولة الحمداني، وله ديوان حافل توفي سنة ٤٠٥هـ ببغداد. وهو القائل:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تنوعت الأسباب والموت واحد

(٩) صُنْ نفسك

لا تشفِقنّ(١) فإنَّ يومَك إن أتى ‏ ميقاتُه لم ينفعِ الإشفاقُ
واذا عجزتَ عن العدوّ فداره ‏ وامزِجْ له إنّ المزاجَ وِفاقُ
فالنارُ بالماء الذى هو ضِدُّها ‏ تُعطِى النِّضاجَ، وطبعُها الإحراقُ

العلمُ النافعُ أمان من الفقر

قال صاحب الفرج بعد الشدّة(٢)

حدثني أبي، قال: بلغني من غير واحدٍ أن أبا يُوسفَ(٣) صحِبَ أبا حنيفة على فقرٍ شديدٍ. وكان ينقطعُ بملازمتِه عن طلب المعَاشِ، فيعود الى منزِله علَى جهْد. وكانت أُمُّه تحتالُ فيما يقتاتون بِهِ يوماً بيوم. فلما طال ذلك عليهم خرجَ الى المجلس يوماً فأقامَ فيه، وعادَ ليلاً، وطلَبَ ما يأكُلُ، فجاءَتْه بغَضَارة(٤) مُغَطَّاةٍ، فكشفها، فإذا فيها دفاترُ. فقالَ: ما هذا؟ قالتْ: ما أنتَ مشغولٌ بِهِ نهارَكَ أجْمعَ! فكُلْ مِنه ليلاً! فبكى، وباتَ جائعاً، وتأخّر من غدٍ عن المجلس، حتى احتالَ فيما أكلُوه. فلما جاءَ الى أبي حنيفةَ سأله عن سبب تأخُّرِه، فصدَقهُ. فقال: هلاَّ عرَّفْتَني فكنتُ أُمُدّكَ! ولا يجبْ أنْ تغتمَّ؛ فإنّه إن طال عمرُكَ فستأكلُ بالفِقْهِ اللَّوْزِينَجَ(٥) بالفُسْتُقِ المقشّر. قال: أبو يوسفَ: فلما خدمتُ الرَّشيدَ، واختصصتُ بِهِ قُدّمَ بحضرتِهِ يوماً

---

(١) لا تخافنّ (٢) هو القاضى المحدّث الأديب الشاعر المحاضر أبو على المُحَسّنُ ابن أبي القاسم على التَّنُوخيّ توفى سنة ٣٨٤ هـ ببغداد (٣) هو صاحب الامام أبي حنيفة ومؤيد مذهبه وأول من تلقب بقاضى القضاة توفى سنة ١٨٢ هـ (٤) صَحْفة متخذ من الطين الحرّة (٥) نوع من الحَلْوَاء شِبْه القطائف يُؤدم بِدُهن اللَّوْز

لَوْزِينَجٌ بفُسْتقٍ مقشَّرٍ، فدعانى اليها ، فحين أكلتُ منها ذكرتُ أبا حنيفة، فبكيتُ وحمِدت الله تعالى ، فسألنى الرشيدُ عن السبب فأخبرته

وروَى أيضاً فى كتابه الآنفِ الذكر قال

وجدتُ فى بعض الكتب عن الأصْمَعىّ[١] قال : كنتُ بالبَصْرة أطلُب العِلمَ وأنا مُقِلٌّ. وكان على بابِنا بدَّالٌ، اذا خرجتُ بكرةً يقولُ لى: إلى أينَ؟ فأقول : الى فلانٍ المحدِّث ، واذا عُدْت المَساءَ يقول لى من أين ؟ فأقول : من عِند فلانٍ الأخبارى أو اللُّغوىّ . فيقول : يا هـذا أقبَلْ وَصِيَّتى : أنتَ شابٌّ ، فلا تُضَيِّعْ نفسَك ، واُطلبْ معاشاً يعودُ عليكَ نفعُه ، وأعطِنى جميعَ ما عِندك من الكتب أطرَحُها فى هذا الدَّنّ ، وأَصُبُّ عليها من الماء للعشرةِ أربعة ، وأنبذُه ، وأنظرُ ما يكونُ مِنه . واللهِ لو طلبتَ منى بجميع ما لَدَيك من الكتب جوْزةً ما أعطيتُك . فيَضِيقُ صدرى بمُداومةِ الكلام : حتى كنتُ أخرُجُ من بيتى ليلاً وأدخلُه ليلاً ، وحالى فى خلالِ ذلكَ يزدادُ ضِيقاً : حتى أفضيتُ الى بيع آجُرّ دَارِى ، وَبقيتُ لا أهتَدِى الى نفقةِ يومى ، وطال شعَرِى ، وأخلَقَ ثوبى ؛ واتَّسخ بَدَنى . وَبيْنما أنا كذلك متَحيِّرٌ فى أمرِى ، إذ جاءَ لى خادِمٌ للأمير محمدِ بن سليمانَ[٢] قال : أجِبِ الأميرَ . فقلتُ : ما يَصْنعُ الأميرُ برجلٍ قد بلغ بِهِ الفقرُ الى ما تَرى . فلما رأى سوءَ حالى وقُبحَ منْظَرى رجَع ، فأخبرَ الأميرَ بخبرى ، وعادَ إلىَّ ، ومَعَهُ تخوتٌ[٣] ثِيابٍ

(١) هو الراوية الشهير توفى سنة ٢١٦ هـ (٢) من بيت الخلافة وهو محمد بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس (٣) جمع تَخْت وِعاءٌ تصان فيه الثياب

وَدُرْجٌ[1] فيه بَخُور، وليس فيه دنانيرُ. وقال: قد أمرني الأميرُ أن أُدخِلَكَ الحَمّام وأُلبِسَكَ مِن هذه الثياب، وأَدَعَ باقيَها عليك، وأُطعِمَكَ من هذا الطعام، (واذا بخِوَانٍ[2] كبير فيه صنوفُ الأطعمة) وأُبخِّرَكَ لِتَرجِعَ اليك رُوحُك ثم أُطلِعَك عليه. فسُرِرتُ بذلك سُروراً شديداً، ودعوتُ له. فقمت وعملتُ ما قال، ومَضَيتُ معهُ حتى دخلتُ على محمد بنِ سليمانَ. فسلمتُ عليه، فقرَّبني ورفعني. ثم قال: يا عبد الملك قد اخترتُك لتأديب ولدِ أميرِ المؤمنين. فاعمل على الخروج الى بابه، وانظرْ كيف يكونُ. فشكرتهُ ودعوتُ له. وقلتُ: سمعاً وطاعةً! سأُخرِجُ شيئاً من كُتُبي وأتوجَّه. فقال دَعْني وكنْ على الطريق. فقبّلت يدَه، وأخذتُ جميع ما احتجتُ اليه من كتُبي، وجعلتُ باقيَها في بَيْتٍ، وسَدَدْتُ بابَه، وأقعَدْتُ على الدار عجوزاً مِن أهلِنا تحفظُها، وباكَرَني رسولُ محمدِ بنِ سليمانَ، وأخذَني الى زَلّالٍ[3] قد اتُّخِذَ لي، وفيهِ ما أحتاجُ اليهِ. وجلَسَ معي يُنفِقُ عليَّ حتى وصلتُ الى بغدادَ، ودخلتُ على أميرِ المؤمنين، فسلمت، فردَّ عليَّ السلامَ. وقال: أنت عبدُ الملك بن قُرَيبٍ الأصمعيّ؟ قلتُ نعم! أنا عبدُ أميرِ المؤمنين ابن قُرَيب الأصمعي. قال: اعلمْ أنَّ وَلَدَ الرَّجل مُهجةُ قلبه، وثمرةُ فؤادِه، وهو ذا أُسْلِمُ اليكَ ابني محمداً بأمانةِ اللهِ؛ فلا تعلِّمْهُ ما يُفسِدُ عليهِ دِينَهُ؛ فلعلَّهُ أن يكونَ للمسلمينَ إماماً. قلتُ: السّمعُ والطاعةُ! وأخرَجَهُ اليَّ. وتحوّلتُ معهُ الى دارٍ قد أُخليت لنا لتأديبه فيها، وبها مِن أصناف الخدَم والفُرُش ما يَسُرّ؛ وأجرى عليَّ في كلِّ شهرٍ عشرةَ آلافِ

---

(١) سُفَيْط صغير تدَّخِر فيه المرأة طيبها وأدواتها (٢) كغراب وكتاب ما يؤكل عليه الطعام (٣) نوع من القوارب

دِرهم، وأمر بأن يُخرَجَ اليَّ في كلِّ يوم مائدةٌ، فلزمتُه. وكنتُ أُنفِذُ جميعَ ما يجتمع لَدَيَّ أوّلاً فأوّلاً الى البصرة، فأبني داري وأشتري ضِياعاً وعَقاراً. فأقمتُ معه حتى قرأ القرءانَ، وتفقَّه في الدين، وروَى الشِّعْرَ واللُّغةَ. وروَى أيامَ الناسِ وأخبارَهم، واستعْرضه الرَّشيدُ فأُعجِبَ بِهِ، وقال: يا عبد الملك أُريدُ أن يُصلِّيَ بالناس إماماً في يوم جُمُعةٍ، فاُختَرْ له خُطبةً وحفِّظْهُ إيَّاها. فحفظته عشْراً. فخرج وصلَّى بالناس وأنا معه، فأُعجِبَ الرشيدُ بِهِ، وأخذهُ نِثارُ الدراهم والدنانيرِ من الخاصة والعامة، وأتتني الجوائزُ والصِّلاتُ من كلِّ ناحية، فجمعتُ مالاً عظيماً؛ ثم استدعاني الرشيدُ؛ فقال: يا عبد الملك قد أحسنتَ الخِدمةَ فتَمَنَّ، فقلت: ما عَسَيتُ أن أتمنىّ وقد حزْتُ آمالي. فأمر لي بمالٍ عظيم وكُسْوةٍ كثيرة، وطيبٍ فاخرٍ، وعبيد وإماءٍ وظَهْرٍ[1] وفرشٍ وآلة فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذَن لي بالإلمام بالبصرة والكتابة الى عامله بها أن يخاطِبَ الناسَ الخاصةَ والعامةَ بالسلام عليَّ ثلاثةَ أيام وإكرامي بعد ذلك. فكتب لي عنه بما أردتُ، واُنحدرتُ الى البَصرة، وداري قد عمَرتْ، وضِياعي قد كثُرت، ونعمتي قد فَشَتْ، فما تأخَّر عنِّي أحدٌ؛ فلما كان اليوم الثالثُ تأملتُ أصاغِرَ من جاءني فاذا البدَّالُ. وعليه عمامةٌ وسِخةٌ ورداءٌ خفيف وجُبّةٌ قصيرةٌ وقميصٌ طويلٌ في رجليه جُرْمُوقان[2] فقال لي: كيف أنت يا عبدَ الملك؟ فاُستضحكتُ من حماقتِهِ وخطابِه لي بما كان يُخاطبُني الرشيدُ. فقلتُ بخيرٍ! وقد قبلتُ وصِيَّتَك، وجمعتُ ما عِنْدِي من كُتُب العِلْم، وطرحتُها في الدَّن كما أمرتَ، وصببْت عليه من الماء للعشرة أربعة فخرج ما ترى. ثم أحسنتُ اليه بعد ذلك وجعلته وكيلي

---

(١) الظهر ما يركَبُ من الدوابّ (٢) عصابة تشدّ على الخف

العمل

الجِسْمُ الحَيُّ مُتَحَرِّكٌ بطَبْعِه. وحركَتُه عملٌ يصدُر منه لحفظِ ذاتِه مدَّةً أو لِبقاءِ نوعِه ما شاءَ الله أن يَبْقَى. فالتنفُّسُ والتغذِّي وتوقِّي الحرِّ والبَرْدِ والاستكنانِ فى مأْوًى يدفعُ عوادِيَ الخليقةِ كلُّ أُولئك عملٌ لِلْحَيِّ يتفاوَتُ قوَّةً وضَعْفاً بتفاوُتِ قوةِ حياتِه وضَعْفِها. إذاً فلا معنى للحياةِ بدُونِ عملٍ

والإنسانُ الحيُّ جسمٌ عاملٌ، فبِحَسَبِ كثرةِ عملِه النافعِ وقلَّتِه تعظُمُ حياتُه أو تضعُفُ. ومعنى عَظَمَةِ الحياةِ طولُ دوامِها سليمةً من العِلَلِ مُفْعَمَةً بالسُّرورِ. فاذا أردنا أن نعيشَ مُتَمَتِّعين بهذه الحياةِ فليس لنا طريقٌ اليها الاَّ العمل

العملُ وحْدَهُ هو الذى يكفلُ لنا هـذا العيشَ الرَّغْدَ المُشْتَمِلَ على اللذائذِ والطيِّباتِ المشفوعَ بحُسْنِ السُّمْعَةِ ورضا الخالقِ. والكسَلُ لا يُورِثُنا الاَّ مَعيشةً ضَنْكاً[1] محْفوفةً بالبُؤْسِ والسآمة، مَشُوبَةً بالوَساوِسِ والأحزانِ مقرُونةً بخِذلانٍ[2] من الله ومَقْتٍ[3] من الناس

كلُّ انسانٍ يستطيعُ العملَ، ولا يُكلِّفُه طلَبُ المعيشةِ الشريفةِ عملاً فوقَ طاقتِه؛ والعملُ المُستطاعُ الدائمُ هو كلُّ ما يُطلَبُ من المرءِ ليعيشَ سعيداً فى نفسِه وعَشيرتِه وبين أبناءِ جنسه

ويُمكِنُنا استدامةُ أعمالِنا بتنظيمِ أَوقاتِنا؛ فنُعيِّنُ وَقتاً منها لِنَومِنا، ووقتاً لغِذائِنا، ووقتاً لِعبادةِ رَبِّنا؛ ووقتاً لترْويحِ نفوسِنا، وبقيَّتَها لأعمالِنا. وإن هذه البقيةَ وإنْ قلَّتْ عن ثُلُثِ اليومِ والليلةِ لَهِيَ كثيرةٌ جدًّا بطول

---

(١) ضيقة (٢) الخِذلان تركُ النُّصْرة (٣) مصدر مقته اذا أبغضه

دوامِها ؛ فإنْ نحن تغالَيْنا ، فأفرطْنا فى العملِ ، وقلَّلْنا من نومِنا وراحتِنا كانت عاقبةُ أمرِنا نَهْكَ(١) أجسادنا ، وإخمادَ عقولِنا ، وحِرْمانَ أنفسِنا القُدرةَ على استدامة العملِ ؛ وإن نحنُ توانينا فاستَطبْنا الكسلَ ، وآثرْنا النَّومَ والخُمودَ ، واعتزلْنا العملَ ، فقد تشبَّهْنا بالمَوْتى ، وتعجَّلْنا الفَناءَ وخالَفْنا قانونَ الحياةِ وهو العملُ

فالعملُ الشريفُ مُتيَسِّرٌ لنا ، وأوقاتُنا كافيةٌ له . ومن العَجْزِ والجُبْنِ أن نُبرِّرَ كسَلَنا ، ونحتجَّ لِفتُورِ همَّتِنا بإبداءِ المعاذيرِ الباطلةِ : فنشكوَ حِيناً قلةَ الوقْتِ ، وتارةً فواتَ الفُرَصِ ، وآونةً ضَعْفَ القُدْرةِ . وهيهاتَ أنْ تَقْبَلَ العقولُ السليمةُ والنفوسُ الأَبيَّةُ والطِّباعُ الحُرَّةُ هذه المَعاذيرَ المُنْتَحَلةَ(٢)

الوقتُ كثيرٌ ؛ وإنما نحنُ الذينَ نبذِّرُهُ ، ونُنفقُه بلا حِسابٍ ، ونصرفه بغَيْرِ عِوَضٍ مِنَ العملِ أو بعملٍ حقيرٍ من اللهوِ واللعبِ والهُزْءِ والسُّخْرِيةِ

والفُرَصُ سانحةٌ فى كثيرٍ من الأَحيانِ ، وإنما يهتدِى إليها العامِلون المُجِدُّون ، والأَيقاظُ المُتنبِّهون ، الذين يَبْحَثُون عنها فينتَهِزونها . أمَّا الكُسالَى المُتوانُون فهُمْ عنها غافلون وفى كهُوفهم نائمون . وإذا كانت الفُرَصُ كما يزعُمُ الكُسالَى نادرةَ الوُقوعِ فالعَمَل الدائمُ يُصادِفُها دائماً لا محالةَ . أما العملُ المتقطِّعُ فقلَّما يُصادِفُها أو تُصادِفُه . وكثرةُ مصادَفَة الفُرَصِ تُمرِّنُنا على معرفة أَمارَاتِها وبشائرِ قُدومِها ؛ فنُهَيِّئُ لها العُدَّةَ ، ونَنصِبُ لهـا الفِخاخَ

---

(١) إضعاف (٢) انتحل الشيء ادّعاه لنفسه والحق أنه لغيره أي يعتذر بما ليس فيه

والحبائلَ[١] . والعاجزُ الوَكَلُ[٢] لا يعرفُ الفُرْصةَ إلاّ إذا صادمَتْه مُصادمةً؛ فأخذَتْه فى وَجْهِها، وأجْرَتْهُ مَعَها شَوْطاً بَعيداً

والقُدرةُ الضعيفةُ مُمْكِنةُ النَّتاجِ إذا رَفَقْنا بها، واحْتَفظْنا بسلامتِها، واستعملْناها فى الوجهِ الذى تَسْتَطيعُه لخِدْمةِ أنفُسِنا وأُمَّتِنا . فكثيرٌ من المؤلِّفين والمُخْترعين والإداريين والسِّياسيِّين وأصحابِ الأعمالِ العظيمةِ قَضَوْا أكثرَ حياتِهم بَينَ مُكابَدَةِ آلامِ الداءِ وتَجَرُّعِ غُصَصِ الدَّواءِ، ولم يَمْنَعْهم مَرَضُهم عنْ أنْ يَستعمِلوا بعضَ طاقتِهم فى رفعةِ أنفسِهم وتشريفِ ملَّتِهم وتأييدِ دَوْلتِهم . وكثيرٌ من العَجَزَةِ والمَكفُوفين[٣] والعجائزِ والأراملِ يسترزقون بِبَيعِ حقيرِ البُقولِ والثِّمارِ أو حَلْوَى الأطفالِ: لأنّ نفوسَهم الأبيَّةَ تأبى أن يُريقوا ماءَ وُجوهِهم وشرفِهم فى سُؤالِ الناسِ أو خِدمةِ اللئامِ؛ إذ مَهْما كانَ العملُ الحلالُ خسيساً فالسؤالُ أخسُّ منه

وكلُّ عَمَلٍ يُنْتِجُ ولو فائدةً قليلةً لصاحبِه وأُمَّتِه عَمَلٌ شريفٌ يستحِقُّ عليْه صاحِبُه الاحترامَ والتبجيلَ أكثرَ مما يستحقُّ أولئكَ الذين يأكُلون تُراثَ[٤] المَوْتى ويحتقِرون كلَّ عملٍ إلاّ لَعِبَ المَيْسِرِ وإلاّ الاسترسالَ معَ دواعِي الشرورِ والشهَوات . والذين يحسَبون النبلَ والسُّؤدُدَ لا يَتَّفِقانِ مع الكَدِّ والعمَلِ هم قدوةٌ سيئةٌ ومِثالٌ خبيثٌ لأبنائِهم ولأهلِ بِيئتِهم . وقد يُصبِحُون إذا كثُرَ عديدُهم داءً عُضالاً فى جسمِ الأمةِ يُورِدُها مَوارِدَ الحَتْفِ

---

(١) جمع حِبالة وهى المِصيدة (٢) الذى يكِل أموره الى غيره لعجزه

(٣) العُميان (٤) ميراث

والدّمارِ . أولئِكَ هم المُترَفُون الذين تَخرَبُ القُرى والمدائِنُ بكثرتِهم ، وتَفنَى الأُمَمُ بحياتِهم .

إنّ التّرفَ والدّعةَ واطّراحَ العملِ تنهكُ الأجسادَ ، وتُفسِدُ العقولَ . فالجسدُ الذى لا تتحرّكُ أعضاؤه بالعملِ المُتعِبِ تَفتُرُ أعصابُه ، وتترهّلُ[1] عضلاتُه ، ويختلُّ نظامُ هضمِه ودورةُ دمِه ، وتتراكمُ الفضُولُ السّامّةُ فيه ؛ فلا يعودُ يقوَى على شيءٍ حتى العمَلِ الهيّنِ . ولذلك نرَى بعضَ الأطباءِ يقتصِرون فى معُالجة مَرْضاهم على المَشيِ الكثيرِ والرّياضةِ العنيفةِ

والعَقلُ الذى لم يتعوّدِ التفكيرَ ودقّةَ النظرِ تتعطّلُ مواهبُه ، فلا يَستعرِضُ إلاّ الأخيِلَةَ الفاسِدةَ ، والأمانىّ السخيفةَ ، والوَساوِسَ الشيطانيَّة

وإنّ العملَ البدَنِىّ والعقلىّ والمُشتركَ بينَهما : مِن التّجارةِ والصّناعةِ والزّراعةِ يُقوّى البدنَ ، ويُخرِجُ الفضُولَ ، ويُهذِّبُ الخُلُقَ ، ويُكسِبُ النّظامَ ، ويَطرُدُ الوَساوِسَ والاوهامَ ، ويُعوِّدُ صاحِبَه صِحّةَ الحُكمِ وبُعْدَ النظرِ والاقتصادَ فى الوقتِ والمالِ . وإنّا لَنجدُ كثيراً من عُظماءِ الرجالِ وأساتذةِ العالَم تخرّجُوا فى مدرَسةِ العملِ العُليْا ، مدرسةِ الحِرَفِ والمِهَنِ ؛ فكان أكثرُ الأنبياءِ رُعاةً للحيوانِ قبلَ أن يَصيرُوا رُعاةً للإنسانِ ، وكان أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ تجاراً ؛ وكان عمْرُو بنُ العاصِ فاتحُ مصرَ جزّاراً ، وكذلك كان فقهاءُ المسلمينَ ومُحدِّثوهم وعلماؤُهم يحترِفُون بالحِرَفِ ، ويتكسّبون بالمِهَنِ ، ويُفضّلونها على القضاءِ ومناصِبِ الدّولةِ . وكان الحَوارِيُّونَ أصحابُ عيسى عليه السلام صيّادِى سمَكٍ ، وكان قوّادُ الرومانِ زُرّاعاً يعُودون مِنْ ميادِينِ النّصْرِ ،

---

(١) تسترخى

ورؤوسُهم مُكَلَّلَةٌ بأكاليلِ الظَّفَرِ الى مَزارِعهم يَفْلَحُونها بأَيْدِيهم . ولمَّا استَخْدَموا فى الزّراعة والأعمالِ العبيدَ مِنْ أسرَى الحُروب ، واحتقَرُوا العمَلَ ، ورَكَنُوا إلى الراحةِ لم يَصبِروا على حَرّ القتال ، وبادُوا أمامَ أعدائِهم الأَشِدَّاء . وإذا قرَأْنا تاريخَ عُظماءِ الإنجليزِ وأُمَمِ أُورُبَّةَ ، وجدْنا أنَّ أكثرَهم كانوا أصحابَ حِرَفٍ وصِناعات . وليْسَ ذلك بعجيب ؛ فإنَّ العالَمَ الإنسانيَّ مَدِينٌ فى رُقيِّه وحَضارتِه لأَهلِ العملِ ، حتى أولئك الكُسالَى هُمْ مَدِينونَ أيضاً لِمُوَرِّثِيهم الذين لم يَجمَعوا ثَرْوتَهم إلاّ بالكدِّ والعملِ

إذا علِمْنا هذا علِمْنا أن أوجبَ الواجباتِ علينا هو العملُ ؛ فيَجِبُ أن نعمَلَ لأَنفسِنا بحفظِ صحَّتِنا وتَرْفيهِ[1] عَيْشِنا ، وتنميةِ مَعارفِنا ، وصيانةِ شرَفِنا

ونعملَ لغيرِنا مِنَ الأقرباءِ والبُعَداءِ ، وذلك : بتربيةِ أبنائنا وتَثْقيفِ عُقُولِهم وتهذيبِ أخلاقِهم وإعدادِهم لأَن يكونوا أبطالاً فى مَيدانِ التنازُعِ البَشَرِيِّ العظيم ، ثمَّ بترقيةِ أُمَّتِنا وجعلِها عزيزةَ الجانب ، مرفوعةَ الرأسِ بَين أُمَمِ الأرضِ ؛ فنكونُ جميعاً جنوداً لها فى الحرب وصُنَّاعاً وتجاراً وزُرَّاعاً فى السِّلْمِ ، ثم بمُساعدةِ اخوانِنا فى الإنسانيةِ بحُسنِ مُعاملتِهم وتخفيفِ آلامِ مَصائبِهم عليهم

ونعملَ للهِ مُخلِصين لَه الدِّينَ : فنُؤَدِّي شعائرَ دِينِه ، ونعملَ على تثبيته وتمكينِه

هذا وقد آن لنا بعدَ هذا أنْ يُعاهِدَ بعضُنا بعضاً على أن نكونَ جميعاً من أهل العمل النافع الصالح ، وأن نبذُلَ غايةَ طاقتِنا فى ترقيةِ نفوسِنا وتأييدِ وَطنِنا ودِينِنا

---

(١) تنعيم وتحسين

دعوة الداعي

نَسَبِي في ذُرا النَّسَبْ ... مِنْ قُدامَى[1] ومِنْ عَرَبْ

وبأخبـــارِ أُمَّتِي ... سارَ مَنْ قصَّ أو كَتَبْ

لُغَتِي دونَ غيرِها ... سَلِمتْ مِنْ يدِ النُّوَبْ

لغـــةُ الدِّينِ والدُّنا ... لغـةُ العلمِ والأَدَبْ

وبلادي بِنيلِهـــا ... تُرْبةٌ تُنبِتُ الذَّهبْ

لِمَ لا أَرْتقي وَلَمْ ... يكُ للعَجْزِ مِنْ سبَبْ ؟

أَلِمَا قِيـــلَ إنني ... لا نِظـامٌ ولا دَأَب

أو لِمَا قِيـــلَ إنَّنِي ... أطلبُ الرزقَ مِنْ كَثَب

أو لِمَا قِيـــلَ إنَّنِي ... جهلِيَ الآنَ قد غلَب

فلَئِن كان كلُّ ذا ... سبباً إنهُ العَجَب

ليسَ بي نَقْصُ فِطرةٍ ... عائقٌ لي عن الأَرَب

انمـا الأمرُ عَزْمـةٌ ... بَعْثُهـا الآنَ قد وَجب

فهَلُمُّوا الى العُـلا ... نستَعِدْ بعضَ ما ذهَب

ننشُدِ العـلمَ نافعا ... في دِيـارٍ ومُغْتَرَب

فنُرَقِّي صِناعـــةً ... مَسَّهـا الضُّرُّ والعَطَب

ونُحايِي زِراعـــةً ... لم تزلْ بَعْـدُ في وَصَب

ونُمـــانِي[2] تِجارةً ... أصبحتْ خيْرَ مُكتَسب

كلُّ صَعْبٍ مُيَسَّرٌ ... لِلَّذي جـدَّ في الطلب

---

(١) أي من قدماء المصريين والعرب الفاتحين (٢) نحييها بالتغذية المناسبة

منشأ الحياة على وجه الأرض[1]

عند ما برد سطح الأرض ، واستقرت عليها مياه البحار والغدران أصبح بطول تعرضه لضوء الشمس وحرارتها مهداً صالحاً لوجود الحياة

والحياة قابلية الجسم وقتاً ما للتغذى لحفظ شخصه ونوعه ما شاء الله أن يحفظ . وتلك القابلية إما أن تكون مع حركة وإحساس ظاهرين ، وهى حياة الحيوان ، وإما أن تكون مع حركة واحساس غير ظاهرين . وهى حياة النبات . وإذا فقد الحى الغذاء أو عجز عن تناوله واستمراء[2] نافعه وإفراز ضاره فقد الحياة لا محالة ، واستحال إلى موات

ومن هنا نعلم أن المعادن والأحجار والأبخرة والسوائل من كل ما لا يتوقف بقاؤه على الغذاء والإفراز ليست بكائنات حية ؛ وإنما هى موات

وقد نظر العلماء فى الكائنات الحية واستعملوا لرؤية دقيقها المجهر المعظم ، فوجدوا أن مياه البحار والغدران ملأى بالأحياء ، وأن بعضها أقل تركباً من بعض ؛ بل إن منها ما يقل تركبه حتى يصل الى ذرة دقيقة جداً أغلظ قواماً من الماء فى وسطها نقطة مندمجة هى نواتها ومركز حياتها وسائرها كأطراف لها ، سموها « خلية »[3] ، وهى تتغذى وتنمو بالتغذية

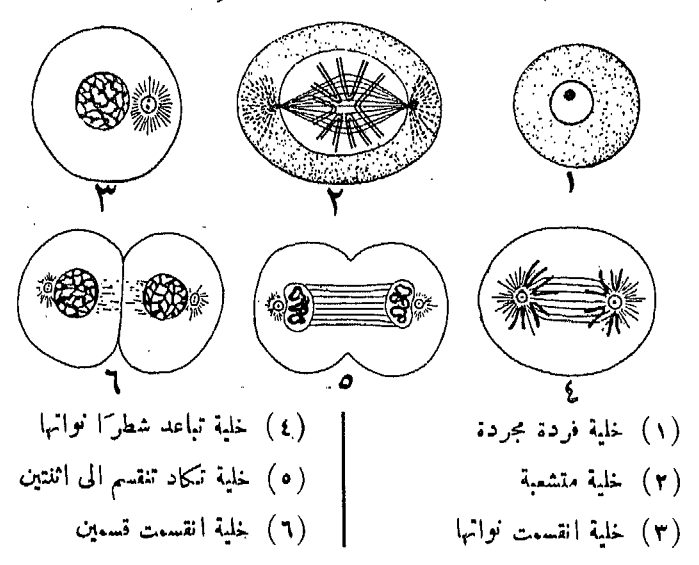
(١) اطلع على هذه المقالة حضرة الأستاذ احمد شوقى بكير بك مدرس علم الأحياء بمدرسة الزراعة العليا وأقر بصحة ما فيها من الحقائق العلمية

(٢) استمرأ الطعام وجده هنيئاً مريئاً أى نافعاً للجسم

(٣) أصل الخلية بيت النحل أطلقت على الذرة الحيوية كأنها عش للعناصر الدقيقة جداً التى يتألف منها الجسم

وبعْضُها يتكاثَرُ بطريقةٍ أَنَّ الخلِيّةَ إذا نَمَتْ أنقَسمت نواتُها وأطرافها خلِيَّتَينِ مستقلتين، ثم كُلٌّ منهما أثْنَتين، وهكذا؛ وبَعضُها يتَحرَّكُ؛ وبعْضُها لا يتَحَرَّكُ، وبعْضُها يَترَاكَمُ بَعضُه على بَعْضٍ، فيُكوِّنُ كائنًا مُرَكَّبًا حيًّا

ووجدوا من هذه الخلايا ما تكونُ مُحَاطةً بغِشاءٍ زُلَالِيّ، ومنها يتكوّنُ



(١) خلية فردة مجردة
(٢) خلية متشعبة
(٣) خلية انقسمت نواتها
(٤) خلية تباعد شطرا نواتها
(٥) خلية تكاد تنقسم الى اثنتين
(٦) خلية انقسمت قسمين

الحيوانُ، وما تكونُ مُحَاطةً بغِشاءٍ نَشَوِيّ، ومنها يتكوّنُ النباتُ؛ وتمتازُ فوق ذلك باحتوائها على المادّة الخضراء

وَوَجَدُوا أن المرَكّبَاتِ الحَيّةَ الدقيقةَ ذَواتُ أحوالٍ مُتباينةٍ أو مُتَشابهةٍ: فمنها ما يكونُ ظاهرَ الحِسِّ والحركةِ أو الأنتقالِ فى طلبِ الغِذاءِ من حَيِّزٍ[1] إلى حَيّزٍ، وهذا لَمْ يَشُكَّ العُلماءُ فى أنهُ حيوانٌ ضَئيل، ولو لم تكنْ له أَعْيُنٌ ولا أَطْرافٌ، ومنها ما يَفْقِدُ ذلك فيَقْتَنِعُ الباحِثُونَ بأنهُ نباتٌ، ومنها ما

(١) الناحية والمكان

تَتَشَابَهُ أحوالُه؛ فلا تُعْلَمُ حركتُه إن كانت اختياريةً أو بدافعٍ اضطراريٍ من الأجسامِ المحيطةِ بِهِ، فيتوقف الباحثون عن البتِّ في أمره

وقد وجَدُوا أيضاً أن جميعَ الحيوانِ والنَّباتِ: صَغيرِهما وكبيرِهما يتألَّفُ نسيجُ جسمِهِ من جُملةِ خلايا دقيقةٍ جداً؛ فالفَرْقُ بين أدقِّ جرثومةٍ حيَّةٍ وبين الفيلِ مثلاً أن الأُولَى خَليَّةٌ واحدةٌ أو خلايا قليلةٌ تَستوفي بذاتها جميعَ مطالبِ حياتها، وأن الفيلَ مُرَكَّبٌ من أُلوفِ أُلوفٍ من الخلايا، ولكنها ليستْ جميعاً مُتَشابِهةً في العَمَلِ؛ فبعضُها يُكَوِّنُ العَظمَ، وبعضُها يكوِّنُ اللحمَ، وبعضُها يكوِّنُ الشَّعرَ، وهَلُمَّ جرَّاً

فأَصْلُ الأحياءِ خليَّةٌ نشأَتْ في الماءِ بِقُدْرةِ العزيزِ العليمِ، ثُمَّ تكاثَرتْ، فكوَّنتْ أجساماً حَيَّةً، ثمَّ تميَّزتِ الأجسامُ حيوَاناً ونباتاً. وهذا يُفسِّرُ قَوْلَه تعالى «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» وَقَوْلَهُ تعالى «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ».

وكان الماءُ في بُداءَةِ الخليقةِ يغمُرُ سطحَ الأرض جميعَه. فلمّا صفا جوّ الأرض من الأبخرة، ونَفَذتْ أشعَّةُ الشمس الى ظاهرها، وانحسرَ الماءُ عن بعض بِقاعِها، رسَبَ بعضُ الكائناتِ الحيَّةِ عليها، وتنوَّعتْ بعضَ الشيء فكان منها النباتُ الأُحاديُّ الخلايا، وهو خليَّةٌ واحدةٌ تمتَصُّ غِذاءَها بنفسها، وتؤدّي جميعَ مطالبِ حياتها بذاتها كالطُّحْلُبِ[1]. ثمَّ تميَّزَ بعضُ أنواعِه وظهر له أطرافٌ ليفيَّةٌ دقيقةٌ يمتصُّ بها غِذاءَه، وهي جذورٌ ضئيلةٌ جِدًّا. ثمَّ لما اعتدلَ الجوُّ صار للنبات سُوقٌ وأوراقٌ قليلةُ التراكُبِ والتفرُّع. ثمَّ ظهر النباتُ

(١) هو الغبار الأخضر الذى يعلو سطح الماء الراكد وسطح آنية الماء من الفخّار

المتشعِّبُ الجُذورِ والسُّوقِ والأوراقِ، الخَفِيُّ الزَّهْرِ أو الخالي منه جُمْلَةً. ثمَّ فرُهَ النباتُ وعظُم لكثرة الحرارة والرطوبة وامتلاء الجوِّ بالحامض الفحميّ ومادّةِ النبات الخضراء التي يكونُ لأشعة الشمس في ظهورِها أثرٌ أيُّ أثرٍ. ثمَّ نشأ النباتُ ذو الأزهار المتنوّعة الحاملةِ للثِّمار والبُذورِ ذاتِ الفِلْقةِ الواحدةِ ثمَّ ذاتِ الفِلْقَتَين



هياكل عظمية لبعض الحيوان البائد

ولما برَدَ سطحُ الأرض وأصبح مُلائماً لحياةِ الحيوانِ ظهرَ في الماءِ الحيوانُ الضئيلُ القليلُ التركيب والحركة كالجراثيم الصغيرةِ، ثمَّ الإسْفَنْجُ والمَرْجانُ، ثمَّ الدِّيدانُ والحلازينُ[١] وذَواتُ المَحَار، ثمَّ أنواعُ السراطين والحشرات. ثمَّ ظهر الحيوانُ الفِقْرِيُّ، وأوَّلُه السَّمكُ، ثمَّ الزواحفُ التي

(١) جمع حَلَزُون: دُوَيْبَّة رخوة كالدودة تسكن صدَفة مُدَوَّرة ومنها البرية والبحرية

تنوّعتْ أنواعاً شتَّى : فكان منها أصنافُ الوَرَل[1] الهائلةُ التى تُقاسُ بعشرات الأذرع ؛ وكانت مُتَغلِّبةً على غيرها من الحيوان ، مُرَوِّعَةً له ؛ وكان منها ما يعيشُ فى البرّ ، وما يعيشُ فى البَحْر ، وما يعيشُ فيهما معاً . ومنها ذو العُنُقِ الثُّعباني . ومنها الخفافيشُ الزاحفةُ . ثمّ خلق اللهُ الطيورَ ، ثمّ الدوابَّ والوُحوشَ من الحيوانِ الثديّ ؛ فانقرضَ بعضُها وَبقِيَ بعضُها . ومن المنقرِض الفيلُ البائدُ ذو الأنياب المَلْويّة والجلدِ المكسوّ بالوَبَر الكثيفِ . ولما صار ظهرُ الأرض صالحاً لحياة الإنسان خلَقه الله فى أحسن تقويم ؛ وكفَلَ له الخلافةَ على سائر الحيوان بما وَهَبَ له من قوّةِ العقل وسُهولة الإمْسَاكِ بالاصابع

فيُعْلَمُ مِمّا تَقَدَّمَ أن أَحياءَ عَصْرنا من الحيوانِ والنَّباتِ لم تكُنْ مَخْلوقةً من قبلُ ، وأنهُ قَدْ سبقَها ما لا يُحْصَى من أنْواعِ الحيوانِ والنَّباتِ وانْقَرضَ .

وَيُثْبِتُ ذلك الأحافيرُ التى كانَتْ مَدْفونةً فى طبقاتِ الأَرض ؛ فإنّها كُلّما كانت أوْغلَ عُمْقاً فى باطن الأرض كانت أقدمَ تَكوُّناً ، وكُلّما كانت أقدمَ كانت أبْعَدَ من الأحْياءِ الحاليَّةِ

وقَدْ مَضَى على الأرض مُنْذُ ظهرتِ الحياةُ عليها أُلوفُ الأُلوفِ من السِّنين ، وَالإنسانُ الذى هو أحدثُ الأَحياءِ ظهُوراً على وَجْهِها لم يَقِلَّ مُبْدأُ ظهُورِهِ عَنْ مِائَتَىْ أَلْفِ سنةٍ . فسُبْحانَ اللهِ مِنْ إلهٍ حَكيمٍ ذَرَأَ[2] الخَلْقَ على نِظامٍ باهرٍ ، وفَطَرهُمْ على سُنَّةٍ ثابتةٍ ؛ فلَنْ تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ولَنْ تجدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً

---

(١) أصل الورل دابة من نوع الوزغ كبيرة . وفصيلة الورل كل ما كان على هذا الشكل من الضِباب والتماسيح والحرابىّ ونحوها (٢) خلَق

نجباء الأبناء

حَكى ابنُ ظَفَر الصقلّي أن الفَضْلَ[1] بنَ سَهْلٍ أرسلَ وهبَ بنَ سَعيدٍ الى فارسَ مُحاسِباً لعُمّالِها. فبلغهُ أنهُ خانَ، فعزَلَه وسَخِطَ عليه، وبعثَ بهِ إلى أخيه الحسَنِ بنِ سهلٍ لينظُرَ في أمره. فأحسَّ وهبُ بنُ سعيدٍ الشرَّ، فأوصى إلى رجلٍ مِن أهل واسطٍ ثِقةٍ مُوسِرٍ يحترفُ بالجزارةِ، ويتّجرُ في الجُلود؛ فأعطاهُ مالاً عظيماً، وضمَّ اليهِ ولَدَيْهِ الحسنَ وسليمانَ، وهما صغيران. ثم توجّهَ وهبٌ الى بَغدادَ فغرِقَ. فلما بَلغَ ذلك الوصيَّ أخبرَ بِهِ الغلامَيْن. وقال: اختارا حِرْفةً تحترفانِ بها، وأن اخترتُما الجِزارةَ وبيعَ الجُلود بصَّرتُكما بذلك. ولكما عندي مالٌ سأشتري لكما بهِ ضِياعاً تستظهران بها على أحْداثِ الزمان. فقالا: مالَنا ولِحِرَفِ العوامّ وصِناعاتِهم؟ وإنما حرفةُ أمثالِنا جَزْرُ أعناقِ الرّجالِ في القراطيس! فسمع الجزّارُ كلاماً لا عَهْدَ له بسَماع مثلِه، ورأى بَزّاً[2] ليس مِن سُوقه. فتهيّبَهُما وضمَّ إليهما من يُؤَدّبُهما، ويُصلحُ مِن شأنهما. فلما اشتدا قالا لوَصيّهما: إن واسطاً لا تفي لنا بما نَرُومُه من العلم، ونُؤَمّلهُ من الرّياسة. فقال لهما الوَصيُّ: إن مثلَكما لا يُولَّى عليه؛ فمُرَاني بأمرِكُما أُطِعْ. فقالا له: جهّزْنا الى مُعْتَرَض العلماء ومُستَقَرّ الخلفاء. فجهّزَهما إلى بَغْدادَ، ودفعَ اليهما من المال ما أحبّاهُ. (وذكر الصُّوليُّ[3] أنه دَفع إليهما مالَهما كلَّه) فلما صارَا الى بَغْدادَ نالا ما أمّلاَ مِن الرياسةِ والعِلْمِ،

(١) الفضل بن سهل والحسن بن سهل كانا وزيرين للمأمون

(٢) أصل البز الثياب وبائعه بزّار (تاجر مانيفاتورة) والمراد رأى منهما ما لا خبرة له به

(٣) هو أبو بكر محمد الصولي الشِّطْرَنجي صاحب كتاب الوزراء توفي سنة ٢٨٢ هـ

ثم كَتبا ممّا فى دار المأمون فى حال غُلُوِيَّتهما وصِغَرِ سِنّهما . ورأى المأمونُ يوماً أحدَهُما فى الدار يمشى ، فقال له : مَن أنت يا غلامُ ؟ فقال أنا الناشئُ فى دولتك ، المغتذِى بنعمتك ، المكرَّمُ بخدمتك ، عبدُك وابن عبدك سليمانُ بنُ وهْب[١] . فقال المأمونُ : أحسنتَ يا غلامُ .

ثم إن المأمونَ دعا سليمانَ بن وهب ، وهو غلامٌ ، فأمره أن يكتبَ بين يديهِ كتاباً لم يبْلُغْ قدرُه أن يَكتُبَ مثلَه . فحرَّرَه على ما أرادَ المأمونُ على أحسنِ خطٍّ وأصحِّ ضَبْطٍ وأسْهلِ لفظٍ وأجودِ معنى . فسُرَّ به المأمونُ سروراً ظهر عليه . فلما خرج سليمانُ كتب إليه بعضُ إخوان أبيه يقول :

أَبُوكَ كَلَّفَكَ الشأوَ[٢] البعيدَ كما　　قِدْماً تَكَلَّفَهُ وَهْبٌ أبو حَسَنِ
فلستَ تُحْمَدُ إنْ أَدْرَكْتَ غايتَه　　ولستَ تُعذَرُ مَسبوقاً فلا تَهِنِ

ولم تزلْ أمورُهما تَنْمِي حتى نالا الوِزارةَ . وبقيت فى أعقابهما مدّة

أمثال على ألسنة الحيوان

مثل الحزم والتردد

زعموا أنَّ غَدِيراً كانَ فيه ثلاثُ سمكات : كَيِّسَةٌ ، وأكْيَسُ منها ، وعاجزة . وكانَ ذلك الغديرُ بنَجْوَةٍ[٣] من الأرض لا يَكادُ يَقْرُبُه أحدٌ . وبقُرْبه نَهرٌ جارٍ . فاتَّفَق أنه اجْتازَ بذلك النَّهْرِ صيَّادَان ، فأبْصَرَا الغدير . فتواعَدَا أنْ يرْجِعا

---

(١) ويروى ان الذى لقيه المأمون فى دار الخلافة هو الحسن بن رجاء الذى صار بعد أحد رؤساء الكتاب (٢) الغاية والمدى (٣) مكان مرتفع

إليه بشِبَاكِهما، فيَصِيدَا ما فيه مِنَ السَّمكِ . فسَمِعَ السَّمَكاتُ قَوْلَهُما . فأمَّا أَكْيَسُهُنَّ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهما ارتابَتْ بهما، وتَخَوَّفَتْ منهما، فلم تُعَرِّجْ[1] على شيء حتى خرجَتْ من المكان الذى يَدخُل فيه الماءُ من النهر إلى الغدير . وأمَّا الكَيِّسَةُ الأخرى فإنها مَكَثَتْ مكانَها حتى جاء الصَّيَّادان . فلمَّا رأَتْهُما وعَرَفَتْ ما يُريدانِ ذهبَتْ لتَخْرُجَ منْ حيثُ يدْخُل الماءُ، فإذا بهما قد سَدَّا ذلك المكانَ . فحينئذٍ قالَتْ : قد فرَّطْتُ . وهذه عاقِبةُ التَّفْرِيطِ . فكيفَ الحِيلَةُ على هذه الحال؟ وقلَّما تَنْجَعُ حيلةُ العَجَلَةِ والإرْهاقِ[2]؛ غيرَ أنَّ العاقلَ لا يقْنَطُ مِنْ منافِعِ الرَّأْى، ولا ييْئَسُ عَلَى حَالٍ، ولا يَدَعُ الرَّأْىَ والْجَهْدَ . ثمَّ إنها تَمَاوَتَتْ فطَفَتْ علَى وَجْهِ الماءِ مُنْقَلِبَةً علَى ظَهْرِها تارَةً وتارةً على بَطْنِها . فأَخَذَها الصَّيَّادان، فوضَعَاها على الأرض بَيْنَ النَّهْرِ والْغَدِيرِ . فوَثَبَتْ إلى النَّهْرِ فنَجَتْ . وأمَّا العاجِزَةُ فلَمْ تزَلْ فى إقْبالٍ وإدْبارٍ حتى صِيدَتْ

عاقبة الشره والحرص

زَعَمُوا أنَّهُ خرَجَ ذاتَ يَوْمٍ رجلٌ قانِصٌ، ومَعَهُ قَوْسُهُ ونُشَّابُه، فَلَمْ يُجاوِزْ غَيْرَ بَعيدٍ حتى رَمَى ظَبْياً، فَحَمَلَهُ ورَجَعَ طالِباً منْزِلَهُ . فاعترضَهُ خنزيرٌ بَرِّيٌّ، فرَمَاهُ بنُشَّابَةٍ نَفَذَتْ فيه . فأدْرَكَهُ الخنزيرُ، وَضَرَبَه بأنْيابِه ضَرْبَةً أطَارَتْ مِنْ يَدِه القَوْسَ، وَوَقَعَا مَيِّتَيْنِ . فأَتَى عَلَيْهِمْ ذِئْبٌ، فَقَالَ : هَذَا الرَّجُلُ والظَّبْيُ والخنزيرُ يَكْفِينِى أَكْلُهُمْ مُدَّةً؛ ولكنْ أَبْدَأُ بهذا الْوَتَرِ فآكُلُهُ، فيكونُ قُوتَ يَوْمِى . فعالَجَ الْوَتَرَ حتى قَطَعَهُ . فلَمَّا انقطَعَ طَارَتْ سِيَةُ[3] القَوْسِ، فضَرَبَتْ حَلْقَهُ فمَاتَ

---

(١) أى لم تقف (٢) الضيق والعسر (٣) سية القوس طرفها المنحني

عاقبة فضول الكلام

زعموا أنَّ غديراً كانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ ، وَكَانَ فيهِ بَطَّتَانِ . وَكَانَ فى الغَدِيرِ سُلَحْفَاةٌ بينها وبين البطتين مَوَدَّةٌ وصَدَاقَةٌ . فاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ[1] ذلك الماءُ ؛ فجاءتِ البَطَّتَان لوَدَاعِ السُّلَحْفَاةِ ، وَقالَتَا : السَّلَامُ عليكِ ! فإنَّنَا ذاهبتان عَنْ هذا المكان لأجلِ نُقْصَانِ الماءِ عنه . فقالتْ : إنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ الماءِ على مثلى ؛ فإنِّى كأنِّى السفينةُ لا أقدِرُ عَلَى العيْشِ إلاَّ بالماءِ . فأمَّا أنْتُمَا فتقدِرانِ عَلَى العيْشِ حيثُمَا كُنْتُمَا ، فَاذْهَبَا بى معكُمَا . قالَتَا لها : نعمْ ! قالتْ : كَيفَ السَّبِيلُ الى حَمْلى ؟ قالَتَا : نأخُذُ بطرَفَىْ عُودٍ وَتَقْبِضِينَ بِفِيكِ عَلَى وَسَطِهِ ، وَنطيرُ بكِ فى الجوّ . وإياكِ إذَا سَمِعْتِ النَّاسَ يتكلَّمُونَ أنْ تَنْطِقى . ثُمَّ أَخَذَتَاها ، فَطَارَتَا بها فى الجوّ . فقالَ النَّاسُ : عَجَبٌ ! سُلَحْفَاةٌ بين بَطَّتَين قد حَمَلَتَاهَا ! فلمَّا سَمِعَتْ ذلك قالتْ : فقَأَ اللهُ أعْيُنَكُمْ أيُّها النَّاسُ ! فلمَّا فتحتْ فاها بالنُّطقِ ، وَقعتْ عَلَى الأرْضِ فماتَتْ

صبر الملوك

قال الإمامُ محمدُ بنُ ظَفَرٍ الصقَلّى فى كتابه « سُلْوان المُطاع »

صَبْرُ الملوكِ عبارةٌ عن ثلاثِ قُوًى : القوةُ الاولى قوَّةُ الحِلْمِ ، وثمرتُها العفوُ ، والقوّةُ الثانيةُ قوّةُ الكِلاءَةِ[2] والحفظِ ، وثمرتُها عِمارةُ المملكةِ ، والقوةُ الثالثةُ قوةُ الشَّجاعةِ ، وثمرتُها فى الملكِ الثَّباتُ . وأما ثمرتُها فى حُماةِ المملكة

---

(١) نَضَبَ وجفّ . (٢) مصدر كَلَأَ بمعنى حفظ

من المُقاتِلةِ فالإقدامُ فى المعارِكِ. ولا يُرادُ من المَلِكِ الإقدامُ فى المُكافحةِ؛ فإن ذلك من المَلِكِ تهوُّرٌ وطَيْشٌ وتغريرٌ[1] وإنما شجاعةُ المَلِكِ ثباتُه حتى يكون قُطباً للمُحاربينَ، ومَعْقِلاً للمُنهزِمين. وهذا ما دام بحضرته مَن يَثِقُ بذبِّه عنه ودِفاعِه دُونَه وحمايتِهِ له. فلقد ذكروا عن الفُرْس أن فِيلاً هاج فدخلَ قصرَ كِسرَى أنُو شِرْوانَ (والفيلُ اذا هاج نكِرَ سُوَّاسَه، ولم يثبُتْ له شيءٌ إلاَّ أتى عليه) قالوا: وإن ذلك الفيلَ قصَد مجلساً كان فيه كِسرَى، وكان فيه جماعةٌ من كُفاةِ أصحابه. فلما رأى الذين مع كِسرى أن الفيلَ قصَدَهم فرُّوا من المجلس، وثبتَ كسرى على سريره، وثبتَ معه رجلٌ كان مكيناً عندَه يثِقُ بثَباتِه. فقامَ ذلك الأُسْوارُ[2] بين يَدَيْ سَريرِ كسرَى، وبيده طَبَرْزِينٌ[3]. وقصده الفيلُ، فثبت له حتى غَشِيَه، فضربه بالطَبَرْزِينِ على فِنْطِيسَتِه[4] فكرَّ الفيلُ راجعاً من حيثُ جاءَ، وقد نالتْ منه الضربةُ مَنالاً شديداً، وكسرى لم يتحَلْحَلْ[5] من مَجْلسه، ولا تغيَّرَتْ هيئتُه، ولا فارقته أُبَّهَتُه. فهذه غايةُ الشجاعةِ المطلوبةِ من المَلِكِ. فإن لم يكن بحضرة الملكِ مَن يثِقُ بدَفْعه عنه حَسُنَ منه حينئذٍ أن يَذُبَّ عن نفسه: إما بالإقدام على العدوّ إن غلَبَ على ظنه الامتناعُ منهم بالإقدام عليهم، وإمَّا بانهزامه اذا أتاه ما لا قِبَلَ له به، وأشفقَ من عَطَب رعيته بهُلْكِه: كما حُكِىَ أن مُوسى الهادى كان يوماً فى بُسْتانٍ، ومعَه أهلُ بيتِه وبِطَانتُهُ، وهو راكبٌ

(١) أى مخاطرة بنفسه (٢) الأُسوار القائد من الفرس أو الرامى بالسهام منهم
(٣) الطبرزين والطبَرآلة للقتال شبه فأس الاَّ أن رأسه قائم لا مستعرض وهو المسمى (البلطة) (٤) فنطيسة الفيل ونحوه خرطومه (٥) يتحرك

على حِمارٍ ، وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من الخَوَارج جِيءَ به أسيراً . وكان الهادى حريصاً على الظفَر به ، فأمر بإدخاله . فأُدخِلَ بين رجلَين قد أَمْسَكا بيديه . فلما رأى الخارجيُّ الهاديَ جذَبَ يدَيْه من الرَّجلَين اللذَين كانا يُمسكانِه ، واْخترطَ[1] سيفَ أحدهما ووثَبَ نحوَ الهادى . ولما رأى ذلك مَنْ حَوْلَ الهادى من أهلِه وخاصَّته فروا جميعاً ، وبقى الهادى وحده ، فثبتَ على حماره بمكانه ؛ حتى اذا قرُب الخارجىُّ منه ، وكادَ يعلوه بالسيف قال الهادى : اضرِبْ يا غلامُ عنقَه . فاْلتفتَ الخارجىُّ حين سمِعَ ذلك . ووثب الهادى عن سَرْجِه ، فاذا هو على الخارجىّ ، والخارجىُّ تحته . فقبض الهادى على يَدَيْه ، واْنتزعَ منه السيفَ ، فذَبحَه به ، ثم عاد الى ظهر حِماره . وتراجع اليه خاصَّتُه وأهلُه يتَسلَّلون[2] ، وقد مُلِئُوا رُعباً وحياءً . وما خاطبَهم فى ذلك بحَرْفٍ واحدٍ . ولم يكن بعد ذلك يُفارقُه سيفُه ، ولم يركبْ الاَّ الخيلَ

وقد جلا لك هذا الخبرُ ما أَيَّدَ الله بِهِ موسى الهادى من ثبات الجأشِ[3] وأصالة الرأى وشدَّةِ الكَيْدِ[4] وشجاعة القلب والبدن (رحمه الله تعالى)

---

(١) اخترط السيفَ آستلّه (٢) تسلل آنطلق فى استخفاء أى ذهبوا اليه غير مواجهين له خجلاً منه (٣) الجَأْش فزعُ آلقلب وآضطرابه
(٤) الكيد الخديعة والمكر

حياةُ الحيوان (١)

يتكوّنُ هذا الوجودُ مِن كائناتٍ حيّةٍ وغيرِ حيّةٍ . فالكائنُ الحيُّ كلُّ ما تَعاوَرَهُ (٢) التّجدُّدُ والفَناء ، وتَوقّفَ بَقاؤُه المَوْقُوتُ على التنفس والغِذاء ؛ والحيُّ هو الحيَوانُ والنّباتُ ، وغيرُهُ هو المَواتُ : مِنَ الجمادِ والسّائلِ والصّعّادِ . ونأْتِي في كتابنا هـذا عَلَى نُبْذَةٍ يَسيرةٍ من أحوال الـكائناتِ مُبْتَدِئين بأَرْقاها وهو الحيَوانُ

الحيَوانُ كلُّ ذِي رُوحٍ . وتَمْتازُ حياةُ الحيَوان منْ حياةِ النّباتِ بالحِسِّ والحركَةِ الإِرادية لِطَلَبِ الغِذاءِ أو النّجاةِ

وإنَّ هذا العالَم الذى نَعيشُ فيهِ لَيَضُمُّ بين أرْجائِه منْ أُلوفِ أُلوفِ الحيَوان المُخْتَلِفَةِ الشُّكول والأَلوان ما لا نَكادُ نَعْرِفُ عنه شيئًا ؛ ولكنَّ اللّهَ تَعالى حَثّنا عَلَى التَّفكُّرِ فى خَلْقِ هذه الـكائناتِ لَعلّنا نَقِفُ بأنفُسِنا عَلَى بَعضِ أسْرارِ تَرْكيبِها ونُعوتِها وأَحوالِ مَعايِشها ؛ وفى ذلك ما يَكْشِفُ الغِطاءَ عن مِقْدارِ مَنزِلةِ الإِنْسان فى هذه الحَياةِ الدُّنْيا ، ويَزيدُنا إيمانًا بقُدْرةِ الخالِقِ الحـكيم ، ويُزَوّدُنا مِن الحِكْمةِ والعِبرةِ والمَوْعِظَةِ الحَسنةِ بما يُقَرّبُنا مِنَ الخَيرِ ، ويَهْدِينا سَوَاءَ السَّبيل

ويَرى النّاظرُ فى أَحوال الحيوان أنّه عَلَى كثرةِ تَعَدُّدِ أنواعِه مُؤَلَّفٌ مِنْ طوائِفَ مُتَميِّزٍ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ، يَجْمَعُ أفرادَ كلٍّ منها شَيْءٌ منَ الشَّبَهِ.

---

(١) قد اطلع على هذه المقالة حضرة الأستاذ ميخائيل فرج بك مدرّس علم التاريخ الطبعى بمدرسة المعلمين السلطانية وأقرَّ بصحة ما فيها من الحقائق العلمية (٢) تداوله

فني طائفةٍ منها يجدُ لِكلّ قدَمٍ خَمْسَ أصابعَ أو مَخَالِبَ تُقَابِلُ فى الإنسان أصابعَ اليَديْنِ والرّجلَيْنِ : كالقِرَدَةِ والكلاب . وفى أُخْرَى يجِدُ بها أرْبَعًا كالخنزير وفَرَس النهر . وفى أخرَى ثلاثًا كالكركَدَّن ، ويجد فى الحيوان المجترّ ، وهو ذواتُ الظّلفِ : مِنَ البَقَرِ والغَنَمِ ونحْوِها اثْنَتينْ(١) ، وفى ذواتِ الحَافِرِ من الخيل والحَمِيرِ واحدة . ويرَى فى غيرِها أنْ قَدِ اسْتحالَتْ أصابعُ الحيَوانِ أو مَخَالِبُه آلات طَيَرانٍ شبيهةً بالأجنحةِ ، كالخفافيش

ثمّ هُوَ يرَى منها ما تكونُ أسْنانُها مُذَرَّبَةً(٢) كأكْثرِ أكَلَةِ اللَّحمِ ، وما تكونُ أسْنانُها قَوَاضِمَ وطَواحِينَ كأكَلَةِ العُشْبِ والحُبوب ، ومِنْها ما طالَتْ ثَنَاياها ، وأُعِدَّتْ لقَرْضِ الخَشَبِ ونحوه كالجِرْذَانِ(٣) والأرانِب ، وما ليْس لَها أسْنانٌ كالضفادع ، وما طالَتْ ثناياها العليا كالفِيَلَةِ

ويَرَى مِنْها ما كُسِيَتْ جُلودُها شعَرًا كالمَعِز ، وما كُسِيَتْ صُوفًا كالغَنَم وما كُسِيَتْ وبَرًا كالإبلِ ، وما كُسِيَتْ ريشًا كالطَّيْر ، وما كُسِيَتْ حَرْشَفًا كالسَّمكِ ، وما كُسِيَتْ ذَبْلًا(٤) كالسَّلاحِفِ والتَّماسِيح ، وما كُسِيَتْ قِشْرًا كالسَّراطِينِ ، وما كُسِيَتْ صَدَفًا كذَواتِ المحار من الوَدَع والحلازين ، وما خُلِقَتْ باديَةَ الأديم(٥) كالضفادع والديدان

ويَرَى منها القَرْناءَ(٦) والجمَّاءَ ، والمُجْترَّةَ وغيرَ المُجْترَّةِ ، وما تَلِدُ وما تَبِيضُ وما تَنْقَسِمُ عَلَى نَفْسِها : مما لا يُحصِيه عَدَدٌ ، ولا يَجْلُوه نَعتٌ . فسُبحانَ خالِقِها الحكيمِ العليم .

---

(١) وعدد أصابعها الفطرية أربع بعدّ الزَّمَعتين وهما الهَنتان البارزتان فوق الظِلف

(٢) حديدة (٣) جمع جُرَذ وهو الفأر الكبير (٤) جلد السلحفاة ونحوها مما كُسِيَ بمادة قرنية (٥) الجلد (٦) ذات القرون والجماء الخالية من القرون

وقد قسَّمها العلماءُ جميعَها قِسمَين عظيمين : فِقْرِيّ وغَير فِقْرِيّ

فالفِقرِيُّ كلُّ ما له هَيكَلٌ عظْميٌّ يقومُ أَساسُه عَلَى الصُّلْب . والصُّلْبُ (ويُسَمَّى فى العُرْفِ العمودَ الفِقرِيَّ أو سِلسِلةَ الظَّهْر) مجْمُوعُ فِقار أى عِظام أُسطوانيةٍ مثقوبة الى جانب منها متُضامَّةٍ طولاً بحيْثُ يتكوَّنُ منها سلسلةٌ قابلةٌ لِلانْحِناء قليلاً أوْ كثيراً، ويمْلأُ جوْفَها نُخَاعٌ يتفرَّعُ منهُ كثيرٌ مِنَ الأَعْصاب تنقل الارادة والإحساس من الدماغ لأعضاء الجسم

وغَيْرُ الفِقرِيّ ما لَيْسَ له هَيكلٌ عَظْمِيٌّ

وتَحْتَ هذَيْن القِسْمَيْن أقسامٌ صغيرةٌ تُسَمَّى أَصْنافاً

فالحَيَوانُ الفِقرِيُّ خمسةُ أَصْنافٍ وهى : —

(١) الحيَوانُ الثَّدْيُّ — وهو الذى يَلِدُ ويُرضِعُ صِغارَهُ . ويكسو جلده شعرٌ كثير أو قليل

(٢) الطيورُ — وهى كلُّ ما كُسِيَ بالرِّيش، ولا يَلِدُ بل يَبيضُ، فالخُفَّاشُ ليس بِطَيْرٍ وإنْ طَارَ؛ لِأنَّه يَلِدُ . والنَّعامُ طَيْرٌ وإن لم يَطِرْ لأنَّهُ يَبيضُ

(٣) الزَّواحِف — وهى مِمَّا يَبيضُ ويُغَطى جلده ذَبْلٌ صفيقٌ أو رقيق

(٤) ذَواتُ الحَيَاتَيْن (المائِيَّةِ والهَوائِيَّةِ) — وهى تَبيضُ، وقَبْلَ أنْ يَكمُلَ تكوينُها تمرُّ بأطوارٍ مِنْ ضُرُوبِ الخِلْقةِ: كالضَّفادِع، وهى عارية الأَدَمَة

(٥) السَّمك — وهو يَعيشُ فى الماء، ويَكْتفِى باسْتِنشاق الهَواءِ الذَّائِبِ فيهِ بالخَياشِيم . وجلده مغطًّى بالحَرْشف ؛ فالْبالُ وفرَسُ البَحر لَيْسَا بسمَكٍ وإنْ سَبَحا فى الماءِ لأنَّهما يَتنفَّسانِ بالهواءِ الجوِّيِّ ، ولَهُما رِئتانِ ، ولا يَبِيضان بل يَلِدان

أَمَّا الحيوانُ غيرُ الفِقْرِيّ فعلى أَصْناف كثيرةٍ :

(١) مِنْها الحَيَوانُ الرِّخْوُ — ويُحيطُ بِجسمِهِ غِشاءٌ رقيقٌ يُسَمَّى البُرْنُس وهو ذوات المحار والأصداف من الحلازين والوَدع والدُّلَيْنِس (أُم الخلول)

(٢) ومنها الحيوان القِشْرى كالسراطين وجراد البحر

(٣) ومنها العناكب والعقارب ، ولها ثمانية أرجل

(٤) ومنها الحشَراتُ — وهى التى لها سِتُّ أَرْجُلٍ وأَرْبَعةُ أجنِحَةٍ

(٥) ومنها الديدان

ولِكلٍّ مِنَ الأصناف المتقدِّمةِ أقسامٌ صُغرى تُسَمَّى طبَقاتٍ تَمتازُ كلُّ طبَقةٍ منها عن الأُخْرى بفُروقٍ فى تركيبها تَقِلُّ فى الظُّهورِ عن الفُروق التى تُميِّز كلَّ صِنفٍ عن الآخرِ ؛ فمَثلاً مِنَ الطَّبقاتِ التى يتأَلَّفُ منها صِنفُ الحيَوانِ الثَّدْيِيِّ طبَقـةُ السِّباعِ المفترسةِ ، وهى تتَميَّزُ مِنْ غيرِها مِنْ طبَقاتِ الحيَوان الثَّدْيِيِّ بِشكلِ أنيابها العُصْلِ [١] وأَضراسِها الحَديدَةِ ؛ لِأَنَّ أسنانَها لم تُعَدَّ لِمضْغِ لحُومِ فَرائِسِها بل لِنَهْشِها وتَجْريدِها مِنْ عِظامِها . ومِنْ طبَقاتِ صِنفِ الحشَراتِ الخَنافِسُ والجِعْلانُ . وهى تمتاز بأَنَّ جَناحَيْها العُلْوِيَّيْنِ صُلبانِ ، ولاَ عملَ لهما إلاَّ وِقايةُ الجَناحَين السُّفْلِيَّيْن عند عدمِ اْستِعمالِهما

على أَنَّ كلَّ هذا التقسيمِ لا يَكْفِى ؛ فإِنَّ كثيراً مِنَ السِّباعِ المفترسَةِ يَختلِفُ بعضُه عن بَعضٍ مِنْ وُجوهٍ عِدَّةٍ ؛ فالضَّبُعُ مثلاً تَخْتلِفُ اختِلافاً بيِّناً عنِ الأَسَدِ كما يَختلِفُ الأسد عَنِ الذِّئْبِ ، والدُّبُّ عن الفَهْدِ

---

(١) جمع أعصَل وهو الناب الأعوج (٢) جمع جُعَلٍ وهو أبو جِعْران

الايمان بالقضاء والقدر

قال صاحب(١) كتاب عجائب الهند :

من طريف الأخبار ما حدّث به بعض أصحابنا قال : ركبتُ سفينةً من الأُبُلَّة(٢) أريدُ بَيْنُونَة(٣)، فأخذتْنا الرياحُ والأمواجُ، وزاد الأمرُ علينا حتى نزعنا ثيابنا، ولم يكن عندنا شكٌّ أنَّنا تالفون . وكان فى السفينة معنا امرأةٌ معها صبيٌّ، وكانت ساكتةً قبل ذلك . فلما اشتدَّ بنا الأمرُ أخذتْ تُرقِصُ الصَّبيّ، وتضحكُ . ولم يكن فينا فضلٌ لخطابها؛ لأنّا يئسْنا من الحياة . فلما صرنا فى الشطِّ، وأَمِنَّا الغَرَقَ قلتُ لها : يا هذه أَمَا تتَّقِينَ اللهَ عزّ وجلّ ! أنت تَرَيْنَ ما حلَّ بنا من البَلاءِ، وأنّا قد يَئسْنَا من الحياة، وتُرقِصين الصبيَّ وتَضْحَكين، أمَا خِفْتِ الغرقَ كما خِفْنا ! فقالت : لو سمِعتُم حديثى لتعجَّبْتُمْ، وما أنكرتُمْ علىَّ صبرى وتهاونى بالغَرَقِ . قلنا لها : حدِّثينا . فقالت أنا امرأة من أهل الأُبُلَّة، وكان لوالدى صديقٌ من بُنَانيّة(٤) المراكب المختلفة(٥) منْ عُمانَ الى البَصْرة . وكان إذا وردَ المركبُ الذى هو فيه من عُمانَ نزل الينا، وأقام عندنا أياماً، وأهدى الينا . واذا أرادَ الخروجَ فعلْنا مثلَ ذلك وأهدَيْنا اليه ما يُمكنُنا . وكان رجُلاً مَستوراً . فزوَّجنى أبى به، وما مضى غيرُ ثلاثِ سنين حتى تُوُفِّيَ أبى . فقال لى : قُومى حتى أحمِلَكِ الى عُمانَ فان لى بها والدةً وأهلاً، فخرَجْتُ معه الى عُمانَ . وكنتُ مع أهله بها مقدارَ

---

(١) هو بُزُرْك بن شَهْريار الناخذاه (الرُّبّان) الرامَهُرْمُزى من أهل القرن الرابع الهجرى (٢) الأبلة مرفأ البصرة (٣) بلدة بالبحرين (٤) يظهر أنهم ملاّحون يُنسبون الى بنانة : محلة بالبصرة (٥) المترددة بين البلدين

أربع سنين، وهو يختلفُ بين عُمانَ والبَصرة . ثم تُوُفِّيَ بعُمانَ بعدَ أن ولدتُ هذا الصبيَّ بخمسة أشهُر . فلما قضَيْت العِدَّةَ لم يَطِبْ لى المُقامُ بعُمان ؛ لأن مُقامى إنما كانَ بسببه . فقلت لوالدته وأهله : أُريدُ أن أرجعَ الى أهلى بالأُبُلَّة . فقالوا لى : إن أقمت عندنا قاسمناك حياتَنا ؛ فليس لنا فى الدنيا غيرُ هذا الصبيِّ . وسألونى الاقامةَ بينهم فأبيتُ . فلما عزمتُ على الخروج اشتريتُ للصبي سَريراً وَثيقاً مِن خَيْزُرانٍ ، وجعلتُ فيه ثياباً كنتُ قد جمَعتُها لى وللصَبيّ وذخيرةً كنتُ أدّخرتُها ، وغطَّيْتُ ذلك كلَّه وأحكمتُه ، وجعلتُ الصبيَّ فوقه ، وخرجتُ فى مركب يريدُ البصرة . فبينما نحن كذلك إذ أَخذَنا الخَبُّ[1] فانكسر المركَبُ نصفَ الليل ، وتفرَّقت الرُّكَّابُ والبُنانيَّةُ فى البحر ؛ فلم يرَ أحدٌ منَّا صاحبَه . وتعلقتُ بلَوحٍ من الألواح فضبَطتُه ، ولم أزل عليه الى نصف النهار من الغد حتى رآنا صاحبُ مركَبٍ مُجْتازٍ ، فجمعَ منْ الركاب نحوَ عشَرةِ أنفسٍ ، كنتُ أنا أحدَهم . وحملَنا الى مَركَبِه ، ونكَّسُوا رءوسَنا حتى قذَفْنا الماءَ الذى شَربناهُ فى البحْرِ . وسَقَوْنا أدويةً ، وعالجونا الى الغداة من الغدِ حتى رجَعتْ نفوسُنا إلينا . وأنا قد نَسيتُ ابنى لما أنا فيه ، وزال الفكرُ فيه عن قلبى . فلما كان الغدُ قال صاحبُ المركَبِ ، وأنا أسمع : انظروا هذه المرأةَ ألَها لبَنٌ ؛ فان هذا الصبيَّ الذى وجدناه يموتُ . فقالوا لى : ألكِ لبَنٌ ؟ فتذكَّرتُ الصبيَّ ، فقلتُ : قد كان لى لبنٌ ، ومع ما مرَّ بى ما أعلم أنه قد بَقِي منه شئ . فقالوا : أَبْصرِى هذا الصبيَّ قبلَ أن يموتَ . فجاءونى بالسَّريرِ ، وفيه الصبيُّ بحاله ؛ ما فتحوه ،

---

(١) هياج البحر وتيَّاره

ولا أخذوا منه شيئاً . فلما رأيته وقعْتُ على وجهي ؛ وصَرَخْتُ وغُشِيَ عليّ ؛ فرَشّوا عليّ الماءَ ، وقالوا : ما أنتِ ؟ فأفقتُ بعد ساعة ، وأقبلتُ أبكي وأضمُّ الصبيَّ فقالوا : يا هذه ما لكِ ؟ فقلتُ : هذا الصبيُّ ابني ! فقام صاحب المركَب إليَّ ، وقال : هذا ابنُكِ ؟ فأيّ شيءٍ الذي تحتَه ؟ فأقبلتُ أعُدُّ عليهم ما تحتَه ، وجعلوا يُخرجون شيئاً بعدَ شيء ؛ كأنه انما وُضِعَ الساعةَ . فما منهم أحدٌ إلاّ بَكَى بُكاءً عظيماً ، وحَمِدوا اللهَ وشكَرُوا له

فأنا التي غرِقْتُ في ذلك البحر ، وفُرِّقَ بيني وبينَ ابني ، فجَمَعَ اللهُ بيني وبينه على تلك الصورة أخافُ من هذه الرِّحلة ؟ إن كتَبَ اللهُ عليَّ الغرقَ لم ينفعني الحذَرُ !

التصوير الشمسي[1]

كان الناسُ قبل أن يعرفوا التصويرَ الشمسيَّ يُلاقون من التصوير بالأدهنة عناءً كبيراً ، ويضيّعون فيهِ زمناً طويلاً ، وكان المصوِّر يَكُدُّ قريحتَه ، ويستفرِغُ جُهْده ، ليُخرِجَ مما يُصوِّرُ مثالاً مُطابقاً له . وقلما كانت الصورةُ تُشبه الأصلَ المنقولةَ هي عنه من كُلّ وجه . وتبعُد مسافةُ الفرق اذا كان المصوَّرُ إنساناً ؛ فإنهُ لا يقوَى على الجُلوسِ أمامَ المصوِّر ساعاتٍ متواليةً دونَ أن يُحرّكَ عُضْواً . وليس معنى هذا أن السالفينَ من المُصوِّرين لم يُخلِّفوا لنا صورةً جديرةً بحسن الذكر ، ولا حقيقةً بالثناء ، فإن منهم من برَعَ وأبدع أيّما

(١) ترجمها المرحوم عبد القادر افندى حسن ونقحها المؤلف

إبداع : مثلُ رُفائيلَ[١] وَفانديك[٢] وغيرهما ؛ وإنما المقصودُ أنهُ لم يَبْلُغْ أحدٌ من هؤلاء ببراعته وحذْقِهِ ومَهارته ونُبُوغِه فى تقريب الصورةِ من أصلها ، وإخراجها على حقيقتها ، ما بلَغه المصوِّرون اليومَ باستخدام الأشعةِ الشمسية وإن كانت القيمةُ الفنيَّةُ للتصاوير اليَدَويّة أكبر حظًّا من قيمة التصاوير الشمسيةِ لأن الإبداعَ فيها يَنِمُّ عن ذكاءٍ ذاتىّ وعبْقَريةٍ[٣] شخصية جديرة بالإكبار . ولأن التصوير الشمسى يُتْقِنهُ مَنْ يقتصرُ على حفظ قواعده وَوَعْيِها وإحكام تطبيقها وإنفاذها . على أن الفطرةَ كانت أسبقَ من الإنسان الى إماطة اللثام عن هذا المخترَع الثمين ؛ لأنها تُجرِّبُه وتستخدمُه منذ خُلقت العيُونُ وكُوِّنتِ الأبصارُ ؛ إذ العينُ لا تستطيعُ أن ترَى أىَّ مرْئىّ شاخصٍ أمامَها إلاَّ إذا عكَستْ أشعّةُ الأضواء الشمسية صورةَ ذلك المرْئىّ عليها . وكذلك يفعل الإنسانُ اليومَ ، فالعينُ التى يصوِّرُ بها المرْئىّ هى الآلةُ الشمسية : يُوجِّهُها أنَّى شاء ، ثم يفتَحُ جَفْنها ، فترسِمُ فى هُنَيْهةٍ ما كان النقَّاشُ يقضى فى رَسْمِهِ الأيامَ الطوال .

وإن من آلاتِ التصوير ما يرسمُ المرءَ سائرًا فى الطريق ، والطائرَ مُحلِّقًا فى السماء ، والسهمَ مارقًا فى الهواء ، والقِطارَ مُنسابًا على الغبْراء ، دُونَ أن يُخِلَّ بإحكامِها إسراعُه ، أو يُقلِّلَ من تحقيقها تحرُّفُه

والتصويرُ ضربٌ من ضروب التفاهُم ، ووسيلةٌ من وسائل التعارُف ؛ فهو فى ذلك كالكلام إلاَّ أنهُ أبلغ وأفصحُ ، أو الكتابةِ غيرَ أنهُ أبينُ وأعمُّ ، لأن الناسَ إنما يتمُّ تفاهُمُهم باللغة بعد إحاطتهم بها عِلمًا ، والغريبُ عنها

(١) أعظم مصورى الطليان (١٤٨٥ – ١٥٢٠ م) (٢) مصور فلمنكى اشتهر فى وطنه ثم انتقل الى انجلترة فحظى عند ملوكها (١٥٩٩–١٦٤١ م) (٣) اجادة ونبوغ

لا يُجيدُ الكلام بها إلاّ بعد قتْلها بَحْثاً ودَرْساً. أما لُغـةُ التصوير فهى لُغةٌ يَفهَمُها الناسُ كلهم بفِطرتِهم؛ لِأنها تُحاكِى ما يُدْرَكُ من الأشياء فى عالَم الحِس والمشاهدة

والصورة اذا نظرتَ اليهـا نظرةً واحدةً أغنتْك عمَّا يكتبُه المُسْهِبُ فى وَصْف صاحبِها؛ ولربما قرأتَ الوصفَ المطوّلَ فلم تنطبِع الحقيقةُ فى ذِهنك، ولم ترتسِمْ فى مُخَيِّلتك بمثل ما تنقلُه اليك الصورةُ الشمسيةُ فى طرْفةِ العين

والصورةُ تُخَلِّدُ ذكرَ العظماء من الرجال، والمتميّزين من الأبطال، ليقتدىَ الخلفُ بهم فى جلائلِ أعمالهم، ويُطرِّقوا(١) لانفسهم مفاخرَ كمَفَاخرهم وذكراً كذكرهم. والصورةُ خيرُ ما ينُوب عن وُجوهِ الأقارب والأصدقاء عندَ غِيابهم؛ فهى تحفَظُ الصِّلاتِ بينهم، وتُهوِّنُ آلامَ الفِراق عليهم

وقد أُدخِلَ التصويرُ فى كثير من العُلومِ، واُستُعِينَ به على اُستجلاء غوامضِ الفُنُون، فأَتَى بالنفع الكثير، وكان له أثرٌ جليل: أُدخِلَ فى القضاء فاهتدى به ذوُوه الى تتبُّع آثارِ الجُناة الفارّين من وجهِ العَدالةِ، وتمكنوا به من القَبْضِ عليهم، وحمايةِ الناس من شرّهم. فسدَّ هذا الفنُّ فى القضاءِ ثُلْمةً ما كان يَسُدُّها الوصفُ المسْهَبُ لِملامِح الهاربين من الجانين؛ لتشابُهِ الوجوه

وأُدخِلَ فى علمِ الفَلَك؛ فصوَّرَ أجرامَ النجوم والكواكب، وبَيَّنَ حركاتِها ومثَّلَ دَوَرانَها بمساعدة المِرْقَبِ مما لم تكن تستطيعُه العينُ البشريَّةُ لطول الوقت الذى يستغرقُه رَصْدها، ولِمَا يُصيبُ العينَ من الحَسَر والكَلال فى الشخُوصِ إليها، ويُعجزُها عن تَتَبُّع سَيْرِها؛ هذا الى قصور الذاكرة فى

(١) طرَّقَ لنفسه جعل لها طريقاً الى الشىء

أغلب الأحيانِ عن ٱستعادةِ صُورها وَٱستجلاء حقائقها ووقائعها ؛ على حين أن الآلَةَ المُصَوِّرةَ كلما طالت مدةُ تعريضِها للضوء المعكوس من الصورة المنقولة زادتْ بنسبةٍ خاصة فى تجميع الضوء وتوضيح الشكل

وأُدخل التصويرُ الشمسىُّ فى علم الطب ، فأمكنَ به تصويرُ الصُّورِ المكبَّرة لِصغير الأجسام ودقيقها؛ فيكفى طالبَ هذا العلم فى كثير من الأحوال أن يتصفَّحَ صورةً مُكبَّرةً للعضو الذى يدرُسه ، وكأنه نظرَ الى حقيقته من خِلالِ قصبةِ المِجْهَر، غير أن الصورةَ الشمسيةَ لا تُكلِّفُه من العَناءِ والنَّفقة والانتباه والعناية ما يُكلِّفُه المِجْهَرُ . وقد قُرِنَتِ الآلةُ الشمسيةُ بأشعَّة «رُونْتجِن»[1] فأثبتتْ عَلَى الصُّحُفِ بواطنَ الأجسام، وأبانتْ للعين ما تحت الجلد والعَضَل من هياكل العظام

وزُيِّنتْ بالصُّور الشمسيةِ الطروس[2]، والكتبُ؛ فكانت خيرَ مُعينٍ على توضيح مُعضِلاتِ العلوم وعويصاتِ المسائل بتجسيم حوادثِ القصص

هذا الى ما يجده القارئُ فيها من اللذة والرَّغبةِ، وما تبعثُ فيهِ من المَيْل الى مُتابعةِ المطالعةِ وتتميم القراءة ، وبخاصة القارئَ الصغيرَ السن السريعَ المَلَلِ . والصورة تنقل اليك مناظرَ الأقطار النائية ومظاهر الأصقاع القاصية وأنت لم تتكلفْ عَناءَ الأسفار؛ فتصبح كمن شدَّ اليها الرِّحال، ورأى فى السعى اليها المصاعبَ والأهوال

واذا كنا نذكر للتصوير كل هذه الفوائد فلا ننسى أكبرَ آثاره ، ولا

---

(١) عالم طبعى المانى ولد سنة ١٨٤٥م وآهتدى الى الأشعة المشهورة التى نُسِبَتْ اليه

(٢) جمع طِرْس وهو الصحيفة

يفوتُنا التنويهُ بأعظمِ منافعه وهى « الخَيَالةُ » التى لم تقُم لها قائمةٌ الاَّ به ؛ إذ هى صورٌ شمسيةٌ تُؤخَذُ عن الشيء بصورٍ متعددةٍ ممثلة إياه فى حركاته وسكناته؛ ثم تُعرَضُ أمامَ الأعينِ عرْضاً سريعاً ، فتخالها متحركة، وتكاد تظنها حقيقة

مُقطَّعات شعرية

أنشودة الطالب النبيل [1]

لا رَوانى النيلُ يوماً مِنْ ظَمَا ! وتَجَرَّعت[2] زُعاقاً[3] علْقَما[4]
وعَدَانى[5] فَضْلُ آبائى الأُلَى شَرَّفُوا العُرْبَ ، وزانُوا العَجَما
إنْ طلَبْتُ العِلمَ إلْماماً ، وَلَمْ أَتَّخِذْهُ للمعالى سُلَّما
أو حَذَقْتُ العِلمَ لا أَشفعُهُ بخِصَالٍ تَتَسامَى كَرَما
أو حَمِدْتُ القولَ لا أُتْبِعُهُ بِمَقالٍ لِيَ يُتْلَى حِكَما
أو قرأْتُ الكُتْبَ أَبغِى سَبَقاً[6] فى امتحانٍ، ثمَّ أَنْسَى كلَّ مَا[7] ...
أنا لا أرغَبُ فى العَيْشِ إذا كان حَظِّى منه جهْلاً وعَمَى
كيف أَشْقَى ، والوَرَى تَسعَدُ من قَفْوِ آثارِ جُدودِى العُظَما
كيف أستأْهِلُ[8] وَصْفَ العِلْمِ إنْ لَمْ يَكُنْ لِى منه حَظُّ العُلَما :
أُكْرِمُ النَّفْسَ، وأُعْلِى مَعْشَرِى ثمَّ لا أَحرِمُ مَنْ تحتَ السَّمَا

---

(١) من نظم المؤلف (٢) شربتُ بَلْعاً (٣) الزعاقُ الماء المرُّ الغليظُ لا يُطاق شُربُه (٤) العلقمُ هنا أشدُّ الماء مرارةً (٥) تجاوزنى (٦) السبَق خطَرُ السباق : أي الجائزة . والمُراد بها شهادةُ النجاح فى الامتحان (٧) فيه اكتفاء بالموجود عن المحذوف : أي أنسي كل ما قرأتهُ (٨) اكون أهلاً : أي أستحِقُّ

حلم وآداب

قالَ أبو تمَّامٍ حبيبُ بنُ أَوْسٍ الطائيُّ الشاعر المشهور المُتَوَفَّى سنة ٢٤١هـ :

إِذا جارَيْتَ فى خُلُقٍ دَنيئًا ... فأنتَ ومَن تُجاريه سواءُ
رأيتُ الحُرَّ يجتنبُ المَخازى ... ويَحميه عن الغدْرِ الوَفاءُ
وما مِن شدَّةٍ إِلاّ سيأتى ... لها مِن بعْدِ شِدَّتها رَخاءُ
لقد جرَّبتُ هذا الدهرَ حتى ... أفادَتْنِى التجارِبُ والعَناءُ
إِذا ما رأْسُ أَهلِ البيتِ ولَّى ... بدا لهمُ مِنَ الناسِ الجفاءُ
يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقَى العُودُ ما بَقِيَ اللِّحاءُ[١]
فلا واللهِ ما فى العيشِ خيرٌ ... ولا الدّنيا إِذا ذهبَ الحياءُ
إِذا لم تخشَ عاقبةَ الليالى ... ولم تستحْيِ فاصْنعْ ما تشاءُ

فضل الغنى

قال أعرابىٌّ من باهلة[٢] :

سأُعمِلُ نصَّ العِيسِ[٣] حتى يَكُفَّنِي ... غِنَى المالِ يَوْمًا أو غِنَى الحَدَثانِ[٤]
فَلَلْمَوتُ خيرٌ مِن حياةٍ يُرَى لها ... على المرءِ ذى العلياءِ مسٌّ هَوانِ
متى يتكلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ مَقالِهِ ... وإنْ لَمْ يَقُلْ قالُوا : عديمُ بَيانِ
كأنَّ الغِنَى فى أهلِهِ (بُورِكَ الغِنى) ... بغيرِ لسانٍ ناطقٌ بِلِسانِ

(١) لحاء عودِ الشجرةِ قشرُهُ . وبه تكون حياةَ الشجرة . أى إن الانسان يكون حسن العيش مع الناس ما دام الحياء غالبًا عليه . فاذا زال زال الخير عنه

(٢) احدى قبائل العرب المضرية (٣) النصُّ السَّيْرُ السريع . والعِيس جمع عيساء وهى الناقة البيضاء (٤) الحدثان غِيَرُ الزمان ونوائبه . كنّى بها عن الموت : أى سأرحل فى طلب الرزق حتى يغنيني عن الرحلة المالُ أو الموت

سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو شَيْخُ المُسلمين ، وأوَّلُ الخُلفاءِ الراشدين ، مَوْلانا وقُدْوَتُنا أبو بَكْرٍ عبدُ اللهِ الصِّدّيقُ بْنُ أَبى قُحافَةَ عثمانَ بنِ عامِرٍ وينتهى نسبه الى تَيْمٍ أحد بطون قريش

وكان اُسْمُه فى الجاهلِيَّةِ عبدَ الكَعْبَة ؛ فسمَّاه رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عبدَ اللهِ ، وسمَّاه عَتيقاً

وُلِدَ قَبْلَ البعْثِ بنحْو ٤٣ سنة. ونَشَأَ بمكَّةَ المُكَرَّمةِ. واُحترفَ بالتِّجارَةِ كأَكْثَرِ قُرَيْشٍ ؛ وأَخَصُّ ما كان يتَّجِرُ فيه البِزازَةُ (بيعُ الثياب) . وكان صَديقاً لِرسولِ الله قبلَ البَعْثِ ؛ فَلمَّا بُعِثَ (صلى الله عليه وسلم) كانَ أبو بَكْرٍ أوَّلَ الرجالِ الأحْرارِ إسْلاماً . وأَخَذَ يُصَدِّقُ النبيَّ فى كلِّ ما جاءَ به بلا تَرَدُّدٍ ؛ فَسُمِّىَ « الصدِّيقَ » لِذلك . وأَيَّدَ الإسلامَ بمالِهِ وحُسْنِ رَأْيِهِ واُستمالةِ الناسِ إليه ؛ لأنَّه كان صَدُوقاً أَميناً لَيِّنَ الجانبِ طَيِّبَ الحَديث مُحَبَّباً إلى قومِهِ عالِماً بأيَّامِهم وأنْسابِهم ؛ فكان يجتمعُ اليه لذلك كِرامُ قَوْمِهِ . فجَعَلَ يدعو مَنْ يَثِقُ بِهِ منهم إلى الإسلامِ ؛ فأَسْلَمَ عَلَى يدَيْه عُثمانُ بنُ عفَّانَ والزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ وعبدُ الرحمَن بنُ عَوْفٍ وسَعْدُ بنُ أبى وَقَّاصٍ وطلحةُ ابنُ عُبَيْدِ اللهِ . وهؤلاءِ همُ السابقون الأوَّلون . ثم فَشَا الإسلامُ بعدَ ذلك .

وكان يَشْتَرِى المَوالىَ الّذينَ يُسْلِمُون ، ويُعَذِّبُهم أَرْبابُهم لإِسلامهم ؛ ومِنْهم بِلالُ بنُ رَباحٍ ، الذى صار بَعْدُ مؤذِّناً لرسول الله

وما زال رضى اللهُ عنه خَيْرَ صاحبٍ لِرسولِ الله حتى أَمرَ اللهُ النبيَّ بالهِجْرةِ

إلى المَدينةِ المُنَوَّرةِ ، فهاجرَ معه إليها ، وأقامَ معَه فى الغارِ ثانىَ اثْنَيْنِ . ثمَّ أقامَ بالمدينةِ ، يُصَدِّقُ رسولَ الله ويُؤَيِّدُه . وزَوَّجَه ابْنَتَه أُمَّ المؤْمِنِينَ السيِّدةَ عائشةَ (رضِيَ اللهُ عنها) . وحضَرَ معه المَشاهِدَ والغزَواتِ . ولمَّا مَرِضَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) مَرَضَ الموْتِ استخلَفه عَلَى الناسِ فى إمامةِ الصَّلاةِ ، وهىَ الإمامةُ الكُبرَى ، فكانَ ذلِكَ مِن أهمِّ الأسباب فى تَوْليتِه إمامةَ الولايةِ بعدَه . وماتَ رسولُ اللهِ فكانَ أجلدَ الناسِ لِفراقِه وأربطَهم جأْشاً وأشدَّهم تَثَبُّتاً ؛ فصار خيرَ قُدوةٍ لأَصحابِ رسولِ الله فى تخفيفِ جَزَعِهم ؛ حتى انتفعَ بذلك عُمَرُ بنُ الخطاب

ثم أظهرَ مِنَ الحَزْمِ والعَزْمِ هو وصاحِبُه عُمَرُ (رضى الله عنه) حِينَ افْتِتانِ الناسِ يَوْمَ وفاةِ النبيِّ ودُعاءِ الأَنصارِ إلى بَيْعةِ خليفةٍ منهم ومَيْلِ بنِي هاشمٍ إلى أن تكونَ الخِلافةُ فيهم مَا جَمَعَ المسلمينَ على تَلْبيةِ دَعْوته ومبايَعتِهم بالخِلافة له . فجمَعَ كلِمتَها واشتدَّ فى إنفاذِ ما كان يُريدُه (صلى الله عليه وسلم) مِن فَتحِ ممالكِ كِسْرَى وقَيْصَرَ . وأوّلُ عمله بعدَ تَوليةِ الخلافةِ إنفاذُ الجَيْشِ الذى كان رسولُ الله جهَّزَه قُبَيْلَ مرضِ الموتِ لغَزْوِ أطرافِ بلادِ الرُّومِ بقيادةِ أُسامةَ بنِ زَيْد مَوْلى رسولِ الله . فذهبَ الجيشُ وغزا أطرافَ الشامِ ، ورَجَع غانماً

ولما تنبَّأَ كثيرٌ مِن شياطينِ العربِ ، وارتدَّتْ جماهيرُهم عَنِ الإسلامِ إلاّ أهلَ المدينةِ ومكّةَ والطائفِ ، ومَنَعتِ العربُ الزكاةَ ، وهىَ من أركانِ الاسلامِ ، دعا (رضى الله عنه) المُسلِمين إلى غَزْوِهم وحمْلِهم على الإسلام وتأديةِ الزَّكاةِ ، على قِلَّةِ مَنْ بَقِيَ مُخلِصاً لِله مِنَ المُسلِمين ، وهم أهلُ المُدُنِ

الثلاث . فنصَحَه أكابرُ الصَّحابةِ ألاَّ يَهيجَ العربَ ويجمعَهم على عداوته ، ومنهم عُمَرُ وعَلِيٌّ (رضى الله عنهما) فقال : والله لوْ منَعُونى عِقالاً كانُوا يُؤَدُّونَه لِرسولِ الله لَقاتَلْتُهم عليه . فكان رأيُه أصوَبَ الآراءِ فى هذه الكارثةِ ؛ فما ساق جُيوشَه الصغيرةَ على هؤلاء المُتنبِّئينَ والمُرْتدِّينَ حتى أظهرَ اللهُ دِينَه ، وخذَلَ أهلَ الضلالِ ، ورجَعتِ العربُ الى الإسلام خاضعين نادِمينَ . فرأى أن الفُرْصةَ قد حانَتْ لتحقيق بشارةِ النَّبىِّ لِفتْحِ الممالكِ ، فجمع بِضْعةً وأربعينَ ألفَ مقاتل ممَّنْ لم يدخُلْ قلبَه رِدَّةٌ — وكان أكثرُهم من قُرَيْشٍ وثقيف — وبعَثَ بعضَهم لِغزْوِ الفُرْس وبعضَهم لغزْوِ الرُّوم . ففتحَ اللهُ عَلَى الأوَّلين اكثَرَ سِقْىِ الفُراتِ ، وعَلَى الآخرينَ مَشارفَ الشامِ وفِلَسْطِينَ حيْثُ وقع بينهم وبينَ الفرْسِ والرُّومِ من الوَقائع ما لم يفْلِحُوا بعدها فى موْقعةٍ مع المسلمين

ومات (رضى الله عنه) وجيوشُه تُحاصِرُ دِمَشْقَ ، وتُهدِّدُ المَدائنَ ، ويُجبَى إلى المدينةِ ومكةَ ثمراتُ القُطْرَيْنِ وبدَرُ الذهب والفضةِ من المملَكتين : مِمَّا حَمَلَ الناسَ على حُبِّ الغزْوِ ، ومهَّدَ للخليفةِ عُمَرَ من بعده طريقَ الفتْحِ ، وأن يسوقَ بقيةَ العربِ على الممْلكتين ، ويُتِمَّ تأسيسَ تلك الدولةِ العربيةِ العظيمةِ التى شادت من مُلْكها الضَّخْمِ فى أقلَّ من قَرْنٍ ما لم تَشِدْه دَوْلةٌ قبلَها ولا بعدَها ، ونشرَتْ من الدِّين والعُلوم والفُنونِ فى الأرض ما جعلها مِن أكرمِ الأُمم أثراً ، وأمجدِها تاريخاً وأشرفِها ذِكْراً

فعَلَ كلَّ ذلك أبو بَكرٍ فى أقلَّ من ثمانيةٍ وعشرين شَهْراً ؛ فكان بذلك المُجَدِّدَ لِدِين اللهِ والمؤسِّسَ الأوَّلَ لدَولةِ الإسلامِ . فجزاه اللهُ عن المسلمين خيْرَ الجزاء .

وتُوفىَ (رحمه الله) بالحُمَّى لِثمان ليالٍ بَقِينَ من جُمادَى الآخرةِ ليلةَ الثلاثاء سنة ١٣ هـ . وأوصَى أن يُكفَّنَ فى ثَوْبَيْهِ — وقال : الحَىُّ أحْوَجُ الى الجديدِ من المَيّتِ — وأن يَرُدَّ أهْلُه ما أخذَه من بيتِ المالِ نفقةً له مُدَّةَ ولايتِهِ ، ونزَلَ لبيْتِ المالِ فى مقابل هذا النفقة عن حائطٍ (بُستانٍ) كان له . وكان له من الفَىْءِ[1] عبدٌ يخدُمُه وبَعيرٌ يَسْتَقِى عليهِ ، فأوصَى برَدِّهما الى بيتِ المالِ ، فقبلَهما عُمَرُ

وكان (رحمه الله) أبيضَ خفيفَ العارضين أقْنَى غائرَ العيْنَين ، مَقرونَ الوَجْهِ[2] ، نحيفاً يخضِب بالحِناء والكَتَم[3]

الشجاعةُ أمانٌ لصاحبها

روَى صاحبُ كتابِ الفرج بعد الشدّة عن رجل كُرْديٍّ شجاعٍ يُعْرفُ بأبى على كان قد انحازَ إلى عِمْرانَ بن شاهين الكُرْدِى — وهو فاتكٌ يقودُ طائفة من اللصوص اشتهرَت بقطع الطريق فى جبال الكُرْدِ — قال : خرجْنا مَرَّةً بالجبال فى أيام مَوسِمِ الحج ، وعدَدُنا سبعون رجلاً من فارسٍ ورَاجلٍ ، فاعترَضْنا الحاجَّ الخرَاسَانيةَ . وكان لنا عَينٌ[4] من القافلة ، فعادَ وعرَّفنا أن فى القافِلة رجلاً من أهل شَاشٍ[5] وفَرْغانَةَ معه اثنا عشر جملاً وجارية فى قبَّة[6] عليها حَلْىٌ ثقيلٌ . فجعلنا أعيُنَنا عليه حتى وَثَبْنا عليه ، وهو

(١) غنائم الحرب (٢) أى ليس بعريض الوجه (٣) الكتم نبات يُخلَط بالحِنّاء ويُخضَبُ به الشعر فيبقى لونه (٤) العينُ الذى يبعث ليتجسس الخبر (٥) بلدة من بلاد ما وراء النهر (ببلاد التركستان) وفرغانة مدينة وكورة تسمى باسمها فى هذه النواحى (٦) هَوْدَج كالقبة

والجاريةُ فى عَمَارِيَّة[1] فقطعنا قِطَارَه، وكتَّفناه وأدخلناه وما معه بين الجبال، ووقفْنا عَلَى ما معه، وفرِحْنا بالغنيمة. وكان للرجل بِرْذَون[2] أصفرُ يساوى مائتَىْ دِرهم، فلما رآنا نريد القُفُولَ[3] قال: يا فِتْيانُ! هنَّأكم الله بما أخذتم! ولكنَّنى رجلٌ حاجٌّ بعيدُ الدّار؛ فلا تتعرضوا لسُخْط الله بمنْعِي من الحجّ، فأما المالُ فيَذهبُ ويجىءُ، وتعلمونَ أنهُ لا نجاةَ لِي إلاَّ عَلَى هـذا البِرْذَون فأتركوه لِي، فليس يَبِينُ ثمنُه فى الغنيمة التى أخذتموها. فتشاوَرْنا. فقال شيخ مُجرِّب: لا تردّوه عليه، واتركوهُ مكتوفاً هنـا؛ فإن كان فى أجله تأخير فسَيُقَيِّضُ[4] الله له من يَحُلّ كِتافه — فكنتُ فيمَنْ عزَم عَلَى هذا — وقال بعضُنا: ما مقدارُ دَابةٍ بمائتى دِرهم حتى نمنعَها رجلاً حاجًّا؟ وجعلوا يرققونَ قُلوبَ الباقين حتى سَمَحْنا بذلك، فأطلقْناه، ولم نَدعْ عليهِ إلاّ ثوباً يَسْتره. فقال: يا فتيان! أنتم منَنْتم علىّ ورَدَدْتم دَابّتى، وأخشى اذا أنا سِرتُ أن يأخذها غيرُكم؛ فأعطونى قوسى ونُشَّابى أذُبُّ بها عن نفسى وفرسى، فقلْنا: لا نَرُدُّ سلاحاً على أحدٍ. فقال بعضُنا لبعض: وما مقدارُ قوسٍ ثمنُها دِرهمان؟ وما نخشَى من مِثل هذا؟ فأعطيناه قوسَه ونُشَّابَهُ، وقلنا: انْصرِفْ. فشكَرَنا وَدَعا لنا، ومضَى حتى غابَ عن أعيننا. فما كِدْنا نَسيرُ، والجاريةُ تبكى؛ حتى كرَّ الرجل راجعاً، وقال: يا فتيان! أنا لكم ناصحٌ؛ فإنكم قد أحسنتم الىَّ، ولا بُدَّ لِي مِن مُكافأتكم عَلَى إحسانِكم بنصيحتى لكم. فقلنا: ما نصيحتُك؟ فقال: دعُوا ما فِى أيديكم وانصرفوا سالمين بأنفُسِكمْ، ولكم الفضل؛

(١) العمارية نوع من الهوادج (٢) فرس تركى (٣) الرجوع — أى نريد أن نتركه مكتوفاً (٤) يقدّر

فإنكم مَنَنْتُم على رجلٍ واحدٍ، وأنا أمُنُّ على سَبْعينَ رجلاً منكم . واذا به قد انقلبتْ عيناه فى أمّ رأسه ، وخرجَ الزّبَدُ عَلَى أشداقِه كالجَمل الهائج. فهزأْنا به وضحِكْنا . فأعادَ علينا النصيحةَ فقال : يا قومُ ! قد مَننتُ عليكم، لا تجعلوا لى على أرواحِكم سبيلاً ! فزادَ غيْظُنا منه ، فقصَدْناه وحَمَلْنا عليه ، فانحازَ عنا ، ورمَى خمْسَ نُشَّاباتٍ كانت بيده ، فقتل بها منّا خمسةَ رجال وأخذ خمسَ نُشَّاباتٍ أُخَر ، وقال : إن جماعتَكم تموتُ على هذا إن لم تُخَلّوا ما فى أيديكم . فلم نزل نُدافِعه ، ويقتُلُ مِنا حتى قتلَ خمْسِين رَجلاً ، وبَقِى معه بعضُ النُّشَّابُ فى جَعْبَته. ثم قتل منا جماعةً آخرينَ . فاضطرِرْنا الى أن ترجَّلْنا. فحازَ دَوَابَّنا وحدَه وساقَها قليلاً ، ثم رَجَعَ وقال: من رمى بسلاحه فهو آمن ، ومن تمسّك به فهو أبصرُ بنفسه . فرَمَينا سِلاَحنا . فقال : اذهبوا آمنين ، وأخذ جميعَ السّلاح والدّوابّ . وفاتَتْنا الغنيمةُ والخيلُ والسلاحُ . وكان ذلك سببَ توبتى عن قطع الطريق أنفةً لِمَا لحقنى منه ، وأنا على ذلك الحالِ الى اليوم

العصر الحجرى والعصر المعدنى

من أعجبِ مُشْتَهيَاتِ الإنسانِ وأبلغِها فى إدخال السرور على قلبه مَعْرفتُه بأخبار السابقِينَ الأوَّلينَ من بَنى جنسه ، ووقوفُه على مَعيشةِ أوّلِ من عَمَروا الأرضَ منهم ، وكيف كانوا يَحتالون لمُقاوَمةِ عوادِى الخليقة : من حَرّ لافح[1] وَبَرْدٍ قارس[2] ، وسَبُعٍ[3] ضارٍ ، وعَدُوٍّ مُفاجئٍ ، على ما هم عليه من ضَعْفِ قُوَّة

---

(١) محرق (٢) شديد (٣) كلّ ما يفترس ويأكل فريسته من حيوان البر والبحر يسمى سبعاً

ورقةِ بَشَرةٍ، وتجرُّدٍ من الأصواف والأوبار والأشعار والحَراشِفِ[١] التي يتدثَّر[٢] بها غيرهم من الحيوان

لا شكَّ أن أفصحَ لسانٍ يُنبئُنا عن حالهم هو ما دوَّنوه في كُتُبهم ونقشوه على جُدْران مصانعِهم ومعابدهم . وهيهاتَ أن تُخبرَنا الكتابةُ بأبعدَ من خمسةِ آلافِ سنةٍ. وليست هذه الخمسةُ الآلافِ إلاَّ حَلْقةً من سلسلةِ حياةِ الجنس البشريّ الطويلةِ. فهل وَقفَ الإنسانُ جامداً في بَيْداء القِدَم ومَجاهلِ التاريخ ، وهو ذلك المخلوقُ العجيبُ الذي أودعَهُ الله من قُوَّة النظرِ واستنباط المجهول من المعلوم ما أودَعه ؟ كلاَّ ! إنه بعْدَ أن فاتَتْه قراءَةُ أسفار الإنسانِ لم تَفُتْه قراءةُ سِفْر الخليقة والآثار ؛ فنقَّب وبحَثَ ، واستخرج خبايا الأرض ودفائنَ الرُّموس[٣] وودائعَ المغاورِ والكهوف ؛ حتى وقف على كثيرٍ من أحوال معيشة الإنسان الفطرية ، وكيفَ توالتْ عليه الأطوارُ ، وتعاقبت الأعصار ؛ حتى انتهى بِهِ الزمانُ الى عصر التاريخ

ويَظهَرُ مِن تتبُّع آثار الإنسان أن أوّلَ ما استعانَ بِهِ على تذليل صِعاب الحياةِ الآلاتُ الحادَّةُ ليصطادَ بها من الدَّوابِّ ما يأكُلُه ، ويَدْفَعَ بهـا مِنَ السِّباعِ والأَناسِيّ[٤] ما يفْتِكُ بِهِ . فوجَد أن بَعْضَ شظَايا[٥] الصخورِ والعِظامِ وفُروعَ الأشجار وقرون البقر والأوعال[٦] تقوم بحاجته ؛ غيرَ أنّ كثيراً

---

(١) جمع حَرْشَف فلوس السمك وقشره (٢) أي تكون له كالدِّثار وهو ما فوق الشِّعار من الثياب (٣) جمع رَمْس وهو القبر (٤) جمع إنسيّ وهو الواحد من بني آدم (٥) جمع شَظِية وهي الفِلقة من الصخر (٦) جمع وعِل وهو دابة من صنف الغزال أضخم منه ولها قرون عظيمة

منها لا يَفِي بها إلاّ بَعْدَ شَيْءٍ من التهذيب والتحسين ؛ فاُستعملَ بعضها فى إصلاحِ بعض حتى أصبحتْ عامَّةُ آلاتِ قِتاله وصناعتِه من الظُّرّان[١] والعِيدانِ . فاُتَّخَذَ من الظُّرّانِ أشباهَ سكاكينَ وسيوف، وصَنَعَ أسِنَّةَ رِماحٍ ونُصُولَ سِهامٍ ورُءوسَ فُئُوسٍ وقَواديمَ ومَثاقِبَ يُرَكِّبُ بعضَها فى أطرافِ الهَراوَى[٢] والقُضبان، ويَرْبطُها بسُيورٍ من جُلود الحيَوان . ورُبَّما اُستعانَ عَلَى نَقْرِ سُوقِ الأشجار الغليظة بوَضْعِ الجَمْرِ عَلَى مَكانِ النَقْرِ حتى يَحترقَ ما تحتَه بِقَدْرِ ما يُريدُ وأَتمَّ النقر بالظُّرَرِ ؛ فكان أحدُهم اذا شاءَ أن يصنعَ زَوْرقاً عمَد الى ساقِ شجرةٍ، فقطعَه بالحَرْقِ والنَّقْرِ، وجَوَّفَ جانباً منه كذلك

ويُسْتَدَلُّ عَلَى هذا بما عثَرَ عليه المنقِّبُونَ فى ناحيةٍ من نواحى بَرْطانيا مِنْ قارِبٍ تَعلوه آثارُ إحراق، وفيه رأسُ فأسٍ مِنَ الظُّرَرِ

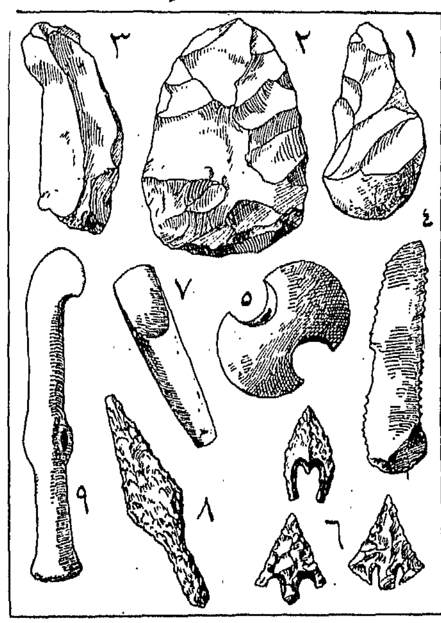
وما زال المتوحشون فى جزائر المحيط الهادى ينحَوْنَ هذا النحوَ إلى يومنا هذا . وعُثِرَ فى جنوبىّ إيقوسيا عَلَى هيكل رجُل فى تابوت ردىءِ الصناعة ذِراعُه مُنفصِلَةٌ من كتفه، وقد نَشِبَتْ فى العَظْمِ المُهَشَّمِ شَظِيَّةٌ من الصَّوّانِ. فلا بُدَّ أن هذا الشخصَ أصابته ضَرْبةٌ شديدةٌ بفأسِ ظِرٍّ من يد رجلٍ أيِّدٍ[٣] قوىّ الساعد . وقد مضى على ذلك الحادث أُلوفُ السنين ونطق ذلك الظِرُّ الصامت بخبره بأجلى بيان . وإن من البقاع ما وُجِدَ فيه أُلوفٌ من أمثالِ هذه الآلات : مما يَدُلُّ على أنها كانت ميادينَ لملاحمَ عظيمةٍ

ومن المُخَلَّفاتِ الحَجرِيةِ التى عُرِفَ بها طَرَفٌ من أصول مُلك الغابرين

---

(١) جمع ظُرَر : وهى الحجر له حدٌّ كحدّ السِّكّين (٢) العِصِىّ الغليظة
(٣) شديد القوّة

وأركانِ دياناتِهم ما وُجِدَ فى قبورِهم ونواويسِهم : من نِصالِ السهام ، وأَسِنَّةِ الرِّماحِ التى بَلِيَتْ قُضبانُها لِتقادُمِ العهد عليها . والمظنونُ أن هذه الآلاتِ كانت تُودَعُ قبرَ الميّتِ لأعتقادِهم أنهُ سيُبعثُ من مَرْقَدِه ، فيلقى عالماً حافلاً بالصيّدِ مزدحماً بالمنافسين والأعداء ؛ فلا يَلْقَى عناءً فى إعدادِ آلاتٍ جديدة لذلك . وفى دار العادِيّاتِ بالقاهرة حُجرةٌ ملأى بأنواع الظُّرّانِ



بعض آلات من العصر الحجرى
١ و ٢ و ٣ آلات قطع فى الطور الاول .
٤ - ٩ آلات مهذبة فى الطور الثانى منها: —
٤ منشار — و ٥ طبر — و ٦ رءوس سهام — و ٧ ازميل
و ٨ رأس حربة — و ٩ مطرقة ومقطع

ولقد غبرَ الإنسانُ دُهوراً طويلةً وهو على هذه الحال التى لا تُؤَدِّى إلى تغييرِ عادة ، ولا تَهْدِى إلى طريق حَضارةٍ ، حتى عثَرَ فى بعض بُحوثِه على بَعضِ قِطَعٍ من المعادن ، فأستعملَها أستعمالَ الظِّرّانِ بالطَّرْقِ والدّقِ . ويُظَنُّ أن قد سقطتْ منه مرّةً قطعةٌ سَهْلَةُ الأنصهار كالقَصْدِيرِ والنُّحاس فى نارٍ مُتأجّجةٍ فأنصهرت ، ثم بَعْدَ خُمودِ النار جَمَدتْ وتَشكَّلَتْ بشكلٍ آخرَ ؛ فاهتدَى بذلك الى صَهْرِ المعادن . ثم خلَطَ القَصْديرَ بالنُّحاسِ فنتَجَ منهما مَعْدِنٌ أصلبُ مِنْ كِليهما . وهو الشَّبَهُ (البرُنْز) ؛ فأنْفتَحَ أمامَه بابُ العصرِ المَعْدِنِىّ . وتَوسّعَ فى أستعمالِ الآلاتِ المعدنيةِ والحُلِىّ مِنَ الذَّهبِ والفِضةِ وأستكثرَ منها ، وتعدَّدَتْ صناعاتُه ومَرافِقُه ، فقطعَ بذلك أوّلَ مَرْحلةٍ مِنْ

طَريق الحَضارةِ والعلم . فقطعَ بالمعادن الأحجارَ ونَحَتَها وبَنَى منها بُيوتاً وَمَصَانِعَ بدَلَ الكهوفِ والمغاورِ والأكواخ ، وقطعَ الأشجارَ، فاتَّخَذَ منها سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً وكَراسيَّ وأخوِنةً وموائدَ وصناديقَ وخزائنَ

وتأخَّرَ الإنسانُ فى استعمال الحديد لصُعُوبةِ صَهْرِهِ وشِدَّةِ اختلاطِه بغيره . ولَمْ يُذَلِّلْ هذه الصُّعوبَةَ إلاَّ بَعْدَ أن وقَف على كثيرٍ من أسرار الطبيعة، وتَهيَّأَ له بناءُ الأتاتين[1] الكبيرة، فصَهَرَهُ واستبدلَه بالشَّبَهِ وغيره فقطعَ به المَرْحلة الثانيةَ من طريق تَمَدُّنِه

ولقدكان الرُّقِيُّ الذى أحدَثَهُ استعمالُ المعادن فى الصِّناعاتِ مَقْروناً بالتقدم فى كثيرٍ من شؤون الإنسانِ الحَيَويَّةِ ، وأغراضه الاجتماعيَّة ، وعاداتِه القَوْمِيَّة ، وعقائده الدينية . ولَبِثَ فى هذه المَرْحلةِ أُلوفاً من السنين؛ حتى كشَفَ أسرارَ البُخَار والكَهْرَباء والمَغْنَطيسِ والأثير، فقطع المَرْحلةَ الثالثة ؛ ثم طار فى السماء، وغاص فى الماء، وخاطبَ السُّفُنَ الماخرة فى لُجَج البحار. ولا يدرِى إلاَّ اللهُ كَمْ بَقِيَ له من المَراحلِ فى طريق حياتِهِ الدنيا

وفاءُ السَّمَوْءَل

من أقوالهم : الوفاءُ ضالَّةٌ[2] كثيرٌ ناشدُها[3] ، قليلٌ واجدُها، وقالوا : الوفاءُ من شِيَمِ الكرام، والغَدْرُ من خلائق اللئام . وقالوا : اذا تُرِكَ الوَفاءُ نزلَ البلاءُ

---

(١) جمع أتُّون وهو الموقد العظيم للحمام والجير ونحوهما

(٢) أصل الضالة الناقة التى تضِلُّ عن صاحبها (٣) طالبها

ومن الأمثال فى ذلك « أوفَى من السَّمَوْءَل » وهو السموءَلُ بن عادِياءَ اليهوديُّ صاحبُ قصرِ تَيْماءَ[١] المُسمَّى بالأبلقِ الفَرْد

ومن خبرِه أن امرأَ القَيْسِ الشاعرَ المشهورَ كان قاصداً الشامَ ليخرج منها الى قيصرَ يستنجدُ به على أعدائه . فأَوْدعَ السموءَلَ أدراعَه[٢] وكُراعَه . فمات امرؤُ القيس بأَنْقِرَة[٣] . فقصدَ السموءَلَ الحارثُ بن أبِي شِمْرٍ الغسّانى يطلُبُ منه ما كان أودعَه امرؤُ القيس عندَه ، فأَبَى أن يُسَلِّمها له ، وتحصَّن فى قصره وكان حصناً مَنيعاً لا يُنال . فقالَ : إن لم تُسَلِّمْها ذبحْتُ وَلدَك (وكان قد أسرَه عندَ نُزوله على القصْرِ) فقال : أجِّلْنى الليلةَ . ثم جمعَ أهلَه ، واستشارَهم ؛ فكلٌّ أشارَ بأن يدفعَ اليه ما طلبَه منه . فلما أصبحَ قال له : ليس إلَى دَفْعِها سبيلٌ . فافعلْ ما بَدَا لك ! فذبَحَ الملكُ ولدَه ، ورَحلَ عنه . ثم إن السَّموْءَلَ وافى المَوْسِمَ[٤] بالأدْراعِ فدفعَها لوَرَثةِ امرئ القيس

وفيه يقولُ الأعشى يُخاطِبُ شُرَيحَ بن السموءَل بن عادِياءَ من أبيات :

كُنْ كالسموءَلِ إذطافَ الهُمامُ به[٥] ... فى جَحْفَلٍ[٦] كسوادِ الليلِ جرّارِ
بالأبلقِ الفَرْدِ من تَيْماءَ منزلُه ... حِصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدّارِ

---

(١) بلدة أثرية على الطريق بين المدينة وفلسطين ؛ كان بها قصر السموءل المسمى بالأبلق الفرد . وقد خربت الآن وبها أطلال أبنية قديمة (٢) جمع درع وهى ثوب من الحديد كالشبكة ضيق النسج صفيقه تلبس كالقميص فتكون وقاية من سلاح العدو . والكراع اسم يقع على الخيل ونحوها من البغال والحمير (٣) مدينة مشهورة بآسيا الصغرى (٤) أى موسم الحج بعكاظ ونحوها من أسواق العرب (٥) أى الملك الهمام يريد به الحارث بن أبي شِمْر (٦) الجحفل الجيش العظيم

فقال: ثُكْلٌ[١] وغَدْرٌ: أنت[٢] بينهما فاْختَرْ، وما فيهما حَظٌّ لمختارِ

فشكَّ[٣] غيرَ طويلٍ، ثم قال له: اُقتلْ أسيرَكَ؛ إِنّى مانعٌ جارِى

فقال تَقْدِمةً إذ رَامَ يقتُلُه: أشرفْ سَمَوْءَلُ فاْنظُرْ فى الدَّمِ الجارِى

أَأَقتلُ اْبنَكَ صبراً أو تجىءُ بها طوعاً؟ فأنكرَ هذا أىَّ انكارِ

فشكَّ أوداجَه[٤]، والصدرُ فى مَضَضٍ[٥] عليه مُنطوياً كاللَّذع بالنارِ

واْختار أدراعَه من أن يُسَبَّ بها ولم يكن عهدُه فيها بختَّارِ[٦]

وقال: لا أَشترِى عاراً بمَكْرُمةٍ فاْختار مَكْرُمَةَ الدُّنيا على العارِ

والصبرُ منه قديماً شيمةٌ خُلُقٌ وزَنْدُه[٧] فى الوفاءِ الثاقبُ الوارِى

وفى ذلك يقول السموءَلُ مفتخراً:

وَفَيْتُ بأدرُعِ الكِنْدِىِّ[٨]؛ إِنّى اذا مَا خانَ أقوامٌ وفَيْتُ

وأَوصَى عادِيَا يوماً بأنْ لا تُخَرِّبْ يا سموءَلُ ما بَنَيتُ

بَنَى لِى عادِيَا حِصناً حصيناً وماءً[٩] كلما شئتُ اسْتَقَيتُ

وقعت هذه الحادثة قبل الإسلام بنحو ٦٠ سنة

---

(١) أى فقدٌ لولدك أو غدر بعهدك (٢) أى أنت مخير بينهما (٣) أى تردد
(٤) جمع ودَج وهو أحد العرقين اللذين يقطعهما الذابح (٥) المضض وجع المصيبة
(٦) غدار (٧) ما يحدث النار من عُودٍ يُفتل على ظهر عود فيتولد من كثرة الدلك نار. ووَرِىَ الزَّنْدُ: اتقد بالنار (٨) أى امرئ القيس المنسوب الى قبيلة كندة احدى قبائل العرب القحطانية (٩) أى بئراً ذات ماء

الأقـزام[1]

اذا ذَكَرَ الأَوَّلونَ فى أَساطيرِهم أَنَّ مِنَ البَشَرِ قوماً طِوالَ الأجسامِ كالعَمالِقَةِ، لَمْ يُهملوا فيما دَوَّنوه فى أسفارهم أن مِنَ الناسِ جيلاً قِصارَ القاماتِ كأقزامِ الزُّنوجِ ؛ فقد عُثِرَ فى آثارِ المِصريين على قِصَصٍ وصُوَرٍ تَدُلُّ على أن فراعنتهم كانوا يَلْهُونَ بأقزامٍ لَهُمْ، جلَبَهم أعوانُهم مِن السُّوادن . وذكَرَ بعضُ مؤرخى اليُونانِ وحكمائهم وشُعرائهم من القصصِ والأخبارِ والأشعارِ ما يُؤَيِّدُ وُجودَ أقزامٍ فى عصورهم كانوا يسكنون أوربّة وإفريقية



زنوج اقزام ووراءهم زنوج طِوال لاظهار الفرق

وما زال المتأخرونَ من الأوربيين يَشُكُّون فى صِحَّةِ هذا القَوْلِ ؛ ويُؤَوِّلُونه بأنّهم إنّما رأَوُا القِردةَ الشبيهةَ بالأَناسِىِّ ،فظنُّوها إيّاها؛ حتى رَغِبُوا فى الأستعمارِ ، وجابوا

---

(١) جمع قَزَم وهو الصغير الجثة

القِفارَ والبِحارَ ، فرأوْا مِن شُعوبِ الأرضِ وقبائلِها ما جَعلَ أخبارَ المُتقدّمينَ صحيحةً فى جُمْلتِها إن لم تكُنْ فى تفْصيلِها

وليسَ الأقزامُ مُختَصّينَ بصُقْعٍ يَنزِلونهُ مِنَ المعمور أو بِلوْنٍ لا يكون إلاَّ لبنِى جِلدَتِهم ؛ فإنّ مِنْهم مَنْ يَسكُنُ الاقاليمَ الاستوائيةَ مِن أواسطِ إفريقيةَ غربِىَّ أوغَنْدَةَ ، وهم أقصَرُ الأقزامِ ، ومِنهم مَن يَسكُنُ غربِىَّ إفريقية الجنوبية كقبائلِ البُشْمَن والهُوتِنْتُوت ، ومنهم من يَسكُنُ شبهَ جزيرة مَلَقّا وفِيلِبِّينَ وجاوَةَ وغانةَ الجديدةَ وجزائرَ أنْدَمان من آسيا . وكلُّ أقزامِ هذه الشُّعوبِ الشرقية سمُرُ الوجوهِ فُطْسُ الأنوفِ جِعادُ الشعور ، مِمّا يَدُلُّ على أن بَيْنَهم وبَيْنَ الزُّنوج نَسَبا وصِهْرا ، وإن لم يُماثِلوهم مِن كلّ وجْهٍ

ولولا سَباطةُ الشَّعرِ فى أُمّةِ اللاّبونِ والإسكيموسِ سكانِ الأصقاع القطبيةِ الشماليةِ لكانت نِسْبتُهم إلى هؤلاء أقربَ من نِسْبَتِهم الى الجنس الأصفرِ المُغُولى ؛ لأنهم يكادُون يماثِلونَهم فى قِصَرِ القامة ، وإن كانت بَدانةُ[1] أجسامِهم ووثاقةُ خَلْقِهم[2] تجعلُنا نخصُّهم باسم البَحاتِر[3]

ولِسُيّاحِ الأوربيين ورُوّادِهم فى القرْنِ الماضى أقاصيصُ عنِ الأقزامِ . وأكثرُ مَن أفاضَ القولَ فى أقزامِ أواسطِ افريقية هو الرّحّالةُ إستَنْلِى . ويؤخذ مِنْ أقواله أنّهم استوطنوا تلك البلادَ مُنذُ خمسين قرْنا ، وأنّهم أهْلُ أُلفةٍ وأنَفَةٍ ومهارةٍ فى صِناعة الأدواتِ التى يحتاجون اليها ، ولاسِيّما الحرابِ المسمومةِ ، وأن لهم نِظاماً يُوَحّدُ قَومِيتَهم ، وأنهُ تعَرّفَ بِملِكتِهم فرآها على جانبٍ من اللُّطف والأدب

---

(١) سِمَن (٢) متانة عضلهم (٣) جمع بُحْتُر وهو القصير المجتمع الخَلْق

وقد مرَّ بالقاهرة الضابطُ هريسُن سنة ١٩٠٥ م ، ومعه ستة أقزامٍ من الكُنغو ، متوسّطُ أطوالِهم ذراعٌ فرنسيةٌ وثلاثون عشيراً[1] ، رآهم الناسُ ودرس أطباءُ قصرِ العَيْنِيّ طبائعَ أجسامِهم

أما أقزامُ جزائرِ أنْدَمانَ فأوّلُ كتابٍ علميٍّ كُتِبَ فى أحوالهم وصُحّحَ فيهِ ما قالَهُ العربُ والإفرنجُ كان سنة ١٨٦٠ م ، فذكَرَ أوصافاً لهم تُقارِبُ أوصافَ أقزامِ إفريقية ، وعُرِفَ منه أنّ أقزامَ أنْدَمانَ أطولُ قليلاً وأقلُّ ذَكاءً من الإفريقيينَ . وأنّهم يتَّخِذُونَ من أغصانِ الأشجارِ وأوراقِها خِصاصاً . ولم يكونوا وقتئذٍ يعرِفُون الفِلاحةَ ولا استعمالَ جُلودِ الحيوانِ ولا المعادنَ ، ويستعملون مكانها الأصدافَ والظُّرّانَ . ورُبّما صنعُوا بعضَ الآنيةِ من الطِّينِ المُجَفَّفِ فى الشمسِ أو المَشْوِيِّ قليلاً ، وبعضَ القوارِبِ مِن سُوقِ الأشجارِ المنقورةِ . ويستعملونَ النارَ ولكنَّهم لا يَعْرِفون طريقةَ إيرائِها ؛ فيحافِظُون عليها كى لا تنطفِئَ . ومعيشتُهم من صَيْدِ البَرّ والبَحرِ ومِمّا تُخرِجُهُ جزائرُهم بطبيعتها مِنَ البقُول والثمارِ

ويرى بعضُ العلماءِ أنهم بقايا أهلِ الهندِ الجنوبيةِ ، أجلاهم عنها الأجناسُ القويةُ من أهلِ الشّمالِ

---

(١) العَشيرُ فى قول نقله المصباح أنه : عُشْرُ العُشْرِ : أى جزء من مائة ، وأن المِعشارَ عُشرُ العشير أى جزء من ألفٍ . وعليه سمَّيْنا (الدّيسِى) عُشرا ، و (السَّنْتِي) عَشيرا ، و (المِلّى) مِعشارا

نُبَذٌ من أَخبارِ الأَذكياء

فراسة ابن طولون

رُوِيَ فى كتاب الأذكياء لابن الجَوْزِىّ[١] أن أحمد بن طُولونَ[٢] جلَسَ يوماً فى مُتَنَزَّهٍ له يأكلُ ، فرأى سائلاً فى ثَوْبٍ خَلَقٍ[٣] . فوضع يدَه فى رَغيفٍ ودَجاجةٍ وفَرْخٍ وقِطَعِ لَحْمٍ وقِطعةِ فالوذجٍ[٤] ، وأمرَ بعضَ الغِلمانِ بمناولته اياها . فرجع الغلامُ وذكر أنه ما هشَّ له . فقال ابنُ طُولونَ للغلام : جِئْنِى به . فمَثَلَ بين يدَيْهِ ، فاستنطقه ، فأحسنَ الجوابَ ، ولم يضطربْ من هيبته . فقال له : أحْضِرْنِى الكتبَ التى مَعَك ، واصدُقنى عمَّنْ بعثَ بك ؛ فقد صحَّ عندى أنك صاحبُ خبرٍ (واستحضرَ السِّياطَ) فاعترفَ له بذلك

فقال بعضُ مَنْ حضَرَ : هذا واللهِ السِّحرُ . فقال أحمدُ : ما هو بِسحرٍ ؛ ولكنَّه قياسٌ صحيحٌ ؛ رأيتُ سوءَ حالِ هذا ، فوجَّهتُ إليه بطعامٍ يَهش الى أكلِهِ الشبعان ؛ فما هشَّ له ، ولا مدَّ يدَه ، فأحضرتهُ ، فتلقانى بقوة جأشٍ . فلما رأيتُ رَثاثةَ حالِهِ وقوَّةَ جَنانِهِ[٥] علمتُ أنه صاحبُ خبَر

صدق البحترى

وذكر أيضاً أن مَلِكاً كانت أسرارُه تظهرُ كثيراً لعدُوِّه ، فيبطُلُ تدبيرُه على العَدُوّ . فبلَغَ ذلك منه[٦] ، فشكا إلى أحد نصحائه وقال له : إنّ

---

(١) تقدمت ترجمته (٢) هو احمد بن طولون أوّل من استبدّ بملك مصر من ولاة الدولة العباسية سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) (٣) بال (٤) نوع من الحلواء تسمى الآن بالعامية (البلوظة) (٥) قلبه (٦) أثّر فيه

جَماعةٌ يطَّلِعُونَ عَلَى أسرارٍ لى لا بُدَّ من إظهارِها لهم، ولستُ أدرِى أيُّهم يُظهِرها، وأكرَهُ أن أنالَ البرىءَ منهم بما يستحقُّ الخائنُ. فكتب النَّصيحُ أخباراً مِنْ أخبارِ المملكةِ، وجعلَها كَذِباً كلَّها. وقال للملك: أخبرْ كلَّ واحدٍ منهم بخبرٍ على حِدَةٍ لا يظهَرُ عليه سائرُ أصحابه. وأْمُرْ كلَّ واحدٍ يستُرُ ما أسررْتَ إليه، واكتُبْ عَلَى كلِّ خبرٍ اسمَ صاحبه. فلَمْ يلبثْ أن أظهَرَ الخَوَنةُ ما أفشى إليهم، واْنكتمَتْ أخبارُ الناصحين. فعَرَفَ الملكُ مَن يُفشِى سرَّه فحذِرَه

فداء الوطن

ورَوَى أيضاً أنه خرج عمرُ بن محمد صاحبُ السِّند وأصحابُه يَسيرون فى بلاد العَدوّ، فرأَوْا شيخاً ومعه غُلامٌ. وقد كانَ العَدُوُّ نَذِرَ بهم [1]، وهرب. فقال عُمَرُ للشيخ: يا شيخ! دُلَّنا على قَوْمِك وأنْتَ آمِنٌ. قال: أخافُ إن دَللتُك أن يسعَى بى هذا الغلامُ إلى الملِك، فيقتلَنى؛ ولكن اُقتلْ هذا الغلامَ حتى أدلَّك. فضرَبَ عُنُقَ الغلامِ. فقال الشيخُ: إنما كرِهْتُ إن لم أخبرْك أنا أنْ يخبرَك الغلامُ. فالآنَ قد أمنتُ، واللهِ لو كانوا تحتَ قَدمِى ما رفعتُها! فضَربَ عُنُقَه

عجوز تفحم قاضيا

ورُوِى فيه أيضاً أن أبا حامد الخراسانى القاضىقال: بَنَى ابنُ عبد السلام الهاشمىّ بالبصرة داراً كبيرةً، ولم يتمَّ له تربيعُها إلاّ بمَسْكَنٍ لطيف كان لعجوز

(١) علِم بهم

فى جِوارِه اُمتنعتْ من بَيْعِه . فبذَل لها أضعافَ ثَمنه ، فأقامتْ على الاُمتناع .
فشكا إلىّ ذلك . فقلتُ هذا من أيسر الأمر ! أنا أُوجبُ عليها بيعَه ،
فأضطرُّها الى أن تسألَك وَزْنَ الثمن . ثم استدعيتُها فقلتُ : يا هذه ! إن قيمة
دارِكِ دُونَ ما دَفع لك ، وقد ضاعفَها أضعافاً . فإن لم تقبليه حجرتُ عليك ؛
لأن هذا تضييعٌ منك . فقالتْ : جُعلتُ فِداك ! فهلاَّ كان هذا الحَجْرُ منك
على مَن يَزِنُ فيما يساوِى دِرهماً عشرةً وتركتَ منزلى ! ما أختارُ بيعه .
فانقطعتُ[1] فى يدها .

معاوية وأخوه من آدم

وقال بَلَغنا أن رجلاً جاءَ إلى حاجب مُعاويةَ . فقال له : قل له على الباب
أخوكَ لأبيك وأمك . فقال مُعاويةُ : ما أعرفُ هذا ! ثمّ قال : أئذَنْ له .
فدخلَ ، فقال له : أىُّ الأخوةِ أنتَ ؟ فقال: ابن آدم وحواء . فقال: يا غلامُ!
أعْطِهِ دِرهماً ، فقال : تعطى أخاكَ لأبيك وأمّك درهماً ؟ فقال : لو أعطيتُ
كلّ أخ لى من آدم وحواءَ ما بلَغَ إليك هذا ؟

أمثلة على ألسنة الحيوان

مثل من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه

﴿ الحمامة والثعلب ومالك الحزين ﴾

زعموا أن حمامةً كانت تُفْرِخُ فى رأسِ نَخْلةٍ طويلةٍ ذاهبةٍ فى السماء ؛
فكانتِ الحمامةُ تَشْرَع فى نَقْلِ العُشِّ الى رأْس تلك النَّخْلةِ ، فلا يُمكنُ أن

---

(١) أى انقطعت حجتى ولم استطع مجادلتها لقوة حجتها

تنقلَ ما تنقلُ مِنَ العشّ ، وتجعله تحتَ البَيْضِ الاّ بعد شِدَّةٍ وتعَب ومشَقَّةٍ لطُولِ النَّخلةِ وسُحْقِها . فاذا فرَغتْ مِن النقْلِ باضَتْ ، ثم حضَنتْ بيضَها فاذا فقَستْ ، وأدركَ فِراخُها جاءها ثعلبٌ قد تعاهدَ ذلكَ منها لوقتٍ قد علِمَه بقدرِ ما تنهَضُ فِراخُها ، فيقِفُ بأصلِ النَّخلةِ ، فيَصيحُ بها ، ويَتَوعَّدُها أن يرْقَى إليها ، فتُلقِي اليهِ فِراخَها

فبينما هي ذاتَ يوم قد أدركَ لها فَرْخانِ اذ أقبلَ مالكٌ[١] الحزينُ ، فوقعَ على النخلة . فلما رأى الحمامةَ كئيبةً حزينةً شديدةَ الهمّ ، قال لها مالكُ الحزينُ : يا حمامةُ ! مالي أراكِ كاسفةَ اللونِ سيئةَ الحال ؟ فقالت له : يا مالكُ الحزينُ ! إنّ ثعلباً دُهِيتُ به : كُلَّما كان لي فَرْخان جاءني يُهَدِّدُني ، ويَصيحُ في أصلِ النخلةِ ، فأفرَقُ[٢] منه فأطرَحُ اليه فَرْخَيَّ . قال لها مالكٌ الحزينُ : اذا أتاكِ لِيفعَلَ ما تقولينَ فقولي له : لا أُلقِي إليكَ فَرْخَيَّ ! فارْقَ إليَّ وغَرِّرْ بنفسِكَ ! فإذا فعلتَ ذلكَ ، وأكلتَ فَرْخَيَّ طِرْتُ عنك ، ونجَوْتُ بنفسِي

فلما علَّمَها مالكٌ الحزينُ هذه الحيلةَ ، طارَ فوقعَ على شاطِئِ نَهْر . فأقبلَ الثعلبُ في الوقتِ الذي عرَف ، فوقفَ تحتَها ، ثم صاحَ كما كانَ يفعلُ . فأجابَتْه الحمامةُ بما علَّمها مالكٌ الحزينُ . فقال لها الثعلبُ : أَخبريني مَنْ علَّمكِ

---

(١) مالك الحزين من طير الماء طويل الرجلين والعنق والمنقار مخروطه . قيل إنه « البَلَشون » قال الجاحظ : من أعاجيب الدنيا أمر مالك الحزين ؛ لأنه لا يزال يقعد بقرب الماء ومواضع نبعها من الأنهار وغيرها فاذا نشفت يحزن على ذهابها ويبقى حزيناً كئيباً وربما ترك الشرب حتى يموت عطشاً خوفاً من زيادة نقصها بشربه لها (٢) أخاف

هذا ؟ قالت : علّمني مالكٌ الحزينُ . فتوجّهَ الثعلبُ حتى أتى مالكاً الحزين على شاطئ النهر، فوجدَه واقفاً . فقال له الثعلبُ : يا مالكُ الحزينُ ! إذا أتتْك الريحُ عن يمينِك فأينَ تجعلُ رأسَك ؟ قال عن شِمالي . قال : فاذا أتتْك عن شِمالك فأين تجعلُ رأسك ؟ قال : أجعلُه عن يَميني أو خَلْفي . قال : فاذا أتتْك الريحُ من كلِّ مكانٍ وكلِّ ناحيةٍ فأين تجعلُه ؟ قال : أجعلُه تحتَ جَناحِي قال : وكيفَ تستطيعُ أن تجعلَه تحتَ جَناحِك ؟ ما أراهُ يتهيّأ لك ! قال : بلَى ! قال : فأرِني كيفَ تصنعُ ! فلَعمري يا معشرَ الطيرِ لقد فضّلكم اللهُ علينا : إنكنَّ تدرينَ في ساعةٍ واحدةٍ مثلَ ما ندري في سنةٍ، وتبلُغْن ما لا نبلغُ، وتُدخلْنَ رءوسَكُنَّ تحت أجْنحتِكُنَّ من البَرْدِ والرِّيح، فهنيئاً لكنَّ ! فأرِني كيفَ تصنع ! فأدخلَ الطائرُ رأسَه تحتَ جَناحه، فوثَبَ عليه الثعلبُ مكانَه، فأخذَه فهمزَه همْزةً دقَّتْ عُنُقَه. ثم قال يا عَدُوَّ نفسِه ترَى الرأيَ للحَمامةِ، وتُعلِّمُها الحيلةَ لنفسها وتَعجِزُ عن ذلكَ لنفسكَ حتى يَسْتَمكنَ منك عدوُّك ؟ ثم أجهزَ عليه وأكَلَه

مثل أنّ العاقل يبلغ بالحيلة ما لا يبلغه بالقوة

يُحكَى أنَّ قُبَّرَةً اتخذَتْ أُدْحِيَّةً[1]، وباضت فيها على طريق الفيل. وكانَ للفيلِ مَشْرَبٌ يتردَّدُ اليه . فمرَّ ذاتَ يومٍ عَلَى عادتِه ليَرِد مَوْرِدَه، فوَطِئَ عُشَّ القُبَّرة، وهشَم بيْضَها، وقتَل فِراخَها . فلما نظرَتْ ما ساءها علِمتْ أنَّ الذي نالَها مِنَ الفيلِ لا منْ غَيرِه . فطارتْ فوقعتْ على رأسِه باكيةً، ثمَّ قالتْ : أيُّها الملكُ ! لِمَ هشَمْتَ بَيْضي، وقتلْتَ فِراخِي، وأنا في جِوارِك ؟

---

(١) الأدحيّة مبيض الطائر فى الرمل ونحوه

أفعلتَ هذا استصغاراً منك لأمري واحتقاراً لشأني ؟ قال: هو الذي حملني على ذلك ! فتركتْه وانصرفتْ الى جماعة الطير، فشكتْ اليها ما نالَها من الفيلِ . فقلْنَ لها : وما عسى أن نبلغَ منه ونحنُ طيور ؟ فقالت للعقاعِقِ[1] والغِربانِ : أحِبُّ منكُنَّ أن تَصِرْنَ معي اليه فتَفْقأْنَ عينَيْه ؛ فإنّي أحتالُ له بعد ذلك بحيلة أخرى . فأجبنَها الى ذلك، وذهبنَ إلى الفيلِ . ولَمْ يزَلْنَ يَنْقُرْنَ عينَيه حتى ذهبْنَ بهما، وبَقِيَ لا يهتدى الى طريقِ مَطْعَمِه ومَشْرَبِه الاّ ما يَقُمُّه[2] من موضِعِه . فلما علِمَتْ ذلك منه جاءتْ إلى غديرٍ فيه ضفادِعُ كثيرةٌ، فشكتْ إليها ما نالَها منَ الفيلِ ؛ قالت الضفادعُ : ما حيلتُنا نحن فى عِظَمِ الفيل ؟ وأينَ نبلغ منه ؟ قالت : أحِبُّ منكُنَّ أن تصِرنَ معى الى وَهْدةٍ قريبةٍ منه فتَنْقُقنَ فيها وتَضْجِجْنَ ؛ فإنّه إذا سَمِعَ أصواتَكُنَّ لم يشُكَّ فى الماء فيهوِى فيها . فأجبْنَها الى ذلك، واجتمعنَ فى الهاوية . فسمِعَ الفيلُ نقيقَ الضَّفادع، وقد أجهدَه العَطشُ . فأقبلَ حتى وقعَ فى الوَهْدة فارْتَطَمَ[3] فيها. وجاءت القُبَّرةُ ترفرفُ عَلَى رأسه . وقالت : أيها الطاغى المغترُّ بقوّتِه ! المحتقرُ لأمرى ! كيفَ رأيتَ عِظَمَ حيلتى معَ صِغَرِ جُثَّتى عِندَ عِظَمِ جُثَّتك وصِغَرِ همَّتِك !

مثل من يتعجل بالعقوبة قبل التأمل فى الذنب

زعموا أن حمامَتَين ذكراً وأنثى ملأا عُشَّهما من الحِنطةِ والشَّعير . فقال الذكرُ للأنثى : إنا اذا وُجِدَ فى الصَّحارى ما نَعيشُ به فلسنا نأكُلُ مما هاهنا

(١) جمع عَقْعَقٍ وهو طير أبلق بسواد وبياض (٢) يأكله قَمّاً كأنّه يكنُسُهُ كنساً (٣) وقع ولم يمكنه الخروج

شيئاً ، فاذا جاءَ الشتاءُ ولم يكن فى الصحارى شيءٌ رجعنا الى ما فى فأكلناه . فرضيَت الأُنثى بذلك ، وقالت له : نِعمَ ما رأيتَ . وكان ذلك نَدِياً حين وضعاه فى عُشّهما . فانطلق الذكرُ فغاب . فلما جاءَ الصيف الحَبُّ وانضمرَ . فلمّا رجع الذكرُ رأى الحَبَّ ناقصًا . فقال لها : أليس أجمعنا رأينا على ألاّ نأكُلَ منه شيئاً ! فلِمَ أكلتِه ؟ فجعلتْ تحلِفُ أنّها ما منه شيئاً ، وجعلتْ تعتذِرُ اليه ؛ فلم يُصدِّقْها ، وجعَلَ ينقُرُها حتى ماتت جاءتِ الأَمطارُ ودخَلَ الشّتاءُ تنَدَّى الحَبُّ وامتلأَ العُشُّ كما كانَ . فا الذكرُ ذلك ندِمَ . ثم اضطجَعَ الى جانبِ حمامتِه وقال : ما ينفعُني والعَيْشُ بعدَكِ اذا طلبتُكِ فلم أجدْكِ ولم أقدِرْ عليكِ ، واذا فكّرْتُ فى وعلِمْتُ أنى قد ظلَمتُكِ ، ولا أقدِرُ على تدارُكِ ما فاتَ . ثم استمرَّ على فلم يَطْعَمْ طعاماً ولا شراباً حتى ماتَ الى جانبها

حياة النبات[1]

النباتُ مخلوقٌ حَيٌّ يتغذَّى ويتنفَّسُ ويُفرِزُ ويتكاثَرُ ويفنَى ؛ فهو كالحيوان ، وإن خالفَه فى الحِسّ الكاملِ وإرادةِ الحركةِ والانتقا مكانٍ الى مكان

وللنباتِ كسائرِ الأحياءِ أعضاءٌ يُؤَدِّى بها هذه الوظائفَ الضرورية ذاتِه ونَوْعِه ؛ غيرَ أن أعضاءَ النباتِ تُباينُ من وُجوهٍ عِدَّةٍ أمثالَها فى

---

(١) لحضرة الأستاذ محمد شوقى بكير بك مدرس علم حياة النبات الزراعة العليا

كما يختلف بعضها عن بعضٍ فى النباتِ نفسه . وهـذا الاختلافُ نتيجة الحاجةِ والضرورة الى توزيعِ العمل ووظائفِ الحياةِ . فبعدَ أن كان الجسمُ النباتىُّ كله خليةً واحدةً تعيش فى الماءِ تؤدّى كلَّ هذه الوظائف بذاتها؛ كما هى الحالُ فى بعض أنواع الطُّحْلُب ، اقتضت سُنّةُ اللهِ فى خلقهِ للعالَم أطواراً أن تتراكمَ طوائفُ من هذه الخلايا ، فتكوّنَ أجساماً مُرَكَّبةً تكاثرُ حاجاتُ الحياةِ فيها ، وتشتدُّ اختلافاً عن أمثالِها فى الخليةِ الفرْدةِ؛ فكان من الحكمةِ الإلهيةِ أن تُوَزَّعَ الأعمالُ على فِرَقِ الخلايا التى يتألف منها الجسمُ المركب؛ بحيث تقومُ كلُّ فِرقةٍ منها بوظيفـةٍ خاصَّةٍ من العمل : فاختصَّ بعضُها بوظيفةِ امتصاصِ مادّةِ الغِذاءِ الذّائبةِ فى الماءِ الذى يَعيشُ فيه النباتُ ، وبعضُها بوظيفةِ التنفُّسِ ، وأُخرى بوظيفة التكاثُر . فكان هذا التوزيعُ والاختلافُ فى أوْجه الاختصاص بتداوُل الأطوار وعلى تطاوُل الأعصار مَدْعاةً إلى تبايُنِ الأعضاءِ وتميُّزِ شُكولِها وهيئاتِها فى النباتِ الرّاقى ، لِيُلائِمَ كلٌّ منها حالَ العملِ الذى أُعِدَّ له . فصار يتركبُ مِنْ جَذْرٍ يختصُّ بامتصاص الغِذاءِ ، وأوْراقٍ تختصُّ بالتنفُّسِ ، وأزهارٍ تختصُّ بالتكاثُر ، وساقٍ تحمل ما فوقَ الجذر

فالجَذْرُ هو أُرُومةُ النباتِ وأصلُه الغائرُ فى الأرضِ ، لِتثبيتِه فيها ولامتصاص الغِذاءِ من أغوارِها . وتنتهى الجُذورُ بأطرافٍ دقيقـةٍ صُلبةٍ تنضَحُ سائلاً حامضاً يُذِيبُ دقائقَ المعادِنِ والأحجارِ ، فتمتزجُ برطوبةِ النباتِ ، وتصيرُ غِذاءً صالحاً له . وبهذه الخاصّةِ العجيبةِ تنقبُ أسنّةُ الجذورِ الدقيقةُ ما يعترضُها من كَديدِ[1] الأرض ، وتغورُ فيها باحثةً عن غِذائها ؛ ولذلك كانت رءوس الجُذورِ فى حالةِ تجدُّدٍ وفناءٍ دائِبَيْنِ

---

(١) أى غليظها

ولم يقفِ الإبداعُ فى الجذُور الى هذا الحدّ، بل تنوعَتْ أنواعاً شتَّى: فكانت ليفيَّةً مُتَشَعِّبَةً كما فى القمْحِ والذُّرَة الشامِيّةِ، وخَشبَيةً وتَدِيةً كما فى القُطن، ودَرَنيةً مِحْوَرِيةً وغيرَ مِحورِيةً كما فى الجزَر والفُجْل، وكان منها ما يَمْتَصُّ الغذاءَ من العناصرِ الأرضيةِ التى يُذِيبُها الماءُ كأكثرِ النبات الرَّاقى، ومنها ما يستَمِدُّ غِذَاءَهُ من الماءِ وحدَهُ كالعَدَسِ المائىّ، وما يطوُلُ حتى يصيرَ أطولَ من شجرته، وبخاصَّةٍ جُذور أعشابِ الصحارَى

ولما كان بعضُ الأعضاءِ كالأوراقِ والأزهارِ والثِّمارِ فى النباتِ الرَّاقى كثيرَ العَدَدِ لم يكنْ فى طاقةِ الجذرِ أن يقومَ وحْدَه بوظيفةِ حَمْلها وتوزيعِ الغِذاءِ عليها وتوجِيهها الى جهاتِ الضَوْءِ ومَهَابِّ الرِّيحِ الضَّروريَّين لحياةِ النبات جعلَ اللهُ السَّاقَ كفيلةً بكلِّ ذلك، ونوَّعَها على حسَبِ الفِطرةِ التى فطَرها عليها: فكان منها السُّوقُ الخشبيةُ العظيمةُ كسُوقِ الأشجارِ المُعَمَّرةِ، ومنها السُّوقُ الغَضَّةُ اللّدْنَةُ أو الرِّخْوةُ كسُوقِ العُشْبِ والبَقْلِ؛ ومنها الشَّعاعِيّةُ التى لا تستقِلُّ بنفسها وتستنِدُ عَلَى أجسامٍ أُخرَى كالكَرْمِ، ومنها ما تضطجعُ عَلَى الأرضِ كالبطّيخِ والقَرْعِ، وما تكونُ مدفونةً فى الأرض: إما على شكلِ دَرَنٍ نَشَوِيّ كتُفَّاحِ الأرضِ (البطاطس) والقُلْقاس، واما على غير ذلك

وإذا تأمَّلْنا فى سُوقِ بعض الاشجارِ وأغصانِها وجَدْنا عليها نَواتئَ مُغَلَّفَةً بعضُها فى آباطِ الورَقِ، وبعضُها عند عُقَدِ القَصْباءِ، تُسَمَّى البراعِمَ، ويُسَمِّيها العُرفُ بالأزرارِ والعيونِ. وما هيَ إلاّ جَنينُ الفَرْعِ منَ الشجرةِ يخرُجُ بساقٍ ووَرقٍ وثَمَر

ومتى قطعْنا ساقاً خشبيةً قَطْعاً مُسْتعرِضاً، رأيناها مكوَّنةً من عِدَّةِ

طبقات : هى اللِّحاءُ الظاهرُ ، فالخشبُ الكاذبُ ، فالخشبُ الصادقُ ، فالنُّخاعُ فى الوسط . وتدُلُّ لفائفُ الخشبِ عَلَى عُمْرِ الشجرة

وساقُ النخيلِ وفصيلتِهِ تُسَمَّى بالجِذْع . وما نُسمِّيهِ بالأغصانِ هو فروعٌ منَ الساق ، ومنَ النباتات ما لا ساقَ له ظاهرةٌ ، ويُسمَّى « نَجْماً » ، وما له ساقٌ ظاهرةٌ ويُسمى « شجراً »

والأوراقُ هى أطرافٌ مسطحة يتِمُّ بها بعضُ وظائفِ النباتِ الضرورية لحياته كالتغذيةِ والتنفس ؛ فتكون بمثابةِ الرِّئتَينِ والمَعِدةِ فى الحيوان ، وتَتِمُّ وظيفةَ الجذور

جذور العدس المائى   جذرا الفجل والقمح

بتنمية جِرْمِ النبات ؛ وذلك أنّ لها غِشاءً رقيقاً كالأَدَمَةِ فى جِلْدِ الإنسانِ ، ذا مَسامَّ يَمتصُّ رُطوبةَ الجوِّ لَيْلاً ونهاراً ، ويجتذِب منَ الهواءِ الحامِضَ الفَحْمىَّ نهاراً ، وينفُثُ فضولَهُ ليلاً ، ويستنشقُ المُزْكِىَ (الاكسجين) ليلاً ؛ وينفثُه نهاراً . ولذلك لا يُحمَدُ المَبيتُ فى وَسَطِ البساتين والغابات ، ويُحمَدُ التروُّحُ بينها فى النهار

وللشمسِ فى ذلك أثرٌ بالغٌ ؛ فهى التى تَمُدُّ الأوراقَ بالمادّةِ المُلَوِّنةِ الخضراء التى بدونها يذبُلُ النباتُ ويموتُ

ولم يقلَّ تَنَوُّعُ الوَرَق عن غيرِه من أعضاءِ النبات ؛ فورقةُ المَوز عريضةٌ

طويلة كاملة ، وورقةُ نَخيل التَّمْر (السَّعَفة) مُتَشَعِّبةٌ خُوصاً ، وورقةُ الأَثْلِ جُمَلةُ سُلوكٍ وأَهْداب ، وورقةُ القُطن ذاتُ فُصوصٍ خمسةٍ ، وغير ذلك من الأشكال التى لا تُحصَى

والأزهارُ من أدقِّ أعضاءِ النبات تركيباً . ووظيفتُها تَوْليدُ البَذْرِ والثَّمَر

والزهرةُ فى الغالب مؤلَّفة من أربعِ طِباقٍ بعضُها فوق بَعْض : الكِمّ والنَّوْر والمِئبر والمتأبَّر

فالكِمُّ — هو الغِلافُ الأخضرُ الظاهرُ الذى يكونُ وِقايةً للزَّهْرةِ قبلَ تَفَتُّحِها

والنَّوْرُ — هو الأوراقُ البديعةُ اللَّونِ التى تَلِى الكِمّ وتَنْبَعِثُ منها غالباً روائحُ خاصَّةٌ ، ووظيفتُها إغراءُ الحشراتِ من النحل والذُّباب والفَراشِ بالحطِّ عليها لبَهْجَةِ ألوانِها وذَكىّ رائحتها ، وما يكونُ أسفلَها أحياناً من الرُّطوبات العَسَلِيَّة

والمِئْبرُ — هو خُيوط دقيقةٌ تنتهى برؤوسٍ تُسَمَّى « المَتْك » يَنْتَشِرُ منها غُبارُ اللَّقاح

والمتأبَّرُ — هو عُودٌ يقومُ على قاعدةٍ هى « المَبِيضُ » ، ويحملُ هذا العودُ رأساً لَزِجاً يلتَصِقُ به ما يَتناثَرُ من غُبار اللقاح . ومن المبيض تنشأُ الثمرة والبذرة

والغالبُ أن يكونَ المِئبرُ والمتأبَّرُ فى زَهرةٍ واحدةٍ ، وقد يكونُ كلٌّ منهما فى زهرةٍ مستقلةٍ من أزهار الشجرةِ الواحدة ، وقد يكونُ المِئْبرُ فى شجرةٍ والمتأبَّرُ فى أُخْرَى ، فتُسَمَّى الأُولَى مذكرةً والأُخرَى مُؤَنَّثةً كما فى أشجار النَّخيل . وللرياح والحشَرات عَمَلٌ عظيمٌ فى نشرِ اللقاح ، وخاصةً لقاحَ الأشجار التى تجمَعُ المِئبرَ والمتأبَّرَ . أما النَّخيلُ فإذا كَثُرتِ المذكرةُ منها بينَ

المؤنّثة كانت الرياحُ والحشراتُ كفيلةً بنقْل اللّقاح ، وإلاّ وجبَ التلقيحُ الصّناعيُّ بنقْل طلْع المئبَرِ إلى المُتأبَّر . واذا تمّ التلقيحُ تذبلُ الزهرةُ ، ويتّجهُ كثيرٌ من غِذاءِ النبات الى المبيض فينمو ، وتتكوّنُ منه الثمرةُ والبذْرةُ

والثمار هى فى الحقيقة البذورُ التى يتوالدُ بها النباتُ ويتكاثرُ . وهذه البذور منها ما يكتسى بغلافٍ لحْميٍّ غليظٍ كالتُّفّاحِ والكُمّثْرى والنارَنْجُ الحُلْو (البرتقالىُّ) والمَوز ، أو متوسطٍ كالبَلَح والعِنَبِ ، أو لِيفيٍّ رقيقٍ كما فى القَمْح والذُّرةِ

ويشتركُ الإنسانُ وغيرُه من الحيوان فى الانتفاع بهذه الثمار ؛ فيأكل لُبَّها ، كالبُنْدُق واللَّوْز والجَوْز وسائر الحبوب ، أو غِشاءها اللحميَّ الحلوَ كأكثر الفواكه ؛ وتكون البذرة مجتمعة أو ذاتَ فِلقْين

وتحتوى عَلَى الجنينِ النباتيّ الذى ينبُتُ فى الأرض بعد أن تتمّ مُدّةُ حضانته ، فيخرُجُ نباتًا من نوْعه الأوّل

والضوءُ والماءُ والحرارةُ الملائمةُ والهواءُ المُطْلَقُ من أهمّ أركانِ حياةِ النبات ؛ وقد يُصْبحُ السّماد رُكنًا هامًّا اذا فَقَدتِ الأرضُ بعضَ العناصر التى تُكوّن جِرْمَ النبات

شجيرة خياليّة جامعة لأعضاء النبات
(ا) شعبة جذر ليفية (ب) جذر
(حـ) فلقا بذرة (د) ساق (هـ) ورقة
(و) عسلوج (ز) برعم (ح) كم
(ط) نور (ى) مئبر (ك) متأبر
(ل) ميسم المتأبر

وبعض أنواعِ النبات شئٌ من الحِسِّ والإرادةِ لا يصلانِ به إلى حدِّ الحيوانِ ؛ فلا

نزالُ نُشاهِدُ فصائلَ من النباتِ تُوَلّى وجْهَها شَطْرَ الضَّوْءِ والشمسِ حيثما كانا ؛ كأنَّ لها عُيوناً لا تُحبُّ الظُّلمةَ، كالخُبَّازَى وعَبّادِ الشَّمْسِ ؛ وفصائلَ أخرى تُغْمِضُ جفونَها إذا خيَّمَ الليلُ ، أو اشتدَّ البرْدُ كأنما تَنْعَمُ بِلَذَّةِ الكَرَى ؛ فإذا أشرقَت الشمسُ تنبَّهَتْ من غفلتِها، واستيقظَتْ من رَقْدَتِها ، لتَبْتَهِجَ برُؤْيتِها ، وتدفأ بأشعَّتِها ، كالنَّيْلُوفَر ؛ ونرَى بعضَ الفصائلِ ينكمِشُ من اللَّمس ، فيطوى أوراقه بأسرع مِمَّا تدخل الحلازينُ قُرونَها فى محارها .

ويُشاهَدُ فى النبات المتسلِّق أنه يُحَرِّكُ عَساليجَه تحريكا غريباً ؛ حتى لتحسَبُه يرْتادُ مَوْضِعاً يحُطُّ عليه . ومن النبات ما إذا وقعتْ على أوراقه حشَرةٌ أطبقَها عليها ؛ فلا تَنْفَتِحُ حتى يمتصَّ رطوبَتَها غذاءً له ، فهُوَ يُشبِهُ فى ذلك الحيوانَ القَوِىَّ ، يظفَرُ بالضعيف ، فيعْدُو عليْهِ ويَفترسُه

الجُندِىّ الأمين

حكى أبو بكر الطَّرْطُوشِىّ[١] فى كتابه « سِراج الملوك » قال : أخبرنى أبو الوَليد الباجِى[٢] عن أبى ذَرّ الهَرَوِىّ قال : كنتُ أقرَأُ على الشيخ أبى

---

(١) هو الفقيه الورِع المُحدّث ابو بكر محمد بن الوَليد الأندلُسى من أهل طرطوشة وكانت مدينة عظيمة بشرقى الأندلس أخذ العلمَ عن ابى الوليد الباجى وغيرهم ثم رحل الى المشرق ودَخل العراقَ والشامَ ومصر ثم أقام بالأسكندرية ونشر العلم بين أهلها ومات بها سنة ٥٢٠ ﻫ وقبره بها مشهور يزار

(٢) الفقيهُ المحدث أبو الوليد سليمانُ بن خَلَف من أهل باجة من مُدن الأندلس . دخل المشرقَ ولقِىَ أباذَرّ بن احمد الهرَوىّ المحدث بمكة وأقام معه بها نحو ثلاثة أعوام ومات بالأندلس سنة ٤٧٤ ﻫ

حَفْص عُمَرَ بن شاهينَ ببغدادَ جُزْءًا مِنَ الحديث في حانوتِ رجلٍ عطّار . فبينما أنا جالسٌ معه في الحانوت إذْ جاءه رجلٌ من الطَّوّافينَ مِمَّنْ يبيعُ العِطْرَ في طَبَقٍ يحمِلُه على يَدِه . فدفعَ اليهِ عشرةَ دراهم ، وقال له: أعْطني بها أشياءَ سمَّاها له مِنَ العِطرْ ، فأعطاهُ إيَّاها . فأخذها في طبقِه ، وأرادَ أن يمضِيَ ، فسقطَ الطبقُ من يدِه فكُبَّ جميعُ ما فيه . فبكى الطوَّافُ وجزِع ؛ حتى رحمناهُ . فقال أبو حفصٍ لصاحب الحانوت : لعلَّك تُعينُه على بعضِ هذه الأشياء . فقال : سمعاً وطاعةً ! فنزَلَ وجمع له ما قدَر على جمعه منها ، ودفع له ما عَدِمَ منها . وأقبلَ الشيخُ على الطوَّافِ يُصَبِّرُه ، ويقولُ له : لا تجزَعْ ؛ فأَمْرُ الدُّنيا أيْسَرُ من ذلك . فقال الطوّافُ : أيُّها الشيخُ ليْسَ جزَعِي لِضَيَاعِ ما ضاع ؛ لقد علِمَ اللهُ تعالى أني كنتُ في القافلةِ الفُلانيّةِ ، فضاع لي هِمْيانٌ فيه أربعةُ آلافِ دينارٍ ، ومعَها فُصُوصٌ قيمتُها كذلك ، فما جزِعْتُ لضَياعِها إذ كان لي غيرُها مِن المال ، ولكن وُلدَ لي ولَدٌ في هذه الليلةِ ، فاحتاجتْ أمُّه إلى ما تحتاج إليه النُفَساءُ ، ولم يكن عندي غيرُ هذه العشرةِ الدَّراهِمِ فخشيتُ أن أَشتريَ بها حاجةَ النُّفَساءِ ، فأبقَى بلا رأسِ مال ، وأنا قد صرتُ شيخاً كبيراً لا أقدِرُ على التكسُّب . فقلتُ في نفسي أَشتري بها شيئاً مِن العِطْرِ ، فأَطوفُ به صدْرَ النهار ؛ فعسَى أَنْ أستفضلَ شيئاً أَسُدُّ به رَمَقَ أهلي ، ويبقَى رأسُ المالِ أتكسَّبُ به ، واشتريت هذا العِطرَ ، فحينَ كُبَّ الطَّبَقُ علِمتُ أنه لم يبقَ لي إلاّ الفِرارُ منهم . فهذا الذي أوجبَ جَزَعي

قال أبو حَفْصٍ : وكان رجلٌ مِنَ الجُنْدِ جالساً إلى جانبي يَستوعِبُ الحديثَ . فقال للشيخ أبي حفص : يا سيِّدي ! أُريدُ أن تأتيَ بهذا الرجلِ إلى منزلي .

فظننا أنه يُريدُ أن يُعطيَه شيئاً . قال فدخلْنا الى منزله ، فأقبلَ على الطوّافِ وقال له : عجبتُ من جَزَعِك ! فأعادَ عليه القصةَ . فقال له الجُندِي : وكنتَ فى تلك القافلةِ ؟ قال : نعم ! وكان فيها فلانٌ وفلان . فعَلِمَ الجُنْدِيُّ صِحَّةَ قَوْلِه فقال : وما علامةُ الهِمْيانِ ؟ وفى أيِّ مَوضِعٍ سَقَط مِنك ؟ فوصَفَ له المكانَ والعلامةَ . قال الجُندِي : إذا رأيتَهُ تعرِفُه ؟ قال : نعم ! فأخرجَ الجُنْدِيُّ له هِمْياناً ، ووضعه بين يديه . فحينَ رآه صَاحَ ، وقال : هذا هِمْيانِى والله ! وعلامةُ صحةِ قولى أن فيه مِن الفُصوص ما هو كيتَ وكيتَ . ففتَحَ الجندىُّ الهِميانَ ، فوجَدَه كما ذَكَرَ . فقالَ : خُذْ ما لَك باركَ اللهُ لك فيه ! فقالَ الطوّافُ : إنّ هذه الفصوصَ قِيمتُها مِثلُ الدنانير وأكثرُ . فخُذْها ، وأنتَ فى حِلٍّ منها ، ونَفْسى طيّبةٌ بذلك . فقال الجُندِيُّ : ما كنتُ لآخذَ على أمانتى مالاً . وأَبَى أن يأخذَ شيئاً . ثمَّ دفعَها للطوّافِ جميعَها ، فأخذَها ومضى . ودخلَ الطوّافُ وهو مِن الفقراء ، وخرجَ وهو مِن الأغنياء

القِـرَدة

القِرْدُ ويُكْنَى أَبا خالدٍ حيوانٌ قبيحٌ مَليحٌ ذَكِيٌّ مُحاكٍ قابلٌ للتأديب وهو أشبهُ بالإنسان فى أكثرِ أحواله من سائرِ الحيوان ؛ فيضحَكُ ، ويطرَبُ ، ويَتناوَلُ بيدِه ، وله خَمْسُ أصابعَ ذاتُ أظافيرَ عريضةٍ تُقابل إبهامُها أربعَها ؛ ويقبَلُ التلقينَ والتعليمَ ؛ ويأْنسُ بالناس ؛ ويَمشى على أربعٍ

مَشْيَه المعتادَ ، ويسعَى على رِجْليه حِيناً يسيراً ، ولِجَفْنِ عينِه الأسفلِ أهدابٌ ، ويَغرَقُ فى الماء كالآدمىّ الذى لا يُحسِنُ السّباحةَ

وموطنُ القِرَدةِ الأقاليمُ الحارّةُ من كلّ القاراتِ إلاّ أُستراليا . ويقالُ إن فى جبل طارقٍ بأوربّةَ قَطيعٌ منه

ولِلْقِرَدةِ نِظامٌ فى مَعيشتها : فيخضَعُ ضعيفُها لقويّها ، ويسودُ الجميعَ أشدُّها قوّةً ، وأوثقُها خَلقاً ، وأحدُّها ظُفُراً وناباً ، وليستْ سيادتُه فيها مقصورةً على قهره إياها ، بل بدفاعه أيضاً عنها واستماتتِه فى مَنْعِ حِماها وحُسْنِ قيادَتِهِ لها ؛ ولذلك يخضَعُ له ذُكرانُ القطيع ، وتخدُمه إناثُه بتَفْلِية شعره وحَكِّ ظَهْره

وأنثَى القُرودِ تحمِلُ من سَبْعةِ أشهرٍ الى تسعةٍ . وتلِدُ ولداً واحداً يُسَمَّى « قِشَّةً » . وقَلَّما تلد اثنين . وولدُها أملطُ قبيحُ المنظرِ جدًّا ، ولكنَّ القِرْدَ فى عين أُمّهِ غزالٌ ، فتضمُّه إلى صَدرها وتُداعبه ، وتهتمُّ جدَّ الاهتمام بتنظيف بدَنِه من الأذى . وهى أحرصُ على ذلك من كثيرٍ من أُمهات النساء . ويكونُ الولد فى صغره عاجزاً قليلَ الحركَةِ والشُّعور . ثمّ تشتدُّ أعصابُه ويصيرُ يُحِبُّ اللَّعِبَ مع غيره من صِغارِ القرودِ ؛ فتجلِسُ أُمُّه حِيالَه تحرُسُه لِئلاَّ يُصيبَه أذًى . واذا مرِضَ سَهِرتْ عليه أكثرَ ممّا تسهَرُ الأُمُّ الرؤومُ من النساء على طِفلِها ، واذا مات تقومُ بجانب جُثّتِه ، وتنقطِعُ عن الطّعامِ والشّراب . وربما ماتت حزُناً عليه وكَمداً

وتنامُ القُرودُ قبلَ ظلامِ الليل ، وتستيقِظُ بعد شُروق الشمس ، فتصعَدُ إلى رُءوس الصخورِ والأشجار تتشرّقُ[1] حتى يجفَّ النّدَى عنها . ثم تُقلى

---

(١) تقعد فى الشمس لتجف وتستدفئ

جلودها وتُنظِّفُ أبدانَها ، ثم تغدُو فى طلب غِذائِهـا ، فلا تعِفُّ عن شيءٍ يُؤكَلُ من أنواع الثمار والجُذور والحبوب والأوراق والطيور والحشرات . وأموالُ الناس مُباحة فى مَذْهبها ؛ فتستحِلُّ سَرِقةَ الحُقول والكُروم والبساتين ولا يصُدُّها عنها سُورٌ ولا سِياجٌ . واذا بغَتَها[1] أحدٌ ، وهى تنهَبُ أموالَ الناس نَكَصَتْ[2] على أعقابِها ، ولاذَتْ بالفِرار . فاذا رأتْ أبوابَ النجاةِ مفتوحةً فذاكَ ؛ وإلاَّ ثارتْ فى وجه طالبها مُتعمِّدَةً الدِّفاعَ عن نفسها ، ولو كان الطالبُ إِنساناً أو فيلاً . ودفاعها مرٌّ كدِفاعِ الجَبانِ اذا شارَفَ الخطَرَ

وقلما تؤثِرُ القِردةُ المَشْيَ على الأرض ما أمكنَها الوثبُ علَى الأشجار . ولقد تتكاثَفُ الأشجارُ فى الغابات التى تُقيمُ فيها تكاثُفاً تستطيعُ معه أن تقطعَ عليها المراحلَ الكثيرة ، إلاّ أن يعترضَها جَدْولٌ أو مَسِيلُ ماءٍ ، فماذا تفعل اذاً ، وليسَ لها حظٌّ من السباحةِ ؟ إنها تجتمعُ كأنها تتشاوَرُ ، ويعلو بينها الصُّراخ ، ثمَّ تخيَّرُ موضعاً من المسيل بشاطئيه شجرتان متقابلتان ؛ فيُمسكُ أحدُها بشجرةٍ منها ، ويُمسِكُ آخرُ به ، ويُمسِكُ ثالثٌ بهذا ، وهكذا ؛ حتى تكونَ منها سلسلةٌ تهتزُّ وتترجَّحُ كأُرجوحةِ الوالى ؛ حتى يصلَ طرفُها فى عُلُوِّه الى الشجرةِ الأخرى ، فيمسكُ الأخيرُ بها ، فتكونُ من ذلك قنطرةٌ عجيبةٌ تجوزُها البقيةُ . وإذْ كانت القِردَةُ معروفةً بشدة مَيْلها الى العبَث والمُداعبة فقلّما يعمِدُ أهلُ القنطرةِ الى السُّكون وقتَ جواز غيرها من فَوْقها ؛ فلا تفتأُ تخمِشُها بأظافيرها ، وتعَضُّها بأسنانِها وتجذِبُ أذنابها رَغْمَ ما هى فيهِ من الخطَر المُحدِق ، غيرَ أن القردةَ كلَّها تجتازُ النهرَ سالمةً . ثم تتناوَحُ القنطرةُ الى الضَّفةِ الأُخرى

---

(١) فاجأها (٢) رجعت

وطوائفُ القرودِ كثيرة؛ ولكنها تُقَسَّمُ صِنفَينِ كبيرَيْن: هما قرودُ العالَمِ القديم، أى قرودُ آسيا وإفريقيّة وأوربة؛ وقرودُ العالم الجديد، أى أمريكا الشمالية والجنوبية. والقسم الثانى منهما يُقَسَّمُ طائفتين: وهما القُرودُ أشباهُ



قنطرة القردة

السناجيب والثعالب، والقُرودُ المتعاوِيةُ. وكلٌّ هذه وطنُها أواسطُ أمريكا من بلاد المكسيك الى بلاد البرازيل. والسِّنْجابيةُ منها حقيرةٌ فى شكلها وحركاتِها؛ فلا تكادُ تماثِلُ السنجابَ خِفَّةً ولا تمشى إلّا على الأربع. والمتعاوِيةُ أرقى منها كثيراً، وذنبها طويل قوىٌّ جدًّا يَلْتوِى ويَعلَقُ بالأغصان؛ فهى

تعتمدُ عليه أكثرَ مما تعتمدُ على أيديها. وتمتازُ بأنها لأسباب مختلفة تتعاوَى فتملأُ الوادىَ صُراخاً



بعض أنواع القرود

وقرودُ العالَمِ القديمِ تُقسَّمُ طائفتين أيضاً: أشباهِ الكلاب، وأشباهِ الإنسان فالأولى لها خَطْمٌ[1] طويلٌ وأسنانٌ كأسنانِ ذواتِ الأربعِ وأذنابٌ كأذنابِ الكلاب أو هى أطول. وهى أكثرُ القردة وُجوداً. ويسكنُ السودانَ المصرىَّ منها كثيرٌ. وهى مستكملة مزايا القرود؛ فإن لكلّ قطيع منها قائداً ذكراً

(١) الخطم فى الدوابّ مقدم الأنف والفم

يُدَبِّرُ أمورَها، ويُعَيِّن أعمالَ كلِّ واحدٍ منها. وهى تَظنُّ فى أنفسِها الترفُّعَ عن كل أنواع العجماواتِ حتى على الكلاب، مع ان الكلاب ليست دونها فَهْماً وذكاءً. ولمشابهةِ يدَيْها لِيَدِى الإنسان تستطيعُ أن تأكلَ بالسكين والشوكة، وتصبَّ الماءَ فى الكوب، وتشربَ منه؛ وتلبسَ الثيابَ وتركبَ الخيلَ، وتتعلَّمَ الحركاتِ العسكريةَ، وتخدُمَ أسيادَها كما يخدُمُهم الإنسانُ

والظاهرُ أن القدماءَ عرفوا ذلك واستخدموا القرودَ لغاياتٍ كثيرة. قال الدَّميرىُّ فى كتابه «حياة الحيوان»: إنَّ ملكَ النُّوبةِ أهدى إلى الخليفةِ المتوكِّل قِرْداً خيَّاطاً وآخرَ صائغاً. وقال: إنَّ أهلَ اليمَن يُعلِّمون القردةَ القيامَ بحوائجِهم؛ حتى إنَّ القصَّابَ والبدَّالَ يُعلِّمُ القردَ حفظَ الدُّكان حتى يعودَ. وذكر أنَّ قرداً ليزيدَ بن معاوية دُرِّبَ عَلَى رُكوبِ الحَمير، فركِبَ أتاناً وسابَق بها الخيلَ؛ وفى ذلك يقول:

فمَن مُبْلغُ القردِ الذى سبَقتْ به — جوادَ أميرِ المؤمنين أتانُ
تعلَّقْ أبا قيْسٍ بها إن ركبتَها — فليس عليها إنْ هلكتَ ضَمانُ

والثانيةُ تُشبِهُ الإنسانَ فى عِظَمِ الجسم ومواضع غَزارة الشعرِ وجُملةِ أعضاءِ الرأس

ومهما زادتْ نباهةُ القرودِ الشبيهةِ بالكلاب لا تَبلُغُ نباهةَ القرودِ الشبيهةِ بالناس التى منها: انسانُ الوَحْش (الشمبَنْزى)، والعِتْرِيسُ[1] (الغُورلا)،

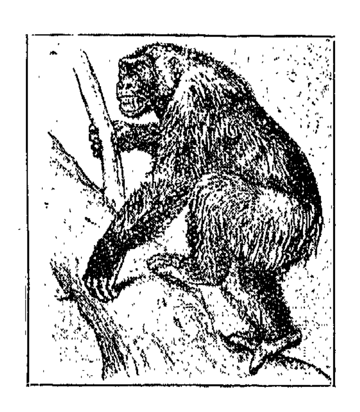
---

(١) العِتريسُ الجبَّار العظيمُ الجسم الغضبان والغُولُ الذَّكرُ. وبه سمَّيْنا هذا الوحش لانطباق أكثرِ الوصف عليه ولأن العرب تصف الغولَ فى أشعارها بما يُقارب وصفه

وإنسانُ الغَاب (الأوَرانغ أو تانْنع) وغيرها ؛ فان هذه القردةَ إذا رآها الإنسانُ اُضْطرَّ أن يعاملَها لا كما يعامل الحيوانَ الأعجمَ بل كما يعاملُ الإنسانَ الناطقَ

فأما القردان الأولان فلونهما أسود أو أغبر، ويعيشان فى السودان الغربىّ من إفريقية، وهما من فصيلة واحدة، غير أن العِتريسَ أصغر آذانًا وأضخمُ جُثَّة وأشرَسُ خُلُقاً وأبعدُ من التأديب غايَةً

ولإنسانِ الوحش أصواتٌ مَقْطَعِيَّةٌ يدُل بها على أغراضِه ؛ حتى إن الأولادَ الذين يُرَبَّوْنَ معه يستطيعون أن يفهَمُوا مُرادَه حالاً . وهو يخضَعُ



العتريس (الغورلا)



انسان الوحش (الشمبنزى)

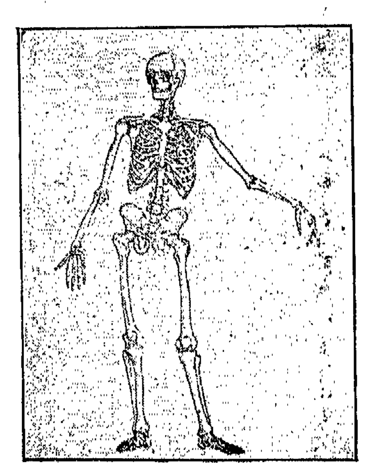
للإنسان، ويظهر منه أنه يشعُرُ بسيادته عليه وارتقائه عنه . ولا يُقِرُّ بهذه السيادةِ لأحدٍ غيرِ الإنسان، بل يَعُدُّ نفسَه أرفعَ من كلِّ الحيوان ولا سيما بقية طوائف القُرود . ويُحِبُّ اللعِبَ مع الأطفال وتفحُّصَ الآلاتِ والأدوات . وإذا فَهِمَ طريقةَ تحريكها وطُرُقَ استعمالِها طَرِبَ طرَباً عظيماً كأنه كَشفَ سِرًّا خَفِيًّا . وهو ظريف لطيفٌ، ليّنُ العريكةِ ؛ تراه تارةً جذِلاً طرِباً وتارةً حزيناً كئيباً، وقلَّما يتقلَّب

إلاّ عَلَى هاتَيْنِ الحالَتين ويندرُ أن يُشاهَدَ على توسُّط بينهما

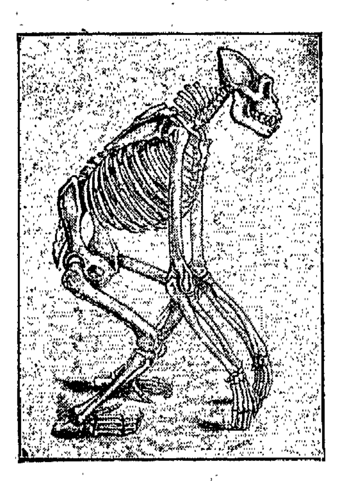
وأما صِنفُ إنسانِ الغاب فإنه أكلفُ اللونِ وأكثر بُعْداً من إنسان الوحش فى مشابهـةِ الجنسِ البَشرىّ منْ حيثُ الهيكلُ العظمىُّ والنطقُ ، ويعيش على أشجار غابات سومَطْرَةَ وبُرنيو

وكلا الصِّنفينِ شبيهان بالإنسانِ فى الوقوف أحياناً على القدمَيْن والاستعانةِ بالهَرَاوَى والحجارة ، وأعضاءِ الهضمِ ، وموضع غزارة الشعر

ويبعدان عنه بكثافةِ شعر الجلد حتى يصيرَ فروةً ، وقِصَرِ فِقار العُنق ، وقلةِ عددِها ، وضَخامتِها ، وضِيق زاويةِ الوجه الآتى من صِغَر الدّماغ وجُمجمته ، وطُولِ الساعدين ، ورَبالةِ[١] البَطن ، وقَعَسِ[٢] الصَّدرِ ، وانْدغامِ الخاصِرَتَيْنِ



هيكل انسان



هيكل عتريس

وعِرَض الأفخاذِ ، ودِقّةِ عَظمِها وعَضَلِها ، ودِقةِ عَظْمِ الرُّكبةِ ، ومشابهةِ تكوينِ الرِّجلِ لتكوينِ اليد ، وأن إبهامَها تطولُ وتُقابِلُ الأصابعَ كلَّها ، وأن سُلامَيَاتِها[٣] تطولُ وتنحنى الى أسفل : مِمّا يُعِدُّها لتسلّق الأشجارِ

(١) كِبَرُه (٢) خروجه الى الامام وتحدّبه (٣) جمع سُلامَى وهى عُقَد الأصابع

مدينة الفُسطاط

﴿ مصر العتيقة ﴾

هى إحدى الحواضر العظيمة التى بنتها العربُ عند فتحها ممالكَ الفرس والروم لتكونَ معقلا لجنودها، ووطناً جديداً للمهاجرين من قبائلها يجمع كلمتهم ويؤخّر اندماجهم فى الامم المغلوبة لهم. وهى ثالثة الحواضر التى أنشئوها لهذا القصد، أولاها البصرة، وثانيتها الكوفة

وقد توخّى العربُ فى أوليات المدن التى أنشئوها أن تكون على اقتراب من الرّيف واتصالٍ بالصحراء، وإن فاتها بعضُ مزايا الحصانة الحربية والمرافق التجارية؛ وذلك لجملة أسباب :

الأول — أنهم كانوا قد بنوها فى أوائل الفتح أيامَ لم ترسخْ أقدامهم بعدُ فى البلاد رسوخاً يؤمنهم لقلّة عددهم أن يُحاطَ بهم، فحفظوا طريقَ الرّجعة إلى بلادهم ووصول المددِ منها اليهم. وبذلك أوصاهم خليفتهم العظيمُ عمرُ بنُ الخطاب (رضى الله عنهُ) حينما استشاره أمراء الجنود بمصرَ والعراق فى اختيار المنازل التى ينزلونها، فكتبَ اليهم أن « لا تنزلوا المسلمينَ منزلاً يحُولُ بينى وبينهم بحرٌ أو نهرٌ، متى أردتُ أن أركبَ راحلتى حتى أقدَمَ عليهم قدمتُ »

الثانى — أن العربَ فى أوّل أمرهم كانوا بدْواً أصحابَ إبل، وهى لا يُصلحها الاّ مراعى الصحراء ومُناخُها، ولا يَسلَمُ نِتاجُها زمنَ الشتاء إلاّ فيها

الثالث — أنَّ نشأتهم البدوية بين أجواء الصحارى الجافة جعلتهم يستوبلون[1] أرضَ المُدُن ، ويستوخمون العيشَ بين مَناقع المياه وأسمدة المزارع وفضول المصانع ؛ فابتعدوا عنها لئلاَّ تنتقض[2] صحّتهم ، وتضنى أبدانهم

على هذا الأساس بنى عمرو بنُ العاص مدينةَ الفُسطاط في مكانها بعد استشارة عُمَر ، كما بنى سعدُ بن أبي وقّاص أمير جيوش العراق مدينة الكوفة بعد أن كان نازلاً بمدائن كسرى ، وبنى عُتْبةُ بن غَزْوان البصرة

ولكنَّ الفُسطاط لم تتوافرْ فيها كلُّ هذه الشروط . وكان خيراً للعرب من حيثُ الصحّةُ وجودةُ الهواءِ أن لو اتّخذوا عَيْنَ شمسٍ مثلاً حاضرةً لهم ، كما رأى ابن رضوان الطبيبُ المصرى وعبدُ اللطيفِ الرّحالةُ الفيلسوفُ البغداديُّ وابن سعيد المؤرّخُ المغربيُّ ، متعجّبين من بناء الفُسطاط في وَهْدةٍ من الأرض بين ثلاثةِ جبال : المقطَّم ويَشْكُرَ وراشدةَ تحجُب عنها رياحَ الصَّبا ، وبَيْنَ النيل الذى يجعلُ أرضَها في زمن الفيضان سَبِخَةً نَزّةً

وكانَ في موضعِ الفُسطاطِ حين نزلَها عمرٌو بجيوشه الحِصنُ ، وشرقيَّهُ جُمْلَةُ أَدْيِرَةٍ ، وشماليّهُ أرضٌ فضاءٌ يتخلَّلها بعضُ مزارعَ وبَساتينَ وكُرومٍ ، وكانت هذه بقايا مدينةٍ كبيرةٍ كانت تُسمَّى قديماً بابليونَ ، وتُسمّيها العربُ في الجاهليةِ مِصْراً ، وأطلقوا اسمَها على الإقليم كُلِّه ، ثمَّ خربتْ . ويُقال إنَّ الفُرسَ بنَوْها ، وسخّروا في بنائها أسرى بابلَ حينَ فتحُوها فسُمِّيَتْ باسْمِهم . والمُرجَّحُ أنهم هم الذين بنَوا الحِصْنَ ، إلاَّ أنَّ الشاراتِ الرُّومانيةَ التى على الحصن تدُلُّ على أنَّ الرومانَ أتمُّوه أو جدَّدُوه

---

(١) أى لم توافقهم فى صحة ابدانهم (٢) تعتلّ

ولمّا فتَحَ العربُ الحصنَ سنة ٢٠ هـ ، وأجْمَعُوا على المسير الى الإسكندريةِ أمرَ عَمْرٌو بفُسطاطِه أنْ يُقوّضَ ؛ فإذا يمامةٌ قد باضتْ فى أعلاهُ . فقالَ : لقد تحرّمتْ بجوارِنا ، أقِرّوا الفسطاطَ حتى تُنْقِفَ ، وتطيرَ فِراخُها . ووكّلَ بهِ من يَحفَظُه أن لا تُهاجَ . ومضى الى الإسكندرية ، ففتَحها . وكتَبَ إليه عُمَرُ بنُ الخطّابِ ألاّ يتخذَها مَنزِلا . فاستشارَ أصحابَه فقالُوا : نرجعُ أيُّها الأميرُ الى فسطاطِكَ ؛ فنَكونَ على ماءٍ وصحراءَ . فرجَعُوا ، وجعَلوا يقولُون : نزَلْتُ عن يمينِ الفُسطاط أو عن شِمالِه . فسُمّيَتْ البُقعةُ بالفُسطاطِ لذلك

وأمَرَهُمْ عمرٌو بتقسيم الأرض ، فتنافسُوا فى المواضِع . فولّى عمْرٌو عَلَى تنظيم الخِطَطِ مُعاويةَ بنَ حُدَيْجٍ السَّكُونى ، وشَريكَ بن سُمَيّ الغُطَيْفىّ ، وعمرو ابن قَحْزمٍ الخَوْلانى ، وحَيْويل بن ناشرةَ المَعافِرى . فسُمّيَتْ كلُّ منزِلة لقبيلةٍ خِطّةً كما تُسمَّى نظيرتُها فى القاهرة حارةً

وموضِعُ مدينةِ عمرو القديمةِ هـذه التلولُ والأنقاضُ التى شَرْقيَّ النيل وتبتدئ من الجبَلِ الصغيرِ المُحاذِى للساحل القبلى جنوباً (الذى كان يُسَمَّى جبلَ راشدةَ) إلى نِهـايةِ تلِّ أبى السعودِ الجارحِيّ بالقربِ من قناطر قناةِ المياهِ المعَلّقةِ شمالاً . ولم يكُن النيلُ فى ذلك الوقتِ ضيّقاً بيْن الفُسطاطِ والرَّوْضةِ كما هو الآنَ ؛ بل كانت أمواجُه تضربُ فى سَفْحِ جبل راشدةَ وجِدارِ حِصْنِ بابليُونَ الغربىّ ، وكان له مِقياسٌ بجانبه . ويجرى من تحت جامع عمرو ودارِه سالِكاً طريقَ شارعِ أبى سَيْفَيْنِ وسِكّةِ حديدِ حُلوانَ . وبعد الفتح بعِدّةِ سنوات انحرفَ مُعْظَمُ النيل الى برّ الجيزةِ ، وتخلّفَ عنه غربىَّ الفُسطاطِ شيئاً فشيئاً أرَضُونَ بطولِ جزيرةِ الفسطاطِ (التى سُمّيَتْ بعدُ جزيرةَ

الرَّوْضة) بَنَى فيها الناسُ بالتدريج بُيوتاً وقُصوراً ، وأنشئُوا فيها حدائقَ وبساتين

وكانت أبنيةُ العرب في أوَّل الأمرِ بالطِّينِ واللَّبِنِ طبقةً واحدةً على الأرضِ ، ولم يتَّخِذوا العَلالِيَّ والغُرفَ إلاَّ بَعْدَ إِذْنٍ من عُمَرَ بنِ الخطابِ بشرط أن تكون طاقاتُها مُرْتفعةً حتى لا يطَّلِعَ امرُؤٌ عَلَى جارِه ؛ ولكنَّهم بعد عُمَرَ اتَّخذوا القصورَ والرِّباعَ ، وجعلوها طِباقاً خَمْساً وسِتّاً ، قد يسكُنُ الرَّبعَ المائةُ والمائتان ، وبالغوا في صُنعِ أبوابها ومَشاربها وحمَّاماتِها ، واسْتَبْحَر العُمرانُ بها وماجَتْ بسُكَّانِها ، وضاقَتْ بهم ذَرْعاً ؛ ورسَتْ عَلَى ساحلها مراكبُ مصرَ العُليا والسُّفلَى وسُفُنُ البحرِ الأحمرِ بعدَ أن حفرَ عَمْرٌو خليجَ أميرِ المؤمنين إلى القُلْزُم ، ومراكِبُ البحرِ الأبيض الآتيةُ من دِمياطَ ؛ فأصبحتْ أضخمَ مدينةٍ إسلاميةٍ حاشا بغدادَ . واشتهرتْ بعِدّةِ صِناعاتٍ ظهرَ فيها بَرَاعةُ العربِ والقِبْطِ : كصناعةِ الورَقِ والسُّكَّرِ والصابونِ والخَزَفِ والشَّمعِ والنِّجارةِ والنَّقْشِ والبناء .

ولم يَعُدْ فيها موضِعٌ يتَّسِعُ لجُنودٍ كثيفةٍ تنزِلُه . فلما سقَطَتْ دولةُ بني أُميّةَ وجاءتْ جُيوشُ الدّولةِ العباسيةِ بقيادةِ صالحِ بنِ عليٍّ [1] لمُطارَدةِ مَرْوانَ بنِ محمَّدٍ آخرِ الخُلفاءِ الأُمَويِّينَ نزَلَ عسكرُه شماليَّ الفُسطاط ؛ فسُمِّيَ منزِلُه العَسْكَرَ وهو الموضِعُ الذي يبتدئُ الآن من أبي السعود إلى شارعِ الحَوْضِ المَرْصُودِ . وبَنَوْا فيه المنازلَ ، والقصورَ ، وأقامَ فيه أُمراءُ الدولةِ قَصْرَ الإمارةِ ودواوينَ الدَّولةِ . وكان مَقَرّاً لوُلاةِ بني العباسِ والدولةِ الإخشيديّة . ويشتمِلُ الآنَ على حيّ زَيْنِ العابدينَ ومَقبرَتِه والمَذْبَحِ والبغَّالةِ والماوَرْديّ والكَبْشِ . وصارَ مع الفُسطاطِ مدينةً واحدةً مُكْتَظَّةً بالسُّكَّانِ

---

(١) هو صالح بن على بن عبدالله بن عباس ، عم الخليفة السفاح

فلمّا أرادَ ابنُ طولون الاستبدادَ بملكِ مصرَ اشترى كثيراً من العبيد السُّودِ والمماليكِ من التُّركِ والأرْمَن وغيرهم، وضاقَتْ بهم الفُسطاطُ والعَسْكرُ؛ فاتخذَ مدينةً لهم شرقيَّ العَسْكر الى الشمال قليلاً. فدخلَ جبلُ يَشْكُرَ (الكَبْش وطولون) فيها الى الرُّمَيْلَةِ وقُبّةِ الهواء (القلعة) أى قِسْمُ الخليفةِ الآنَ تقريباً؛ وجعل لكلّ طائفةٍ من السُّودان والترك والأرْمَنِ والخَدَم وأرباب الصناعةِ قطيعةً، فَسُمِّيَتِ المدينةُ بالقطائع. وجعل قصرَه تحت قبّةِ الهواءِ (القلعة) وبجانبِهِ ميْدانه. وبَنَى جامِعَهُ العظيمَ ودارَ إمارتِه وبيمارستانَه على جَبَلِ الكَبْش. حتى انتقض أمْرُ أولادِه وأحفادِه؛ فجاء مُحَمدُ بنُ سُلَيمانَ الكاتبُ مِنْ قِبَلِ الدولةِ العباسيةِ بجيشٍ كثيفٍ فاستولَى على مِصْرَ، وقَبَضَ عليهم، واستحوذَ على أموالِهم وذخائرِهم، وأبادَ خَضْراءَهم[1] وهدمَ قصورَهم، وخرّبَ بساتينَهم، ولولا المعَرّةُ لَهَدَمَ مسجدَهم. وبَقِيَ بعدَ ذلك فى القطائع جملةُ منازلَ مُبَعثَرةٍ على الكَبْش وحَوْلَ الجامِعِ الى زَمَنِ المجاعةِ العظيمة والوباءِ الجارفِ أيامَ المستنصرِ الفاطميّ، فخرِبَتْ القطائعُ

أما الفسطاطُ فبَقِيَتْ زاهرةً عامرةً حتى استولَتْ الدولةُ الفاطميةُ على الديارِ المِصرية سنة ٣٥٩ هـ، وتَقَلَتْ معها مِنَ المَغْرِبِ جيُوشاً جرَّارةً. وكانَ لهم فى الدِّينِ والسياسةِ مَذْهَبٌ خاصٌّ وتَقاليداتٌ دقيقة؛ فاضْطُرُّوا إلى إنشاءِ مُعَسكَرٍ عظيمٍ لهم يتَوَسّطُه قصرُ خليفتِهم؛ فأنشئُوا القاهرةَ المُعِزّيةَ فكانت سُكَناً لِلجُنودِ، وداراً للخِلافةِ، ودواوينَ للدّولةِ. فانتقلَ الأعيانُ

---

(١) الخضراء سواد القوم ومُعظَمهم. وقال الزَّمَخْشَرىّ فى الأساس «أبادالله خضراءهم: شجرتهم التى منها تفرعوا»

والأغنياءِ والوُجَهاءِ إليها . وأخذَ شأنُ الفُسْطاط فى الخُمُول ، حتى أخْنَتْ(١) عليها المَجاعَةُ والطاعونُ زمنَ المستنصرِ . وما زالتْ فى تقهقُرٍ إلى أن دخل الصَّليبيُّونَ الديارَ المِصريةَ ، فنزلوا بجهةِ البساتينِ ، وخافَ وزيرُ الدَّولةِ المستَبِدُّ بأمرِها شاوَرُ بنُ مُجيرٍ السَّعْدِيُّ أنْ يعتَصِمُوا بالفُسطاط ، ويتغلَّبوا بذلك على القاهرةِ ، فأمَرَ بإحراقها سنة ٥٦٤ هـ ، فخرَجَ أهلُها سِراعاً ، وبَقِيَتِ النارُ تعمَلُ فيها بِضْعَةً وخمسين يوماً ، حتى صارت تِلالاً من الرَّمادِ تُشَاهَدُ إلى الآنَ . ثمَّ لمَّا انتهتِ الحروبُ الصليبيةُ عمَرَ ثُلْثُها الغربىّ على ساحِلِ النيلِ ، وخاصةً أواخرَ الدَّولةِ الأيُّوبيةِ عِندَ ما اتخذَ الملِكُ الصَّالحُ نجمُ الدين أيُّوبُ جزيرةَ الروضةِ مُتَنَزَّهاً له ، وشيَّدَ فيهـا قلعةً وقَصْراً ، وحَمَلَ الناسَ عَلَى كَرْىِ مَجْرَى النيـلِ أمامَ الفُسطاط ، وحضَرَه بنفسِه . فعادَ للفُسطاط بعضُ الرَّوْنَقِ ؛ حتى توالت الأَوْبِئَةُ والمجاعاتُ عَلَى مِصْرَ زمَنَ المماليكِ البَحْرِيَّةِ، فخَرِبَتْ مع ما خربَ من البِلادِ أواخرَ القرْنِ الثامنِ إلاّ سلسلةً من المنازلِ مُبعْثَرَةً على ساحِلِها . ثمَّ عمَرَ غربيُّها قليلاً فى أواخرِ القرنِ الماضى بشُمولِ الأمْنِ واعتـدالِ الاحْوالِ شيئًا ما . ولمَّا أُلِّفت الحـكومةُ لجنةَ حِفْظِ الآثارِ العَربيةِ كانَت الفُسطاطُ مَيْداناً عظيماً لبَحْثِها وتنقيبِها ، فكشفَت الغِطاءَ عمَّا خَبَأَتْهُ أيدِى الحَدَثانِ تحتَ رَمادِ الحريقِ وأنقاضِ البِناءِ . وظهَرَ اكثرُ المدينةِ القديمةِ بشوارعِها ومَصانِعِها وحمَّاماتِها ومَساجِدِها وفنادِقِها كأنها مدينةُ بُمْبَيْه التى طمَرَها ويزُوفُ . ولم تُتِمَّ لَجْنةُ الآثارِ عمَلَها بَعْدُ . وبِدارِ الآثارِ العربيةِ كثيرٌ من دَفائِنِ هذه المدينةِ معْروضَةً للأنظارِ

---

(٢) أهلكتها

صِدقُ الإيمان

﴿ الدُرَّة اليتيمة ﴾

قال صاحب عجائب الهند[١] :

حدَّثَ غيرُ واحدٍ من البحريِّينَ بأمرِ الدُّرَّةِ المعروفةِ باليتيمةِ (وإنما سُمِّيتِ اليتيمةَ لأنه لم يُوجدُ لها أُختٌ في الدنيا) . وأجوَدُهم شرحاً للقصَّةِ حَدَّثَ أنه كان بعُمانَ[٢] رجلٌ يقالُ له مُسْلِمُ بنُ بِشْرٍ . وكان رجُلاً مستوراً جميلَ الطريقةِ ، وكان مِمَّن يُجَهِّزُ الغَوَّاصَةَ في طلبِ اللؤلُؤ . فلم يزَلْ يُجَهِّزُ الرجالَ للغَوْصِ ، ولا يرجع إليه فائدةٌ ، حتى ذهبَ جميعُ ما كان يملكه . ولم يبقَ له حِيلةٌ ولا ذَخيرةٌ ولا ثَوبٌ ولا شيءٌ يجوزُ بيعُه الاّ خَلْخَالٌ بمائةِ دينارٍ لزَوْجتِه. فقال لها : أقرضِيني هذا الخَلخالَ لاجهِّزَ به ؛ فلَعلَّ اللّهَ تعالى يُسَهِّلُ شيئاً. فقالت له : يا هذا لم تبقَ لنا ذخيرةٌ ولا شيءٌ نُعوِّلُ عليه ، وقد هلكْنا وافتقرْنا ؛ فلأَنْ نأكلَ بهذا الخَلْخَالِ أصلحُ من أن نُتْلِفَهُ في البحرِ . فتلَطَّفَ بها وأخذَ الخَلْخالَ وصرَفهُ وجهَّزَ بجميعِه الرجالَ الى الغَوْصِ ، وخرجَ معهم . ومِنْ شَرْط المَغاصِ أنْ يُقيمَ الغَوَّاصَةُ فيه شهرَيْنِ لا غيرُ ؛ وعَلَى هذا يتشارطُون . فأقاموا يغُوصون تسعةً وخمسينَ يوماً ، ويُخرجُونَ الصَّدفَ ويفتحونَه ، فلم يحْصُلْ لهم شيءٌ . فلما كان اليومُ السّتُّون غاصُوا عَلَى اسمِ إبليسَ (لعنه الله) ، فوجَدُوا فيما أخرجوه صدفةً استخرجوا منها حبّةً

---

(١) تقدمت ترجمته (٢) كورة بالشرق الجنوبي لجزيرة العرب على مدخل الخليج الفارسي من المحيط الهندي وهي كثيرة الحر ، وحاضرتها الآن مدينة مسقط وكانت قديماً مدينة صُحار

لها مقدارٌ كبيرٌ ، لعلّ ثمنَها يُوَفِّي ما كان يملِكُه مُسلِمٌ منذُ كان وإلى وقتِه .
فقالوا : هذا وجدناهُ على أسمِ إبليسَ (لعنه الله) فأخَذَها وسَحَقها ورَمَى بها
في البحر. فقالُوا له: يا رَجُلُ لِمَ فعلتَ هذا ؟ أنت قد أفتقرتَ وهلكتَ ،
ولم يبقَ لك شيءٌ ! يقعُ بيدك مثلُ هذه الحبةِ التي لعلّها تساوى آلافَ دنانيرَ
فتسحقُها ؟ فقال سبحانَ اللهِ ! كيفَ أَستحلُّ أن أنتفعَ بمالٍ أُستُخرِج على أسمِ
إبليسَ وإني أعلم انَّ اللهَ تباركَ وتعالى لا يُبارِكُهُ ؟ وإنما وقعتْ هذه الحبَّةُ
بأيدينا ليختبرَني اللهُ تعالى بها ، ويعلَمَ من يعرِفُ خبرَها أعتقادي . ولئن
أنتفعتُ بها ليَقْتَدِيَنَّ كلٌّ أحدٍ بي ؛ فلا يغوصُون إلاّ عَلَى اسمِ إبليسَ
(لعنه الله) ؛ فإثْمُ ذلك يعظُمُ على كلّ فائدةٍ وإنْ عظُمَتْ ؛ ووَاللهِ لو كانَ
مَكانَها كلٌّ لُؤلُؤٍ في البحرِ ما تلبَّسْتُ به ! امضُوا فغُوصُوا وقُولوا : باسمِ اللهِ
وبِبركةِ اللهِ ! قال فغاصوا على ما رَسَمَ لهم ، فما صلَّى صلاةَ المَغْرِبِ من ذلك
اليوم ، (وهو آخر يوم من الستين) حتى حصَلَ بيده دُرَّتان : إحداهُما
اليتيمةُ ، والأخرى دونَها بكثير. فحملَهما الى الرَّشيدِ ، وباع اليتيمةَ بسبعينَ
ألفَ دِرهم ، والصُّغرى بثلاثين ألفَ دِرهم ، وأنصرف إلى عُمانَ بمائةِ ألفٍ
فبنى بها داراً عظيمةً ، واُشترى ضِياعاً ، واُعتقدَ[1] عقاراً . ودارُه معروفةٌ بعُمانَ .
فهذا ما كان من خبر الدُّرَّة اليتيمة

---

(١) اقتنى وملَكَ وجمعَ . والعقَارُ كلّ مِلْكٍ ثابت كالدار والنخل

القمـــــر

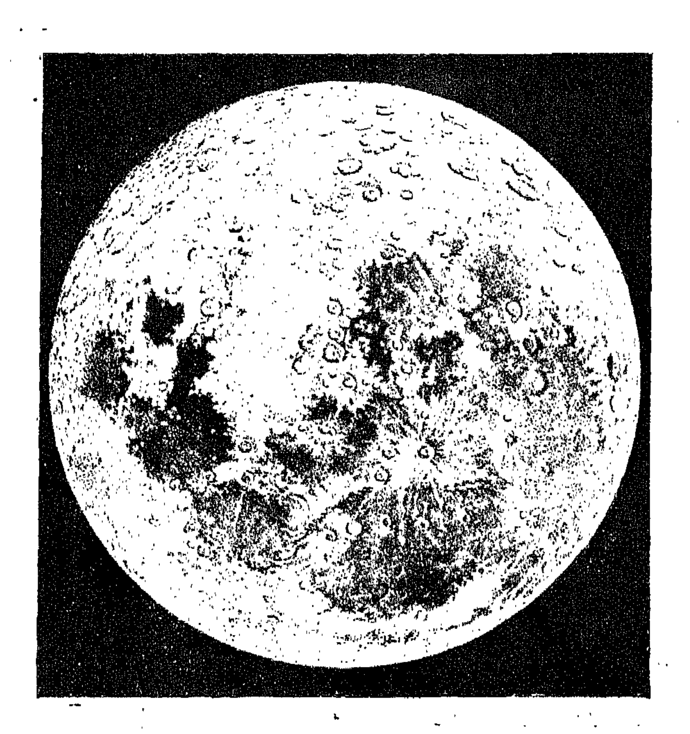
القمرُ أَجْمَلُ الكواكبِ صُورةً وأبينُها مَنظَراً وأسهلُها رَصْداً، وأكبرُها في رَأْيِ العَيْنِ بَعْدَ الشمسِ جِرْماً

وهو سيَّارٌ كُرِيٌّ أصغرُ مِنَ الأرضِ بِنَحْوِ تسعٍ وأربعينَ مرةً. انفصلَ مِنها زَمَنَ التَّكوينِ، وصارَ تابِعاً لها، طائفاً حَوْلَها، مستمِدّاً نورَه مِنَ الشَّمْسِ مثلَها، دائراً حَوْلَ الشمسِ معَها؛ غَيْرَ أنَّ طوافَ الأرضِ بقمرِها حولَها يتمُّ في سنةٍ شمسيةٍ وطوافَ القمرِ حولَ الأرض يتمُّ في شهرٍ قمريّ: أي مدة تسعٍ وعشرينَ يوماً ونصفِ يوم تقريباً. ومع أنهُ خاضعٌ لنظامِ الأرض لا يقلُّ بُعْدُه عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتيْ ألفِ ميل

والذى يسترعِى أنظارَنا كما استرعَى أنظارَ مَنْ قبلَنا اختلافُ أشكالِه وتعدُّدُ مَطالِعِه: مما جعلَه مبعَثَ تخيُّلِ القُدَماءِ ومَثارَ تفكرِ الحكماءِ ومقصِداً لعبادَةِ الجُهلاءِ! فتراهُ يلوحُ ليلةَ أوَّلِ الشهرِ إِثْرَ غروبِ الشمس ضئيلاً مُقَوَّساً لا يلبَثُ أنْ يغرُبَ ويغيبَ في شفَقِ الشمس؛ ثم يُهَلُّ في الليلة الثالثة أَبْيَنَ صورةً وأَبْقَى زمناً لازدياد تأخُّرِه في الغروب عن الشمس؛ ولا يزالُ نورُه في تزايُدٍ ومَطالِعُه في تقدُّمٍ نحوَ المشرق؛ حتى يطلُع من المشرق في الليلةِ الرابعةَ عشرةَ عند غروب الشمس بدراً كاملاً بَهِيَّ الطلعةِ باهرَ الأنوار، فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين

ولكنَّ الكمالَ لِلهِ وَحْدَهُ؛ فإن منتهَى الزيادة مُبتَدأُ النَّقْصِ؛ ففى الليلةِ الخامسةَ عشرةَ يتأخَّرُ طلوعُه من المشرق، وينقُصُ من حافَةِ نورِه التي كانت

موضعَ هلالِه الأوّل زيقٌ لا يُشعَرُ به إلاَّ فى الليالى التالية ، ولا تزال مَطالِعُه فى تَقَهْقُرٍ ونُورُه فى تناقُصٍ حتى قُرْبِ آخرِ الشهرِ ؛ فيُشْرِقُ قُبَيْلَ الفجْرِ هلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مَقلوبَ الهلال الأول ، وفى الليلةِ الأخيرةِ يكونُ عندَ الصَّباحِ فى الافقَ الشرقىّ مُظلِماً لا يُرى منه شىءٌ ، وهى ليلةُ المُحاقِ أو



صورة شمسية للقمر

السِّرار . ويظَلُّ بعضَ النهار كذلك ، ثم يتولَّدُ هلالُه الجديدُ ؛ ولكنَّه لا يظهَرُ إلاَّ بعدَ أن يغيبَ قُرْصُ الشمسِ ، فيلوحُ هلالُه ثم يختفى كما قدمنا

وعِلَّةُ ذلك أن نُورَ القمرِ كنُورِ الأرض مُستَفادٌ من الشمس . وهو لا يُقابِلُ الأرض إلاّ بوجهٍ واحدٍ لا يتغير . وهذا الوجهُ بالنسبة إلى حركتِه مع الأرض حولَ الشمس لا يُقابِلُ الشمسَ مُقابلةً تامةً إلاّ فى وضعٍ واحدٍ ومرةً

واحدةً هي الليلةُ الرابعةَ عشرةَ، فيغشاه نورُها، ويصيرُ بدراً. أمَّا بقيةُ الليالي التي قبلَها والتي بعدَها فينحرفُ قليلاً أو كثيراً عنها؛ حتى يصيرَ كلُّه ظلاماً ليلةَ المِحَاق، فيُطوَى خبرُه، ويكونُ الوجهُ الآخر الذي لا يُرى لنا بدراً كاملاً. ثم يتولَّدُ هلالُه خَلْقاً جديداً

وكذلك شأنُ الأرض في استمدادِ نورها أوْ ما نُسَمِّيهِ نهاراً؛ فلو كان في القمر سُكانٌ لكانتْ في رأي أعينِهم أكبرَ كوكبٍ في السماء، ولَشاهدوها أكبرَ من الجِرْمِ الذي نُشاهِدُ القمرَ عليه أضعافاً مُضاعفةً، ولكانتْ عندَهم أروَعَ جمالاً وأبدَعَ من قمرهم في نظرنا تَشَكُّلاً؛ فبدوَرانِها على نفسها يرَوْنَها كلَّها جزءاً فجزءاً، وتظهرُ قارَّاتُها ومُحيطاتها وَاضحةً عليها في وقت الصَّحْوِ ومُظَلَّلاً بعضُها بالغمام في وقت الدَّجْنِ، وتبدُو أهلَّتُها وبدورُها ضخمةً باهرةً ولكن لا يراها إلاَّ سُكانُ النصفِ المُقابِلِ لنا أو الذين يُريدون التَّفرُّجَ برؤيتها من أهل النصف الثاني.

ولقُربِ القمر منا وخُلُوِّ جوِّه من الهواء سَهُلَ رصْدُه علينا؛ فنرى في صفحتِهِ عند الشُّروق ليلةَ التِّمامِ كثيراً من المَحْوِ[١] يجعلُ صورتَه أشبهَ بوجهِ إنسانٍ ذي أنْفٍ وفمٍ وحاجبينِ وعينينِ إحداهما مُغْضِيةٌ. ولا يزالُ كذلك؛ حتى يتعدَّى خطَّ زَوالِ مكانِ الناظرِ. فإذا مال الى المَغربِ انحرفَتْ هذه الصورةُ حتى يصيرَ عاليها سافلَها. وليس هذا المَحْوُ إلاَّ ظلامَ بطونِ الأوديةِ والسُّهول البعيدةِ الغَوْرِ وظِلاَلَ الجبال والهِضاب الشاهقةِ الطُّولِ شُهوقاً يكاد يمنع استدارتَه. أما قِمَمُ الجِبالِ وسُطُوحُها المُقابلةُ للشمس

---

(١) المحو: السوادُ في القمر

فترَى لامعةً ساطعةً فتَبينُ سلاسلُ الجبال طرائقَ مضيئةً وقِمَمُها نُقطاً لامعةً وفُوَّهاتُ جبال ناره الشديدةُ السَّعَةِ البعيدةُ الغَوْر التى تُعَدُّ بعشرات الألوفِ كأنها حلَقاتٌ وسَطها نُقَطٌ سود

وقد ظن القدماء فى عِلَّة المَحْو ظُنوناً بعضُها صادَفَ الحقيقةَ وبعضُها جانبَها حتى ظهرَ غالِيليُو، واُخترَعَ سنة ١٦٠٦ م مِرْقَباً يقرِّب الأشباحَ ثلاثين مَسافةً فأَثبتَ وُجودَ الجبالِ والأوديةِ فيه. وزادَ عليه غيرُه فى تحسين المراقبِ المُكَبِّرةِ حتى أصبح القمرُ يُرَى كأنهُ عَلَى بُعدِ أربعينَ مِيلاً منا. عَلَى أن هــذا القرب لا يجعلُنا نرى الأشباحَ الصغيرةَ التى من نوع الحيوان لنتحقق أَلِلقَمَر سُكَّانٌ كما للأرض أو لا، ولكن قد أصبح من المرَجَّحِ إنْ لم يكن من المحَقَّق أنهُ خالٍ من الماءِ ومن السَّحاب والضَّباب الناشئِين منه ومن النباتِ؛ إذْ لو كان به شىء منها لتغيَّر شكلُه من حالٍ إلى حالٍ. ويُشكُّ أن له هواءً؛ وإن كان له هواء فلَعَلَّهُ لا يزيدُ عَلَى قِمَمِ جبالِه. ولا شك أن الماءَ والهواءَ هما يَنْبُوعا الحياة. وتجرُّدُه منهما، وخمودُ جبال نارِه ويُبس جرمِهِ يجعلُ بردَه شديداً جدًّا فى الليل وحرَّه عظيماً جدًّا فى النهارِ؛ عَلَى فَرْط طولهما البالغِ فيه خمسةَ عشرَ يوماً: مِمّا يجعلُ الحياةَ فيه متعسرةً بل مستحيلةً، اللهم إلاَّ أن تكونَ حياةً غيرَ حياتنا

ويُرجِّحُونَ أنَّ القمرَ كان فى أزمانٍ سحيقةٍ على طبيعة تقرُبُ من طبيعةِ أُمِّهِ الأرضِ؛ فكانَ آهلاً بالحيوانِ والنباتِ، إلاّ أن صِغَر جسمِه جعَلَه يسبقُ الأرضَ فى اليُبْسِ والبرُودة، فتَقَبَّضَ وبَرَدَ وانتهت دُنياه، وأصبحَ كإِسْفَنْجةٍ

مُشَعَّثةٍ ذاتِ شُعَبٍ ونخاريبَ[١] تكوينُها منْ جِنْسِ تكوينِ الأرض

ولقد خلقَ اللهُ القمرَ مُسَخَّراً لأهلِ الأَرضِ خاصَّةً ، فهو بعكْسِهِ نُورَ الشمسِ عليهم هدايةٌ لهم فى ظُلُماتِ البَرِّ والبحْرِ . ولقد قضى الإِنسانُ عُصوراً ودُهوراً وليس له مِصباحٌ فى جُنْحِ الظلامِ غيرُه . ولا يزالُ كذلك لأهلِ البَدْوِ وقبائلِ الهَمَجِ . وهو باْختلافِ أشكالِه تَقويمٌ فِطْرِىٌّ لهم ؛ فبإِهلالِه يُعْرَفُ أَوَّلُ الشَّهْرِ ، وبالتَّرْبيعِ الأوَّلِ يُعْرَفُ رُبْعُه ، وبِبدْرِه[٢] يُعرَفُ نصْفُه ، وبالتربيعِ الأخيرِ يُعرفُ ثلاثةُ أرباعه ، وبمُحاقِهِ تُعرفُ نِهايتُه

وإِذا مَرَنَ الإِنسانُ على النَّظَرِ فى تقديرِ ضَوْئِه وأوْقاتِ مَطالِعِه عرَفَ الشهرَ يوماً يوماً والليلَ ساعةً ساعةً . قال تعالى « يَسْأَلونَكَ عنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَواقيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ »

وباْتِّحادِ جذْبِه معَ جذْبِ الشَّمسِ للأَرْضِ ينشأُ المَدُّ والجزْرُ ، وفائدتهما فى تَسْهيلِ الملاحةِ لا تُنكَر ؛ فكم من موانئَ ومرافئَ لولاهما لَسُدَّتْ بِرواسبِ الانهارِ والسيول

ولضوءِ القمرِ فى إِنضاجِ الثِّمارِ والبقول أثرٌ أيُّما أَثرٍ ؛ حتى إِنَّ بعضَها لا ينمو ويزهو لونه إِلاّ فى لياليهِ البيض

---

(١) جمع نخروب وهى الثُّقَب التى تكون فى مثل بيُوت الزنابير والنحل

(٢) مصدر بدَرَ البدْرُ يَبْدُر بَدْرا . وبالمصدر سُمِّىَ هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يُبادر الشمس بالشروق فى ليلة التِّمام عند غروبها

مُقَطَّعاتٌ شعرية

حِكَمٌ وآداب لصالحِ بن عبدِ القُدُّوس[١] قال :

ما يبلُغُ الأعداءُ منْ جاهلٍ[٢] ... ما يبلُغُ الجاهلُ منْ نَفسهِ

والشَّيخُ لا يترُكُ أخلاقَهُ ... حتى يُوارَى فى ثرَى رَمْسِهِ[٣]

إذا ارْعَوَى[٤] عادَ إلى جهْلِهِ ... كَذِى الضَّنا[٥] عادَ إلى نُكْسِهِ

وإنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ فى الصِّبا ... كالعُودِ يُسْقَى الماءَ فى غَرْسه[٦]

حتى تراهُ مُورِقاً ناضراً ... بعدَ الذى أبصرتَ من يُبْسِهِ

وقال أيضاً :

المرءُ يجمَعُ ، والزَّمانُ يُفرِّقُ ... ويظَلُّ يرْقَعُ ، والخُطوبُ[٧] تُمزِّقُ

ولأَنْ يُعادِيَ عاقلاً خيرٌ له ... من أن يكونَ له صَديقٌ أحْمَقُ

فاربأ[٨] بنفسِك أن تُصادقَ أحمقاً ... إنّ الصَّديقَ على الصديقِ مُصَدَّقُ

وزِنِ الكلامَ إذا نطَقْتَ ، فإنَّما ... يُبدِى[٩] عقولَ ذوى العقولِ المنطِقُ

ومنَ الرِّجالِ إذا اُستوَتْ أخلاقُهم ... مَنْ يُستشارُ إذا اُستُشِيرَ فيُطْرِقُ[١٠]

---

(١) شاعر مجيد من شعراء صدر الدولة العباسية يغلب على شعره الحكم والمواعظ اتهم فى زمن المهدى بالزندقة فقُتِلَ (٢) (ما) التى فى صدر الشَّطْرِ الأول نافيةٌ و (ما) التى فى أول الشطر الثانى اسم موصول (٣) قبره (٤) انكفَّ عن الجهل ورجع عنه (٥) الضنا : المرض ، والنكسُ : عود المرض بعد زواله (٦) أى عند غرسه

(٧) الأمور الشديدة (٨) أى ارفع نفسك ونزهها (٩) يظهر

(١٠) أى يرمى ببصره الى الأرض يتأمل

حتى يَحُلَّ بكلِّ وادٍ قلبُه ... فيرى ويعرفُ ما يقولُ فينطقُ
وإذا امرؤٌ لسعتْه أفْعَى(١) مَرّةً ... تركتْه حينَ يُجرُّ حبلٌ يفرَقُ(٢)

وقال :

وَإِنَّ عَنَاءً أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِلاً ... فَيَحْسَبَ جَهْلاً أَنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ
مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْماً تَمَامَهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ
مَتى يَنْتَهِي عَنْ سَيِّئٍ مَنْ أَتَى بِهِ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَنَدُّمُ

النارَجيلُ أو (جَوْزُ الهِنْد)

النارَجيلُ مِن أكثرِ الأشجارِ نَفْعاً، وأطولِها عُمْراً، وأجملِها شكلاً، وأقلِّها كُلْفة . ويُشبِهُ النَّخْلَ فى جِذْعِه وسَعَفِه واستنْباتِه، إلاّ أنَّ ثمرَه جَوْزٌ عَظيمٌ وثمرَ النخْلِ تَمْرٌ، وإنّه لا يجُودُ إلاّ فى أصقاعِ المِنطَقةِ الحارَّةِ، وخاصّةً الأرَضينَ الرمليّةَ الرَّطْبةَ كشواطئِ البحارِ والأنهارِ والبُحَيراتِ والغُدْرانِ

وتبلغُ أنواعُ النارَجيلِ نحوَ ثلاثينَ نوعاً، منها ما تعظُمُ جوزتُه حتى تَصيرَ بِقشورِها وأغْلِفتِها فى حَجْمِ البِطِّيخةِ المتوسطةِ

ويُرَجَّحُ أنّ وطنَ النارَجيلِ القَديمَ شواطىءُ الهند وجزائرُ المحيطينِ الهنديّ والهادِي الجنوبيّ . ثم انتشرَتْ زراعتُه فى البلادِ الرَّطْبةِ التى بَينَ المَدارَيْنِ(٣) . فمِن المُمْكنِ الهَيّنِ زَرْعُه على ضِفافِ النيلِ فى صَعيدِ مِصرَ وسُودانِها وفى مَناقِعِ بحرِ الغَزالِ وبحرِ الجَبَلِ

(١) الأفعى حية دقيقة العنق عريضة الرأس (٢) يخاف (٣) مَدار السرَطان ومَدار الجَدْي أى المنقطة الحارّة

وتطولُ نخلةُ النارَجيلِ إلى بضعٍ وثلاثينَ ذِراعاً فرنسية ، ويغلظُ جِذْعُها إلى نصفِ ذراعٍ وأكثر. وجِذْعُها لَدْنٌ مَتينٌ تَثْنيه الرياحُ ، وتُدنيه ثمرتُها الثقيلةُ من الأرضِ أحياناً ، فلا ينقصِفُ لِيناً

ورأسُ نخلةِ النارَجيلِ كرأسِ نخلةِ التَّمر ، ذُو سعَفٍ طويلٍ وخُوصٍ كثيرٍ متراصٍّ رَقيقٍ . وفي أدنى السعَفِ يطلُعُ طَلْعُها ، وتنشقُّ عنه كُفُرَّى[1] ككفُرَّى النخل ، ثم يتكاملُ منه القِنْوُ[2] . وتبلغُ قِنْوَانُ النارَجيلِ بضعةَ عشَر قِنْواً ، يحملُ كلُّ قِنْوٍ من الجَوْزِ جُملةً من خمسٍ الى خمسَ عشَرةَ ؛ فيكونُ مُعَدَّلُ ما تحملُه النخلةُ نحوَ عشرين ومائةِ جوزةٍ . وربما أخصبَتِ النخْلةُ الكريمةُ منه ، فأثمرَتْ نحو مِائتَيْ جوزةٍ

وتتكوَّنُ الثمرةُ من قشرةٍ ظاهرةٍ رقيقةٍ صُلبةٍ ملساءَ ، داخلها طبقةٌ كثيفةٌ من الليفِ الخشِنِ المتين ، وداخلَ طبقةِ الليف طبقةٌ من الخشبِ الصُّلْبِ ليس بها إلاّ منفذٌ واحدٌ ضيِّقٌ ينبتُ منه جنينُ الجوزة حين تُزرع ، وبجانبه نقطتان كأنهما ثُقبان مسدودان ، وداخلَ هذا الغِلافِ الخشبيّ لُبُّ الثمرة . وهو يمرُّ في طريق نُضْجه بأطوارٍ عِدَّة ؛ فيكون أوّلاً لبَناً خالصاً ، ثمَّ خاثِراً[3] ، ثم يتكاثفُ غليظُه على جوانب الخشب ، ويجمُدُ فيصيرُ طبقةً من اللبّ لَوْزِيَّةً في سَمْك الأصبع ، وما بَقِيَ يصيرُ شراباً صافياً حُلواً ، ورُبَّما أُغْلِيَ ، واُستخرجَ منه سُكَّر

ويُنتفَعُ باللُّبّ في كل هذه الأطوار مشروباً ومأكولاً . وهو غِذاءٌ

---

(١) الكفرى والكافور كم النخل ونحوه (٢) العِذْق والكِباسة وهو مايعلق به الثمر

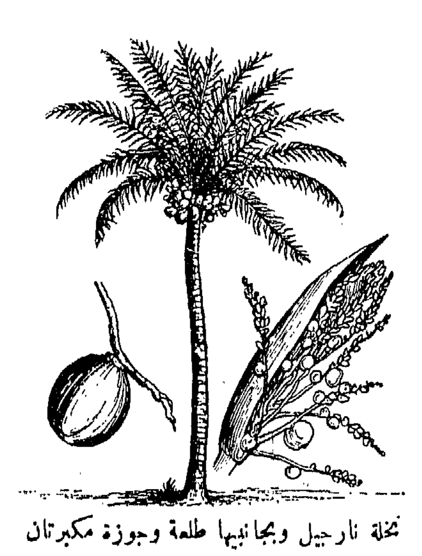
(٣) غليظًا ثخينًا

أساسيٌّ لكثير من الأمم التي تقطُن جزُرَ البحار الجنوبيةِ ولقردَتها التي تزاحمُها فيه أشدَّ المزاحمة

واذا بُضِعَ أصلُ الوَليع[١] قبل أن تنشقَّ كُفُرَّاه، وأُلقِمَ كوزاً أمتلأَ في نهارٍ واحد شراباً لذيذاً في قِوام اللبن وطعمِه

ومن الثمرة الناضجةِ يُستَخرَجُ كثيرٌ من الدُّهن المُسَمَّى بزَيت جوز الهندِ، وهو إذا كان جديداً مُلائمٌ للصحةِ مُسَمِّنٌ للبدن، وَيُؤتَدَمُ به ساذَجاً ومطبوخاً مع الأُرْز وغيره، ويُستَصْبَحُ به في السِّراجِ والشمع، ويُتَّخَذ منه نوعٌ من الصابون يُرغي بالماء المِلح فيُسمَّى لذلك صابونَ الملاَّحين

وللنارَجيل فوقَ هذا منافعُ كثيرةٌ : فمِنَ السَّعَف والجُذوعِ تُسَقَّفُ البيُوت، ومنَ الجَريد تُصنَعُ المجاديفُ والنُّشَّابُ والرَّوافِدُ[٢] والأسْوِجَةُ[٣] والأمشاطُ، ومن الخُوص تُصنَعُ القِفافُ والجُوَنُ[٤] والزَّنابيلُ، ومن رَقيقِه تُصنَعُ القُبَّعاتُ، وتُضْفَرُ المراوحُ والحُصُرُ وغيرُ ذلك، ومن غَضِّه الحديثِ وغَضِّ الثَّمَر يُطبَخُ لَونٌ من الطَّعامِ يُسَمَّى الكُرُنْبَ النَّخْلِيَّ. ومن



نخلة نارجيل وبجانبيها طلعة وجوزة مكبرتان

---

(١) الوليع الطلع في كفرّاه، وأصل الوليع يد عرجونه (٢) خشب السقف

(٣) جمع سياج (٤) الجونة شبه القفة وقد تكسى جلداً

الليف تُصنَع الحِبالُ والجَوالِقُ[1] والبُسُطُ ومَماسِحُ الأحذية التي تُطْرَحُ أمامَ الأبواب والمِحَسّاتُ[2] وحشايا الفِراش، ويُصنَعُ منه نَوْعٌ من الوَرَق والمَكانِس. ومن خشب الثمرةِ تُتَّخَذُ المغارفُ والأقداحُ. ومن الجُذورِ الحديثة تُصْنَعُ السِّلالُ وغيرها

وخشبُ الجُذوعِ القديمةِ من أجودِ الأخشاب وأجملِها وأقبلِها لِلصَّقْلِ وتُتَّخَذُ منه الكَراسيُّ الجميلةُ ومناضِدُ الكتابةِ وموائدُ الطَّعامِ وخزائنُ الكتب ويُعرَفُ في إنجلترة باسم خشب القُنْفُذِ

وقُصارَى القول أن نخلةَ النارَجيل قَلَّما تَعدِلُها شجرةٌ في مَنافعها؛ حتى قِيلَ انَّ مَنافعَها بعدَدِ أيامِ السنةِ عدًّا، ويقولُ أهلُ جزائرِ الجَنوبِ إن من يزرَعُ نارَجيلةً يستغلُّها لَحْماً ولبناً ومَسكناً وثوْباً وإناءً ووَقُوداً وفَرْشاً ونفعاً دائماً له ولأولاده وأحفادِه

وزِراعةُ النارَجيل كالنَّخل؛ بأن تُنزَعَ فسائلُه[3] من أُمِّها وتُنقَلَ الى المكان الذى يُعَدُّ لها، إلاَّ أن النارَجيلَ ينجحُ أستنباتُه من جَوْزَتِه؛ فتُدفَنُ الجوزةُ في أرْضٍ خفيفةٍ رطبةٍ، فيخرُج فَرْخُها بعد ثلاثة أشهر. ثم تُنقَل بعد شهرٍ أو شهرين من موضعِها إلى حيث تُغرَسُ. ولا يكونُ لها جِذْعٌ خشبيٌّ قبلَ ثلاثِ سنين. وقلَّما تُثمِرُ قبلَ ثمانٍ. وتبقَى مُخْصِبَةً أكثرَ من سبعين سنةً. ويُجْنَى الثمرُ الناضجُ منها أربعَ مراتٍ أو خمساً في السنة

---

(١) جمع جُوالق وهو الذى يسمى بالعامية (الشوال) (٢) جمع مِحسَّة وهى الفِرْجَوْن للخيل والثياب وهى التى تسمي بالعامية (الفرشة) (٣) جمع فسيلة وهى النخلة الصغيرة

التسامُحُ وعُلوُّ الهِمّة

روى صاحبُ ثمرات الأوراق[1] قال : —

لما أفضتِ[2] الخلافةُ إلى بنى العباس اُختفتْ رجالُ بنى أُمية . ومنهم ابراهيم ابنُ سُليمانَ بنِ عبدِ الملكِ بن مروان ، وكان ابراهيمُ رجلاً عالماً عاملاً ، أديباً كاملاً ، وهو فى سِنّ الشَّبيبةِ . فأخذوا له أماناً مِن السَّفّاح . فقال له يوماً : حدِّثنى عما مرَّ بك فى اُختفائك . قال : كنتُ يا أميرَ المؤمنين مختفياً بالحِيرَة[3] فى منزلٍ شارعٍ على الصحراء . فبينما أنا على ظهرِ البيت إذْ نظرتُ الى أعلامٍ سُودٍ[4] قد خرجَتْ من الكوفة تريدُ الحيرَةَ ، فتخيلتُ أنها تُريدُنى . فخرجتُ من الدار متنكِراً حتى أتيْتُ الكوفةَ . ولا أعرفُ أحداً أختفى عنده . فبقِيتُ فى حَيْرةٍ ، فإذا أنا بباب كبيرٍ رحَبَتُه واسعةٌ فدخلتُ فيها ، فاذا رجلٌ وَسيمٌ حسَنُ الهيئة على فرسٍ قد دخلَ الرَحبة ، ومعه جماعة من غِلمانه وأتباعِه . فقال : مَن أنتَ ؟ وما حاجتُك ؟ فقلت : رجلٌ خائف على دمِه ، وقد اُستجار بمنزلِك ! فأدخلَنى منزلَه ، ثم صيَّرَنى فى حُجْرةٍ تلِى حرَمَه . وكنتُ عنـدَه فى ذلك على ما أُحِبُّهُ من مَطعَم ومَشرَب ومَلبَس

---

(١) هو تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى الشاعر الكاتب خدم فى دواوين الانشاء بالشام ومصر وحظى فى دولة الملك المؤيد شيخ صاحب جامع المؤيد بالقاهرة وله عدّة تصانيف أفضلها شرحه لبديعيّته وتوفى سنة ٨٣٧ ﻫ (٢) انتهت

(٣) مدينة على الفرات كانت حاضرة لدولة المناذرة خلفاء كسرى فى الجاهلية على العرب ، وبنيت بقربها الكوفة فى صدر الاسلام ثم خربت الحيرة بعد زمن

(٤) هى من شارات الدولة العباسية

لا يسألُنى عن شىء من؛ حالى إلاّ أنهُ يركَبُ فى كلّ يوم رَكْبَة، فقلتُ له يوماً: أراك تُدْمِنُ[١] الركوبَ، ففيمَ ذلك؟ قال: إبراهيمُ بنُ سليمان قَتَلَ أبى صَبْراً[٢]، وقد بلغنى أنهُ مختفٍ، فأنا أطلبُه لأُدرِكَ منه ثأرى. فكَثُرَ — واللهِ تعجُّبى. وقلت: القدَرُ ساقنى الى حَتْفى[٣] فى منزل مَن يطلُبُ دَمِى! وكرِهتُ الحياةَ. فسألتُ الرجلَ عن اسمِهِ واسم أبيه فأخبرَنى. فعلمتُ أن الخبرَ صحيحٌ، وأنا الذى قتلْتُ أباه. فقلت له: يا هذا قد وجب علىَّ حقُّك ومن حقِّكَ أن أدُلَّك على خَصْمِك وأقرِّبَ إليك الخَطْوَةَ! قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيمُ بن سليمان قاتلُ أبيكَ، فخذْ بثأرك! فقال: إنى أحسِبُك رجلاً قد مَضَّه[٤] الاختفاء فأحبَّ الموتَ. فقلتُ: لا والله! ولكن أقولُ لك الحقَّ: يومَ كذا وكذا بسبب كذا وكذا. فلما علِمَ صِدْقى تغيَّر لونُه، واحمرَّتْ عيناه، وأطرقَ مَلِيًّا[٥]. ثم قال: أمَّا أنتَ فستلقى أبى عند حَكَمٍ عدْل، فيأخذُ بثأره. وأما أنا فغيرُ مُخفِرٍ[٦] ذِمّتى! فاخرُجْ عنى! فلستُ آمَنُ عليك من نفسى! وأعطانى ألفَ دينار، فلم آخُذْها منه، وانصرفتُ عنه. فهذا أكرمُ رجلٍ رأيته بعد أمير المؤمنين

---

(١) تواظب (٢) أى قتله وهو محبوس مكتوفٌ لا يستطيع أن يدفع عن نفسه (٣) الحتف: الموت (٤) أوجعه وأحزن قلبه (٥) الملىّ الزمن الطويل: أى أطرق رأسه وفكر طويلاً (٦) أى غير ناقض عهدى وتأمينى لك

إسلندة أو (أرض الجليد)

إذا شخصتَ ببصرك إلى مُصوَّر القارَّةِ الأوربية فلعلَّكَ ناظرٌ فى زاويتها الشمالية الغربية جزيرةً كبيرةً مُمْعِنةً[١] فى المحيط الأطلنتى، بحيثُ تقربُ من الأرض الخضراء بأمريكا بنحو تسعة وتسعين ميلاً

وكأنى بك بعدَ قراءتك اسمَها (أرض الجليد) وقد صدَفْتَ[٢] عنها، ولم تحفِلْ بأمرها مُحَدِّثًا نفسك ماذا عسى أن يكونَ شأنُ هذه الجزيرة المنعزلةِ عن العالمَين القديم والجديد المندرجةِ فى الأقاليم الثلجية. لكنَّك تعجبُ جدَّ العجَب إذا علِمتَ أنَّ هذه الجزيرة على هَوان اسمها وبُعد صُقْعها تَضُمّ بين جوانحها[٣] الضّدَّين: الحرارةَ والبرودة، وتتفجّرُ أرضُها الصخرية عن حمَّاتٍ[٤] فوَّارة بالماء الحارّ الذى ترتفعُ حرارتُه كثيراً فوق درجة الغَلَيان، ويصعدُ فى الجوّ الى نحو مِائة قدم

وهذه الجزيرةُ صخرةٌ واحدةٌ متكوِّنةٌ من قِمم جبال نيرانٍ كانت ثائرةً فى الأزمان الغابرة، وخمَدتْ كلُّها إلاَّ واحداً يثورُ من حينٍ الى حين. ثارَ مرَّةً ثوْرةً تباعدَ مدَى حُمَمِه فيها حتى سقط بعضُه على ضِفاف نهر التيمس، وبين المكانَين ما يربو على خمسِمائةِ ميل

وفى هذه الجزيرة مجموعاتٌ من الحمَّات، منها مجموعٌ فى شماليّ الجزيرة

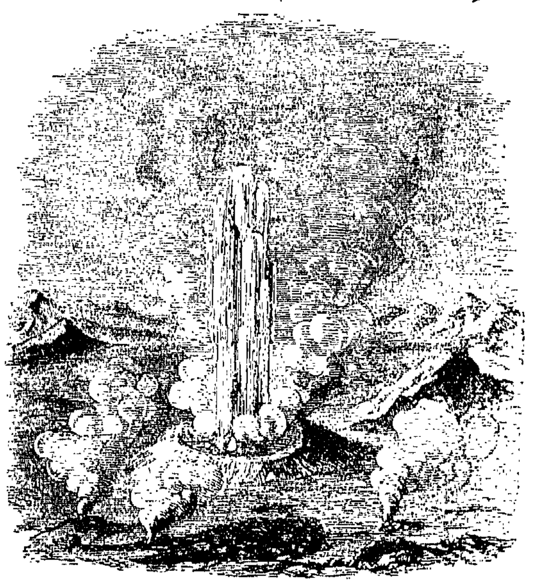
---

(١) أمعنَ فى الأمر: أبعدَ فيهِ ودخل فى أقصاه (٢) أعرضتَ عنها

(٣) أصل الجوانح الأضلاع والمراد بها جوانبها

(٤) الحمة كل عين فيها ماء حار ينبع . والفوارة التى يفور ماؤها

مِنْ بينْها فوّارة عظيمةٌ وسَطَ بِرْكَةٍ تقذِفُ الماءَ والدُّخانَ وحجارةَ الصَّوَّانِ ، وتجيشُ(١) هذه الفوّاراتُ جَيَشاناً خفيفاً كلَّ ساعتين أو ثلاث ساعات . أما نَوْبةُ هَيَجانها الشديدِ فتكون مرَّةً كلَّ ثلاثينَ ساعةً تقريباً . ولا تستغرِقُ النَّوْبةُ أكثرَ من عَشْرِ دقائقَ ، تسبقُها هَمْهَمةٌ وأصواتٌ تنبعثُ من جَوْفِ الأرضِ ، أشدُّ من هزيم الرَّعدِ(٢) ورَجْفةٌ(٣) تُزلزِلُ الأرضَ



حَمَّة فوّارة فى إسلندة

حولَها زِلزالاً شديداً ، ثم ينبجسُ(٤) منها بغتةً جِسمٌ عظيمٌ من الماءِ يغشاهُ بُخارٌ كثيفٌ ، ويندفعُ متفرّعاً ، وقد يصعَدُ فى الجوّ إلى أكثرَ من تسعين قدَماً ، ويتجزأُ رَشَاشاً ، وبعضُها يهْتِكُ(٥) حجابَ البُخار ، ويميلُ الى الأرض فينصبُّ عليها عَلَى شكلِ قنطرةٍ عجيبةٍ . ويتبارَى(٦) المشاهِدون فى قَذْف

---

(١) تفور وترتفع (٢) هزيم الريح والرعد صوته (٣) هزة (٤) ينفجر
(٥) يشق ويخترق (٦) يتسابق

كثيرٍ من الأحجار في فُوَّهتِها قبلَ ثَوَرانها ؛ فإذا جاءَ وَعْدُها[١] دفعتْها جملةً ، فكانت بهجةً للنظَّارةِ[٢] والرحّالةِ الذين يؤمُّونها[٣] في فصلِ الصيفِ من أنحاءِ العالَم يشاهدون عجائبَ الخليقةِ

ومن هذه الفوّاراتِ ما تفورُ فوَرانًا هادئًا ؛ فتُوضَعُ في مائِها قُدورُ الطعامِ ، فتُنْضِجُه حرارتُها

ويغسِلُ أهلُ هذه الجزيرةِ في بعضِها ثيابَهم وآنيتَهم ، غيرَ أنَّ مياهَ كثيرٍ من هذه الفوّاراتِ كِبْريتيّةٌ لا يصلُح للاستعمال

ولا تُزرَعُ الحبوبُ في أرضِها ، لبرُودةِ الجوِّ واستتارِ أكثرِها بالجليدِ أكثرَ السنةِ ، وإنما ينبتُ فيها الخُضَرُ وبعضُ الأعشاب

ومعيشةُ أهلِها من صَيدِ السمكِ ورَعْيِ الغنمِ والخيلِ ، ونساؤهم يشتغلْنَ بغَزْلِ الصُّوف ونَسْجِه ، ومنه يتَّخِذونَ أكثرَ ملابِسهم لتَدْفئةِ أجسامِهم . وثمّةَ طائرٌ ينزِعُ زَغَبَ ريشِه من صَدْره ، ويُبطِّنُ به وَكْرَه لتدفئةِ فراخِه ، فيأخذُه الأهلُونَ ويغزلونَه وينسِجونه ثيابًا مُعْجِبةً . وهم يُعنَوْنَ أشدَّ العنايةِ بهذا الطائرِ ، ويَقُونَه الأذَى ؛ وربَّما بنَوْا له الأوكارَ بأيديهم بمقرَبةٍ من ديارهم يتألفونه بها ليستغِلُّوه

ويُعرَفُ أهلُ هذه البلادِ بالذكاءِ واللباقةِ[٤] . وهم على قلّةِ مدارسهم شديدُو العناية بتربيةِ أبنائهم وتأديبهم ؛ حتى قلَّ الأُمِّيُّ فيهم ، ولو كان ناشئًا في أحقرِ الأكواخِ . ولهم كُتُبٌ قليلةٌ إلاَّ أنها مُفعَمةٌ بحوادثِ أسلافِهم الغريبةِ وأسبابِ هِجْرتِهم العجيبةِ إلى هذه الجزيرة

---

(١) ميعادها (٢) المشاهدين (٣) يقصدونها (٤) الظرف ولين الأخلاق

ويرجعُ تاريخُ عُمْرانِ الجزيرةِ إلى نحوِ ألفِ سنةٍ من الميلادِ كانتْ قبلَها خالياً من البَشَر، مجهولةً لأهلِ هذا العالَم؛ فحدَثَ أن جماعةً من أهل النُّرْويج أرهقَهم[١] مُلوكُهم ظُلْماً فهاجروا إلى إيقُوسيا وإرلندة، ولكنَّ يدَ العَسْف والجَوْرِ ما زالتْ مُمْتَدَّةً إليهم، فأَنِفَ أُباةُ الضَّيْمِ منهم هذا العيشَ النَّكِدَ، وركبوا سُفُنَهم إلى حيثُ تُطَوِّحُ بهم يدُ المقادير، فأرستْهم على هذه الجزيرةِ. فرأَوْا فيها مع شَظَفِ[٢] عَيْشِها وشِدَّةِ بَرْدِها ما يكفُلُ لهم الحُرِّيةَ؛ فجلبوا بقيةَ أهلِهم، وأسَّسُوا فيها حكومةً عادلةً. وقد ثبتَ أن من أُولئك الأقوام مَنْ جاوَزُوا الجزيرةَ في رِحلتهم حتى بلغُوا سواحلَ أمريكا الشمالية؛ فسبقُوا كولُمْبَ إلى كَشْفِها بدُهورٍ طويلة

ويبسُطُ الدانيمَرْقيُّون الآنَ حِمايتَهم على هذه الجزيرة

وصايا الآباء للأبناء[٣]

كتاب السير هنرى سدلى[٤] لابنه فليب سنة ١٥٦٦ م

تلقيتُ منك رسالتَين إحداهما باللَّاتينيَّةِ والأُخرَى بالفرَنسية. فطرِبتُ لقراءتهما وسُرِرتُ من جودة أسلوبهما، وإني لأرجو أن تمضيَ على هذا النحو في كتابتِك، وتضربَ بهذا السَّهم في إنشائك، حتى يتمَّ ما أتمنَّاه لك من التوفيق في حياتك، والفلاحِ في مُستقبلِك. ولما كانت هذه أُولَى رسائلى

(١) حمَّلوهم ما لا يطيقون (٢) شظف العيش ضيقه وخشونته وشدّته

(٣) ترجمه المرحوم عبد القادر حسن افندى الذى كان مدرساً بدار العلوم

(٤) أحد كبراء سُوّاس الانجليز (١٥٢٩ – ١٥٨٦م) تولى حكم ارلندة فأبدى مقدرة عظيمة

اليك لم أشأ أن تكون خاليةً من نُصْحٍ أُمَحِّضُكَه، أو إرشاد أسوقه اليك.
وإنما يحملنى على ذلك حبّى لك، وحنوّى عليك، وحرصى على نفعك. وأنتَ ما زلتَ حديثَ السن، فيتيسرُ لك اتّباعُ ما أهديك اليه، وتفهمُ ما أثقفُك به

ليكن أوّلَ همّك أن تتعهّدَ نفسَك بذكر الله تعالى ذِكراً يصدُرُ عن سُوَيداء(١) قلبك، ويخرجُ من أعماق صدرك. ولْتتفقّهْ تمام التفقُّهِ ما تقرؤه فى صلاتك بإعمالِ الفكرة وإجهادِ البصيرة والتوجّه بها الى من يخشعُ له فؤادُك، ويعنو(٢) له وجهك. ولا تَسْهُوَنَّ فى ذلك عن الغرض الذى قصدتَ والطلبِ الذى أردت؛ وليكن اتّباعُك لهذا الأمر اتباعَ من يرجو تعوُّدَه، ويرومُ إلْفَه؛ فتأتيه كلَّ يوم فى ساعات محدودة، حتى يكون الوقتُ عوْناً لك على تذكر ما تعوَّدت، واستحضار ما أَلِفْتَ

هذا وليكُنْ إقبالُك على الدرس وقصدُك الى التحصيل فى الزمن الذى يخصصه بدرسك أُستاذُك اللبِقُ ومرشدُك الحكيمُ. وأنا واثقٌ من أنه يقدّر لك الوقتَ الذى يكون كافياً لاستفادتك وتعلُّمك، ضامناً لسلامةِ بدَنِك ودوامِ صحّتك. واذا قرأت شيئاً فلْتُنْعِمِ النظرَ فيما ينطوى عليه من المعنى. ولْتبحثْ عما كُتبَ لأجلِه كما تبحثُ فيما أُلْبِسَهُ من حُلّة اللفظ. فتغذُو لسانَك بجزْل الكلام، كما تغذو عقلَك بجيّد المعانى؛ وتكفُلُ اكتمالَ حِذْقِك ووفُور حلمك كلّما كبرَتْ سِنُّك ومُدَّ فى أجلِك

ولْتكنْ يا بُنَيَّ متواضعاً لأستاذِك مُطيعاً لأمره؛ فإنك إن لم تُدَرّبْ نفسَك على طاعة غيرك أخفقتَ فى حَمْل غيرك على طاعتِك. ولْتتجمّلْ بحُسن الأدب فى مُعاملةِ الناس، ولْتتنكّبْ(٣) عما يُوجِدُهم(٤) عليك من المَساءة

(١) سويداء القلب حبته ولبه (٢) يخضع ويذل (٣) مِلْ وانحرف (٤) يُغْضبهم

والفَظَاظة . ولا تساوِ بينهم فى الأقدار؛ بل أجِلّ كلاًّ منهم على قدْر مَنزلته، ونسبةِ موضِعه : فإنه لا شىءَ أدْعَى الى رَفْعِك فى عُيونهم ، وإنزالِك منزلةَ التَّجِلةِ من قلوبهم كالعناية بإحسانِ مُعاملتِهم ، كما أنهُ لا شىءَ أقلُّ من ذلك تكليفاً للمرء فى بَذْلِ نفيس

وعليك بالقصْدِ فى مأكَلِك ، والاعتدال فى مَشْرَبك؛ حتى لا يكونَ سَدُّكَ عَوَزَ بدنك هادماً لِصَرْحِ عقلِك مُخْمِداً جَذْوةَ ذكائِك. ولتحرّكْ أعضاءَك بما يبعثُ فيها النَّشَاط مع مُحاذرةِ ما يؤذِى مفاصِلَك ، ويُضِرُّ بعظامك : فإن رياضة البدَن مَدْعاةٌ الى زيادة مَضائه وتجويدِ صحته . وليكنْ لك فى تنظيفِ جسمِك وتطهيرِ ثيابك سرورٌ تسعَى وراءه وتستقِلُّ بإدراكِه ولا تُسْلِمنَّ نفسَك الى الحزنِ والكآبةِ بل ابعثْها على ما تظفَرُ فيه بالجَذَلِ والغِبطة؛ فإنك إن لم تجدْ نفسك فى حالِ سرورك وأوان حُبورك أقدرَ على إحسان عملك ، واستخدام عقلك وبدنك ، كنتَ مخالفاً فى ذلك لطبيعةِ أبيك، وأقلَّ توفقّاً منه الى ما يسعَدُ به الطالعُ وتحسُنُ به المَغَبّة. ولْتترفَّعْ فى لَهْوِك عما يُسىءُ الناسَ من الغَمْزِ وتُقْرَعَ به أسماعُهم من قوارص الكَلِمِ؛ فلعلَّ كلمةً تُحدِثُ جُرحاً تكونُ مُداواته أعزَّ من جراحات الأسِنَّة

ولْتُؤْثِرْ يا بُنَىَّ الاستماعَ الى ما يقوله غيرُك والاعتبارَ بما يُلْقُونَه من الموعظة الحسنةِ ويُورِدُونَه من الحكمةِ البالغةِ على أن تكون بادئاً بالحديث خائضاً فيه دونَهم، وإلاَّ كنتَ موْضعاً لسوءِ المَظِنَّة متَّهماً بشَيْنِ الغُرور بنفسك مذموماً لِثرثرتك وهَذَرِك ، واذا سمعتَ قولاً حكيماً فليكنْ همُّك أن تستودِعَه ذاكرتَك لِمراجعته عند الحاجة اليه وروايتِه فى المقام المناسبِ له

ولا تعكر صفو حديثك بساقط اللفظ وبذيء الكلام، ولتمقته من غيرك حتى تجعل من نفسك عدوًّا له يدرأ عنك شره، ويرد غارته. واجعل رائدك الحياء اذا ضمتك المجامع والتفت عليك المحافل، ولكن لا تفرط فى الحياء فإن اتهام السفهاء إياك بما يشاكل خفر العذارى أنكى فى قلبك من رمى الفضلاء إياك بما يشابه الطيش والخرق. ولتزن كل ما يفوه به لسانك قبل أن يقرع الأسماع. واذكر كيف خلق اللسان، وقد جعلت من دونه الأسنان والشفتان، كأنما هى تحبسه عن الخروج الى ما عساه أن يلحق بصاحبه الأذى من سقطات القول كما يكبح الزمام أو العقال جماح الدابة. وإياك والكذب مهما حقرت الغرض الذى تعمدت الكذب من أجله: فإنك إن فعلت عاجلك تعوده، وإن تعودته خبثت نفسك وساء طبعك؛ ولا تغتبط بقدرتك على سوق الباطل فى هيئة الحق وتمكنك من حمل الناس على تصديقك فإنه إذا انكشف أمرك، وافتضحت سريرتك لزمك الخزى ولصق بك الشين، إذ لا شيء أجلب للعار، وأدعى الى اللوم، من أن يشتهر المرء بالكذب وإيثار الباطل على الحق

ولتحمل نفسك يا بنى على التحلى بالفضيلة والتجمل بشرف القصد وصدق الطوية، حتى تألف الاستقامة فى فعالك، وتغرس حب الخير فى نفسك، وتأنف التسفل الى عمل الشر مهما غالبك الدافع اليه، وناضلتك الرغبة فيه. واذكر يا بنى شرف عنصرك وكرم محتدك فى بيت أبيك وأمك، واعلم أنك لن تفوز بالمحافظة على مقام أسرتك الا باتباع الأخلاق الكريمة وبإيثار الفعال القويمة

والآنَ يا بُنيَّ أقِفُ عندَ هذا الحدِّ من النُّصْح ، إذ أخشى إن أنا أمعنتُ فيه أن يثقُلَ عليكَ عِبْؤُه . واذْ كان من شأنِه أن يغْذوَ عقلك بإبان الحق والفضيلة فإني متْبعه بأكثرَ منه تبعاً لشبابك وتغير أطوارك

أبوك الذي يقيم عَلَى حبك ما أقت عَلَى خَشْيَة الرحمن

السير هنري سدلي

الضفادع

الضِّفْدَعُ دابَّةٌ صغيرةٌ من الزَّواحف تُكْنَى بأُمِّ هُبَيْرَةَ

وأنواعُها كثيرةٌ : منها الضَّفادعُ العاديَّةُ ، وهي كثيرةُ الانتشار ، والمتسلِّقةُ والسامَّةُ

والضفادعُ من أغربِ الزواحفِ في تكوينِ خَلْقها وتركيبِ جسمها وحالِ مَعيشتها . فرأْسُها متَّصلٌ بجملةِ جِسمها ، وقلَّ منْ أنواعِها ما يتميز عنُقُه . وفمُها واسعٌ يحتوي فكُّه الأعلى في بعض أنواعها على أسنانٍ دقيقةٍ حادَّةٍ متلاصقةٍ صفًّا واحداً أو صفَّين متُوازيين ، وفي بعض آخر يتجرَّدُ الفكَّانِ من الأسنانِ جُملةً . وحَنْجَرةُ الصَّوت فيها في نهايةِ الفَم ؛ ولذلك كان فمُها الواسعُ أشبَهَ ببُوقٍ يرتفعُ به صوتُها ويَجهُرُ ، فيكونُ منه النقيقُ المعروفُ . وهي تنِقُّ نقيقاً يختلفُ في القوَّة والجَهارة ؛ فيتعذَّرُ عَلَى سامعها أن يستدلَّ بصوتها عَلَى ما بينه وبينَها من المسافةِ . ويزدادُ نقيقُها في ليالي الربيع والصيف ، حتى تَحْرِمَ من جاورها لذَّةَ الرُّقاد . وللذَّكَرِ منها صَوتٌ رَنَّانٌ ليس للأُنثي

وتتفاوتُ أرجلُها فى الطُّول ؛ فتكونُ يداها أقصرَ من رجلَيها كثيراً ؛ فهى لذلك لا تُحسنُ المشْىَ بل تقفزُ قفَزاتٍ شديدةً يكونُ اعتمادُها فيها على أرجُلها ؛ وكذلك تفعلُ فى سِباحتِها اذ يبطُلُ عملُ يديها ، فتلتصقان بجسمها ، وتدفعُ الماءَ برجلَيها . وليَدَيها أربعُ أصابعَ وأثرٌ للإبهامِ . وفى أرجُلها خمسٌ يصلُ بعضَها ببعضٍ غِشاءٌ جِلْدِىٌّ يُعينُها على السباحةِ . وبَطنُها مُسطَّحٌ أملسُ . وظهرُها خشِنٌ ذُوغُدَدٍ وحراشفَ بارزةٍ . وفقَارُ ظهرِها قليلةٌ متماسكةٌ كأنها عَظمٌ واحدٌ . وليس لها أضلاعٌ إلاّ هَنَاتٌ[1] ناشئةٌ من الفِقارِ . وليس للكبيرِ منها ذَنَبٌ . وعضلاتُ الفَخِذِ والساقِ قريبةُ الشَّبَهِ من عَضلات الإنسانِ . وقد استعانَ الأطباءُ قديماً وحديثاً بتشريحِ جسمها عَلَى دَرْسِ أهمّ وظائف الأعضاء فى الجسم الإنسانىّ ، وأجرَوْا عليها تجارِبَ طبيَّةً وعاميَّةً فى تحقيق دَوْرةِ الدَّمِ والخواصِّ الكهربائية ؛ إذ كانت تقوَى على احتمالِ أشدِّ النوازل ؛ فلا تموتُ إذا جُرِحتْ ، وتبقَى فيها الحياةُ بعدَ استئصال قلبِها وأحشائها . واذا فارقتْها الحياةُ بقِىَ منها ذِماءٌ[2] يُحرِّكُ دورة الدَّمِ وقوَّةَ التقلُّص ، ويبقى به الحِسُّ متنبهّاً فى بعض أعضائها عدةَ دقائقَ بل ساعاتٍ . ولها كَبِدٌ وطِحالٌ وقلبٌ يخالِفُ نبضُه نبضَ القلوب ، بل يخالفُ نبضُ الجانبِ منه نبضَ الآخرِ . وتتنفّسُ الضفادعُ من الأنف ؛ إلاّ أن فى تنفُّسها بعضَ غَرابةٍ ؛ فهى تزْدَرِدُ[3] الهواءَ ازدراداً على دَفَعاتٍ كازدراد الطعام ، فيدخلُ الهواءُ من حنجرتها ثم تسدُّها ، فتدفعُ عضلاتُ

---

(١) جمع هنَة وهى كناية عن الشىء اليسير الصغير (٢) الذِّماء : بقية الروح فى الجسد (٣) تبتلع

للعنُق الهواءَ إلى الرِّئتينِ . فإذا أخذْتَ ضِفدَعاً ، وفتحتَ فاهاً مدةً طويلةً أُختنقتْ وماتَتْ على مِثالِ ما يختنقُ الإنسانُ إذا سُدَّ فُوهُ وأنفُه . ومن غرابةِ تنفُّسِها أيضاً أنها إذا نُزِعتْ رِئتاها عاشتْ بِدونِها مدَّةَ خمسةِ أسابيعَ أو ستةٍ تتنفَّسُ فيها منْ جلدِها .

وتولدُ الضِّفْدَعِ يتعاقبُ على أطوارٍ تُحيِّرُ العقولَ : من انتقالها من طَوْرِ السَّمَكِ إلى حيوانٍ ذى رِئَتينِ يمشى على اليابسةِ . فهى تبيضُ بَيْضاً على هيئةِ نُقَطٍ سُودٍ ، فيعلَقُ ببعضِ أعشابِ الماءِ ، ثم يُفقَسُ عن شبه دودةٍ ذاتِ أطرافٍ كثيرة كالأهداب ، ويظهرُ فيها فى اليوم الثانى الرأسُ متصلاً بذنب ذى غُضُونٍ[1] جلدية ، ثم فى اليوم الثالثِ يتكوَّنُ فى الرأس خياشيمُ كخياشيمِ السَّمكِ ، ثم تظهرُ لها بعد ذلك أربع زعانف[2] ذاتُ أصابعَ كثيرةٍ ، فلا تزالُ تصغر حتى تزول ، ثم تنشأُ لها رجلانِ ثم

أطوار خِلقة الضفدع

(١) بيض فى مبيض الضفدعة
(٢) بيض بعد الوضع توًّا
(٣) بيض قبيل الفقس
(٤) دعموص بعد الفقس
(٥) دعموص نشأ له رأس وزعانف
(٦ و ٧) دعموص زالت زعانفه
(٨ و ٩) دعموص نشأت له رجلان
(١٠) دعموص نشأت له يدان ورئتان
(١١) ضفدعة لما ينعدم ذنبها الصغير
(١٢) ضفدعة تامة الخلقة

---

(١) جمع غَضْن وهو التثنِّى فى الشىء (٢) جمع زِعْنِفة وهى الطرف والجناح من السمك

يدانِ ، ويقصُرُ الذَّنَبُ بالتدريج حينما تُصبحُ الارْجُلُ صالحةً للسِّباحةِ ، فتستعيضُ بها عن الاذنابِ ، وتزولُ الأذنابُ والخياشيمُ ، ويتمُّ تكوُّنُ الرِّئتينِ فتصلحانِ للتنفُّسِ في الهواءِ . وتتمُّ هذه الأطوارُ في الجوِّ المعتدِلِ الحرارةِ في مُدَّةِ شهرٍ تقريباً . ويسمَّى هذا الطورُ طورَ الحضانةِ ، ويسمى الحيوانُ حينئذٍ دُعْمُوصاً

ويعيشُ الحيوانُ طولَ هذه المدّة في الماءِ والمستنقعاتِ والرُّطوباتِ . فإذا قَوِيَ عَلَى المَشْيِ والطَّفْرِ[1] خرج الى اليابسةِ يلتمسُ رِزقَه من الحشَراتِ والدِّيدان

وفي الجهات المجاورة للمستنقعاتِ يخرُجُ منه في الليالي الرَّطْبةِ عددٌ عظيم ؛ حتى يتوهمَ الناسُ أن السماءَ تُمْطرُ ضفادعَ

ولو سَلِمَ ما يُنقَفُ من بَيْضِ الضفادعِ فبلَغَ أشُدَّه لغَطَّتِ الضفادعُ سَطْحَ الأرضِ في بعضِ البلادِ ، غيرَ أنَّ السمكَ يأكلُ من صغارِها مُعظَمَها . ويسطو عَلَى كبيرِها أكثرُ ذواتِ الفِقارِ: من السمكِ إلى الإنسانِ . وللأفاعي والطيورِ عليها تسلُّطٌ عظيمٌ . وقد قدَّروا ما يسلَمُ من بَيضها بواحدٍ من ألفٍ

وتعيشُ الضفادعُ على شُطوط الأنهارِ والبِرَكِ والغِياضِ[2] فتندفنُ بين الأعشاب وأوراق الأشجارِ أو تحفِرُ على ضِفاف المستنقعات أجحاراً في الأرض تقطنُها نهاراً وتخرُجُ منها ليلاً ، وعند ما يكون الجوُّ رطباً أو دَجْناً[3]

وتأكلُ الضفادعُ الحشراتِ والدِّيدانَ بشراهة . فإذا جاء الشتاءُ انقطعتْ

---

(١) الوثب (٢) جمع غيضَة ، وهي الأجمة ومجتمَعُ الشجر في مَغِيض ماء

(٣) إلباسُ الغَيمْ الأرض وأقطار السماء

عن الأكل ؛ حتى اذا اشتدَّ البردُ انطمرتْ فى الطين واستولى عليها السُّبات[1] حتى الربيع

وبعضُ الناس يأكلونَ لحومَها وخاصةً أوراكَها وظهورَها . وهى فى فرنسا لَوْنٌ لذيذ من الطَّعام يُتباهَى بأكلِه ، ويُعتبرُ ألَذَّ من ألوان الدَّجاج

ومن الضفادعِ نوعٌ عظيمٌ ربما بلغ طولُه واحداً وعشرين قيراطاً ، وهى شَرِهةٌ تأكلُ صِغارَ البطِّ وصغارَ الأفاعِى والفأرِ ، وقد تأكلُ صغارَها . ولا تلتهمُ الحيوانَ إلاّ حيًّا . وهى منتشرةٌ فى الولاياتِ المتحدة . وقد يُلقُونها فى الآبارِ لاعتقادِهم انها تُطهِّرُها

ومن الضَّفادع نوعٌ يتسلَّقُ الأشجارَ، ولها أظافرُ وغُدَدٌ مَصَّاصةٌ . وهى صغيرةُ الحجْمِ، خفيفةُ الحركةِ ، خشِنةُ البطنِ، كثيرةُ حَراشفِ الجلدِ . ويتلوَّنُ جسمُها تلوُّنَ الحِرْباء ؛ فتَتَشبَّهُ بلَوْنِ ما يُجاورُها من الأجسامِ اختفاءً من أعدائها وهى كثيرةُ النقيق وخاصةً عند دُنُوِّ المطر

وفى بُرْنيُو جنسٌ من الضَّفادعِ المتسلقةِ يعرَفُ بالطيَّار . ويمتازُ بطولِ أصابعِه واتصال بعضها ببعض بغشاءٍ جلديّ . فإذا بَسَطَت الضّفدعُ غشاءَ أصابعها ، ونفَخَتْ جسمَها تمكنتْ من الوَثَبانِ أو الطيران من الأشجار المرتفعةِ إلى الأرضِ . ولونُ هذا الجنس أخضرُ مُدْهامٌ[2] وبطنُه أصفرُ ، وطوله نحوُ أربعة قراريطَ ، ومساحةُ غِشاء أرجُلِه نحوُ اثنَيْ عشرَ قيراطاً مُربَّعاً . وفى أطراف أصابعه غُدَدٌ مَصّاصةٌ يتسلَّقُ بها

ومن الضَّفادع نوعٌ لحمُه سامٌّ . وتُعرَف بقوة لسانها وخُلُوّ فكها من الأسنان

---

(١) النوم (٢) أخضر ضارب الى السواد

جملةً وثِقَلِ بَدَنها، وإنّ الغالبَ فى سيرها الزحفُ، وهى تقوَى على احتمالِ الجُوع وقلةِ الهواءِ مدّةً طويلةً . وقد وجدوا بعضَها بين الصُّخورِ الصُّلبةِ أو فى جَوْفِ شجرةٍ لا صِلةَ بينها وبين الهواء . ومن أنواع هذا الضفدعِ السامّ ضفدعٌ أخضرُ طولهُ نحوُ ثلاثة قراريط، قاتم اللون إلى الصُّفرةِ، وفى وسط ظهره جُدَّةٌ[1] صفراءُ لامعةٌ، ولون أسفلِ جسمه ضاربٌ الى الصُّفرة مُتَرَقِّط رُقَطًا سوداً، وعلى فخذيه أطواقٌ سوداء قُزْحِيَّةٌ[2]. ويعرفه أكَلَةُ لُحوم الضفادع

صِيانةُ مالِ الأُمّة

روى صاحب الكشكول[3] عن علىّ بن أبى رافع[4] أنهُ قال :

قال كنتُ على بيتِ مالِ علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) وكاتبَه . فكانَ فى بيت مالِه عِقدٌ؛ فأرسلتْ الىّ بنتُ علىّ بن أبى طالب ، فقالت لى :

---

(١) الجدة : الخطة فى ظهر الحمار وغيره يكون لونها غير لون سائر جسده

(٢) القزحة الطرائق من الألوان : أى ان سوادها متدرج طرائق

(٣) هو العالم المصنف الكاتب الشاعر الرحالة محمد بهاء الدين بن حسن بن عبد الصمد العاملى ، ولد ببعلبك سنة ٩٥٣هـ ونشأ فى بلاد الفرس وساح نحو ثلاثين سنة فى كثير من الممالك، ودخل مصر وألف بها كتابه الكشكول، ثم رجع الى بلاد الفرس وألف كثيراً من الكتب. وطبع له فى مصر غير الكشكول كتاب المِخلاة وتوفى سنة ١٠٣١هـ بأصبهان ودُفِن بطوس

(٤) كان خازنًا بعد أبيه ، لعلى بن أبى طالب وأبو رافع مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبطى الأصل مات فى زمن على . وتروى هذه القصة عن رافع نفسه لاعن ابنه

إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقدَ لُؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أُحب أن تُعيرَنيه، أتجمّلُ به في يوم الأضحى. فأرسلتُ اليها: «آلعقدُ عاريةٌ مضمونةٌ مردودةٌ بعد ثلاثة أيام الىّ؟ بنتَ أميرِ المؤمنين!». فقالت: نعم! عاريةٌ مضمونةٌ مردودة بعد ثلاثة أيام. فدفعتُه اليها. وإن أميرَ المؤمنين عليه السلام رآه عليها فعرَفه. فقال لها: من أين جاءَ اليك هذا العِقْد؟ فقالت: أستعرتُه من أبن أبي رافع خازنِ بيت مالِ أمير المؤمنين لِأتزيّنَ به في العيد. ثم أرُدَّه. (قال) فبعث إلىّ أميرُ المؤمنين فجئته. فقال لي: أتخون المسلمين يا بن أبي رافع؟ فقلت: معاذَ اللهِ أن أخونَ المسلمين؛ فقال: كيف أعرتَ بنتَ أمير المؤمنين العِقْدَ الذي في بيت مال المسلمين بغير إذني ورضاهم؟ فقلتُ. يا أمير المؤمنين إنها بنتك، وسألتْني أن أعيرَها العقدَ تتزيّنُ به، فأعرتُها إيّاه عاريةً مضمونةً مردودةً على أن تردَّه سالماً الى موضِعه. فقال: رُدَّه من يومِك! وإياك أن تعودَ الى مثلِه فتنالَك عقوبتي. ثم قال: ويلٌ لأبنتي لو كانت أخذت العِقدَ على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أوّلَ هاشميةٍ قُطِعَتْ يَدُها في سرقةٍ. فبلغَتْ مقالتُه (كرّمَ الله وجهه) أبنتَه. فقالت له: يا أميرَ المؤمنين أنا أبنتك وبِضْعةٌ منك! فمَنْ أحقُّ بلُبسِها مني؟ فقال لها: يا بنتَ أبن أبي طالب لا تذهبَنّ بكِ نفسُكِ عن الحقّ! أكُلُّ نساءِ المهاجرين والأنصار يتزيّنّ في مثل هذا العيد بمثل هذا؟ (قال): فقبضتُه وَرَدَدْتُه الى موضِعه

الشمس (١)

الشمسُ كوكبٌ مُضيءٌ بذاتِه . وهي أعظمُ الكواكبِ المرئيَّةِ لنا منظراً ، وأسطعُها ضوءاً ، وأغزرُها حرارةً ، وأجزلُها نفعاً للأرضِ التي نسكُنها ولكثيرٍ من أخواتِها سيارات الشمس و بناتِها

والشمسُ كرةٌ متأجِّجةٌ ناراً ، حرارتُها أشدُّ من حرارةِ أيِّ ساعورٍ (٢) أرضيٍّ . ويبلغ ثِقلُها ثلثمائةِ وَزْنٍ من ثِقلِ الأرض ، وهي أكبرُ منها جرماً بثلثمائةِ ألفِ وألفِ ألفِ مرَّةٍ

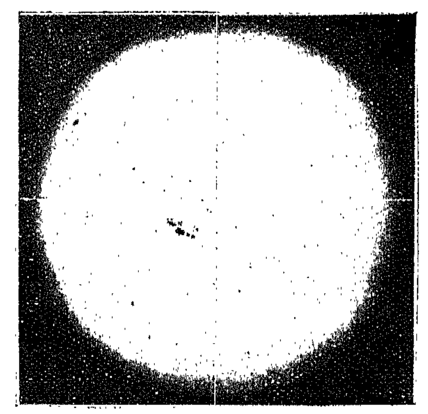
وتدورُ الشمسُ على مِحْورِها من الغرب الى الشرق مرةً واحدةً في نحو خمسةٍ وعشرين يوماً . وتبعُدُ عنا بنحو اثنين وتسعين ألفَ ألفِ ميلٍ وخمسمائةِ ألف ميل . وهي مع كلّ هذا العِظَمِ الهائلِ لا تُعَدُّ في النجوم الكُبرى ، بل إن أكثرَ ما نُشاهدُه من النجوم الثابتةِ شموسٌ أكبرُ من الشمس بألوف الالوف ، والشمسُ بسيَّاراتها تابعٌ من توابعِ أحَدِها

وسَطْحُ الشمس مَهَبُّ عواصفَ وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ تُثيرُ في جوّها أَشوِظَةً (٣) هائلةً ، تندلِعُ (٤) ألسنتها المتأججة عن مُحيط كرتها أميالاً . وقد وصفَ بعضُ العلماءِ لهَباً ارتفعَ من سطحِها لأوّل وَهْلةٍ نحوَ أربعينَ ألفِ ميل في الفضاء ، ثم ازدادَ بَريقاً وتألُّقاً (٥) ، ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعةٍ الى خمسين وثلثمائةِ ألف ميل ، ثم جعلَ يضؤُل ويضعُفُ ، فلم تمضِ ساعتان حتى

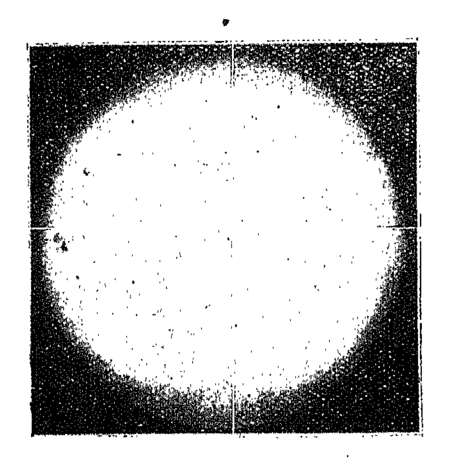
(١) ملخص من كتاب محاسن الطبيعة للورد «أفبرى» وغيره من الكتب المعتبرة

(٢) الساعور النار نفسها أو مَوْقِدها (٣) الشُواظ اللهب (٤) اندلع اللسان خرج من الفم (٥) تلألؤاً

اُضمحلَّ اُضمحلالاً . غيرَ أن ما وصَفَه هذا العالم ليس إلاَّ من قبيلِ النوادرِ ، ولكنَّ اُرتفاعَ اللهبِ نحوَ مائةِ ألف ميل ليس بغير العـاديّ . وكثيراً ما تبلغُ سُرعةُ اللهب مائةَ ميلٍ فى الثانية . وأكثرُ مادَّةِ الشمس من عُنصرِ المُحْذِى (الإِيدرُجين) المتَّقد



صورة شمسية للشمس
صورت فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٥



صورة شمسية للشمس
صورت فى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٥

وبرَصْدِ الشمس مراراً بالمِرْقَب المُغَشَّى بالسَّوادِ شُوهِدَ فى صَفْحة قُرْصِها نُكَتٌ سُودٌ وكَلَفٌ يُشَوِّهُ مُحَيَّاها ، كأنما هى كُرَةٌ سوداءُ الباطنِ غُلِّفَتْ بسطحٍ ساطعٍ من الصَّعَّادات يتخلَّله ثُقَبٌ يظهرُ تحتَها السوادُ . ولا تزالُ حقيقةُ هذه البُقَعِ موضوعَ البحث والتعليل عند الفلكيين . ومن تنقّلِ هـذه النكت عُرِفت دورتها على محورها

وللشمس سياراتٌ أو أبناءٌ اُنفصلتْ منها منذُ أزمانٍ سحيقةٍ ، عُلِمَ منها الى الآنَ نحوُ ثمانية ، هى على ترتيب الأقربِ منها فالأقرب : عُطارِدٌ فالزُّهْرَةُ فالأرضُ فالمَرِّيخُ فالمُشْتَرِى فزُحَلُ فأُرَانوسُ فنِبْتُونُ . ولم تعلَمْ كلُّ شُؤونِ

هذه السيارات حقَّ العلم وإنما ألمَّ العلماء بمعرفة موادّها وكثافتها وأبعادها، ولكن أمْرَ الحياة فيها لم يزَلْ مُبْهَماً مُسْتَغْلِقاً اللهمَّ إلاَّ فى الأرض وقمرها

أما مقدارُ النِّعَم التى سخَّرها اللهُ لنا بوُجود الشمس فمِمَّا لا يُحصيه العدّ؛ فهى مبعَثُ حياتنا وحياة الحيوان الذى يعيشُ معنا، ومصدرُ نُورنا ونارنا وحرِّنا وبَرْدنا. وهى التى تُحيلُ مياهَ البِحارِ بُخاراً، وتُقِلُّها فى الجوِّ غيوماً، وتُنزِلُها علَى الأرض أمطاراً، حيثُ تجرى جداولَ وأنهاراً، فتروى زَرْعنا، وتُنْمِى غِراسَنا، وتثيرُ الرياحَ، وتُطلِعُ الأنواءَ، وتُزْجِى[1] السُّفُنَ والبواخرَ فى عُباب الماء، وتدفعُ القُطُراتِ الحديديةَ، وتُديرُ الآلاتِ البُخاريةَ، وتُنيرُ المصابيحَ الدُّخَانية والزيتية، إذ ليس الفحمُ الحجَرىُّ والزيتُ الأرضىُّ إلاّ حرارةَ نارِها المُدَّخَرَةَ منذُ قديمِ الدهورِ لينتفعَ بها أحياءُ هذه العُصور، وما النهارُ المُبْصِرُ، والليلُ المُظْلِمُ، الا آيتانِ من آيات اللهِ المُسَخَّرةِ لنا بتسخيرِ هذا المخلوق العجيب: ففى النهارِ نسعَى فى مَناكب الأرض لابتغاءِ رزْقنا، وتدبيرِ معاشِنا، وتنظيمِ شؤون حياتنا، ونُسَبِّحُ بحمدِ ربّنا، ونعتَبرُ بآثارِ من سبقَنا، وفى الليل نسكُن لإراحة أبداننا، واستجمام[2] قُوانا، واستيفاءِ حظِّنا من النومِ الذى به نستديمُ صِحّتَنا، ونستعيضُ ما فقَدناه بأعمالنا، وننظُرُ فى مَلكوتِ السمواتِ وما خلَقَ اللهُ من شىءٍ فى حركات الكواكب وانتقالِها، وبديعِ صُورِها وألوانِها، فتعنُو وجُوهُنا، وتتضاءلُ كبرياؤُنا، أمامَ قُدْرة خالِقنا العظيمِ؛ فسبحانَه من إلهٍ حكيمٍ

وما الألوانُ التى نراها فى نَوْر الأزهار وريش الأطيار ونفائس المصنوعات

---

(١) تسيّر (٢) استجماع

إلاَّ أثرُ وُقوعِ أضوائِها على هذه المرْئيات وانعكاسها[٣] عَلَى أبصارِنا؛ فإنَّ نُورَ الشمس الأبيض مُؤَلَّفٌ من سبعة ألوانٍ أصلية[٤] تنشأُ منها كلُّ الألوانِ الفرعية، وهي الأحمرُ، والبرْتقاليُّ، والأصفرُ، والأزرقُ، والأخضرُ، والنيلَجِيُّ، والبنفْسَجِيُّ. فمن الأجسام ما لا يمتصُّ شيئاً من هذه الألوانِ، بل يَعكِسُها كلَّها عَلَى العينِ، فيبدو أبيضَ ناصعاً كزهرةِ الياسمينِ، ومنها ما يمتصُّ بعضَها ويعكِسُ باقيَها، فيتلوَّنُ بلونِ ما يعكِسُ منها؛ فإذا أبصرتَ ورقةَ الشجر خضراءَ عرفْتَ أنها اختزنت من ضَوْءِ الشمس ستةَ ألوانٍ، وردَّتْ الى عينيك سابعها، وهو الأخضر لأن فيما ادَّخرتْهُ نفعاً لها، وليس بها الى ما لفظَتْهُ افتقارٌ، ومنها ما يردُّ لونين أو أكثرَ، فيبدو لونُه مَزيجاً بين هذه الألوان السبعة. وهذه الألوان من عجائب صُنْعِ الله في الأرض لتمييز بعضها من بعض؛ فقد يتماثلُ الشيئانِ شَكْلاً، وحَجْماً، وصَلابةً، وليناً، وشمّاً ثم لا يتباينانِ إلاَّ من حيثُ اللونُ؛ فيكونُ اللونُ آيةَ تبايُنِهما، وأكثرُ ما يكون ذلك في الأزهارِ.

وتنوُّعُ الألوانِ هو السِرُّ في جمَالِ المرْئيَّاتِ من مَشاهِدِ الطبيعةِ وبدائِعِ الصناعةِ، وإنَّ أعظمَ المُصوِّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يُبرِّزوا على غيرِهم، ويدُلُّوا على ذكائِهم ونُبوغِهم الاَّ ببراعتِهم في مُحاكاةِ ألوانِ الطبيعة المُؤتلفةِ وأشكالِها المتجانِسة. وإنما يتمُّ لهم ذلك اذا عرَفوا كيفَ يمزُجُونَ من الأصباغِ ما يستخدِمون به ألوانَ النُّورِ خيرَ استخدامٍ، وينتفعون بهِ أحسنَ انتفاعٍ.

---

(١) انعكس مطاوع عكس، كما في الأساس (٢) امكن ارجاع هذه الألوان في الصناعة الى ثلاثة

وقد سخَّرَ علماءُ الطبِّ تبايُنَ الألوانِ فى كَشْفِ النِّقابِ عن حقائقِ الجراثيم؛ فإِنَّ منها مالا يتّضِحُ للعينِ فى المِجْهَرِ إلاَّ اذا أُلْقِىَ عليه صِبْغٌ خاصٌّ يُؤَثِّرُ فيه لونُه فيُصبغُ به

ولأمواجِ الشمس الضوئية سُرعةٌ معلومةٌ تسيرُ بها ، فاذا انخفضتْ هذه السرعةُ عما هى عليه لم تعُدِ العينُ قادرةً على رُؤْيَتِها ، لأنها تستحيلُ الى مظهرٍ آخرَ غيرِ مَظْهرِ الضوءِ والحرارة . وليس يُنكَرُ ما للضوءِ والحرارةِ معاً من الأثرِ الحسَنِ فى تنقيةِ المساكن مما يقطنُها من الجراثيمِ القتّالةِ والعفَنِ المُضْنى ، ولذلك قِيلَ : إن الدارَ التى تدخلُها أشعةُ الشمس لا يدخلُها الطبيبُ

وما الشمسُ وما تركيبُها ؟

سؤالٌ ظنَّهُ السلَفُ مُشكلةً لا قِبَلَ للإِنسان بحلِّها ، كما صرَّحَ به العلاَّمةُ « كَنْت[١] » إذ يقولُ عن الأجرامِ السماويةِ : « أما تعيينُ أشكالِها وأقياسِ أبعادِها وزنةِ أجرامِها ومعرفةُ حركاتِها فمَّا يتسنَّى لنا تصوُّرُ إمكانه . وأما أن نصلَ الى درسِ تراكيبها الكيميائيةِ والمعدنيةِ بوسيلةٍ من الوسائلِ فذلك من قَبِيلِ تعليلِ النفسِ بالمستحيل » . وقد ساءَ فألُ هذا العلامةِ المُتشائم ، وقُدِّرَ للبشرِ أن يجرُوا شَوطاً بعيداً فى سبيلِ إدراكِ ما كان يعزُّ إدراكُه ويُعَدُّ مستحيلاً . وظهرَ بتحليلِ أضوائِها أنَّها مركَّبةٌ من عناصرَ لا تُحْصَى بلغَ المعروفُ منها الى الآنَ نحوَ ستةٍ وثلاثينَ عُنصُراً من العناصرِ التى نعرفُها فى أرضِنا ؛ وأكثرُها انتشاراً فى الشمسِ هو عُنصرُ المُحْذِى (الإيدروجين) . ولم تُمِطْ يَدُ العلمِ النِّقابَ بعدُ عن كلِّ ما كُنا نجهَلُه من أمرِ أُمِّ الأرض (الشمس) ، ولكنَّ ما بدا لنا من خفىِّ حقائقِها يدُلنا على قُربِ الشَّبَهِ بين الأُمِّ وبنتِها

---

(١) فيلسوف ألمانى شهير (١٧٢٤ — ١٨٠٤م)

جابر عَثَرات الكِرام

روى صاحبُ ثمرات الأوراق(١) أنهُ كان في أيام سُليمانَ بنِ عبدِ الملك رجلٌ يقال له خُزَيمةُ بن بِشْرٍ من بنى أسَدٍ مشهورٌ بالمرُوءَة والكرم والمُواساة، وكانت نعمتُه وافرةً . فلم يزل على تلك الحالة حتى أحتاج إلى إخوانِه الذين كان يُواسيهم ويتفضّلُ عليهم، فواسَوْه حِيناً، ثم مَلُّوه . فلما لاح له تَغيُّرهم جاء أمرأتَه، وكانت أبنةَ عمِّه فقال لَها : يا بنتَ العمّ ! قد رأيتُ مِن إخواني تغيُّراً، وقد عزَمْتُ على لُزومِ بيتي الى أن يأتيَني الموتُ . ثم أغلَقَ بابَه عليه، وأقامَ يتقوَّتُ بما عنده حتى نفِدَ، وبَقِي حائراً في حاله . وكان عِكْرِمةُ الفَيَّاضُ والياً على الجزيرة . فبينما هو في مجلِسِه، وعنده جماعةٌ من أهل البلد إذْ جرَى ذِكرُ خُزَيمةَ بن بِشر؛ فقال عِكرمةُ: ما حالُه؟ فقالوا : صارَ في أسوإ الأحوال، وقد أغلَق بابَه ولزِمَ بيتَه. فقال عِكرمةُ الفياضُ (وما سُمِّيَ الفياضَ إلاّ للإفراط في الكرم) : فما وجدَ خُزَيمةُ بنُ بِشر مُواسياً ولا مكافِئاً؟ وأمسك عن ذلك . فلما كان الليلُ عمَد الى أربعةِ آلاف دينارٍ، فجعلَها في كيس واحدٍ، ثم أمر بإسراج دابّتِه، وخرَجَ سرًّا من أهله، فركِبَ ومعه غلامٌ واحدٌ يحمِلُ المال، ثم سار حتى وقف بباب خزيمةَ . فأخذ الكيسَ من الغلام ثم أبعدَه عنه، وتقدَّم الى الباب فطَرقه بنفسِه، فخرج خزيمةُ، فقال له : أَصلحْ بهذا شأنَك . فتناوَله فرآه ثقيلاً، فوضعَه وقبَضَ عَلَى لِجامِ الدّابّة،

---

(١) تقدمت ترجمته

وقال له : مَنْ أنتَ ؟ جُعلتُ فداءكَ ! قال له : ما جئتُ فى هذا الوقت ، وأنا أُريدُ أن تعرفَنى! قال خزيمةُ : فما أقبلُه أو تُخبرَنى مَن أنت . قال : أنا جابرُ عثَرات الكرام . قال : زدْنى. قال : لا ! ثم مضَى . ودخلَ خزيمةُ بالكيس الى امرأته، فقال لها : أبشرى ! فقد أتى اللهُ بالفرَج ! فلو كان فى هذا فلوسٌ[1] كانت كثيرةً، قومى فأسْرجى ! قالت : لا سبيلَ الى السّراج . فبات يتلمَّسُ الكيس ، فيجدُ تحتَ يده خشونةَ الدَّنانير . ورجعَ عكرمةُ الى منزله فوجدَ امرأتَه قد افتقدَتْه وسألت عنه ، فأخبرَتْ بركوبه منفرداً ، فارتابت ولطمتْ خدَّها . فلما رآها علَى تلك الحالة قال لها : ما دَهاكِ يا بنتَ العم ؟ قالتْ : سوءُ فعلك بابنةِ عمِّكَ ! أميرُ الجزيرةِ يَخرجُ بعدَ هدْأةٍ مِن الليل منفرداً عن غِلمانه فى سِرٍّ مِن أهله إلاّ إلى زَوْجةٍ أو سُرّيَّةٍ[2] ؟ فقال : لقد علِم اللهُ ما خرجتُ لواحدةٍ منهما ! قالت : لا بُدَّ أن تعلِمَنى . قال : فاكتُميه إذاً ! قالت : أفعلُ . فأخبرَها بالقصة على وجهها . ثم قال : أتُحبّين أن أحلِفَ لكِ؟ قالت : لا ، قد سكَنَ قلبى ! ثم لما أصبحَ خزيمةُ صالحَ غُرماءه ، وأصلحَ مِن حالِه ، ثم تجهَّزَ يريدُ الخليفةَ سليمانَ بنَ عبد الملك بفِلَسْطينَ . فلما وقفَ ببابه ، دخل الحاجبُ فأخبرَه بمكانِه ، وكان مشهوراً بمرُوءَته ، وكان الخليفةُ به عارفاً ، فأذن له . فلما دخلَ عليه وسلَّم بالخلافةِ قال : يا خزيمةُ ما أبطأكَ عنا ؟ فقال : سوءُ الحال يا أمير المؤمنين ! قال فما منَعك مِن النَّهضة إلينا ؟ قال : ضَعفى ! قال : فمن أنهضَك ؟ قال : لم أشعرْ يا أمير المؤمنين بعد هدْأةٍ مِن الليل الاّ ورجلٌ يَطرُقُ بابى ، وكان منه كيْتَ

(١) هى ما يتَعامل به من النحاس والشبه (٢) السرية الجارية تشترى بالمال فتكون كالزوجة

وكَيْتَ (وأخبرَه بِقصَّتِهِ من أوَّلها الى آخرِها) . فقال : هل عَرَفته ؟ قال :
لا واللهِ ! لأنه كان متنكّراً ، وما سَمِعتُ منه إلاّ « جابِر عَثَراتِ الكرام » .
قال : فتلهَّفَ سليمانُ بنُ عبد الملك على معرفته . وقال : لو عَرَفناه لأعنَّاه على
مُرُوءَته . ثم قال : عليَّ بقَنَاة فأُتي بها . فعقَد لِخُزَيمةَ[1] الولايةَ على الجزيرةِ
وعلى عَمَل عِكرمةَ الفيّاض ، وأجزل عطاياه ، وأمره بالتوجه الى الجزيرة .
فخرج خزيمةُ متوجِّهاً إليها . فلما قرُبَ منها خرج عكرمة ، وأهلُ البلد للقائه
فسلم عليه ، ثم سارا جميعاً الى أن دخلَ البلد . فنزل خزيمةُ في دار الإمارة ،
وأمر أن يُؤخذَ عكرمةُ وأن يحاسَبَ . فحوسِبَ ففَضَلَ عليه مال كثير ، فطلبه
خزيمةُ بالمال ، فقال : مالي الى شيء منه سبيلٌ ! فأمر بحبسه ، ثم بعث يُطالبه
فأرسل اليه إني لَستُ مِمَّن يَصونُ مالَه بعِرضه ، فاصنعْ ما شئتَ ! فأمر به
فكُبِّل بالحديد ، وضُيِّق عليه ، وأقام على ذلك شهراً ، فأضناه ثِقَلُ الحديد
وأضرَّ به . وبلغ ذلك ابنةَ عمِّه فجَزِعتْ عليه واغتمت ؛ ثم دعت مولاةً لها
ذاتَ عقل ، وقالت : امضي الساعةَ الى باب هذا الأمير فقولي : عندي
نصيحةٌ ؛ فإذا طُلبتْ منكِ فقولِي : لا أقولها الاّ للأمير خُزَيمةَ . فإذا دخلت
عليه فسليه الخلوةَ ، فإذا فعلَ قولي له : ما كان هذا جزاءَ جابرِ عَثَرات الكِرام
منكَ في مكافأتك له بالضّيق والحبسِ والحديدِ ! ففعَلَتْ ذلك . فلما سمع
خزيمةُ قولَها قال : وَا سَوْءَتاه ! جابرُ عثرات الكرام غريمي ؟ قالت : نعمْ !
فأمَرَ من وقته بدابَّته فأُسْرِجت ، ورَكِبَ الى وجوه أهل البلد فجمعهم ، وسار

---

(١) أي عقد له لواء الولاية لأنهم كانوا اذا ولَّوْا والياً عقدوا له راية على قناة أو رمح
إذ كان الوالي منصبه يومئذٍ إدارياً حربياً

بهم الى باب الحبس ففُتِحَ ودخل . فرأى عكرمةَ الفياضَ فى الحبس متغيراً قد أضناه الضُّرُّ ، فلما نظرَ عِكرمةُ الى خزيمةَ وإلى الناس أحشَمه ذلك . فنكسَ رأسه ، فأقبلَ خزيمةُ حتى أنكبَّ على رأسه فقبَّله ، فرفعَ رأسَه إليه وقال : ما أعقبَ هذا منك ؟ قال: كريمُ فِعلك وسوءُ مكافأتى ! قال : يغفِرُ اللهُ لنا ولكَ . ثم أمر بفكِّ قيوده وأن توضَعَ فى رجليه ، فقال عكرمةُ تريد ماذا ؟ قال : أريد أن ينالَنى مِن الضُّرِ مثلُ ما نالَك . قال : أُقسِم عليك بالله ألاّ تفعلَ ! فخرجا جميعاً الى أن وصلا الى دار خزيمةَ ، فودعه عكرمةُ: وأرادَ الأنصرافَ ، فلم يُمكِنّه من ذلك . قال وما تريدُ ؟ قال : أُغَيّرُ من حالِك ، وحيائى من أبنة عمك أشدُّ من حيائى منك . ثم أمر بالحَمَّام فأُخليت ، ودخلا جميعاً ، ثم قام خزيمة فتولّى خدمتَهُ بنفسه ثم خرجا ، فخلع عليه ، وحمَل اليه مالاً كثيراً ثم سار معه الى داره ، واستأذنه فى الأعتذار من أبنة عمه ، فأذِن له ، فاعتذر إليها ، وتذمَّم[1] من ذلك . ثم سأله أن يسير معه الى أمير المؤمنين وهو يومئذٍ مقيمٌ بالرَّملة[2] فأنعم له بذلك . فسارا جميعاً حتى قدِما عَلَى سليمانَ أبن عبد الملك . فدخل الحاجبُ فأخبره بقدوم خزيمةَ بن بشر ، فراعه ذلك وقال : وَالى الجزيرةِ يَقْدَم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ؟ ما هذا إلاّ لِحادث عظيم ! فلما دخل عليه قال (قبل أن يسلم) : ما وراءك يا خزيمة ؟ قال : خيرٌ يا أمير المؤمنين ! قال : فما أقدمك ؟ قال: ظفِرتُ بجابر عثَرات الكرام فأحببت أن أسُرَّك لِما رأيتُ من شوقك الى رؤيته . قال : ومن هو ؟ قال : عِكرمةُ الفياض . فأذِنَ له فى الدخول . فدخل فسلم عليه بالخلافة ! فرحَّبَ

---

(١) اي أستنكف من عمله اليها (٢) قرية من قرى فلسطين

به ، وأدناه من مجلسه ! وقال : ياعكرمةُ كان خيرُكَ له وبالاً عليك . ثم قال له : اكتب حوائجك وما تختاره فى رُقعة . فكتبها وقُضِيَتْ عَلَى الفوْر . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أُضيفَ اليها من التُّحف ، ثم دعا بقناةٍ وعقدَ له عَلَى الجزيرة وإرْمِينيةَ وأذْرَبِيجانَ . وقال له : أمْرُ خزيمةَ اليك : إن شئت أبقيته ، وإن شئتَ عزلتَه : قال : بل أردُّه الى عمله يا أمير المؤمنين . ثم انصرفا جميعاً ، ولم يزالا عامِلَين لسليمان بن عبد الملك مدةَ خلافته

الزَّرافـة

الزرافةُ (وتكنى أمَّ عيسى) دابّةٌ من ذواتِ الأربعِ . جميلةُ المنظَرِ جمَعتْ فى خَلْقها أشباهَ جُملةِ أنواعٍ من الحيوانِ ؛ فهى برأسِها وعنقها تُشبهُ البعيرَ ، الاّ أن عنقَ الزَّرافةِ يَعظُم مما يلى الصدر ، ويَدِقُّ مما يلى الرأسَ ، ولا ينحنى ولا ينبسط ، بل يظَلُّ منصباً ، وأن رأسها أصغرُ قليلاً وأدَقُّ خَطْماً من رأس البَعير . وهى بأظلافِ أرجلِها المنشقةِ وقَرْنيها تشبهُ البقرَ والوُعولَ ، الاّ أنَ أظلافها ليس لها زَمَعَتان[1] وإنّ قَرْنيها مستديران قصيران مكسوّان بجلدٍ شعرى ينتهى بحلْقةٍ من الشعرِ الكثيف . وبلَون وبَر جلْدها الأرقطِ تُشبهُ النُّمورةَ والفُهودَ . وبارْتفاع كاهلها كثيراً عن مُؤْخرِ كَفَلها وانْحدار مَتْنها وانْتشار مَعْرَفتها تُشبهُ الضَّبُعَ . ولذلك كان اسْمُها عندَ الفُرس (اشترْكاوْ بَلَنْكَ) ؛ لأن معنى (اشتر) الجملُ و (كاو)

---

(١) الزَمَعَة هَنة ناتئة قرنية فوق الاظلاف والحوافر ، وقد يكون بها شعر كشعر الخيل

البقرُ و (بلنك) النمرُ ، وهم يزعمون أنها تتولَّدُ من هذه الدَّوابِّ . وتشابهُ الحيوانَ المجترَّ فى تركيب كُرُوشِهِ وأمعائه . ولِمَنْخِرَيِ الزرافة جهازٌ عضلىٌّ تستطيعُ به فتحَهما وإغماضَهما. أما عيناها فكبيرتانِ سوداوانِ جميلتا الشكل براقتان تتمكّنُ بهما من النظر الى الأعلى والوراء فى وقتٍ واحد، مما يجعلُ الدُّنُوَّ منها مُستصعباً ؛ فإذا قاربها عدوٌّ بادرته بالرفْس ، فدفعته عن نفسها بشدة قد تدرأ عنها الأسد الضعيف

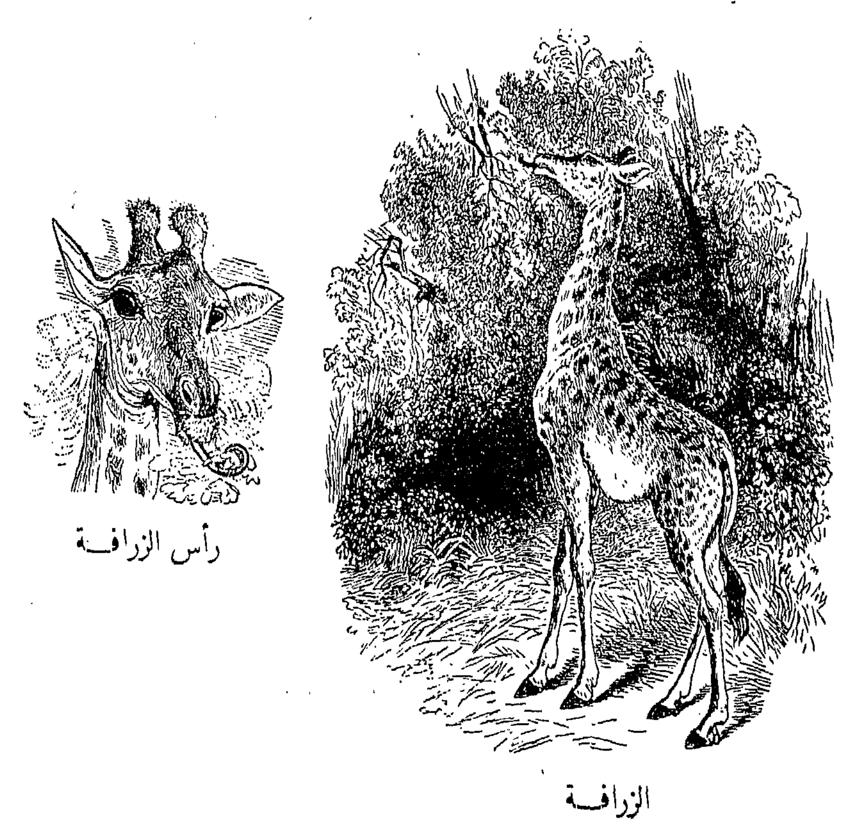
ولما كان أكثرُ رَعْيِها أوراقَ الأشجارِ من السَّنطِ وغيره خلَقَ اللهُ عنقَها طويلاً مركباً فى كاهلٍ مُرتفعٍ عَلَى صدرٍ مستطيلٍ عالٍ ، فتتناوَلُ وَرَقَ الشجر بلسانٍ طويلٍ رفيعٍ يلتوى ويدِقُّ ؛ حتى تستطيعَ أن تُدخلَه فى حلْقةٍ لا يزيدُ قُطرُها على نِصْف قيراطٍ ليسهلَ عليها طىُّ ورقِ الشجر وحَزْمُهُ ، ويُعينها عَلَى ذلك كثرةُ ما فيه من الحَلَمات الخشنة . وإذا أرادت رعْىَ شىءٍ من عُشْبِ الأرض فَشَحَتْ يديْها، فيدنو صدرُها من الأرض، فيصلُ خطمُها اليها

والزرافةُ فى عَدْوها أسرعُ من جِياد الخيلِ وأصبرُ على بُعْدِ الشُّقَّة. وقِوامُ الزرافة يختلفُ بين خمسَ عشرةَ وستَّ عشرةَ قدماً

وكان اعتقادُ الناس فيها أن يَدَيْها أطولُ من رجْلَيْها الى أن أفسده الامتحانُ وتحقَّقَ أن رجْلَيْها أطولُ من يَدَيْها بنحو قيراط أو ما يزيدُ عليه قليلاً، باعتبار أن الطولَ يبتدئُ من أسفل الإبْطين فى اليدين ومن نُقْطةِ انفصال الفخذين عن الأيْطَلَيْنِ[1] ؛ ولكنَّ ارتفاعَ الكاهل وطُولَ جانبى الصَّدر وانتصابَ العُنُق كلُّ ذلك يُوهِمُ الناظرَ أن اليدَيْن أكثرُ طولاً

(١) الأيطل الانفراج الذى بين فخذى الدابة وبطنها

ويختلفُ لونُها باختلاف أعضائها : فالرأسُ أشقرُ الى الحُمرةِ . وعلى العنق والظهر والجانبين رُقطٌ مُرَبَّعةٌ مُكَمَّمَةٌ ينفصِلُ بعضها عن بعض بِتَوالِيع[١]



رأس الزرافـة

الزرافـة

بيضاءَ الى الصُّفرة . ولونُ البَطْنِ وجانبي الفخذين الإِنْسِيَّين[٢] ضاربٌ الى البياض . ولونُ الزَّرافةِ في الذُّكور أجملُ منه في الإِناثِ وأشدُّ بَرِيقاً وبهاءً ، وجِرْمُها أعظمُ من جِرْمِ الإِناثِ ، وهي تخالفُ الذكورَ ببُروز عظمِ الجبهة .

(١) جمع توليع وهي الخطوط التي تكون في مثل حمار الوحش وتفصل سواده عن بياضه (٢) الجانب الإِنسيّ من الذراع والفخذ في الحيوان هو الجانب الباطن منهما . وعكسهُ يسمى الجانب الوحشي

ومدّةُ حمل الزّرافة خمسةَ عشرَ شهراً

وتعيشُ الزرافىُّ فى الخمائلِ والغِياض الغَضَّةِ فى أواسط إفريقيـةَ شرقاً وجنوباً : من بلاد النّوبةِ الى جِوارِ رأس الرجاء الصالِح . وهى كسائرِ الوُحوشِ تتقهقرُ أمامَ التمدُّنِ وترجعُ عن كل مكانٍ طرَقه المتحضرون

ولا ترعَى الزرافىُّ إلاَّ أسراباً

ولا يُنتفعُ بالزّرافةِ فى شىء كيفما دَجَنت وأَنِسَتْ . وفى حِلّ أكل لحمها خِلافٌ بين عُلماء المسلمين

وكانتِ الزّرافةُ تُعَدُّ رؤيتُها فى البلاد المتمدينـةِ من الغرائب : فكانت أفخرَ ما يُهديه ملوكُ السودان الى ملوكِ البلاد الشمالية . وكان يوليوسُ قيصرُ أوّلَ من عرضها على الناس فى معارض الحيوان ، ثم اقتفى أثرَه كثيرون من مُلوك الرُّومان . وفى كُتُبِ العرب كثير من قِصص التهادى بها : من ذلك ما جاءَ فى تاريخ ابن خلدون أن « أشروال من ملوك السودان أتحفَ أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن المَرينى (ملك المغرب) بهدية سنيـة سنة اثنتين وستين وسبعمائة هـ ، وكان فيها الحيوانُ العظيمُ الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروفُ بالزرافة، تحدث الناس بما اجتمعَ فيه من مفترِق الحِلَى والشبَه فى جُثْمانِه ونُعوته دَهْراً »

أما الآنَ فكـثُر وجودُها فى معارض الحيوانِ بأكثرِ بلاد الدنيا . وفى معرِض حيوان الجيزة عدّة منها

والزرافةَ حيوانٌ هَلُوعٌ نفور . وإذا حُجِرَ عليه فى حظيرة صار وديعاً فى الجملة ، ولكنه لا ينسى طبيعةَ النِّفارِ

سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

هو أميرُ المؤمنينَ ، وثانى الخُلَفاء الرّاشدين ، أبو حَفصٍ عُمَرُ الفاروقُ ابنُ الخَطاب بنِ نُفَيْلٍ القُرَشىّ العَدَوىّ ، وُلِدَ بعد مَوْلِدِ النّبىّ (صلى الله عليه وسلم) بثلاثَ عشرةَ سنة ؛ ونشأ (رضى الله عنه) بمكة فيما ينشأ فيه شُبّانُ قُرَيْشٍ : من القِيامِ بِرَعْيِ الماشِيةِ فى الصِّغَرِ ثم مزاوَلةِ التجارةِ ومُعالجةِ فُنونِ القتالِ فى الكِبَرِ . وكان الحَدُّ الفارقَ بَيْنَ حِرْفَتَيِ الصغيرِ والكبيرِ فى قُرَيْشٍ مُناهزةُ الفتى الخامسةَ عشْرَةَ مِن عُمْره . وزادَه الله بَسْطَةً فى الجِسْمِ والعَقْلِ فاقَ بهما الكثيرَ من شُبَّان قَومِهِ . وكانتْ قُرَيْشٌ قبائِذٍ قد تعلمت الخَطَّ والكتابةَ من أهلِ الحِيرةِ والأنبارِ ، فكان عمرُ فيمَن تعلمها . فما شارَفَ العِقْدَ الثالثَ من عُمُرِه إلا وهُو بَصيرٌ بالتجارة شجاعٌ ثَقِيفٌ[1] بفنونِ القتالِ ؛ إذ كانت الثّقافةُ فى القتالِ خَصْلةً لازمةً وضرورةً حافزةً[2] للتّاجرِ القُرَشىّ الذى يختلفُ ببضاعتِه فى رِحلَتَى الشتاء والصَّيْفِ بين اليَمَنِ والحَبَشةِ جَنوباً والشام والعِراقِ شمالاً . فعظُمَ شأْنُه فى قُرَيْشٍ ، وعُدَّ فى أشرافهم ورِجالاتِهم المعدُودِين : بلاغةَ لسانٍ وقُوَّةَ جَنانٍ وأَصالةَ رأْيٍ ومَضاءَ عزيمةٍ . وكانت إليه السِّفارةُ بينَ قُرَيْشٍ وقبائلِ العَربِ فى حَرْبها وسِلْمها ومنافَرتها[3] ومفاخَرتها

(١) ثقُف ثقافة صار حاذقاً خفيفاً فطناً ؛ فهو ثقيف (٢) دافعة ، من حفزه يحفزه : اذا دفعه من خلفه (٣) وهى المحاكمة فى الحسب وعزة النفر والقبيل

ولما جاء الإسلامُ كان مِن أشدِّ الناسِ مناهضةً[١] له وإنكاراً على متّبعيه وكان رسولُ الله يرَى مِن صِفاتِه الخَلْقيّة والخُلُقيّة ما يُحبّبُ إليه إسلامَهُ ؛ حتى كانَ يدعو اللهَ ويقولُ « اللهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبّ الرَّجُلَيْن إليك : بِعُمَرَ بن الخطاب أو بأبي جهلِ بن هِشام » . فاستجابَ اللهُ تعالى دُعاءه في عُمَرَ ، فأعزَّ الإسلامَ ودعا أهلَه الى الجهر به ، ولم يكونوا بَعْدُ أكثرَ من خمسةٍ وأربعين رجلاً وثلاثَ عشرةَ امرأةً يجتمعون سِرًّا في دار الأرْقمِ ابن أبي الأرقم المَخْزوميّ في أسفلِ جَبلِ الصَّفا من مكّة . فحدَّثَ عُمرُ عن نفسه في قصّةِ إسلامِه قال :

« خرجتُ بعدَ إسلامِ حَمْزَةَ بثلاثةِ أيام ، فإذا فلانٌ المخزوميُّ ، فقلتُ له : أرغبتَ عن دِينِ آبائِك واتَّبَعْتَ دِينَ محمدٍ ؟ فقال : إنْ فعَلتُ فقد فعَلَه مَنْ هُوَ أعظمُ عليكَ حقا منّي ! قلتُ : ومَنْ هو ؟ قال : أُختُك وخَتَنُك[٢] فانطلقتُ فوجدتُ هَمْهَمَةً ، فدخلتُ فقلتُ : ما هذا ؟ فما زال الكلامُ بيننا حتى أخذتُ برأسِ خَتَني فضربتُه فأدْمَيْتُه . فقامت إليَّ أُختي ، فأخذَتْ برأسي وقالت : قد كان ذلك على رَغْمِ أنفِك ! فاستحيَيْتُ حين رأيتُ الدِّماءَ فجلستُ وقلتُ : أرُوني هذا الكتابَ . فقالت : إنه لا يَمسُّه الاّ المُطَهّرون فقُمْتُ فاغتسلتُ ، فأخرجُوا لي صحيفةً فيها : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ (فقلتُ : أسماءٌ طيّبةٌ طاهرةٌ !) طَهَ ما أنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرْءانَ لتَشْقَى . . . . . إلى قولِه : اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ لَهُ الأسماءُ الحُسْنى » فتعظَّمَتْ[٣] في صَدْري ،

---

(١) مقاومة (٢) الخَتَنُ : الصِّهرُ (٣) أي السورة ، أو الآيات ، أو أسماء

وقلتُ : مِنْ هذا فَرَّتْ قُرَيْشٌ ؟ فأَسْلَمْتُ . وقلتُ أينَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالتْ : فإنه فى دار الأرْقمِ . فأَتَيْتُ فضربتُ البابَ ، فاستجمعَ القومُ ، فقال لهم حَمْزَةُ : ما لَكُمْ ؟ قالوا : عُمَرُ ! قال : وعُمَرُ ! افتحوا له البابَ ؛ فإنْ أقبلَ قَبِلْنَا منه ، وإن أدبرَ قتلناهُ . فسمِعَ ذلك رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فخرَجَ ، فتشهَّدْتُ ، فكَبَّرَ أهل الدار تكبيرةً سمِعَها أهلُ مكةَ . قلتُ يا رسولَ الله ألَسْنا على الحقّ ؟ قال : بلَى ! قلتُ ففيمَ الاختفاء ؟ فخرَجْنا صفَّين : أنا فى أحدهما ، وحمزةُ فى الآخَرِ ؛ حتى دَخلْنَا المسجدَ . فنظرَتْ قُرَيشٌ إلىَّ وإلى حمزةَ ، فأصابَتْهُمْ كآبةٌ شديدةٌ ؛ فسمَّانى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) الفاروقَ يومئذٍ[(١)] »

وكان إسلامهُ (رضى الله عنه) فى ذى الحِجة من السنةِ السادسةِ من النبوّة وهو ابنُ ست وعشرين سنةً . ولبثَ عُمَرُ والمسلمون معه يجْهَرُون بالإسلام إلى أن بايعَ أهلُ المدينةِ رسولَ الله على حِمايتِه ونُصرةِ الإسلام ، فخافَتْ قريشٌ العاقبةَ ، فتآمرَتْ على رسول اللهِ وعلى أصحابه . فأمرَ رسولُ اللهِ أصحابَه بالهجرةِ الى المدينةِ ، فكانوا يتسلّلُون مُستخفينَ من مكةَ إلاَّ عُمَرَ ؛ فإنهُ لما همَّ بالهجرةِ تقلَّدَ سيفَه ، وتنكَّبَ قوسَه وانتضَى فى يده أسهُماً ، وأتى الكعبةَ ، وأشرافُ قُرَيشٍ بفِنائِها ، فطافَ سَبْعاً ثم صلَّى ركعتين عندَ المَقام ، ثم أتَى حِلَقَهم واحدةً واحدةً ؛ فقال : شاهت[(٢)] الوُجوهُ ! من أراد أن تَثْكَلهُ أُمُّه ويَيْتَمَ وَلَدُه وتُرْمِلَ زوجتُه فليلْقَنى وَراءَ هذا الوادِى ! فما تَبِعَه منهم أحَدٌ

ولما هاجرَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة اتخذها معه دارَ

---

(١) لأنه أظهرَ الإسلام وفرَّقَ بين الحقّ والباطل (٢) قبحت

إقامةٍ، وأيّده ونَصَره، وحضَر معه الغزَواتِ كلَّها، وثبت معه فى أشد المواقع التى لم يثبُتْ فيها كثيرٌ من أصحابه، وأخلصَ للإسلام إخلاصاً جعل نفسَه تَمتزجُ برُوح الإسلام؛ فجاء القرءان مُؤَيّداً لرأيه فى بعض الحوادثِ

ولم يزَلْ مع رسول الله الصَّاحبَ الأمينَ حتى قبَضَ اللهُ رسولَه (صلى الله عليه وسلم)، واُختلفَ المهاجرون والأنصارُ فيمن يكونُ خليفة من بعده، فأيّدَ أبا بكرٍ (رضى الله عنه) بالقول والعمل حتى تمّتْ له البيْعةُ. وبقِىَ له مُدّةَ خِلافته مُستشاراً نصيحاً وقاضياً عادلاً حتى إذا حضر أبا بكر الموتُ لم يعدِل به بديلاً يخلُفُه فى المسلمين، فكان هذا الاُختيارُ من أقوى الدلائلِ على حِذْق أبى بكر وبُعدِ نظَرِه وصدقِ فِراستِه وشدةِ نُصحه للمسلمين

فلما تولّى عُمَرُ الخلافةَ لم يكن أوّلَ هَمّهِ إلاّ إتمامُ مقاصد أبى بكرٍ فى فتح ممالك كِسرَى وقيصرَ، ولم تأْخُذْه فى الحقّ هَوادَةٌ[١]. ولم يضَعْه تواضعه وزُهده عن الثقة بنفسه؛ فكان من قولِه فى ذلكَ ما ذكرَه فى خُطبةٍ له بعْدَ أن حَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ وذكّرَ به وباليوم الآخِر:

«أيها الناسُ إنى قد وُلِّيتُ عليكم، ولولا رجاءُ أن أكونَ خيْرَكم لكُمْ وأقواكم عليكم وأشدَّكم اُضطِلاعاً[٢] بما ينوبُ من مُهِمّ أُمورِكم ما توَلَّيْتُ ذلك منكم، ولكفَى عُمَرَ مُهِمّاً مُحْزِناً اُنتظارُ موافقَةِ[٣] الحساب بأخْذِ حُقوقكم كيف آخذُها ووضعِها أينَ أضَعُها وبالسَّيرِ فيكم كيفَ أسيرُ.

---

(١) أى لِينٌ (٢) قوّة وتمكُّنًا واحتمالاً (٣) الموافقة أن تقف مع غيرك ويقف معك فى خصومة أو حرب والمراد المحاسبة يوم القيامة

فربّى المستعانُ ؛ فإن عُمَرَ أصبح لا يثق بقُوَّةٍ ولا حيلةٍ إن لم يتداركْهُ اللهُ عَزَّ وجلّ برحمته وعوْنِه وتأييدِه »

ولقد أخَذَ بهذه الشدّةِ فى اللهِ أكابرَ الصحابةِ وأشرافَ القبائلِ والعشائرِ من العرب . فاعتزت العامّةُ وساوتْها الخاصّةُ فى الحقوق المشروعةِ . ولم يُقَدِّمْ أحداً على أحدٍ إلاّ بحُسنِ بلائِه فى الإسلام وكثرةِ غَنائه للمسلمين ؛ فأطاعهُ الجميعُ إطاعةَ خُضُوعٍ للحَقّ لا إطاعة ذُلّ لجبّار . وكان أشدَّ حاملٍ لهم على طاعته تَنزُّهُهُ عن أموالهم ورضاهُ بالقليل من فيئهم : نُقِلَتْ إليهِ كُنوزُ كسرى وذخائر قيصر ، فما زاد على أن مشى فى ثوبٍ مُرقّعٍ وأْتَدَم بالخلّ والزيت ولم يأكلِ اللحم إلاّ بعض أيام فى الأسبوعِ ؛ فلم تزد نفقتُه من بيت المال على درهمين فى اليوم . خطب يوماً فقال :

أيها الناسُ مَنْ رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليُقوّمْهُ . فقامَ إليه أعرابىٌّ من المسجدِ وقال : واللهِ لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمْناه بسيوفِنا ! فقالَ عُمَرُ : الحمدُ للهِ الذى جعَلَ فى هذه الأمة مَن يُقَوِّمُ اعوجاجَ عُمَرَ بسيفِه .

كانتْ كلُّ هذهِ الصفاتِ الباهرةِ كفيلةً أن يلِىَ هذا الخليفةُ العظيمُ كُلَّ أعمالِ الخلافةِ بنفْسِه؛ فكان يُنَصِّبُ القُوّادَ، ويُوَلِّى الوُلاةَ ، ويُحرِّكُ الجُيوشَ، ويَرْسُمُ الخِطَطَ الحَرْبيَّةَ ، ويبعثُ الأمْدادَ ، ويُقسِّمُ الغنائمَ، ويُقيمُ الحُدودَ ، ويُمَصِّرُ الأمصارَ، ويَسُنُّ السُّنَنَ، وهو فَرْدٌ يُقيمُ فى مدينةٍ مَحْفُوفةٍ بالصَّحَارَى لا يُعاوِنُه مِنْ أصحابِه فيها إلاّ بضعةُ نَفَرٍ : مما تنوء به الدُّولُ الدُّستوريةُ والمجالسُ النيابيةُ . وليس لهذا كُلِّه من سببٍ سِوَى عَدْلِ الرئيس وإخلاص المَرْءُوسِ واتّحادِ القلوبِ على طاعةِ الحقّ وقُوّةِ الإيمان بالله ، ولا شك أن هذه

قوةٌ عظيمةٌ لم تَلْبَثْ ممالكُ كِسرَى وقَيْصر أن تَدَكْدَكَتْ أمامَها، وأصبحَ الإسلامُ فى أيامِه باسطَ اليدَيْن على أغنى البلاد من أواسطِ آسيا الى صحارَى لوبية

وبقيت خلافته كلُّها فتحاً ونصراً وعزاً ورحمة حتى دَهَى المسلمين فيه ذلك العبدُ الأثيم المجُوسىّ أبو لؤلؤة فَيروزعبدُ المغيرة بن شُعْبَةِ، وكان مولاه أُستأذَنَ عمرَ فى إنزالِه المدينةَ لينفعَ الناس بصناعاتِه المتعدّدة؛ إذ كان نجّاراً حدّاداً نقّاشاً، فأذِن له، وضرَب عليه مولاهُ كلَّ يَوْم دِرهمَين يُؤَدّيهما له، فاُستعظَم ذلك فيروزُ، وشكا مولاهُ لِعُمَر، فقال له: أَحسِنْ الى مولاك، ماخَرجُك بكثيرٍ، (وفى نيته أن يُكلّم المغيرةَ فى أمره)، ولكنَّ الخبيثَ حقَدها عليه، وأعدَّ له خَنْجراً ذَا نَصْلَيْنِ نِصابُه فى وَسَطِه، واُختبأ وقت الغَلَس فى زاوية من المسجدِ. فلما جاءَ عُمَرُ للصلاة وقَفَ وراءَه فى الصَّفِّ، ولم يشرَعْ فيها حتى طعَنَه عَدُوُّ اللهِ عِدَّةَ طعنَاتٍ إحداها تحتَ سُرّته كانت سببَ موْتِه، ثم طعَنَ ثلاثةَ عشَر رجلاً مِمّن يليه عن يمينه ويساره مات منهم ستة، فألقى عليه أحد الناس رداءه، فلما أُغتمَّ فيه أنتحر بالخَنجر؛ وحُمِل عُمرُ الى داره، فأوصَى بالخلافة الى واحدٍ من الستة الذين تُوُفّىَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راضٍ، وهم: عثمانُ وعلىٌّ وعبدُ الرحمن بن عَوْف وسعدُ بن أبى وقّاصٍ وطلحةُ والزُّبير. واُستأذَنَ أُمَّ المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) فى أن يُدْفن فى حُجْرتها مع صاحبيه: رسولِ الله وأبى بكرٍ، فأذِنتْ له، فحمِد الله. ومات ليلةَ الأربعاء لثلاثٍ بقِينَ من ذِى الحِجّة سنة ٢٣ هـ، ودُفن من الغد عن سِنّ ثلاثٍ وستين، ومدة خِلافته عشرُ سنين وستة أشهر وثمانية أيام

وكان عمرُ (رحمه الله) طويلاً جسيماً أبيضَ شديدَ الحُمرة أصلَعَ أشْيَب

فى عارضَيه خفةُ شَعْر، وسبَلَةُ شاربه كبيرةٌ فى طرفها صُهْبَة

وهو أوّلُ من سُمِّى أمير المؤمنين وأوّلُ من كتَب التاريخ الهجرىّ وأوّلُ من دَوَّنَ الدواوين ومصَّر الأمصارَ وسنَّ قيامَ شهرِ رمضانَ

خطبتـــان

﴿ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴾

روى الجاحظُ[١] فى البيان والتبيين أن رسول الله (صلى الله عليهِ وسلم) خطب ذاتَ يومٍ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم أقبلَ على الناس فقال:

أيُّها الناسُ إنَّ لكُمْ مَعالِمَ[٢] فانتهُوا الى معَالِمكم، وإنَّ لكم نهايةً فانتهُوا الى نهايتِكم؛ فإنَّ العبْدَ بينَ مَخافتَينِ: بَيْنَ عاجلٍ قد مَضَى، لا يدرِى ما اللهُ صانعٌ به، وبَينَ آجلٍ قد بَقِيَ لا يدرى ما اللهُ قاضٍ فيهِ. فلْيأخذِ العبْدُ من نفسِهِ لنفسِهِ[٣]، ومن دُنياهُ لآخرتِهِ، ومن الشَّبيبَةِ قَبْلَ الكَبْرَةِ[٤]، ومن الحياةِ قبلَ الموتِ. فوالذى نَفْسُ محمدٍ بيدِه ما بعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ[٥] ولا بعدَ الدنيا من دارٍ الاّ الجنةُ أو النارُ

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف المشهورة توفى سنة ٢٥٥ﻫ

(٢) معلم الشيء ما يستدل به عليه، أى ان الله وضع لكم معالم للخير فتعرّفوها

(٣) أى يحاسب نفسه لنفسه (٤) اسم من الكبر فى السن (٥) استرضاء

وروى صاحب[١] صبح الأعشى قال :

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم « أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها[٢] على غيرِنا قد كُتِب، وكأن الحقَّ فيها على غيرِنا قد وجَب ، وكأن الذى نشَيِّعُ من الأموات سَفْرٌ[٣] عما قليلٍ الينا راجعون ، نُبَوِّئُهم أجْداثَهم[٤] ، ونأكلُ من تُراثِهم ، كأنَّا مُخَلَّدون بعدهم ، ونَسِينا كلَّ واعظة ، وأَمِنَّا كل جائحةٍ[٥] طُوبَى لمن شغَلَه عيبُه عن عيوبِ الناسِ ، طوبى لمن أنْفَقَ مالاً اكتسبه من غيرِ مَعصية ، وجالسَ أهلَ الفِقْهِ والحكمة ، وخالط أهلَ الذُّلِّ والمسكَنة ، طوبى لمن زَكَتْ وحَسُنَتْ خليقتُهُ ، وطابت سَريرتُهُ ، وعزَل عن الناس شَرَّهُ ، طوبى لمن أنفق الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضلَ من قَوْلِه ، ووَسِعَتْه السُّنَّةُ ولم تَسْتَهْوِه البِدْعةُ !

الصحة[٦]

الصِّحةُ بَهْجةُ الحياةِ ، والمرَضُ نَغْصُها ، والصحةُ متأصِّلةٌ فى الإنسانِ والمرَضُ طارئٌ عليهِ ، ومُجانَبةُ أسبابِ طُروئِه أَهونُ من معالجةِ إزالته بعدَ حُدوثِه؛ ومن الأقوالِ الحكيمةِ دِرْهَمُ وقايةٍ أَفضلُ من قِنطارِ عِلاجٍ » . غيرَ أننا نُشاهِدُ ، والحسرةُ مِلْءُ قلوبنا ، أنَّ كثيراً منَّا لا يَكترِثونَ بأَمْرِ الصحةِ إلاَّ إذا أزعجَهم أَلَمُ المرضِ وأصبحوا على شفا الهلَكة

---

(١) هو شهاب الدين احمد بن على القَلْقَشَنْدِيّ تُوفى سنة ٨٢١ ﻫ

(٢) أى الدنيا (٣) جمع سافر وهو المسافر (٤) أى نسكنهم قبورهم (٥) آفة

(٦) اطلع على هذه المقالة حضرة النطاسى الفاضل محمد شفيع الطبيب بوزارة المعارف وأقر بصحة ما فيها من الحقائق الفنية

وإذا كانت الصحةُ تقومُ عَلَى أُسُسٍ ضرورية فإنَّ بعضَها بحَمْدِ اللهِ مُسَخَّرٌ لنا بالفِطرةِ ، كالهواءِ والماءِ والحركةِ والنَّوم ، وبعضَها مَقْدُورٌ لنا ببعض الكَدِّ والعمل ، كالمأكَلِ والمَسْكَنِ والمَلْبَسِ . وإنما الذى يُنغِّصُ الصحةَ على الناس ، ويُكَدِّرُ صَفْوَ الحياةِ هو سوءُ استعمالِ هذه النِّعَم بالإفراطِ والتفريطِ ؛ فبعضُها لا ينتفعون منهُ بقدرِ الحاجة ، وبعضُها يتناولونه بحِرْصٍ وشراهةٍ .

فأما الهواءُ الذى هو أوَّلُ شروطِ الحياةِ والذى لا يصبرُ الإنسانُ على فقده بِضْعَ دقائق فكثيرٌ من الناس ، وخاصةً سكانَ المُدنِ الكبيرةِ ، لا يصيبون منه كفايتهم مع أنهُ أكبرُ الأجسام المُحيطةِ بهم ؛ لأنهُ لا يُعَدُّ صالحاً للحياة حافظاً للصحةِ إلاَّ إذا كان مُتَجَدِّداً خالصاً من الأجسامِ الغريبةِ كالأبخرةِ السامَّةِ والجراثيمِ العَفِنة . ولا شكَّ أن سَعَةَ منازلِ المُدن وشوارعِها وتنظيفَها وتسهيلَ مَمَرِّ الهواءِ بها مِمَّا يُقَلِّلُ من شوائب ضَرَرِ الهواءِ فيها ، ولكنهُ لا يكون من النَّقاءِ على مثلِ هواءِ الفَلَوات والمُروج والبحارِ والأنهار الكبيرة . فإذا حُرِمَتْ سُكَّانُ المُدُن التنفسَ فى هذا الهواءِ النقيِّ فلا أهْوَنَ من أن يقضُوا بعضَ أوقاتِ فَراغِهم فى النُّزْهةِ والرِّياضةِ بين ضواحِيها ، وأن يتروَّحوا ببعض الرِّحلاتِ البريةِ والبحريةِ ما أمكنَتْهم الفُرَصُ ، فإن الوقتَ الذى نقضيهِ فى التنفس فى الهواءِ الصحيحِ لا يُعَدُّ ضائعاً ، كما أن أعظمَ مِقدارٍ نستنشقُه منه لا يُعتَبرُ زائداً على حاجتنا . ولذلك نرى أهلَ البَدْوِ وسكانَ الجبال عَلَى فَقْرِهم وشَظَفِ عيشهم وجهلِهم أصحَّ أجساماً وأشدَّ قُوَّة من أهل الحَضَر على عِلمِهم وغِناهم

وأما الماء العذْبُ فهو وإن قلَّ فى الأرض عن الهواءِ وتفاوتَتْ أنواعُه

ومقاديرُه عند الأممِ والأفرادِ لم يقلَّ عن حاجة طالبِه ولم يصعُبِ استعمالُه فى كلّ ما ينبغى له . وكلُّ امرئٍ قادرٌ عَلَى تحصيل كفايتِهِ منـه وجَعْلِه صالحاً للاستعمال ، فينبغى أن نُنَقِّيَـهُ من الكدَرِ بترشيحِه من مرشحٍ أو زيرٍ ، وأن نُكثِرَ من استعماله ونتخذه عُدَّةَ نظافتِنـا فى وُضوئِنا وغَسْلِ أبدانِنا وثيابِنا .

وكثرةُ استعمالِ الماءِ من أعظمِ شروطِ الصحةِ وأظهرِ علاماتِ الحضارةِ والرُّقِيِّ فى أخلاقِ الأممِ . ولذلك جعلَ الدِّينُ الإسلاميُّ استعمالَه فى الوُضوءِ والغُسْلِ فرْضاً أو سُنَّةً فى كل أنواعِ العباداتِ

فإن نحنُ تعوَّدْنا النظافة ، ورشَّحْنا مياهَ شُربِنا أَمِنَّا شرَّ كثيرٍ من الأمراض المُعْدِيةِ والمعَوِيةِ والجلديةِ والبَوْليةِ والرَّمَديةِ وأكثرِ الأمراض العَفِنةِ ، ونَشِطتْ أعصابُنا . وتفتَّحتْ مَسامُّ جُلودنا ، فاستكملتْ وظيفةَ التنفُّسِ ، وأفرزَتِ العرقَ الجاذبَ لكثيرٍ من الفُضُول السامّة

وأما الحركةُ فكلُّ جسمٍ حيٍّ مُضطرٌّ إليها فى تحصيل قُوتِه ، إلاّ أن اتِّساعَ دائرةِ الحَضارةِ ، وتَعدُّدَ الأشغال العقلية ، وكثرةَ التَّرَفِ والغِنى جعلَ حياةَ كثيرٍ من أهل المدُن جُلوسيةً ، فقلَّتْ فيهم الحركةُ الضروريةُ لصحة الجسمِ ، ووجَبَ عليهم الاستعاضةُ عن أعمال الصناعاتِ الجسميـة بالرِّياضة البدنية : من نحو المشى غيرِ المتعِب والعَدْوِ المنتظم والسِّباحة والتجديف وركوب الخيل والصَّيدِ والألعاب النظامية والتسلّى فى أوقات الفرَاغ ببعض الصناعات اليدوية الجميلة كالنِّجارة وزراعة البساتينِ ونحوهما . ويجمُلُ بِصغارِ

الفتيان أن ينتظموا فى سلك فرق الكشافة المهذبة التى لا تلهيها أعمالها عن الدرس وطلب العلم

ومن هنا نعلم حكمة خليفتنا العظيم عمر بن الخطاب إذ يقول : « علموا أولادكم الرماية والعوم، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً (١) »

وتعتبر الصلاة فوق أنها عبادة للخالق وتهذيب للنفس من أجمع أنواع الرياضة، لتحريك كل أجزاء الجسم فيها ، فيجب أن نحافظ عليها ونؤديها فى أوقاتها لتتخلل أعمالنا ، وتنبه من غفلة قلوبنا ، فاذا عنينا بتحريك أعضائنا فأدينا الصلاة على أكمل وجوهها ، وواظبنا على الأعمال التى نستدر منها أرزاقنا ، وتعهدنا أجسامنا بأنواع الرياضة جاد هضمنا ، وسهل تنفسنا ، وانشرحت صدورنا ، وتجددت دماؤنا ، ونشطت أعصابنا وعقولنا ، وانتفت الفضول السامة عنا ؛ لتأدية كل عضو فى الجسم وظيفته بنظام ؛ واحتملنا مشاق أعمال الحياة والدفاع عن النفس والمال والأهل والوطن والحق

أما النوم فهو الراحة الاضطرارية العظمى للجسم الحى ، ولكن لا يعزب عن عقولنا أن الراحة لا تفيد أو هى تنقلب تعباً اذا لم تبلغ حد الاعتدال أو تجاوزته . فينبغى أن تكون مدة النوم فى ضجعة الليل مناسبة للسن ؛ وإن ساعة نوم بالليل خير من مثلها بالنهار ؛ فنم مبادراً واستيقظ مبكراً

وسيأتى يوم تعرف فيه معنى الأرق بكثرة الهموم والحوادث ومعضلات الحياة ، فلا تنزعج لذلك ، وروض جسمك وعقلك بمشاهدة المناظر الجميلة

---

(١) بألا يستعينوا على ركوبها بوضع الأرجل فى الركب . وكان هو رضى الله عنه يجمع جراميزه : أي أطرافه ثم يثب فكأنه مخلوق مع الفرس

وجوالب السرور. واحذرْ أنْ تتناولَ منوّماً، وثِقْ بعدَ ذلك أنك ستنامُ نَوْماً فِطريًّا مُنعشاً

وأمّا المأكلُ فهو مادّةُ الحياةِ التي منها يتكوّنُ الجسمُ ويستعيضُ بها عمّا فقدَه بالعمل، إلا أن الجسمَ لايحتاج منهُ إلاّ إلى قدْرٍ معلومٍ. فاذا زادَ عليهِ استحالَ سُمًّا بَطيئاً أو سريعاً. وتسعةُ أعشارِ الناسِ يقعُون في هذا الخطإِ؛ حتى صارَ عددُ المرْضَى بسوءِ الهضم يربو عَلَى أضعافِ بقيةِ المرضى. ومن السَّهْلِ تعوُّدُ كثرةِ الطعامِ، ولكن من الصعب جدًّا تعوُّدُ الاكتفاءِ بالقليل منهُ؛ فلنتَّخِذْ قولَ نبيّنا (صلى الله عليهِ وسلم) لرسول المقوقسِ: «نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتى نجوعَ، وإذا أكلْنا لا نشبعُ» ميزانَ اعتدالنا في المأكل

وكثرةُ ألوانِ الطعام وتأنّقُ الطُّهاةِ في صُنعِهِ مِمّا يُغري الأكَلَةَ بالشَّرهِ إليه والحِرْص عليهِ، فيختلُّ نظامُ الجسم والعقل؛ فلا نُكثرْ من ألوانِه؛ فإنما نأكلُ لِنَعيشَ لا نعيشُ لنأكلَ

وأَما المسكنُ فهو حِصنُ حياتنا وكِنُّ أجسامِنا ومَهْبِطُ راحتِنا، ومجتمَعُ شَمْلنا، وحِرْزُ نفائسنا، ومستودَعُ أسرارنا، وبِهِ نقضي نصفَ أعمارِنا ما بينَ نَومٍ وراحةٍ وأُنسٍ بالأهل والأقارب. وهو الوطَنُ الصغيرُ الذي يجبُ على رَبِّ البيتِ الحرصُ عَلَى إسعادِ سكّانِهِ وتوثيقِ أسبابِ الأُلفة بينهم

فلنتَّخِذْ منازلنا في مَحَلّةٍ هادئةٍ، ولتكُنْ حُجُراتُها رحبةً ونوافذُها واسعةً لتسهيلِ مُرورِ الهواءِ بها، ونفوذِ أشعّةِ الشمسِ اليها، والى حُجرةِ النوم خاصّةً

ولا ننسَ أنَّ وَفْرَةَ مَرافقِ المنزل وإحكامَ مَسايلِ مياهِهِ وتنظيفَ مَطْهَرَتِهِ من أهمّ شرائط الصحةِ فيهِ وأَجمعِ أسباب الراحة

وأَما الملابسُ فهي مِرءاةُ أَخلاقِنا وعُنوانُ نُبْلِنا واُعتدالِ ذَوْقنا، فلا نلبَسها الاَّ نظيفةً مقبولةَ اللون؛ ولئن عَدَلْنا بها عن أَصلِ المقصودِ منها وهو الوقايةُ من الحرّ والبرْد الى المغالاةِ في ثمنها وبَرْقشة أَلوانِها والتأَنُّقِ في هَنْدَمةِ تفصيلِها حتى نجعلَها كقوالِبَ لأجسامنا لقد جعلْناها إذاً مَشْغَلَةً لعقولنا وخواطرنا فوقَ تكاليفِ الحياةِ الكثيرةِ . فلْنَدَعْ ذلك لأَهلِ الدَّعةِ والبَطالةِ الذين فاتَتْهُم زينةُ العلمِ والعملِ وتهذيبِ النفس، فأَرادوا أَن يتستروا عنها برَوْنقِ الثياب، وهيهاتَ أَن تروقَ تمويهاتُهم عقلاءَ الرجال وأَبطالَ الأعمال وإِنما تُلحقهم بالقواعد من رباتِ الحِجال[1]

خطبـــــة

﴿ لأبي بكر (رضى الله عنهُ) ﴾

روى السُّيُوطيُّ[2] في تاريخ الخلفاء أَنَّ أَبا بكرٍ (رضى الله عنهُ) خَطَبَ الناسَ فقال : (بعدَ أَن حمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ وصلّى عَلَى نبيّهِ صلى الله عليهِ وسلم)

أُوصِيكم بتقوَى اللهِ والاُعتصامِ بأمرِ الله الذى شَرَعَ لكم وهداكم بهِ؛ فانَّ جوامعَ هَدْيِ الإسلام بَعْدَ كلمةِ الإخلاص السَّمْعُ والطاعةُ لِمَنْ

---

(١) أي النساء. والحجال جمع حَجَلة وهي موضع يزين بالثياب والأسرة والستور للعروس

(٢) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المصنف المشهور توفى سنة ٩١١ هـ بالقاهرة

ولاّهُ اللهُ أمرَكم ؛ فانهُ مَن يُطع اللهَ وأُولى الأمرِ بالمعروفِ والنّهى عن المُنْكرِ فقد أفلحَ ، وأدّى الذى عليهِ من الحقّ . وإيّاكم واتّباعَ الهوى ؛ فقد أفلحَ مَن حُفِظَ من الهوَى والطمَعِ والغضَب . وإيّاكم والفخرَ ! وما فَخْرُ من خُلقَ من تُرابٍ، ثم الى التراب يعودُ، ثم يأكلهُ الدُّودُ، ثم هو اليومَ حَيٌّ وغداً ميّتٌ ؟ فاعملوا يَوْماً بيومٍ ، وساعةً بساعةٍ ، وتَوَقَّوْا دُعاءَ المظلومِ ، وعُدُّوا أنفسكم فى الموتى . واصبروا ، فانَّ العملَ كلَّه بالصبر . واحذروا ، والحذرُ ينفعُ . واعملوا ، والعملُ يُقْبلَ ، واحذروا ما حذّركُمَ اللهُ مِن عذابِه ، وسارعوا فيما وعدَكم اللهُ من رحمتِه ، وافهمُوا وتفهّمُوا ، واتقُوا، وتَوَقَّوا فإنَّ اللهَ قد بيَّنَ لكم ما أهلكَ بِهِ مَن كان قبلكم ، وما نجّى بِهِ مَن نجّى قبلكم ؛ قد بيّنَ لكم فى كتابِهِ حلالَه وحرامهُ ، وما يُحبُّ من الأعمالِ ، وما يكْرَه ؛ فإنى لا آلوكم[1] ونفسى . واللهُ المستعانُ ولاحولَ ولا قُوّةَ الاّ باللهِ . واعلمُوا انكم ما أخلصتم للهِ من أعمالكم فربّكم أطعتم ، وحظّكم حفِظْتُم واغتبطتم[2] ، وما تطوّعتم بِهِ لدينِكم فاجعلوهُ نوافلَ[3] بين أيديكم تستوفُوا سَلَفَكم[4] وتُعطَوْا جِرايتَكم[5] حين فقركم[6] وحاجتكم اليها . ثم تفكّرُوا عبادَ اللهِ فى إخوانكم وصحابتكم الذين مَضَوْا، قد ورَدوا على ما قدّموا فأقامُوا عليهِ، وحلُّوا فى الشقاءِ أو السعادة فيما بعد الموت . انَّ اللهَ ليس

---

(١) مضارع ألا وهو هنا بمعنى « ترك » أى لا أترككم من التذكير بالخير ولا أترك نفسى أيضاً (٢) أى حسن حالكم (٣) جمع نافلة وهى العطية وما تفعله مما لم يجب
(٤) السلف القرض وكل عمل صالح قدمته . أى تستوفوا من الله جميع ما قدمتموه بين أيديكم (٥) الجراية الجارى من الوظيفة والرزق (٦) أى فى الآخرة

له شريكٌ، وليس بينه وبين أحدٍ من خلقهِ نسبٌ يُعطيه بهِ خيراً، ولا يَصرف عنهُ سُوءًا الاّ بطاعتِه واتّباعِ أمرهِ؛ فإنهُ لا خيرَ في خيرٍ بعدهُ النارُ، ولا شرَّ في شرٍّ بعده الجنَّةُ

أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم، وصلّوا على نبيّكم (صلى الله عليهِ وسلم)، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

القاهرة المُعِزّية

لمّا انتكثَ فتْلُ الدّولةِ العبّاسيةِ بغَلَبةِ الوُلاةِ والثُّوّارِ من التُّركِ والدَّيْلم والعَرَبِ على أقاليمِها، بل على بغدادَ نفسِها كان العلويُّون المشهورون بالفواطمِ ممن غلَبَ على كثيرٍ من ممالِكها؛ فاستولَوْا على شماليّ إفريقيةَ ثم على مصرَ والشامِ والحِجازِ. وأوّلُ من دعا منهم الى نفسِهِ بالخلافة خليفتُهم الأوّلُ عُبَيْدُ الله بن محمد «وتلقّبَ بالمَهْدِيّ» وأقامَ بإفريقيةَ، ثم خلَفَه ابنُه القائمُ بأمرِ الله محمدٌ ثم ابنُ القائمِ المنصورُ بنصرِ اللهِ إسماعيلُ ثم ابنُ المنصورِ المُعِزُّ لِدينِ اللهِ أبو تَميمٍ مَعَدٌّ

وكانوا يُرسلون الجُيوشَ للاستيلاءِ على مِصْرَ فيُدْحَرون [1]، حتى ضعُفتْ شوكَةُ الدولةِ الإخشيديّة، فأرسل المُعِزُّ جيشاً عَرَمْرَماً بقيادةِ مولاه وكاتِبِه جوهرِ الصِّقِلّيّ، ففتحَ مصرَ بعد مُناوَشةٍ خفيفةٍ، ونزَلَ بجيوشِه شَمَاليّ العَسْكرِ، وحفَرَ حيثُ نزلَ من ليلة الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ

---

(١) يطردون ويبعدون

أَساسَ القصرِ الكبيرِ الذى أَعدَّه لمولاهُ وأَساسَ أَسوارِ المدينةِ ، وبقُربه مَسْجدَه الجامعَ الأزهرَ ، وأَنزلَ طوائفَ الجيش حولها فى نحو عشرين حارةً ، وخصَّ كلَّ طائفةٍ بحارةٍ كحارة زَويلةَ (١) وحارة الرُّوم ، وحارة كُتامةَ ، وأَحاطَ الجميعَ بسُورٍ من اللَّبِن ؛ فكانَ من ذلك مدينةٌ سُمِّيَتْ القاهرةَ تفاؤُلاً بأنها تقهرُ أَعداءها . وكان القصدُ من بنائها أن تكونَ سُكناً للجُندِ وداراً للخلافة ومَعقِلاً يدفَعُ عن الفُسطاطِ وما وراءها المُغيرينَ من جهةِ الشام . وقد اُبتعد فى اُختيار موضعها من النيل ؛ لأنه كان يَطغَى بعضَ السنين على أراضى الساحل الشّرقى فيجعلُها تُرْعَةً إن لم يلتهمْها جُملةً اذ كانت فى أوّل الفتح مجرًى له

وكان موضعَ هذه المدينة شرقيَّ الخليج بقليلٍ رملةً ليس بها معْمورٌ إلاَّ دَيْرٌ كان يُسَمَّى دَيْرَ العِظام دَخلَ فى خِطَّة القَصْرِ الملكى ، وإلاَّ بستانٌ لمحمدِ بنِ طُغْج الإخشيدِ على الخليج (من جهة الموسَكىّ) يُعرَفُ بالبُستانِ الكافورىّ ؛ فكان الخليجُ حدًّا غَرْبيًّا للمدينةِ يبعُدُ عن سورها بنحو ثلاثين ذراعاً فرنسية ، وتُلُولُ مقبُرةِ المجاورين الحاليَّة وبابُ الوزير حدًّا شرقيًّا

أما الجنوبىُّ فكان يبتدئُ بالقُربِ مِن حِيضانِ المَوْصلىّ الى الخليج بجهةِ بابِ الخَرْقِ (الخلق) ، والشمالىُّ من نهايةِ مَقبرة العفيفىّ إلى الخليج . وكان فى الجهةِ الجنوبيةِ بابا زَويلةَ وفى الشماليّة بابان (٢) بابُ النصر وبابُ الفُتوح وفى الغربيةِ بابُ سَعَادةَ وبابُ الخَرْق ، وفى الشرقيةِ البابُ المحروقُ وباب

---

(١) اسم قبيلة بربرية جاءت منها فرقة مع جوهر من المغرب واختطت خطتها جانب هذا الباب (٢) كان جوهر قد بنى فى هذه الجهة بابين فلما بنى الأفضل الباب الحالى هدمهما واتخذ بابا واحداً

البرْقية ؛ وهذه الأبواب خرجت عن مواضعها قليلاً عندما بناها الأفضلُ أميرُ الجيوش فاتّسعت بذلك القاهرةُ ستين فدّاناً فأصبحت أربعمائة فدّانٍ على شكل يكادُ يكونُ مُرَبّعاً

وأهمُّ المبانى التى اشتملتْ عليها القاهرةُ فى القرن الخامس الهجرى: القصرانِ الشرقىُّ والغربىُّ وخزائنهما ، ودارُ الوزارة ، ودارُ الضِّيافةِ ، والجامعُ الأزهرُ وجامعُ الحاكم ؛ ويلى ذلك رِباعٌ وفنادقُ وخاناتٌ وأسواقٌ ومساجدُ ودورٌ لخاصةِ الدّولةِ وعامّتها ، ثم السورُ والأبوابُ المجدّدةُ العظيمةُ

فأما القصرُ الكبيرُ فكان يبتدئُ طُولاً من شارع خان الخَليلىّ إلى مدرسةِ بيبَرْسَ الجاشنكيرِ بالجماليّة ؛ ويمتدُّ عَرْضاً من نقطةِ تلاقى شارع خان الخليلىّ بشارع الصاغةِ الى ما وراء شارع أُمّ الغُلامِ ، ثم يتّجهُ حدُّه شمالاً الى نهايةِ شارع قصرِ الشَّوْكِ . وكان هذا القصرُ يشتملُ عَلَى عِدَّةِ قصورٍ صغيرةٍ كقصرِ الشَّوكِ وقصرِ الذَّهبِ أو قاعةِ الذهب وغيرهما ، وله عدَّةُ أبوابٍ : أعظمُها بابُ الذهب عند مَدخَلِ شارع خان الخليلى من الصاغةِ ، ثم بابُ البحرِ وموضعُه الآن بابٌ قديمٌ لخان بشتاك ، وبابُ الرِّيحِ ، وبابُ العيدِ من جهة شارع الجمالية، وبابُ الديلم ويُدخَلُ منه الى مَشهد رأس الحسين وبابُ الزّعفران ويُسلَكُ منه الى تُرْبة القصر مكان خان الخليلى

وأمّا القصرُ الصغيرُ فكان موضعُه الآنَ الصاغةَ وحَمّامَ النحاسين ومستشفى قلاوُون والقبةَ والمدرسةَ وجامعَ بَرْقوق والمدارسَ التى بعده الى الخرنفش

وكانت دارُ الوزارة شماليَّ مدرسةِ الجمالية الآن عَلَى شارع بابِ النَّصْرِ، وأمامَها دارُ الضِّيافة

وكان جامعُ الحاكمِ أكبرَ من الجامعِ الأزهرِ ، ويشغَلُ الفضاءَ الذى بين باب الفتوح وباب النصر

وكان الجامعُ الأزهرُ جنوبىَّ القصر ، وقد بارك الله عليه فبَقِىَ عامراً تتنافسُ الملوكُ والسلاطينُ فى توسعتهِ وتسهيلِ طلَبِ العلم فيه

وأما سورُ القاهرةِ فقد بناه أوّلاً جوهرٌ القائدُ باللبِنِ، ثم تجاوزه الأفضلُ أميرُ الجيوش وبنى سُوراً آخرَ باللَّبِنِ عليه جُملةُ أبوابٍ : أعظمُها باب زَويلة وبابُ النصر ، وبابُ الفتوح : قامَ بإنشائها فيما يقالُ ثلاثةُ مهندسين من مدينة الرُّها[1] ؛ فجاءتْ أعظمَ أبوابٍ لمدينة إسلامية

وكانت دواوينُ الدّولة أوّلاً فى القصرِ الكبيرِ ، ثم نُقِلَتْ الى دارِ المُلْكِ عَلَى ساحلِ الفُسطاطِ ، ثم عادت الى القصر

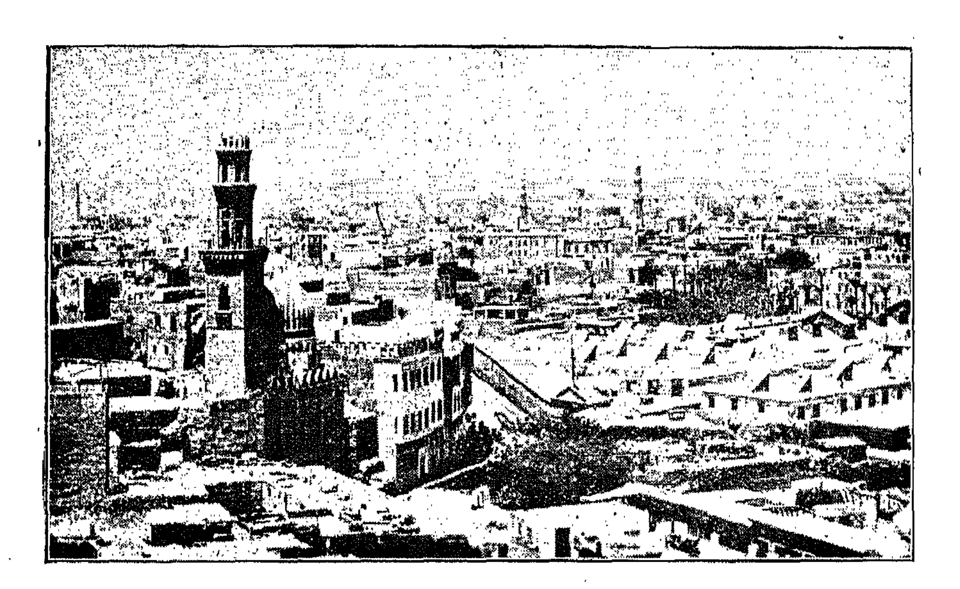
وكانت القاهرةُ فى أوّلِ عهدِها كُلُّها مِلْكاً للخليفة ؛ فلم يكنْ يُسمَحُ لأحدٍ مِن غيرِ خاصّةِ السُّلطانِ وجُنْدِهِ أن يملِكَ فيها أو يسكُنُها ، وإنّما كان السُّلطانُ يُؤَجّرُ الأسواقَ والدَّكاكينَ والمصانِعَ ونحوَها لأهلِ الفُسْطاطِ بأُجورٍ عظيمة . ثم أُذِنَ للناسِ بالمِلْكِ فيها ، فانتقلَ اليها كثيرٌ من تجار الفسطاطِ وصُناعِها ، وغصّتْ بالرّباعِ والفنادق والحماماتِ والأسواقِ وأزدحمتْ بالسّكان فغلَوْا فى رَفْعِ طِباقِ المبانى فبلغت ستّاً وسبعاً ، بل أنشئوا ظاهرَها كثيراً من العمائرِ والبساتين

وبلغَتِ القاهرةُ القديمةُ فى أواسطِ القرنِ الخامسِ غايةَ عُمرانها ، وتأنَّقَ خلفاؤُها ووزراؤُها فى تشييدِ المناظرِ والقُصورِ وتفخيمِ الرِّباعِ والدُّورِ ،

---

(١) هى مدينة أُرفة الآنَ

وتفنّنَ بها الصُّناعُ فى النَّقْشِ والزّخرفة وتأليف الألوانِ والأصباغِ والزُّجاجِ المُلوَّن والإبداع فى تبليط الرُّخام وتركيب الفُسَيْفِساء(١)، مما باهتْ به القاهرةُ بغدادَ وقُرْطُبةَ، وكان نموذَجاً متْقناً لارتقاءِ فنِّ العمارة والزَّخرفةِ أواخرَ القرن السابع وأوائلَ الثامن. وقلّما سُمعَ فى تاريخ دولةٍ إسلامية ما سُمع عن الخلفاء الفاطِميين فى تَرَفِهم وامتلاء خزائنهم بالذَّخائرِ والنفائسِ والجواهرِ والأسلحة والكُتب



منظر الجنوب الغربىّ من القاهرة

ولم يقمْ فى مملكةٍ من الاحتفال ما كان يقومُ به خلفاء القاهرة فى المواسم والأعياد، وهى الأيام التى كانوا يظهرون فيها للرَّعية، وقلّما كانوا يظهرون لهم فى غيرها، وإنما كان لهم سَراديبُ تحتَ الأرضِ ينتقلون فيها الى قصورهم ومناظرهم على الخليج وغيره

---

(١) خرز وفصوص من زجاج وحجارة ومعادن تخلط فتكوّن مزيجاً بديع الألوان

وَبَقِيَتْ القاهرةُ تختالُ ببهْجتِها وزُخْرفِها حتى دَهمَتْها فِتنة قامت بين طائِفتى الجنودِ السُّودانِ والتُّركِ زمنَ الخليفةِ المستنصرِ ، فتعطَّلتْ فيها المَرافقُ ، واْختلَّ الأمنُ ، فنُهِبت الدورُ وقصورُ الخلفاء . وتلا ذلك الكارثةُ التى لم يُسْمَعْ بمثلِها فى التاريخ ، وهى المجَاعةُ العُظْمَى التى اْستمرت سبعَ سنين وعمَّت القطرَ المِصْرىّ ، وصحِبَها طاعونٌ جارفٌ أهلكَ أكثرَ من ثُلُثِ سكَّان البلادِ ؛ فكان من أقوَى عواملِ ضَعْفِ الخلفاء وعاصمتِهم . على أنها قد حفِظَتْ كثيراً من رَوْنَقِ حضَارتها حتى زالت دولةُ الفواطم على يدِ صَلاحِ الدين ؛ فأخرجَ الخُلَفاءَ من قُصورِهم ، وأسكنَ أمراءه القصرَ الكبيرَ ، وأسكنَ أباه القصرَ الصغيرَ ، ونزَل هو ومَن خلَفه دارَ الوزارة . ثم أنشئوا قلعةَ الجبَلِ ، فاتّخذوها هم ومَن بعدهم دارَ مُلْك ؛ ولمَّا اْنقرضتْ دولتُهم وخلَفَتْها دولةُ المماليك اْستدعَى منهم السلطانُ الملكُ الظاهرُ بيبرسُ البُنْدُقْدَارِىُّ أولادَ العاضد الفاطمىّ ، واْستنزلَهم عن مِلْكِ آبائهم فى القُصورِ والمناظرِ والدُّورِ وجميعِ ما خلَّفوه بأثمانٍ صُوريَّةٍ ، واْستحلَّ بذلك بَيْعَ هذه الأملاكِ ، فبيعَتْ وقُسِّمَتْ شوارعَ وحاراتٍ ، وفنادقَ وحماماتٍ ، وتغيَّرتْ مَعالِمُها جُملةً

هذا شأنُ القاهرةِ زمنَ الفواطم وبعدَه بقليل

ولما أصابتِ الممالكَ الشرقيةَ إِحَنُ التتّارِ وكوارثُهم ، هاجرَ مِئاتُ الأُلوفِ منها الى مصرَ والشام ؛ فكان نصيبُ القاهرةِ منهم عظيماً ، ثم هاجر اليها كثير من التتار الذين أسلموا وضاقتْ بهم ، فنزلوا ظاهرَها غربىَّ المدينة وبَنوا العماراتِ العظيمةَ والأسوارَ والفنادقَ والخاناتِ ، وسُمِّى جميعُ ذلك ظاهرَ

القاهرةِ ؛ حتى إذا آذَنَ الله بتشتت شمل التتار وإسلام مَن بَقِىَ منهم صفا الزمانُ لملوكِ الترك البحريةِ بمصرَ ، واستفحلَ أمرُهم ، وامتدَّ سُلطانُهم إلى الجزيرةِ الفُراتيَّةِ والحجاز وبَرْقة ودُنقلة ، وأصبحت القاهرةُ فى ذلك الحين أفخمَ حاضرة إسلامية تُجبى إليها ثمراتُ كلّ شئ من مشارق الأرض ومغاربها ؛ تَخلّفت بغداد وقرطبة ؛ وامتدت عِماراتها حتى أصبحت حدودُها من مُنيةِ الشَّيْرَج إلى دَيْرِ الطِّين ، ومن ساحِلِ النِّيلِ الحالىّ إلى قُبور الخلفاء : أى كانت تُقاربُ ما هى عليه الآنَ ، وتنافَسَ المماليكُ فى عِمارة المساجدِ والأربطةِ والسُّبُلِ والمدارسِ والرِّباع والفَنادق والحمَّاماتِ حتى خرجوا بذلك عن حدِّ المعقولِ ؛ فلا يكادُ الإنسانُ يَمُرُّ بالشارع الذى يمتدُّ من السيدةِ نَفيسةَ الى باب النصرِ وبابِ الفتوح حتى يُذْهِلَه عَدَدُ ما يراه على جانبى الشارع من المساجدِ والمدارسِ والأربطة التى تتجلَّى فيها بدائعُ الصِّناعة العربية من البناء والنَّحْت والنَّقْش والتطعيم والنجارةِ الدَّقيقة ، مما هو ماثلٌ إلى الآنَ يشهدُ بضَخامةِ السُّلطان وأُبَّهةِ المُلْكِ وعِظَم الثَّروةِ التى كانت تتمتَّعُ بها القاهرةُ . وأصدقُ شاهدٍ بذلك ما قالَه المؤرِّخُ الثقةُ الحكيم عبدُ الرحمن بنُ خلْدونَ فى رِحلتِه الى المشْرقِ عندَ ما دَخلَ الاسكندريةَ وانتقل منها إلى القاهرة سنة ٧٨٤ هـ

« فانتقلتُ إلى القاهرةِ أوّل ذى القَعْدةِ ، فرأيتُ حاضرةَ الدُّنيا ، وبُستانَ العالَمِ ، ومَحْشَرَ الأُمَمِ ، ومدرَجَ الذَّرِّ من البَشرِ ، وإيوانَ الإسلامِ ، وكُرسىَّ المُلْكِ ، تلوحُ القصورُ والأواوينُ فى جَوِّه ، وتَزْهَرُ الخَوانقُ[1] والمدارسُ

(١) جمع خانقاه : كلمة تركية عربت وأطلقت على الأربطة (التكايا).

بآفاقه، وتُضيء البُدورُ والكواكبُ من عُلمائه، قد مثلَ بشاطئ النيل يَسقيه العَلَلَ والنهَلَ سيحُه، ويَجْبي اليهِ الثمراتِ والخيرات سَبْحُه[1]. ومررتُ في سِككِ المدينةِ تغصُّ بزحام المارَّة وأسواقُها تزخَر بالنعم الخ »

ولكنَّ مآلَ كلِّ حال الى الاضمحلال، فلم تنْعَمْ القاهرةُ بذلك أكثرَ من قرْنين؛ حتى تناوبتْها الفتنُ وثَوْراتُ المماليك الداخلية، والطواعينُ الجارفةُ التي أعظمُها طاعونُ سنة تسعٍ وأربعينَ وسبعمائة، فابتدأ خرابُ العمائر في ظاهرِ القاهرة؛ حتى فتحَ السلطانُ سَليمٌ مصرَ، فأصبحتْ بذلك ولايةً خاليةً من أُبَّهة الملك والسلطانِ والغنَى، وزادَ الخطبَ تفاقماً نقلُ السلطانِ سليم كثيراً من مَهرَةِ الصُّنَّاعِ الى القُسْطَنْطينية. وتضاعفَ الخرابُ في القاهرة حتى كانت أزمانَ الاحتلال الفرنسيِّ تكادُ تُحصَرُ بين حدود القاهرة القديمة. ولما أذِنَ اللهُ لحضارةِ القاهرة أن تُبعَثَ من رَقْدَتِها أتاحَ لها حكومةَ المُصلِحِ العظيمِ محمدِ عليِّ باشا الذى جدَّدَ في مصرَ كلَّ شيء، ونقلَ إليها حَضارةَ أوربة، وشَيَّدَ فيها المصانعَ والمدارسَ والثُّكنَاتِ وجدَّدَ أبنيةَ القلعةِ وأقامَ فيها ذلك المسجدَ الفخمَ الذى أصبحَ عَلَمَ القاهرة الفرْدَ. وأنشأ بها حَفيدُه العظيمُ الخديو إسماعيلُ عشراتِ القصور، وشقَّ بها كثيراً من الشوارع؛ وغرسَ بها الأشجارَ والحدائقَ، ومنها حديقةُ الأزبكية وأفسح الميادين وبنى قصر عابدين، فأخذت القاهرةُ تنتعشُ بالتدريج حتى صارت تماثلُ أو تفوق ما كانت عليه في القرن السابع. وأصبح عددُ سكّانها أكثرَ من ثمانمائة ألفٍ. ودلائلُ الأحوال تُشيرُ الى أنها ستكونُ أكبرَ مدينةٍ إسلاميةٍ على وجهِ البسيطة

---

(١) أى السبح فيه . والسبح أيضاً التقلب في المعاش والذهاب والمجيء فيه وهو مناسب هنا أيضاً

خطبـــــة

﴿ لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ﴾

روى صاحب صبح الأعشى أن أميرَ المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب (رضى الله عنه) قال من خطبة :

أيُّها الناسُ ! إنه أتَى علىَّ حِينٌ وأنا أحسِبُ أنَّ مَنْ قرأَ القرءانَ إنَّما يُريدُ اللهَ وما عندَه ؛ ألاَ وإنهُ قد خُيِّلَ إلىَّ أن أقواماً يَقرءُونَ القرءانَ يُريدون ما عندَ الناس[1] ؛ ألا فأَرِيدُوا الله بِقراءَتِكم ، وأَرِيدُوه بأعمالِكم ؛ فإنَّما كُنَّا نعرِفُكم إذ الوَحْيُ ينزِلُ ، وإذ النَّبيُّ (صلى الله عليهِ وسلم) بينَ أَظْهُرِنا[2] ، فقد رُفِعَ الوَحْيُ ، وذهبَ النبيُّ (عليهِ السلام) فإنما أعرِفُكم بما أقولُ لكم : ألا فمَنْ أظهرَ لنا خيراً ، ظَنَنا به خيراً وأَثْنَيْنا به عليهِ ؛ ومن أظهرَ لنا شَرًّا ظَنَنَّا به شرًّا ، وأبْغَضْناهُ عليهِ

اقْدَعُوا[3] هذه النُّفوسَ عن شهواتِها ؛ فإنها طَلِقَة[4] ، وإيَّاكم ألاَّ تقدَعُوها تَنْزِعْ بكم الى شَرِّ غايةٍ. إنَّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مرِيءٌ[5] وإنَّ الباطلَ خفيفٌ وَبِيءٌ[6] وتَرْكُ الخطيئةِ خيرٌ من مُعالجةِ التَّوبةِ .

---

(١) أى يريدون أن يشتهروا بالمعرفة والعبادة لينالوا من أولياء الامور خيراً

(٢) أى حىّ مقيم وسطنا (٣) أى كفوا . وقدَع الفرسَ كفّه

(٤) الطلق الفرس السريع الجرى . أى كفوا النفوس عن شهواتها كما تمنع الفرس عن جماحها (٥) المرئُ الهنىء النافع للجسم (٦) ضد هنىء : أى وخيم ضار للجسم

العَنكبُوت (١)

﴿ حقيقةٌ فى فُكاهة ﴾

كان من عادتى فى رياضتى أن أخرُجَ آخِرَ كلِّ أسبوع الى البيداء لأُرَوِّحَ النفسَ من العَناء، فدخلت ذاتَ مرّةٍ غابةً باسقةَ الأشجار مُلتفة الأعشاب يجرِى خِلالَها نهرٌ متمعِّجٌ (٢)، شاهدتُ على إحدى ضَفَّتَيْه عَنكبوتاً سمراءَ اللَّوْنِ مُكِبَّةً على حجرٍ تُنظِّفُ بذراعَيها وجهَها كما يفعلُ الذُّبابُ، وهى مَهْزولة الجسم خائرةُ القُوَى. فرأيتُ أن أفضلَ ما أستفتحُ به حديثَها سؤالُها عن صِحّتِها. فقلت لها: أراكِ مُنحرِفةَ المِزاج فماذا يُؤلِمُك؟ فقالت: إنى مريضةٌ وَجِلةٌ قَلِقةٌ. فقلت: ففيمَ ذلك؟ ولم يخطُرْ ببالى قطُّ أن عنكبوتاً مثلَك تمرَضُ وتخافُ، وقد مُنِحتِ قُوّةً لم يُمْنَحْها سِواكِ. فقالت: وهذه إحدى البَلِيَّتَيْنِ! فإنّ الناسَ يظُنُّون الظُّنونَ ويستخرجون النتائجَ من أقيسةٍ لا تُنتِجُ، ولا غروَ أن قِصَّتى تفتَحُ عينَيْكَ فترى الأمورَ على حقيقتها

حدَثَ منذ سنتَين أن أُمّى كانت قابعةً (٣) فى عُقْرِ بيتِها (٤) فجاءها المَخاضُ، وجعلتْ تبيضُ بيضَها واحدةً بعد أُخرى، الى أن بلَغَ عددُ ما باضتْه ذلك اليومَ ثلثمائةِ بيضةٍ. وخافَتْ أن يتبعثرَ البيضُ فجعلت، تغزِلُ الخيوطَ من مَغازلها، وهى ستُّ أنابيبَ فى ذَنبِها تُفرِزُ الخيوطَ الحريريةَ الدقيقة التى

---

(١) نقلت بتصرف عن المقتطف، وهو ترجمها عن مقالة لسيدة انجليزية

(٢) تمعج السيل والحية والريح وغيرها تلوّيها وتثنيها كما فى « الأساس » وغيره

(٣) قبع الرجل حتى رأسه وطأطأه الى صدره أو أدخله فى جيب قميصه

(٤) عقر البيت وسطه

تُسمُّونها نَسْجَ العنكبوتِ وتضربون بها المَثَلَ في الوَهَنِ لِدِقّتها ، وهي واهنة حقًّا إلا أنها لو جُمِعَ بعضُها الى بعضٍ لصارت أَمتنَ من أسلاكِ الحديدِ .
فأفرزتْ كثيراً من هذه الخيوط ، ولَفَّتْ بَيْضَها بها حتى صارَ البَيْضُ كلُّه كُرَةً كبيرةً تُحيطُ بها خيوطٌ صفراءُ كالزَّغَبِ الواهي أو كريشِ النَّعامِ .
ولما تمَّ لها ذلك حمَلتْ هذه الكُرةَ بين فكّيْها ، وخرجتْ من بيتِها لتصعدَ بها مكاناً عليًّا لا يبلغه ماءُ النهرِ اذا فاضَ . وبعد عَناءٍ وجَهْدٍ وضعتْ بَيْضَها في ثُقْبِ غارٍ بين صخورٍ عاليةٍ ثم عادتْ الى بيتِها عَلَى ضَفةِ النهرِ. ولو رآني أحدٌ أنا وأخواتي في ذلك اليومِ والأيامِ التالية لَظَنَّنا بُزوراً دقيقةً تجمَّعَ عليها زَغَبٌ من الحرير . على أنَّ وَضْعَنا في ذلك الغارِ الحريز لم يُؤْمِنَّا دقيقةً من الخطَر . ففي ذاتِ يومٍ زارَنا طائرٌ قبيحُ المَخْبَرِ ، وإن لم يكنْ قبيحَ المَنْظَرِ مُبرْقَشٌ بالزُّرقةِ والصُّفرةِ ليُخفيَ شراسةَ أخلاقِهِ ، وجعل يفتشُ بين الصُّدوعِ والنَّخاريبِ ويستخرجُ الدِّيدانَ والحشراتِ منها ويأكُلُها . ولِحُسنِ التوفيقِ كانت أمُّنا أخفتْنا في ثُغْرةٍ عميقةٍ جعلتْه لا يهتدِي الينا ، ومرَّ بنا فصلُ الشتاءِ ونحن بَيْضٌ ثم فُقِسنا من البَيْضِ في الربيع . ولم نخرُجْ منها دِيداناً بل خرَجنا عناكِبَ خَلْقاً كاملاً . وهذا أمرٌ يستحقُّ النظرَ ؛ فان الفراشَ والنَّحْلَ والخنافسَ تخرُجُ كلُّها دِيداناً صغيرةً ثم تصيرُ فَيالجَ[1] قبل أن تبلُغَ درجةَ الكمال ؛ أما نحنُ فممتازاتٌ عليها كلِّها لأننا نخرُجُ من البيض عناكبَ كاملةً كما يخرُجُ أصدقاؤُنا الجنادِبُ[2] . خرجنا من بيضِنا ولكننا كُنَّا صِغاراً كحَبِّ الخَرْدَلِ ، ولم

---

(١) جمع فيلجة . وهي الغشاء الذى تبنيه دودة القز على نفسها كما في المصباح . وقد أطلقناه على نظيره هنا (٢) نوع من الجراد

نستطيعْ أن نَرى الأشياءَ جليةً إذ كنا مغشَّيَّات بأغشيةٍ رقيقةٍ تصوننا كما تُصانُ الجواهرُ فى أَصْونتها[1] . ولقد كنتُ أولَ من مزَّقَ غطاءه . فلما انكشف الغطاءُ عن عينيَّ ذَهَلتُ عن نفسى بما رأيتُه حولى من اتساعِ الوادى الذى كنا فيه واستعظمتُ ما حوْلَه بالإضافة إلىَّ؛ فكنتُ أرى النَّبْتةَ الصغيرةَ فأحسَبُها شجرةً كبيرةً . لكننى شُغِلتُ عن ذلك توًّا بما رأيتُه حَوْلى من كثرةِ أَخَواتِى اللواتى خرجْنَ من بَيْضِهِنَّ مِثلى . وبينما أنا أنظرُ إليهنَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يُخاطِبُنا بلهجةِ الآمرِ الناهى فالتفتُّ ، فاذا المتكلِّمُ عنكبوتٌ كبيرةٌ جالسةٌ فى بابِ بيتها ، وهى أُمُّنا ؛ فأصغَيْنا اليها ، فقصَّتْ علينا خبرَ ما أصابها من العَناءِ من جرَّائنا ؛ أما أنا فلم يذْهلْنى خَبَرُها بقَدْرِ ما أذهلَنِى شىءٌ رأيتُه تحتَها وهو كأنه عنكبوتٌ ميتةٌ ؛ فلما أتمتْ حديثَها قلتُ لها : ما هذا الذى أراه تحت أقدامِك يا أمَّاه . فقالت : هذا أبوك يا وَلَدى ، فقلت : ولكننى أراه ميِّتًا لا حَرَاكَ به . فتبسَّمتْ وقالت: نعم هو مَيِّتٌ . فقد انقضت أيامُ الأفراحِ ولم يَعُدْ لنا به أَرَبٌ ، فقتلتُه وَمَصَصت دَمَه ولم يبقَ منه إلاّ جِلْدُه ، وسأجعَلُه فراشًا لى ، وهو فِراشٌ وَثِيرٌ[2] مُدْفِىءٌ فى ليلةٍ نَدِيةٍ مثل هذه الليلة . فقلتُ لها : هل أتزوَّجُ متى كَبِرتُ وآكل زوجى ؟ فقالت : لا ! لأنك أنتَ ذَكَرٌ يا وَلَدِى ، وستأكُلُكَ زوجتُك كما أكلتُ أنا أباكَ . ولا تَدْنُ منى الآنَ ؛ لأنى أحيانًا آكُلُ أولادى أيضًا . فكان هذا أوَّلَ نبإٍ سمعتُه فى حياتى ! فما أتعسَ هذه الحياةَ وهل تتصوَّرُ حياةً أتعسَ منها ؟

فقلتُ له بعدَ أن عرفتُ أنه ذَكَرٌ : الآن عرفتُ لماذا أنتَ خائفٌ

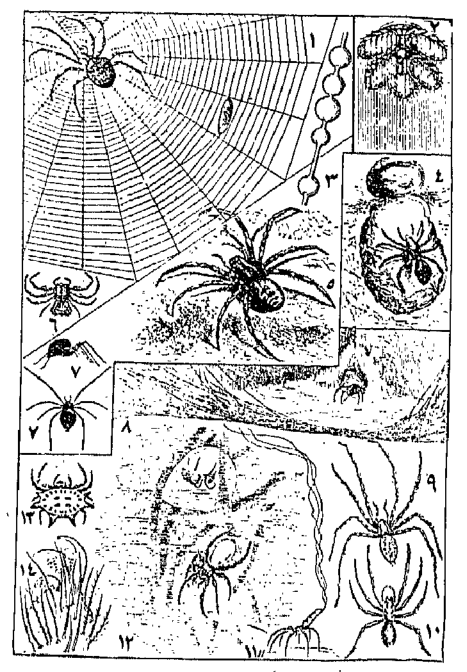
---

(١) جمع صوان . وهو الوعاء الذى يحفظ فيه الشىء النفيس (٢) ممهّد ليّن

كاسفُ البال ، ولكنّ لك اسوةً بنا ؛ فكم رجلٍ منا أكلته زوجتُه . فقال : ألا تُريدُ أن تسمعَ بقيةَ قِصَّتي .

قلتُ : بلى ! هاتِ ما عندك . فقال : ما أنبأتنا أُمُّنا أنها تأكلُ أولادَها حتى أطلقْتُ أرجُلي للرّياحِ وهربْتُ من وجهها منحدِراً إلى النَّهرِ حتى بلغْتُ شاطئَه . فوجدتُ أنني أستطيعُ أنْ أمْشيَ على الماءِ كما أمشِي على اليابسةِ . فسرّني ذلك سُروراً عظيماً .

فقلتُ له : هذا أمرٌ لم أكُنْ أعرِفُه . فقال : إنك لا تعرفُ مقدارَ ما نستطيعهُ اذا اضطُرِرنا إليه . وحقاً ليس كلُّ العناكب يستطِعْنَ ذلك ، وأنا منهم . على أنّ مِنْ أبنائِنا ما يغوصُ في الماءِ ويسكُنُ في فُقّاعةٍ من الهواءِ ، وما يَثِبُ على الأرض ، وهو اللَّيْثُ . ولا غرابةَ في مَشْينا على الماءِ ؛ فإن بيننا وبين السَّراطين نَسباً ، وإن كان بعيداً . فقلتُ له : أصبْتَ ؛ فإنك



العناكب وأنواعها

(١) عنكبوت بستانية ونسيجها
(٢) جهاز فرز النسيج من العنكبوت
(٣) منظر مكبر لخيط حلزوني من خيوط العنكبوت وفيه تشاهد العقد اللزجة
(٤) العنكبوت ذات المصيدة
(٥) و (٦) و (٧) بعض أنواع العنكبوت الوثابة من طائفة الليث
(٨) بيت عنكبوت المنازل على شكل رف فى زاويته عنكبوت
(٩) و (١٠) نوعان من عنكبوت المنازل
(١١) عنكبوت تسبح فى الهواء عالقة بخيوطها
(١٢) عنكبوت مائية وبيتها
(١٣) عنكبوت سرطانية
(١٤) قدم مكبرة لعنكبوت بستانية

تشبهُها فى شكْلِها . فقال : نعم ! ولكنّ السرطانَ لا يكتفى بثمانى أرجلٍ مثلَنا ، بل له عشرُ أرجُلٍ . ولماذا تقطعُ علىَّ الحديثَ ؟ دَعنى أتمّمْ قصّتى

لما رأيتُنِي أَمْشِي عَلَى وجه الماء بادَرْتُ إلى أقربِ قَصْباءَ[1] ، فرأيتُ حشَراتٍ صغيرةً خضراءَ اللَّوْنِ خاليةً من الأجنحةِ، فقبضْتُ على واحدةٍ منها. والتهمْتُها فاستطبتُها ، فجعلت ألتهِمُ الواحدةَ بعدَ الأخرى حتى انتفخ بطنى ، وشَعَرْتُ أنه كادَ ينْشَقُّ

فقلتُ له : كيفَ كنتَ تلتهِمُها ؟ أكنتَ تبلَعُها بلعاً ؟ فقال كلاَّ ! بل كنتُ أشُقُّ ظهرَها من : بين كَتِفَيْها ، وأمتصُّ دَمَها ، فلا أُبقى فى جسمِها شيئاً غيرَ جلدِها . ولما شَبِعْتُ عُدتُ الى بناء بيتى فأتممْتُه وجلستُ فيه أترقَّبُ سُقوطَ الذُّبابِ . فعَلِقَ بخيُوطِهِ ذُبابٌ كثيرٌ ، فأكلتُه ، وسَمِنْتُ جدًّا ، حتى كنت أُضْطرُّ أن أنسلخَ من جلدى مِراراً ؛ إذ لم يعُدْ يَسَعُنِي ؛ وكثيراً ما كانت تَنْقَطِعُ مِنِّى إذ ذاكَ يَدٌ أو رِجْلٌ

فقلتُ : كيفَ ذلك ؟ أوَ لَمْ يكُنْ قطعُها مُؤْلِماً حتى تتحدَّثَ عنه بطيبِ خاطرٍ؟ فقال : بلَى ! كنت أتألَّمُ شيئاً ما ، ولكنَّا معشرَ العناكبِ لا نألَمُ مثْلَكم ، ولا مثلَ الديدانِ . فإذا انقطعَت رِجْلٌ أو أرجُلٌ من الدُّودة ماتت حَتْماً . أمَّا نحنُ فإذا انقطعت رِجْلٌ من أرجُلِنا نبتَت لنا أُخرَى . وقد قُطِعت مِنى اثنتانِ فنبت لى غيرُهما . ولا دَاعِيَ للإطالةِ فى تاريخ حياتى عند ذلك النهر ، فأدَعُهُ وأقصُّ عليك قصةً غيَّرَتْ مَجْرى أمرى :

كنت ذات يوم جالساً فى بيتى أتَرَدَّدُ على بابه لعلّى أَلْفِتُ إلىَّ ذبابة

---

(١) القصباء جماعة القَصَب وهو كل نبات ذى أنابيب

كبيرةً واقفةً على قصبةٍ أمامى . وبينما أنا أنظرُ إليها وأتأملُ جناحيها إذا بالجناحين سقطا عن بدنها بغتةً ، وإذا هى نملةٌ كبيرةٌ كأقبح ما يكونُ من النملِ

فقلت له : ألمْ تعلمْ أن ملكاتِ النملِ يرمينَ أجنحتهنَّ بعد زواجهن ؟ فقال : كلاَّ ! لم أكنْ أعلمُ ذلك . قال فوقفتُ مدهوشاً ، وقبلَ أن أُفيقَ من دهشتى جعلت النملةُ تناجى نفسها وتقول : « لقدكان الواجبُ عليَّ أن أعرفَ أن جناحيَّ يسقطان اليومَ ، فلا أبقى هنا فوقَ الماء . ولولا هذا القصبُ ، وإن كان المشيُ عليه عسيراً ، لقضيَ عليَّ . ما هذا الذى أمامى ؟ هذه عنكبوتٌ ! إذن آخذها معى الى قريتى ، وآكلها على مهلٍ » . وأنتَ تعلمُ مقدارَ ما حاقَ بى حينئذٍ . فرميتُ بنفسى من بيتى الى الماء ، فالتفتُّ فاذا أنا بخنفسةٍ كبيرةٍ من خنافس الماء قد رفعتْ زبانيَيْها[1] ، وجدّتْ فى أثرى سباحةً . ونظرتُ أمامى لعلّى أجدُ مهرباً ، فإذا دودةٌ كبيرةٌ عيناها كمصباحين متقديْن سدّتْ فى وجهى مسالكَ الماء واليابسة . ولم يبقَ أمامى إلاّ الهواء . فوثبتُ الى ورقةٍ من ورق زنبق الماء ، ولجأتُ الى سليقةِ أسلافى ، وأفرزتُ من مغازلى الستّةِ التى فى ذنبى ستّةَ خيوطٍ حريريّة دقيقة ، فاتّحدتْ معاً وطارتْ فى الهواء خيطاً واحداً برّاقاً كالبلّور ، فتشبّثتُ به وطرتُ بمجارى الرّياح ، فكانت تمدّدُه حرارةُ الشمس ، وترسلُ به صُعُداً . ثم عبثَ بى النسيمُ ، فحملنى الى حرجة[2] من الصنوبر وأصارنى فوقها وفوقَ السهول المجاورة لها . ورأيتُ فى طريقى كثيراً من أخواتى راكباتٍ منطاداتِها

---

(١) زبانى العقرب ونحوها من العناكب قرنها (٢) مجتمع الشجر الكثير

وسائرات بين الأرض والسماء ، ولكنى رأيتُ طيوراً صغيرةً تنقضُّ عليها وتخطفُها ، فقلتُ : ويلاه ! الى متى لا نسلَم من الأعداء ؟ ألا إن من أراد السلامةَ لم يجدْها ، ولو اتَّخذَ لها نفقاً فى الأرض أو سُلماً فى السماء . فأطلتُ خيطى ، وجعلتُ أهبطُ رُوَيْداً إلى أن وقعتُ على بعض الهشيم . ولم أكَدْ أصِلُ اليه ، حتى رأيتُ زِنباراً كالتِّنِّين واقفاً فى انتظارى . ونحن العناكبَ لا نخشاه اذا كنا فى بيوتنا ؛ بل نحتالُ عليه ، وننسِجُ حَوْلَه خيوطَنا حتى نمنعَه من الحركة ، ثم نمصُّ دمَه ، وهو كبيرٌ كثيرُ الغِذاء ، فنقتاتُ بِهِ أياماً . أما اذا رآنا ظاهرَ بُيوتِنا فانه ينتقمُ منا ؛ فيهجُمُ على العنكبوت ، ويقبِضُ عليها بفكَّيْه ، ويحمِلُها الى بيته ، ويأكُلها دَفعةً واحدةً . ولا مأرَبَ لى بذلك ، ولم تَتَهيَّأْ لى هذه الحيلةُ فقطعْتُ خيطى وارتميتُ فى الهشيمِ كقِطعةٍ من الحجرِ ، فوصلتُ الى أسفله ، وقد أشَلَّ الخوفُ أعصابى

وبرَقت السماء ورعَدت تلك الليلةَ ، وسقط بَرَدٌ كبيرٌ ، وقمتُ فى الصباح واذا الريحُ تَهُبُّ باردةً ، والسماء مُحَجَّبةٌ بالسُّحُب . فصغُرَتْ نفسِى فى عينى ، وشعَرْتُ بوحدةٍ ووَحْشةٍ ، فصعِدْتُ إلى رأس الشجرة التى كنتُ فيها ، وأفرزتُ الخيوطَ من مغازلِى ، وصَعَّدتُ بها فى الجوّ ، فساقتْنِى الرياحُ ، ورمتنى على ضَفَّة النهر فى المكانِ الذى قضيتُ فيهِ زَهرةَ صِباىَ . واعتدلَ الهواء حينئذٍ . وكنتُ قد بلغتُ أشُدِّى ، فتاقت نفسى الى زَوْجَةٍ تكونُ معى

فقلتُ : ما لك ولِلزّوجةِ وأنتَ تعلَمُ عاقبةَ أمرك معها ؟

فقال : هكذا كان ! فتزوَّجْتُ وتورَّطتُ . والآنَ حُمَّ القضاء . (قال ذلك ، وهو ينظرُ يَمْنةً ويَسْرةً كالمُستجِير) . وبينما هو كذلك وأعضاؤه ترتجفُ وَجلاً ،

وأنا أنظرُ اليه مدهوشاً، خرجَتْ عنكبوتٌ كبيرة من الغارِ ووثبَتْ عليهِ، فحاوَل دَفْعَها عنه، ولكنهـا أمسكتْ به، وخنقَتْ أنفاسَه. وفى أقلّ من خمس دقائقَ تركَتْه جِلْداً خاوياً

خطبـــــة

﴿ لعثمان (رضى الله عنه) ﴾

روَى الطبرىّ(١) فى تاريخه أنَّ آخر خطبة خطبَها عثمانُ فى جماعةٍ هى :

إنَّ اللهَ (عزّ وجلّ) إنما أعطاكم الدنيا لتطلُبوا بها الآخرة، ولم يُعطِكُموها لِتركَنُوا إليها. إنّ الدنيا تفنى والآخرةَ تبقَى؛ فلا تُبْطِرَنَّـكم(٢) الفانيةُ، ولا تَشغَلَنَّـكم عن الباقيةِ، فآثِرُوا(٣) ما يبقَى عَلَى ما يفنَى؛ فإن الدُّنيا منقطعةٌ؛ وإنَّ المَصيرَ إلى اللهِ. اتَّقُوا اللهَ (عَزَّ وجَلَّ) فإنّ تقواه جُنَّـةٌ(٤) مِن بأْسِهِ ووسيلةٌ عِندَه، واُحذَروا من اللهِ الغِيَرَ(٥)، والْزَمُوا جماعتَـكم لا تَصيروا أحزاباً «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْـكم إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِـكم فأَصْبَحْتُمْ بنعْمَتِهِ إِخْوَاناً»

---

(١) هو الامام المجتهد المفسر المؤرّخ محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ
(٢) البطر : قلة احتمال النعمة وكراهة الشىء من غير أن يستحق الكراهة أى لاتجعلكم الدنيا تكرهون العافية التى أنتم فيها (٣) اختراقاً (٤) وقاية وستر
(٥) حوادث الزمان

خطبة

﴿ لعليّ (كرم الله وجهه) ﴾

روَى صاحبُ العقدِ الفَريدِ[١] أن عَلياًّ (كرمَ الله وجهَه) خطبَ أهلَ الكوفةِ يؤَنِّبهم على التراخي فى القتال فقال :

أَيُّها الناسُ المُجْتَمِعةُ أبدانهُم المُخْتَلِفةُ أهواؤُهم ! كلامُكم يُوهِنُ الصُّمَّ الصِّلابَ[٢] ، وفِعلُكم يُطْمِعُ فيكم عدوَّكم ، تقولون فى المجالس كَيْتَ وكَيْتَ فإذا جاءَ القتالُ قلتُم حَيادِ[٣] . ما عَزَّتْ دَعوةُ مَنْ دعاكم، ولا اُستراحَ قلبُ مَن قاساكم أضاليلُ[٤] بأَباطيلَ

وسأَلتُمونى التأخيرَ : دِفاعَ ذِي الدَّيْنِ المَمْطولِ[٥]، أَلاَ لاَ يدفَعُ الضَّيمَ الذَّليلُ،ولا يُدرَكُ الحقُّ إلاّبالجِدِّ.أيّ دَارٍ بعدَ دارِكم تَمْنَعون ؟أم معَ أيِّ إمامٍ بَعدِى تُقاتلون؟ المَغرورُ واللهِ مَن غَرَرتمُوه . ومَن فازَ بكم فازَ بالسَّهْمِ الأخْيَب. أصبحتُ واللهِ لا أُصدِّقُ قَوْلَكم ولا أطمَعُ فى نُصْرَتِكم . فَرَّقَ اللهُ بَيْنِى وبَيْنَكم، وأعْقَبنى بكم مَنهو خَيرٌ لى منكم . وَدِدْتُ واللهِ لو أَنَّ لِى بكُلِّ عَشرةٍ منكم رَجُلاً مِن بنى فِراسِ[٦] بن غَنْم صَرْفَ الدِّينارِ بالدِّرهم

---

(١) هو الأديب الشاعر المصنف احمد بن محمد بن عبد ربه توفى سنة ٣٢٨ ه

(٢) أى الصخور الصلبة (٣) اسم فعل أمر من حاد عنه أى جانبنا

(٤) جمع أُضلولة . والأباطيل جمع باطل على غير قياس أو هى جمع أُبطولة

(٥) مطله بدينه : طاوله فيه وسوّفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى (٦) هم بطن من بنى كنانة يعدون أشجع العرب

الاخلاق الفاضلة

نبذة مقتبسة بتصرّف من كتاب الأخلاق لمحيي الدين بن العربي [١]

الأخلاقُ التي تُعَدُّ فضائلَ منها :

العِفَّةُ — وهي ضَبْطُ النفس عن الأهواء ، وقَصْرُها على الاكتفاء بما يُقيم أَوَدَ الجسدِ ويحفَظُ صحتَه ، واجتنابُ السَّرَفِ والتقتيرِ في جميع اللذات ، وقَصْدُ الاعتدال ، وأن يكونَ ما يُقتصرُ عليه منها على الوجهِ المستَحَبِّ المتَّفَقِ على ارتضائه ، وفي أوقاتِ الحاجة التي لا غنَى عنها ، وعلى القدرِ الذى لا يُحتاجُ الى أكثرَ منه ولا يحبِسُ النفسَ والقُوَّةَ على أقلَّ منه . وهذه الحالُ هى غايةُ العِفَّة

ومنها التَّصَوُّنُ — وهو التحفُّظُ مِن التَّبَذُّلِ . فمِنَ التصوُّن التحفُّظُ من الهَزْلِ القبيحِ ومُخالطةِ أهلِه وحضورِ مجالِسِه ، وضبطُ اللسان من الفُحْشِ وذِكْرِ الخنَا والقبيح والمُزاحِ السخيفِ ، وخاصةً في المحافل ومجالسِ المحتَشِمين. ولا أبَّهةَ لمن يُسرِفُ في المُزاحِ ويُفْحِشُ فيه . ومن التصوُّن أيضاً الانقباضُ عن أدنياءِ الناس وأصاغرِهم ومُصادقتِهم ومُجالستِهم ، والتحرُّزُ من المعايش الرديئةِ واكتسابِ الأموال من الوجوه الخسيسةِ ، والترفُّعُ عن مسألةِ الحاجاتِ لِئامَ الناسِ وسِفْلَتَهم والتواضُعِ لِمَنْ لا قدرَ له ، والإقلالُ من البروز مِن غيرِ حاجةٍ والتبذلِ بالجلوسِ في الأسواقِ وقوارعِ الطُّرُقِ من غير

---

(١) هو العارف المتصرّف المصنف محيي الدين محمد بن على بن العربي دخل المشرق وسكن دمشق وتوفي بها سنة ٦٣٨ هـ

اضطرار؛ فإنّ الإكثارَ من ذلك مُخِلٌّ، وأعظمُ الناسِ قدراً عند الخلق من ظهر اسمُه وخفي شخصُه

ومنها الحلمُ — وهو تركُ الانتقام عندَ شِدةِ الغضب مع القُدرةِ على ذلك. وهذه صفةٌ محمودةٌ ما لم تُؤَدِّ الى ثَلْمِ جاهٍ أو فسادِ سياسةٍ. وهي بالرؤساء والملوك أحْسَنُ، لأنهم أقدرُ على الانتقام مِن مُغْضِبيهم؛ ولا يُعَدُّ فضيلةً حِلْمُ الصغير عن الكبير، وإن كان قادراً على مقابلتِه في الحال؛ فإنه إن أمسكَ فإنما يُعَدُّ ذلك خَوْفاً لا حِلماً

ومنها الوَقارُ — وهو الإمساكُ عن فضول الكلام والعيب وكثرةِ الإشارة والحركةِ فيما يُسْتَغْنَى عن الحركةِ فيه، وقِلّةُ الغضب، والإصغاء عند الاستفهام، والتوقُّفُ عندَ الجواب، والتحفُّظُ عن التسرُّع في جميع الأُمور. ومن قَبيل الوَقار أيضاً الحياء — وهو غَضُّ الطَّرْف والانقباضُ عن الكلامِ حِشمةً للمستحيا منه. وهذه العادةُ محمودةٌ ما لم تَكُنْ عن عيٍّ ولا عَجْز

ومنها الرحمةُ — وهي لا تكون إلاّ لمن تظهرُ منه لِراحِمِه خَلّةٌ مكروهةٌ: إما نقيصةٌ، وإما مِحْنةٌ عارضةٌ. فالرحمةُ هي محبةٌ للمرحوم مع جَزَعٍ من الحالِ التي من أجلها رُحِمَ. وهذه الحالُ مستحسنةٌ ما لم تخرُجْ بصاحبها عن العَدْل، ولم تَنْتَهِ به إلى الجَورِ وإلى فساد السياسة؛ فليس بمحمودٍ رحمةُ القاتل عندَ القَوَدِ والجاني عندَ القِصاص

ومنها الوفاء — وهو الصَّبرُ عَلَى ما يَبذُلُه الإنسانُ مِن نَفْسه، ويرهَنُ به لسانَه والخروجُ مما يَضمنُه وإن كان مُجْحِفاً به؛ فليس يُعَدُّ وَفِيّاً مَن لم يَلْحَقْه بوفائه أذيّةٌ وإن قَلَّتْ. وهذا الخُلقُ محمودٌ ينتفِعُ به جميعُ الناسِ. فإن مَنْ

عُرِفَ بالوفاء كان مقبولَ القولِ عظيمَ الجاه، الاّ أنّ انتفاعَ الملوكِ بهذا الخُلقِ أكثرُ وحاجتهم اليه أشدُّ . وإنه متى عُرِفَ منهم قلّةُ الوفاء لم يُوثَقْ بمواعيدهم ولم تتمّ أغراضُهم ، ولم يسكُنْ إليهم جندُهم وأعوانُهم

ومنها أداءُ الأمانةِ — وهو التعفّفُ عمّا يتصرفُ الإنسانُ فيه من مالِ غيرِه وما يُوثَقُ به وعليه من الإعراضِ والحُرَمِ مع القُدرةِ عليه ، وردُّ ما يُستودَعُ الى مُودِعِهِ

ومنها كتمانُ السِّرّ — وهذا الخلقُ مُركّبٌ من الوَقارِ وأداءِ الأمانة . فان إخراجَ السرّ من فُضولِ الكلامِ . وليس بِوَقورٍ من تكلّمَ بالفُضول . وأيضاً فكما أنّ مَن اُستُودعَ مالاً فأخرجَه إلى غيرِ مُودِعِهِ فقد خفَرَ الأمانةَ كذلك مَن اُستُودِعَ سِرّاً فأخرجَه إلى غيرِ صاحبِه فقد خفَرَ الأمانةَ . وكتمانُ السرّ محمودٌ من جميعِ الناسِ ، وخاصّةً مَن يَصحَبُ السلطانَ ؛ فإنّ إخراجَه أسرارَه مع أنه قبيحٌ ، يُؤَدّي الى ضَرَرٍ عظيمٍ يدخلُ عليه من سلطانه

ومنها التواضُعُ — وهو تَرْكُ الترؤُّسِ وإظهارُ الخمولِ وكراهيةُ التعاظُمِ والزيادةِ في الإكرامِ ، وأن يتجنّبَ الإنسانُ المباهاةَ بما فيه من الفضائلِ والمفاخرةَ بالجاهِ والمالِ ، وأن يتحرّزَ من الإعجابِ والكِبْرِ . وليس يكونُ حسنُ التواضعِ ظاهراً الاّ في أكابرِ الناسِ ورؤسائِهم وأهلِ الفضلِ والعلمِ

ومنها البِشْرُ — وهو إظهارُ السُّرورِ بمن يلقاه الإنسانُ من إخوانِه وأودّائِه وأصحابِه وأوليائِه ومعارفِه ، والتبسُّمُ عندَ اللقاءِ . وهذا الخلقُ مستحسَنٌ من جميعِ الناسِ ، وهو من الملوكِ والعظماءِ أحسنُ . فإنّ البِشرَ في المَلِكِ يتألّفُ به قُلوبَ الرّعيّةِ والأعوانِ والحاشيةِ ويزدادُ به تحبُّباً إليهم . وليس سعيداً

من الملوك من كان متبغّضًا إلى رعيّته ؛ وربما أدّى ذلك إلى فسادِ أمره وزوالِ ملكه

ومنها صِدْقُ اللهجةِ — وهو الإخبارُ عن الشيء على ما هو به . وهذا الخُلُقُ مستحسن ما لم يُؤدِّ الى ضرر مُجْحِفٍ مُهلِك عدوانًا وظلماً . والصدقُ مستحسَنٌ من جميع الناس ، وهو من الملوكِ والعظماءِ أحسنُ

ومنها سلامةُ النيّةِ — وهى اعتقادُ الخيرِ لجميعِ الناس ، وتجنُّبُ الخُبْثِ والغِيلةِ والمكرِ والخديعةِ . وهذا الخُلُق محمودٌ من جميع الناس ، إلاّ أنهُ ليس يصلح للملوكِ التخلق به دائماً ، ولا يتمّ المُلكُ إلاّ باستعمالِ المكرِ مع الأعداء ، ولكن لا يحسُنُ بهم استعمالُه مع أوليائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم

ومنها السَّخاء — وهو بذلُ المال من غيرِ مسألة ولا استحقاق . وهذا الفعلُ مستحسَنٌ ما لم ينْتَهِ إلى السَّرَفِ والتبذير ، فإنْ مَنْ بَذَلَ جميعَ ما يملِكُ لِمَن لا يستحقُّه لم يُسَمَّ سَخِيًّا ، بل يُسَمَّى مُبذِّراً مُضَيِّعًا . والسخاء فى سائر الناس فضيلةٌ مستحسنةٌ ؛ فأما فى الملوك فأمرٌ واجبٌ ؛ لأن البُخْلَ يُؤدِّى الى الضررِ العظيمِ فى مُلْكِهم ، والسخاء والبذلُ يرتهنُ به قلوبُ الرعيةِ والجُندِ والأعوانِ فيعظُم الانتفاعُ به

ومنها الشجاعةُ — وهى الإقدامُ عَلَى المكارهِ والمهالكِ عندَ الحاجةِ الى ذلك ، وثباتُ الجأشِ عند المخاوف ، والاستهانةُ بالموت . وهذا الخلقُ مستحسَنٌ من جميعِ الناس ، وهو بالملوك وأعوانِهم أليَقُ وأحسنُ ، بل ليس بمستحِقٍّ للمُلكِ مَن عَدِمَ هذه الخَلّة . وأكثرُ الناس أخطاراً وأحوجهم الى اقتحام الغَمَراتِ هم الملوك ؛ فالشجاعةُ من أخلاقِهم الخاصةِ بهم

ومنها المنازعةُ — وهى منازعةُ المرءِ فى التّشبُّه بغيرهِ فيما يُرغَبُ فيه والاجتهادُ فى الترقّى الى درجةٍ أعلى من درجتِهِ . وهذا الخُلُق محمودٌ اذا كانت المنافسةُ فى الفضائل والمراتب العاليةِ وما يَكسِبُ مجداً وسُؤدُداً. فأمّا فى غير ذلك من اتّباع الأهواء والمباهاةِ باللذات والزّينةِ والبزّةِ فمكروهٌ جدّاً

ومنها الصبرُ عند الشّدّةِ — وهذا الخُلُقُ مُركّبٌ من الوَقار والشّجاعةِ ومستحسنٌ جداً ما لم يكن الجزَعُ نافعاً ولا الحُزْنُ والقلَقُ مُجدِياً ولا الحيلةُ والاجتهادُ دافعةً ضررَ تلك الحالةِ. وما أقبحَ الجزعَ اذا لم يكُنْ مفيداً

ومنها عظمة الهِمّةِ — وهى استصغارُ ما دُونَ النّهايةِ من مَعالى الأُمور، وطلبُ المراتب السامية ، واستحقارُ ما يجودُ به الإنسانُ عند العَطيّةِ ، والاستخفافُ بأوساطِ الأمورِ، وطلبُ الغايات ، والتهاوُنُ بما يملِكه الإنسان وبذلُ ما يُمكِنُه لمن يساله من غيرِ امتنانٍ ولا اعتدادٍ به . وهذا الخُلُق من أخلاقِ الملوك خاصةً. وقد يحسُنُ بالرؤساءِ والعُظماءِ ومن تسمُو نفسه الى مراتبهم

ومن عِظَمِ الهمّةِ الأَنَفَةُ والحَمِيَّةُ والغَيْرةُ : والأَنَفَةُ هو نُبُوُّ النفسِ عن الأُمورِ الدنيئةِ ، والحمِيّةُ والغيرةُ جميعاً هما الغضبُ عند الإحساس بالنقص . وانما يلحَقُ الإنسانَ الغيرةُ على الحُرَمِ لأن فى التعرُّض لَهُنّ عاراً ومَنْقَصَةً ، فإنّ المُتَعَرِّضَ لِلْحُرَمِ مُهْتَضِمٌ لصاحبهنّ ومُتَصَرِّفٌ فى حقٍّ له ، والاهتضام نقيصةٌ . ومن عِظَمِ الهمّةِ الأنفةُ من الاهتضامِ ودُخولِ النقْص . وهذا الخُلُق مستحسنٌ من جميع الناس

ومنها العَدْلُ — وهو التوسُّطُ اللازمُ للاستواء ، وهو استعمالُ الأمورِ فى مواضعها وأوقاتِها ووجوهِها ومقاديرِها من غيرِ سَرَفٍ ولا تقصيرٍ ولا تقديمٍ ولا تأخيرٍ

عِبرةٌ في فُكاهةٍ

﴿ رِثاء هِرّ ﴾

كان لابن العَلاَّف[١] هِرٌّ يأنَسُ به . وكان يدخلُ أبراجَ الحَمَام التي لجيرانه ويأكلُ فِراخَها . وكثُرَ ذلك منه ، فاحتالَ له أربابُها بحِبالة التفّتْ على عنقه فقتلوه . فرثاه بقصيدة مشهورة . وقيل إن القصة تمثيل لا حقيقة وهي قصيدةٌ بديعةٌ

قال فيها ابنُ خلِّكان[٢] : هي من أحسن الشِّعر . وعددُها خمسةٌ وستون بيتاً ، فاقتصرنا منها على ما يأتي ذكره :

يا هِرُّ فارقتَنا ، ولم تَعُدِ   وكنتَ فينا بمَنْزِلِ الوَلَدِ

فكيف ننفكُّ عن هواكَ ، وقد   كنتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ ؟

---

(١) هو أبو بكر الحسن بن علي بن أحمد الضرير النهرواني . كان من الشعراء المجيدين، وكان ينادم الامام المعتضد بالله العباسيّ . وقيل انه بات ليلة في دار المعتضد مع جماعة من ندمائه فاتاهم خادم ليلاً فقال أمير المؤمنين يقول أرقت الليلة بعد انصرافكم فقلت:

ولما انتبهنا للخيال الذي سرى   إذا الدار قفر والمزار بعيد

وقد أُرتج عليّ تمامه فمن أجازه بما يوافق غرضي أمرت له بجائزة . فلما سمع الندماء ذلك أُرتج عليهم، وكلهم شاعر فاضل، فابتدر ابن العلاف فقال :

فقلت : لعيني عاودي النوم واهجعي   لعل خيالاً طارقاً سيعود

فرجع الخادم . ثم عاد فقال له : أمير المؤمنين يقول : قد أحسنت. وقد أمر لك بالجائزة . وتوفي سنة ٣١٨ هـ

(٢) هو قاضي القضاة المؤرخ الأديب احمد بن ابراهيم بن أبي بكر خلكان الإربلي صاحب « وفيات الأعيان » توفي سنة ٦٨١ هـ

فتُخْرِجُ الفأرَ من مَكامنِها ... ما بَيْنَ مفتُوحِها الى السُّدَدِ(١)
يلقاكَ فى البيْتِ منهمُ(٢) مَدَدٌ ... وأنتَ تلقاهُمُ بلا مَدَدِ
لا عَدَدٌ كانَ منك مُنْفلتاً ... منهمْ، ولا واحدٌ من العَدَدِ
لاترهَبُ(٣) الصيفَ عندهاجِرةٍ(٤) ... ولا تهابُ الشتاءَ فى الجَمَد(٥)
وكان يجرى (ولا سَدادَ لهم) ... أمرُكَ فى بيتِنا عَلَى سَدَدِ(٦)
حتى اُعتقَدْتَ الأذَى لجيرتِنا ... ولم تكُنْ للأذَى بمعتقِدِ(٧)
وحُمتَ حوْلَ الرَّدَى بظلمِهمِ ... ومن يَحُمْ حولَ حوضِه يَرِدِ
وكانَ قلبى عليك مُرتَعِدًا ... وأنت تنسابُ غيرَ مُرتعِدِ
تدخلُ بُرْجَ الحَمامِ مُتَّئِدًا ... وتبلَعُ الفَرْخَ غيرَ مُتَّئِدِ(٨)
وتطرَحُ الرِّيشَ فى الطريق لهم ... وتبلَعُ اللحمَ بَلْعَ مُزْدَرِدِ(٩)
أطعَمَكَ الغَىُّ لحمَها. فرأَى ... قتلَكَ أربابُها من الرَّشَدِ
حتى اذا دَاوموكَ(١٠)، واُجتهدوا ... وساعدَ النَّصْرُ كَيْدَ مُجتَهِد
كادوكَ دَهراً، فما وقعتَ، وكم ... أفلَتَّ من كيدهم، ولم تَكَدِ(١١)

---

(١) جمع سُدّة، وهى الباب أى سواء أكانت المكامن مفتوحة أم لها سدد، أى أبواب تسدّ (٢) أعاد على الفيران ضمير العقلاء لأنه أنزلها منزلة العقلاء ونسب اليها أعمالاً كأعمالهم كقوله تعالى «كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (٣) تخاف (٤) الهاجرة نصف النهار عند اشتداد الحرّ (٥) الجمد الثلج. أى لاتهاب الشتاء عند نزول الثلج (٦) السدد والسداد الصواب والاستقامة (٧) اعتقد كذا عقد عليه القلب والضمير (٨) اتّأدَّ: تأنّى وتمهل فهو متئد (٩) أى بلا مضغ (١٠) تأنوا فى طلبك (١١) أى أفلتَّ ولم تكد تفلت

خُنْتَ، وأنهمكتَ، وكا شفْتَ[٢] وأسرفتَ غيرَ مقتصدِ[٣]

صادُوكَ غيظاً[٤] عليكَ، وأنتقموا منكَ وزادوا. ومَن يَصِدْ يُصَدِ

ثم شفَوْا بالحديدِ أنفسَهم منك، ولم يَرعَوُوا[٥] على أحَدِ

فلم تزَلْ للحَمامِ مرتصِداً[٦] حتى سُقيتَ الحِمامَ بالرَّصَد[٧]

لم يرحمُوا صوتَكَ الضعيفَ كما لم ترثِ منها لصوتِها الغَرِدِ[٨]

أذاقكَ الموتَ ربُّهن كما أذقتَ أفراخَه: يداً بيدِ

كأنَّ حبْلاً حوَى بجَوْدتِه جيدَكَ للخنقِ كان من مَسَدِ[٩]

كأن عيْني تراكَ مُضطربا فيه، وفي فيكَ رَغوةُ الزَّبَدِ

وقد طلبتَ الخلاصَ منه، فلَمْ تقدرْ على حيلةٍ، ولم تَجِدِ

فجدتَ بالنفسِ، والبخيلُ بها أنت! ومن لم يجُدْ بها يَجُدِ

فما سمعْنا بمثلِ موتِكَ إذ مُتَّ ولا مثلِ عيشِكَ النَّكِدِ

عشتَ حريصاً يقودُه طمَعٌ ومُتَّ ذا قاتلٍ بلا قَوَدِ[١٠]

يا مَنْ لذيذُ الفِراخِ أوقعَه ويحكَ هلَّا قنِعْتَ بالغُدَدِ![١١]

ألم تخَفْ وَثبةَ الزمانِ كما وَثَبْتَ في البُرجِ وَثبةَ الأسَدِ

---

(١) غدرت وخنت (٢) كاشفه بالعداوة: باداه بها وأظهرها من غير مبالاة

(٣) معتدل (٤) أي حقدا عليك (٥) أصل معنى «ارعوى» انكف، وضمنه هنا معنى «أرعى» بمعنى أبقى عليه. أي ولم يبقوا على حرمة أحد من أصحابك

(٦) مترقبا كما في (الأساس) (٧) مصدر رصده بمعنى ترقبه (٨) المطرب

(٩) من ليف (١٠) القود القصاص. أي مت مقتولَ قاتلٍ لم يقتص منه

(١١) جمع غدّة: وهي العقدة التي تكون في اللحم يرمى بها للهرة

عاقبة الظلم لا تنامُ ، وإن تأخَّرَتْ مُدَّةً مِنَ المُدَدِ
أردت أن تأكلَ الفِراخَ ، ولا يأكُلُكَ الدَّهرُ أكْلَ مُضْطَهِد
هذا بعيدٌ من القياس ، وما أعزَّهُ في الدُّنُوّ والبُعُد !
لا باركَ اللهُ في الطَّعامِ ، إذا كان هلاكُ النفوسِ في المِعَد !
كم دخلتْ لُقمةٌ حشا شَرِهٍ فأخرجَتْ رُوحَه من الجَسَد
ما كان أغناكَ عن تسوُّرِكَ الْـبُرْجَ ، ولو كان جَنَّةَ الخُلُد !
قد كنتَ في نَعْمةٍ وفي دَعةٍ من العزيزِ المُهيْمِن الصَّمَد :
تأكُلُ من فأر بيتنا رَغَداً وأينَ[1] بالشاكرين للرَّغَدِ
وكنتَ بَدَّدت شَمْلَهمْ زَمناً فاجتَمعُوا بعد ذلك البَدَدِ[2]
فلم يُبقُّوا لنا على سَبَدٍ في جوفِ أبياتنا ولا لَبَدِ[3]
وفرَّغُوا أرضَها ، وما تركوا ما علَّقَتْه يَدٌ عَلَى وتَدِ
وفتَّتُوا الخبزَ في السِّلال ، وكم تفتَّتَتْ للعِيال من كَبِد
ومزَّقوا من ثِيابنا جُدُداً فكُلُّنا في المصائبِ الجُدُدِ

موقعة اليرْمُوك الحاسِمة

نُريدُ بالموْقعةِ الحاسمةِ كلَّ موقعةٍ كان النصرُ فيها لقَبيلٍ فَشَلاً لقبيلٍ آخرَ فلا تقومُ له بعدَها قائمةٌ ، وإن لم تكن خاتمةَ المواقع : كموقعةِ اليَرْمُوكِ التى انتصرَ فيها العَربُ عَلَى الرُّومِ ، وكانت سَبَباً فى فَتْحِ الشأمِ حتى شواطئ

---

(١) الباء زائدة (٢) مصدر بمعنى التفرق كما فى (اللسان) (٣) ما له سبد ولا لبد أى لا قليل ولا كثير . والسبد من الشعر واللبد من الصوف

الفُرات الأعلى ، وكَموقعةِ القادِسيَّةِ التى لم تُفْلِحْ بعدَها الفُرسُ فى موقعةٍ إلى أن زالتْ دَوْلتُهم

وإليك نُبذَةً من أَخبار الأُولى ، وسَنُتْبِعُها أَخبارَ الأُخرَى

لمَّا فرَغتْ جُيوشُ أَبى بكرٍ مِن مُحاربةِ المُرْتَدِّين ساقَهم جيشاً بعدَ جَيْشٍ إلى نَشْرِ الإسلام فى فارسَ والشام وحمايةِ دَعوتِهم إليه بالسيف من تعدِّى المُتَعدِّينَ . فبعَثَ مُفْتَتَحَ سنة ١٣ هـ خالدَ بن سَعيدِ بن العاصِ وعمرو ابنَ العاص وشُرَحْبيلَ بنَ حَسَنةَ وأَبا عُبَيْدَةَ عامرَ بنَ الجَرَّاح ويَزيد بن أَبى سُفيانَ يقودُ كلٌّ منهم جَيشاً ، وسَمَّى لِكلّ منهم ناحِيةً مِن شَرْقىّ الشام يتولَّى فتحَها . وكان جمهورُ الناس فى جَيْشِ يزيدَ بنِ أَبى سُفيانَ ؛ فخرجَ أَبو بكْرٍ مِنَ المدينةِ يُشَيِّعه ماشِياً ، وأَوصاه وغيرَه من الأمراءِ ؛ فكان مما قال له :

« وإذا قَدِمتَ عَلى جُنْدِكَ فأَحْسِنْ صُحْبَتَهم وابْدأْهُم بالخيرِ وعِدْهم إيَّاه ، وإذا وعظتَهُم فأَوْجِزْ ؛ فإنَّ كثيرَ الكلامِ يُنسِى بعضُه بعضاً . وأَصْلِحْ نَفْسَك يَصْلُحْ لك الناسُ . وصَلِّ الصَّلَواتِ لأوقاتِها بإتْمامِ رُكوعِها وسُجودها والتخشُّعِ فيها

وإذا قَدِم عليك رُسُلُ عَدُوِّكَ فأَكْرِمْهم ، وأَقلِلْ لُبْثَهم حتى يَخرُجوا من عسكرِك وهم جاهلونَ به . ولا تُرَيِّثْهم[1] ؛ فيَروا خَلَلَك ، ويعلموا عِلْمَك ، وأَنزِلْهم فى ثَرْوة[2] عسكرِك . وامْنَعْ مَن قِبَلَك مِن مُحادَثَتِهم ، وكُنْ أَنتَ المُتَوَلِّىَ لِكلامِهم

---

(١) تبطِّئهم (٢) أى فى وَفرة عَددك وعُدّتك

ولا تجعلْ سِرَّك لِعلانيتِك، فيختلِطَ أمرُك. وإذا استشرتَ فاصدُقِ الحديثَ تُصدَقِ المشورةَ. ولا تخزُنْ عن المُشيرِ خبرَك فتُؤتَى مِن قِبَلِ نفسِك. واسمُرْ بالليلِ في أصحابِك تأتِكَ الأخبارُ، وتنكشفُ عندكَ الأستار. وأكثِرْ حرسَك، وبدِّدْهم في عسكرِك، وأكثِرْ مفاجآتِهم في محارسِهم بغيرِ علمٍ منهم بك؛ فمن وجدته غفَل عن محْرَسه فأحسِنْ أدبَه وعاقبْه في غيْرِ إفراطٍ، وأعقبْ[1] بينَهم بالليل، واجعلِ النَّوْبةَ الاولى أطولَ من الأخيرة؛ فإنها أيسرُهما لقربها من النهار. ولا تخفْ من عقوبةِ المستحِقّ، ولا تَلَجَّنّ[2] فيها، ولا تُسرعْ إليها، ولا تتَّخذْ لها مدْفعاً.[3] ولا تغفلْ عن أهلِ عسكرِك فتُفسِدَه، ولا تجسَّسْ عليهم فتفضَحَهم، ولا تكشفِ الناسَ عن أسرارِهم، واكتفِ بعلانيتِهم. ولا تجالِسْ العبّاثينَ، وجالسْ أهلَ الصِّدْقِ والوفاء. واصدُقِ اللقاءَ، ولا تجبُنْ فيجبُنَ الناسُ، واجتنِبْ الغُلول[4] فإنه يقرِّبُ الفقرَ ويدفعُ النصرَ. وستجدون أقواماً حبَسوا أنفسَهم في الصوامع[5] فدعْهم وما حبَسُوا أنفسَهم له»

فسارَ كلُّ أميرٍ بجيشِهِ إلى الجهةِ التي سمّاها له، ووقعتْ بينهم وبين العدو عِدَّةُ وقائع انتصرَ الرُّومُ في بعضها وانتصر العربُ في أكثرِها، الى أن تكاملتْ تعبئةُ الرُّوم مائةَ ألفٍ عَلَى أقلّ تقدير فسيّروا على كل جَيشٍ من جيوش العرب ما يفُوقُه مِراراً. فاضطربتِ الأمراءُ، وكاتَبَ بعضهم بعضاً، ثم استشاروا

---

(١) أى أجعل بعضهم عقِباً لبعض (٢) تُبالغنّ (٣) أى عذراً تدفع به العقاب (٤) مصدر غلّ يغُلّ اذا خان في المغنم وغيره (٥) اديرة مرتفعة ينقطع فيها الرهبان للعبادة

عمرو بنَ العاصِ فاشار عليهم بأن يتَجَّمعوا فى مكانٍ واحدٍ هو اليَرْموك . ثم بعثوا إلى أَبى بكر يستشيرونه فأَشار عليهم برأى عَمْرو. فتجمَّعوا على ضَفَّة اليرموك من شرقىّ فِلَسْطين ، فتَبعتْهم جيُوشُ الرُّوم بقيادةِ تُذَارِقَ أَخى هِرَقْلَ ونزلوا بجانبهم على النَّهر فى مكانٍ فسيح بين النَّهر وبين هُوَّةٍ عميقة سُمِّيتْ «الواقُوصَة» بحيث لم يكُن لهم إلا مَنْفَذٌ واحدٌ ضيِّق حفَروا فيه خَندقاً وأرادوا بذلك أنهم يتحرَّزون بالنهرِ والواقوصة والخَنْدَقِ مِن مفاجَأةِ العرب وتبييتِهم[1] ، وأن يُطاوِلُوهم ليتأَنسَ الرُّومُ بهم فيزولَ الرعبُ عن نفوسهم وليملَّ العَرَبُ المُقامَ فيختلَّ أَمْرُهم. ولبثوا كذلك شهرَ صفر وشهرَى ربيع ولكن العربَ انتهزتِ الفُرصتَين فى المكان والزَّمان

فأما فى المكان فإنَّهم تقدَّمُوا ونزَلُوا أمامهم فسدُّوا عليهم المنفَذَ وقطعوا عليهم طريقَ الرجعة الى بلادهم. ونادى عمرُو بنُ العاص « أيُّها الناسُ أبشِرُوا حُصِرَتْ واللهِ الرومُ ، وقلَّما جاءَ محصورٌ بخَيْر » . فوقعت بينهم مُناوشاتٌ كانت تنتهى بفوز العرب

وأما فى الزَّمانِ فإنَّ تلبُّثَ الروم هذه المدةَ كان كافياً لأن يَستمِدَّ العربُ أبا بكر ، فكتبَ الى خالدِ بن الوليد (وكان قد سَيَّره على جيشٍ يُظاهِرُ المُثَنى بن حارثةَ على فَتْحِ العراقِ) أن ينهضَ إلى الشام بنصفِ جيش العراق وأن يكون أميرَ الجيوش كلِّها . فسار مُسرعاً بنحو تسعةِ آلافٍ سالكاً طريقَ بادية الشام ، فوصلَ إلى شرقىِّ الشام بعدَ أيامٍ قليلةٍ ففتح بُصْرَى وكانت مدينة تجاريةً على حُدودِ الصحراء ، ثم طلَع على المسلمين فى اليرْموك ،

---

(١) بيَّت العدوَّ دهمه ليلاً

ووافق طلوعُه قُدومَ عَدَدٍ عظيمٍ للروم يقودُه باهانُ؛ فاشتبكَ مع خالدٍ في مُناوشة اضطرتْ باهانَ أن يدخُل الخندقَ مع جيشِ الرومِ، وتكاملَ جيْشُ العربِ بخالدٍ أربعينَ ألفَ مقاتل

وكان الأمراءُ متساندين: كلُّ أميرٍ يتولَّى تَدْبيرَ جيشه ولا يرتبط بتدبير الآخَرِ. فخطب فيهم خالدٌ يحُثُّهم على الاتِّحاد، وأن يقاتِلوا بقيادة أميرٍ واحدٍ، وأن يتأمَّرَ كلُّ أميرٍ على الجيش يَوْماً، واقترحَ أن يكونَ هو الأميرَ في اليوم الأوَّل، فأمَّرُوه وهم يَرَوْنَ أنها كخَرَجاتهم العادِيَّةِ وأنَّ الأمْرَ أطولُ مما صارُوا إليه. فخرج الرومُ في تَعْبئَةٍ لم يُرَ مِثلُها، وخرجَ خالدٌ في تعبئةٍ لم تُعبِّئْها العربُ قبلَ ذلك؛ فخرج في نحْوِ أربعين كُرْدُوساً، وقال إنَّ عدُوَّكم قد كَثُر وطغَى، وليْسَ من التَّعْبئَةِ أكثرُ في رَأْيِ العينِ من الكراديس. وجعَلَ على القَلْبِ أبا عُبيدةَ، وعلى المَيْمَنةِ عمرَو بن العاص، وعَلَى المَيْسرةِ يزيدَ بن أبي سُفْيانَ. ونشِبَ القتالُ، والتحمَ الناسُ، وتطاردَ الفرسان. فإنهم عَلَى ذلك إذْ قدِمَ البريدُ[1] من المدينةِ، فأخذَتْه الخيولُ، وسألوه الخبرَ، فلم يخبرْهم إلاّ بسلامةٍ وإمْدادٍ (وإنما جاءَ بموت أبي بكر وتولية عُمَرَ بن الخطاب وعزلِ خالدٍ عن قيادةِ جُنْدِ الشام وتأميرِ أبي عبيدة بدلَه) فأبلغوهُ خالداً، فأبلغَه خبرَ أبي بكرٍ أسرَّهُ اليه، وأخبرَه بالذي أخبرَ به الجندَ. فقال: أحسنْتَ، وجعلَه بجانبِه وأخذ خالدٌ الكتابَ وجعلَه في كِنانَةِ سِهامِه. ثم حمَل الرومُ حَمْلَةً أزالُوا بها العربَ من مواقِفِهم، فتنادى الناسُ، فثابُوا الى أماكِنِهم، وتراجعوا.

---

(١) معناه هنا الرسول

فزحف خالدٌ بقلب الجيشِ ، وتبعهُ بقيّتُه ؛ واشتدّ القتالُ من ارتفاعِ النّهارِ الى الليل . وصلّى الجيشُ الظهرَ والعصرَ إيماءً[1] . ثم نهدَ خالدٌ بالقلب ، واخترقَ صفوفَ الرّوم ، ففصلَ بين فرسانِهم ورجّالتِهم ، فانحصرَ الفرسانُ بين جيوشِ العربِ ، فلم يَسَعْهم إلاّ أن يَشُقّوا لهم طريقاً وسط العرب ليخرجوا الى الصحراء ، فأفسحَ لهمُ العرب الطريقَ ، فخرجُوا هاربين لا يَلْوُون على شيءٍ وتبدّدَ شملُهم . وجاءَ الليلُ فواصلَ العربُ القتالَ ، وهجموا بكراديسهم على الرومِ ، فاقتحموا خندقَهم ، فاقتحموه وراءهم ، واستحرّ القتل فيهم ؛ وكان أكثرُ رجّالةِ الرومِ مُسَلْسَلِينَ : كلٌّ مربوطٌ بالآخر خشيةَ الهرَب ، فكان ذلك أنكى عليهم من سيوفِ العرب ؛ فإنهم لمّا تقهقرُوا فى جُنحِ الظلام تساقطُوا فى هُوّةِ الواقوصة من جانب وفى النهر من آخرَ ، وكان إذا سقطَ واحدٌ جرّ وراءهُ آخر ؛ فلم يُصبِح الصباحُ إلاّ وقد فنِيَ أكثرُ الرّومِ ، وكان مَنْ تردّى فى الواقوصة أو غرِقَ فى النهرِ أكثرَ ممّن قُتِلَ بسيوفِ العرب . وأصبح خالد فى فُسطاطِ تُذَارِق

واستشهدَ من المسلمين فى هـذه الواقعةِ نحوُ ثلاثةِ آلاف . ولما انتهت الموقعةُ أخبرَ خالدٌ أبا عُبيدةَ بموتِ أبى بكرٍ وتوليهِ ، وسلّمه قيادةَ الجيش ، وقال : « الحمدُ للهِ الّذى قضَى على أبى بكرٍ الموتَ ، وكان أحبَّ إليّ من عُمَرَ . والحمدُ للهِ الّذى ولّى عُمَرَ ، وكان أبغض إليّ من أبى بكر ، ثمّ ألزمنى حبّه »

وبقِيَ خالدٌ يعمَلُ تحتَ إمرةِ أبى عُبيدةَ مُخلِصًا له باذلاً نُصْحَه اليه حتى تمّ فتح بلادِ الشامِ كلّها

(١) أى بتحريك رءوسهم فقط

دِمَشْقُ الفَيْحَاء

دِمَشْقُ وتُسَمَّى « جِلَّقَ » هى إِحدَى حواضرِ الدُّنيا العظيمةِ الشانِ، القديمةِ العُمرانِ، الآهلةِ بالسكَّانِ، الكثيرةِ الحدَثانِ

قامت عَلَى الضَّفَّـةِ الجنوبيَّـةِ لِنهرِ بَرَدَى وسَطَ سهلٍ فسيحٍ شرقىَّ جبلِ لُبنانَ، من أخصبِ سُهولِ العالَمِ تُرْبةً، وأطيبِها بَقلاً وفاكهةً وحَباً . وتَبعُدُ عن مَرفَئِها « بَيْرُوتَ » بنحو ١١٢ ألفِ ذراعٍ فرنسيةٍ (متر) . وتَعلو سطحَ البحرِ بنحو ٦٠٠ ذراعٍ فرنسيةٍ ؛ ولذلك كان هواؤها معتدِلاً إلاّ فى الخَريفِ إبَّانَ تكاثُرِ المستنقَعاتِ وتكاثُفِ الرُّطوباتِ ؛ فيَوْخُمُ الهواء وتنتشرُ الحُمَّى الأجَمِيَّةُ التى تستحيلُ فى بعضِ السِّنين وَباءً فتَّاكاً ؛ غيرَ أنه لو بُذِلَتْ العنايةُ بتنظيفِ شوارعِها ومَجارِى مياهِها ومصارفِها لأصبحَ العيْشُ فيها رَغَداً والصِّحَّةُ مُسْتَتِبَّـةً أبداً

ويبلغُ أهلُها نحوَ ٣٠٠ ألفِ نَسَمة أكثرُهم مُسلمونَ، وبقيتُهم نصارَى ويهود

وقد بُنِيَتْ دِمَشْقُ على شَبَكةٍ مِنَ الأنهارِ والخُلُجِ والأقْنيةِ والعُيونِ ؛ فلا يكادُ بَيْتٌ أو خَانٌ أو مَسْجِدٌ أو مَعْبَدٌ أو رَحًى أو حَمَّام أو مَصْنَعٌ إلاَّ والأنهارُ تجرِى مِن تحتِه وتَسْقِى أهلَه وحديقتَه. وعامّتُها مُسْتَمَدَّةٌ من نهر بَرَدَى بأَقنيةٍ مُصَهْرَجةٍ [(١)] وأنابيبَ مُحكَمةِ الوضْعِ متْقَنةِ الصُّنْع

ويُحيطُ بدمشقَ القديمةِ سُورٌ فى شماليِّـهِ قلعتُها العظيمةُ ؛ وسائرُ المدينة الحديثة خارجَ السُّورِ . وتُشْرِفُ عليها جِبالٌ شاهقةٌ أشهرُها جبلُ قاسيونَ

(١) أى مبنية بالصارُوج وهو أخلاط من الكلس وغيره تبقى على فعل الماء

ومنظرُ دِمَشْقَ الظاهريُّ قليلُ الجَمال، لضِيقِ شوارعها وتعرّجها وندرة تبليطها وتحصيبها واسَقْفِ أكثر أسواقها، إلاّ أنَّ دواخلَ قصورِها ومساجدها تَسْترعِى الأنظار، وتُبهِجُ الخواطر: لِما احتَوتْ عليه من بدائعِ الصَّنْعة وجميلِ الهندام

ومع أنَّ دِمشق من أقدمِ مُدُن العالَم العامرةِ قلَّما تجِدُ بها بناءً أثريًّا ماثلاً، اللّهُمَّ إلاَّ ما كان خارجاً عنها أو عَلَى سُفوحِ جبالها، لِكثرة النَّكبات التى مُنِيَتْ بها من تحريقِ الفاتحينَ وتدميرِ المحاصرينَ وكَيْدِ الفِرَقِ من المتعصّبين؛ حتى لم يَبقَ من أحسَنِ أثَرٍ فيها وأجملِ بِنيّة شيَّدتْها العرب بها، وهو جامعُ بنى أُميَّة، إلا بعضُ حيطانٍ وسُقُفٍ، وسائرُه جديدٌ مستَحدَث[1]

وبشَرْقىّ دِمشق غُوطتُها[2] العظيمةُ التى تنبسط عَلَى مُعْظَمِ السَّهْلِ فى تُرْبةٍ حمراءَ خِصْبةٍ. وتحوى من بساتين الفاكهةِ والرَّياحين وحقول الحُبوبِ والخُضَرِ والبقول ما لا تكادُ تجتمع جملتُه فى بُقْعةٍ من بقاعِ الأرض، على جودةِ صِنْفٍ ولَذةِ طَعْمٍ وطيبِ رائحةٍ، وخاصةً ثمرَ المِشْاوْز (المِشمِش اللَّوْزى الحُلْو النواة) الذى تمتازُ دمشقُ بطيبه عَلَى أكثر البلاد

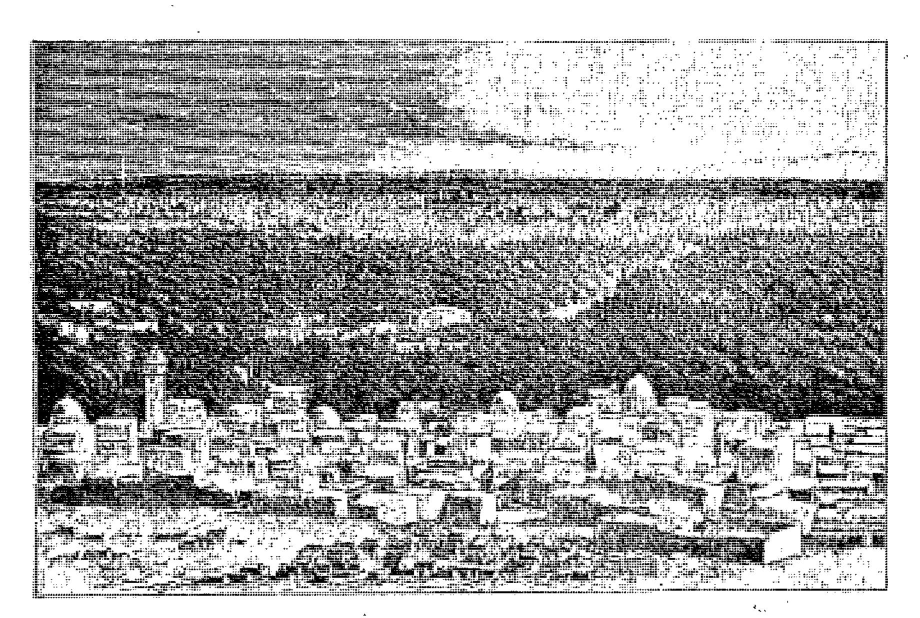
وتشتملُ الغُوطةُ على ٢٨ ضيعةً أكثرُ أهلها نَواطيرُ[3] وزُرّاعٌ. وقد أكثرَ السُّياحُ والمورّخون فى وَصْفِ هذه الغُوطة بما أفضَى بأكثرهم إلى اعتبارها أحدَ متنزَّهات الدنيا وجنَّاتها الأربع (وهى صُغْد سَمَرْقَنْدَ[4]، وشِعبُ

---

(١) ربما خصصناه بمقالة فى غير هذا الجزء (٢) اسم لجنات دمشق وقد تطلق على دمشق نفسها (٣) جمع ناطور وهو حافظ الكرم، فارسى معرب (٤) الصغد سهل يشتمل على أخصب جنات الدنيا بين بخارى وسمرقند ببلاد التركستان

بَوَّانَ(١) ، ونهر الأُبُلَّة(٢) ، وغُوطَةُ دمشق)

وقد عرَف أهلُ دمشقَ قيمةَ التَّمتُّع بنَعيمِ هذه الجنان ؛ فخصَّ كثيرٌ منهم عامَّةَ أيام الرَّبيع بالخروجِ إليها والتروُّحِ بها ، وميَّزوا منها سبعةَ ثُلاثاواتٍ وسبعةَ سُبُوتٍ وستةَ أخمساءَ أولُها مارس



دمشق

ودِمَشْقُ من أقدم مُدُنِ الدنيا ، حتى لَيُقالُ انها أقدمُ مدينة باقية على عظمتها الى الآن . وهى من بِناءِ قُدَماءِ الآرَامِيِّينَ من بنى سامٍ ، وكانت قاعدةً للسُّرْيانِيِّينَ منهم . ومَرَّ بها الخليلُ إبراهيمُ (صلوات الله عليه) عندَ هِجْرتِهِ من أرض حارانَ الى أرض فِلَسْطِينَ ، وأقامَ بها مُدَّةً . ودخلَتْ فى حَوْزَةِ المِصْرِيِّين عند ما اكتَسَحُوا سُورِيَةَ إلى الفُرات ، ثمَّ اندمَجَتْ فى

(١) سهل خصيب جدًّا ببلاد فارس (٢) نهر فى الجنوب الغربى من البصرة يروى سهل الأبلة . والأبلَّة مرفأ البصرة على خليج فارس

مَمْلَكةِ داوُدَ (عليه السلامُ)، ثمّ أستولَى عليها الأشُوريّون مراراً دُمِّرَتْ في إِحداها جملةً ثم أستعادت نَضْرتَها، ففتَحها البابليُّون، ثم الفرسُ ثم الإِسكندرُ المَقدونيُّ؛ فكانت من مدُنِ المملكةِ السّلُوقِيّة اليونانية خلفائه في سورية، إلى أن غلبَهم عليها الرُّومانُ سنة ٦٤ ق . م، ثم أستُضعِفُوا، وزاحمَهم في مُلْكها العرَبُ من التَّدْمُريّةِ والغسّانيّة وأستقلوا بها مراراً. وحينَما تنصَّرَ الرومانُ دخلتْها الديانةُ المسيحيّةُ

ثم أفتتحها المسلمون في رجب من سنة ١٤ هـ بعد حِصارٍ ومنازلةٍ. وكان قد نزَلَ على كلِّ بابٍ من أبوابها أميرٌ من المسلمينَ برُبعِ الجيش؛ ففتحها خالدُ بنُ الوليد من البابِ الشرقيِّ عَنْوةً، فتسارَعَ أهلُ البَلدِ الى أبي عُبيدةَ عامرِ بنِ الجَرّاحِ ويزيدَ بن أبي سُفيانَ وشُرَحْبيلَ بن حسَنة، فسألوهم الأمانَ فأمَّنوهُمْ، وفتحوا لهم الأبوابَ الثلاثة، فدخلُوا منها بالصُّلْح، ودخلَ خالدٌ بالقَهر، وتلاقتِ الجيوشُ في مُنتصفِ المدينةِ. وكتبوا الى الخليفةِ عمرَ بنِ الخطاب (رضى الله عنه) بالخبرِ، وكيف كان الفتحُ، فأجراها كلَّها صُلْحًا

ثم وليَها مُعاويةُ بنُ أبي سُفيان من قِبَلِ عُمَرَ وبَقِيَ والياً عليها حتى آلت اليهِ الخلافةُ؛ فأصبحتْ دارَ خلافةٍ لأعظمِ مَمْلكةٍ عربيةٍ ملَكتِ الأرض من حُدودِ الصِّينِ الى جبال البَرانِسِ من أوربة الى سنة ١٣٢ هـ، وهي دولةُ بني أُمَيَّةَ. وبلغت في هذه الدولةِ نهايةَ حَضارتِها وغايةَ عزِّها وتَرفِها وغِناها

ثم لما زالَتِ الدَّولةُ الأُمَويّةُ أصبحتْ مَقرَّ ولايةٍ عبّاسيّةٍ، الى أن أضطرب حَبْلُ العباسيّين، وخرجَ عليهم مَوالِيهم من التُّرك وغيرِهم، فأستولتْ عليها الدولةُ الطُّولونيّة المِصريّة، ثم الإِخشيدية المصرية، ثم الفاطميّةُ المصرية،

ثم دخلها القرامطة[١] وشعّثوا منها، ثم دخلت فى ملك فروع الدولة السّلجوقيّة الى أن تملّكها صلاحُ الدين وأولاده من الدّولة الأيّوبيّة، ثم صارت الى دولتى المماليك المصرية البحرية ثم البرْجيّة مُدّةً دمّرها فى خلالها تيمورلنك، ثم اكتسحتها الدولةُ العثمانيةُ بقيادة السلطان سَليمٍ سنة ٩٢١ هـ، وما زالت فى ملكهم حتى قامت الحربُ الأوربيّةُ العامة، واشتركت فيها الدولةُ العثمانية، فخسرَت بلادَها العربية. وظنّ العربُ من أهلها وأهل سورية أنهم سيستقلّون بكل شؤونهم فأخفقوا، ودخلوا فى حمايةِ فرنسا ووصايتها

وأهلُ دمشقَ أهلُ ظَرْفٍ ورقّةِ جانبٍ وميْلٍ إلى الأدبِ والعِلْم. ولهم شُهْرةٌ قديمةٌ فى الصّناعةِ وحُسنُ بَصَرٍ بالتجارة. ومن صناعاتهم العجيبة التى انقرضتْ صناعةُ السّيوف الدّمشقيّة التى يُضرَبُ بها المَثَلُ فى المَضاء والمُرونة، وقد انقرضت هذه الصناعةُ منذُ فتحها تيمورلنكُ ونقلَ صنّاعها إلى سمرْقندَ؛ وصناعةُ الوَشْي، وصناعةُ القاشانىّ[٢] الجميل. وبقيت فيهم صناعاتٌ أهمُّها النّسْجُ وهو مِحْوَرُ أعمال المدينة ومصدرُ تجارتها، ثم الدّباغةُ والصباغة والنجارة وتطعيمُ الخشب بالعاج والصّدف ونحوُ ذلك، وكلُّها فى حالة تقهقرٍ واضمحلالٍ لغلَبةِ المصنوعات الأوربية عليها

---

(١) أهل مذهب يزعمون أنهم من شيعة على (رضى الله عنه) ولكنهم غلاة إباحيون. وقد عاثوا فى مملكة الدولة العباسية وخاصةً بلاد العرب والعراق والشام أكثر من قرنين وينسبون الى رئيس مذهبهم «قَرْمَط» (٢) نوع من الخزف الصينى جميل النقش تزين به الحوائط كأنه منسوب الى مدينة قاشان من مدن الفرس

رسائل

في أغراض مختلفة

كتب الحسنُ بن وَهْب(١) في الشكر :

من شكرك عَلَى درجةٍ رفعته إليها ، أو ثروةٍ أفدْتَهُ إيَّاها فإنَّ شكري لك عَلَى مُهْجةٍ(٢) أحييتها ، وحُشاشةٍ(٣) أبقيْتَها ، ورَمَقٍ(٤) أمسكتَ به ، وقمتَ بين التلفِ وبينه . فلِكلِّ نعمةٍ من نِعَمِ الدنيا حدٌّ يُنتهَى إليه ، ومدى يوقَف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمُو إليها الطَّرْفُ(٥) ، خلا هذه النعمةَ التي قد فاقَتِ الوصفَ ، وأطالتِ الشكرَ ، وتجاوزتْ قدرَه ، وأتت من وراء كل غاية ، وردَّتْ عنا كَيْدَ العَدُوّ ، وأرغمتْ(٦) أنْفَ الحسودِ ؛ فنحن نلجَأُ منها إلى ظِلٍّ ظليلٍ وكَنَفٍ كريم ؛ فكيفَ يشكُر الشاكرُ وأين يبلغُ جَهْدُ المجتهد ؟

وكتَبَ آبنُ مُكرم(٧) الى أحمدِ بنِ المُدَبِّر(٨) يُثْنِي عليه ويتقرب اليه :

إن جميعَ أكفائك ونظرائك يتنازعون الفضلَ فإذا انتهوْا إليك أقرُّوا لك ، ويتنافسون المنازلَ فإذا بلغُوك وقفوا دونَك . فزادك اللهُ وزادَنا بك وفيك(٩) ، وجعلنا مِمَّن يقبَلُه رأيُك ، ويُقدِّمُه اختيارُك ، ويقعُ من الأمورِ بموقعِ مُوافقتِك ، ويجري فيها على سبيلِ طاعتك

---

(١) كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً وكان رئيسًا لديوان الرسائل زمن المعتصم والواثق والمتوكل (٢) المهجة القلب والروح (٣) الحشاشة بقية الروح (٤) القوة وبقية الروح (٥) البصر (٦) ألصقته بالرَّغَام وهو التراب أي أذلته

(٧) كان من رؤساء الكتاب في الدولة العباسية أواسط القرن الثالث (٨) كان من رؤساء الكتاب والولاة أواسط القرن الثالث (٩) أي في خدمتك

ولهُ في حسن الاعتذار الى بعض الرؤساء

نَبَتْ بي غِرَّةُ[١] الحَدَاثة فردَّتني اليك التجربة ، ثِقةً بإسراعِك اليَّ[٢] ، وإن أبطأتُ عنك ، وقبولِك لِعُذْرِي ، وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانت ذُنوبي سَدَّتْ عليَّ مَسَالِكَ الصَّفح عني فَرَاجِعْ فيَّ[٣] مجدَكَ وسُودَدَكَ . واني لأَعرِفُ موقِفاً أذلَّ مِن مَوْقِفي لولا أنَّ المخاطبةَ فيه لك ، ولا خُطوةً أدْنى مِن خُطوتي لولا أنها في طَلَبِ رِضَاكَ

الشجرة المباركة

يتفاضلُ النباتُ كما يتفاضلُ الحيوانُ بتفاوُتِ نَفْعِهِ للإنسانِ ؛ فأفضل النبات أو الحيوانِ أدْوَمُهُ نفعاً وأبركه ثمرةً . ولَعَلكَ إذا سمِعْتَ في فضل بعض الحيوان قَوْلَ رسول الله صلى عليه وسلم « الخيلُ مَعْقودٌ بنواصيها[٤] الخيرُ إلى يومِ القيامة » إذ كانت عُدَّةً لِمَعَزَّةِ الإنسانِ في حَرْبه وسلمه ، تَفْهَمُ معنى نَعْتِ بعضِ النباتِ بالبرَكةِ في قوله تعالى « اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[٥] فيها مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ في زُجَاجةٍ الزُّجَاجَةُ كأنها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقيةٍ[٦] ولا غَرْبِيةٍ يكادُ زيتُها يُضِيءُ

---

(١) أي أبعدتني غفلة الصغر عن الاجتهاد في خدمتك (٢) أي ثقة باسراعك الى الرضا عنى (٣) أي في أمري والعفو عنى (٤) جمع ناصية ، وهي شعر مقدم الرأس أي لا يفارق الخيرُ وجوهها (٥) المشكاة كل كوّة غير نافذة والمراد بها هنا عمود القنديل الأجوف الذي توضع فيه الفتيلة لأنه غير نافذ (٦) أي انها ليست معرضة دائمًا لحرّ الشمس من الشرق أو الغرب بل أنها في وسط أشجار تصيبها الشمسُ وقتًا وتحجب عنها آخر فيكون ذلك خيراً لنضجها

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» كما تفهمُ معنى عدِّهِ من أعظم النِّعَمِ في قوله تعالى «وشَجَرَةً تخرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبغٍ[1] للآكلينَ» إذْ كان له من شجرةِ الزيتونِ المنوّهِ بها في الآيتينِ غِذاءٌ وضياءٌ وشفاءٌ

وشجرةُ الزيتُونِ ليست من الأشجارِ العظيمة، فقلّما يتجاوزُ علوّها ثلاثين قدماً . وهي دائمة الخضرة في وطنها ، فاذا نقلت الى الأقاليم الباردة سقَطَ وَرَقها في الشتاء

ولونُ حبِّ الزيتون قبل نُضْجِهِ أصفرُ ضاربٌ الى الخضرة، ثم يسوادُّ مع النضج،

وشجرة الزّيتون من أغْزرِ الأشجارِ نفعاً وأطولها عُمراً وأقلّها نفقةً .

ومن أمثال الإيطاليين المشهورةِ ، وهم أحفلُ الناسِ بزراعةِ الزيتون ، « إذا أردت أن تُخلّفَ ميراثاً خالداً لأولادِك وأحفادِك فاْغرِسْ زَيتونة» . ولا غرْوَ فإنّ غَلةَ الزّيتون في كثرتها وطُول دوامِها تعدِلُ غَلّةَ أعظمِ الأشجارِ نفعاً إن لم تَفُقْها جميعاً لِعدَّةِ وُجوهٍ :

الأولُ — أن شجرةَ الزّيتون تُثمِرُ بعد زمنٍ يسيرٍ ؛ فلا يكادُ يمضى عَلَى غَرسها سنتان حتى تُبكّرَ بالثّمرةِ ، ومتى بلَغَتْ ستّ سنوات أدّتْ ما عليها لصاحبها من نَفَقاتِ غَرْسها وتربيتها ، وَلَوْ لم يَزْرَعْ بجوارِها عُشباً ولا بَقْلاً

الثاني — أن شجرةَ الزيتونِ تُعَمّرُ طويلاً ، ولا يُهْرِمُها كرُّ الغداة ومرُّ

(١) أى أدم

العَشيّ ؛ فلا تزالُ تَعظُمُ وتُثْمِرُ عشراتٍ بل مِئاتٍ من السنين، كأنها حالَفت الدّهرَ على الصبا ، وأَخذتْ عليه ضماناً من الشَّيْخُوخة . فمن ذلك أَن شجرةً طالَ عليها الأَمَدُ حتى بَلِيَ خشبُ ساقها ، وبقيَ لحاؤُها قائماً حيّاً يُمِدُّ الشجرةَ بالغِذاءِ ، ويُخَوّلها أنْ تغِلَّ في صَيْفٍ واحدٍ ما لا يَقِلُّ عن خمسة قناطيرَ من الزيت . ومن بين أشجارِ الزَّيتون بفِلَسطين ما في عمره على أَلْفَيْ عام . ويقالُ إن في إيطاليا أشجاراً عاديَّةً[1] من الزَّيتون عاصرَتِ الجمهوريةَ الرومانية



غصن زيتون مثمر وعلى يمينه أزهار مجتمعة وزهرة مكبرة وعلى يساره حبة مكبرة ونصف حبة بنواتها

الثالث — أَن شجرة الزيتون يُرتَفَقُ بخشبها وثمرها :

فأمّا خشبُها فهُو وإن كان سهلَ الانكسارِ معدودٌ من أخشاب الزّينة ؛ فلِضيق مَسامّه ، ودِقّة تكوينه يسهُلُ صقْلُه ، فيصيرُ سطحُه برّاقاً مُعرَّجاً بطرائقَ : ما بين صُفرةٍ إلى خضرةٍ إلى كُمْتةٍ ، ولذلك يُرغَبُ استعمالُه في صُنْع الأَدوات الجميلة كالأدراجِ المزخرفة وأنصِبةِ السكاكين ومقاطع الورق ونحو ذلك

وأمّا ثَمَرُ الزيتون فأبلغُ نفعاً وأجدَى عائدةً[2] من الخشب ؛ فهو بأكْلِه مَمْلوحاً غضًّا أو ناضجاً أُدْمٌ لَذيذٌ اذا انفردَ بنفسه ، مُشَهٍّ رغيبٌ

(١) أى قديمة جداً كأنها منسوبة الى قوم عاد (٢) نفعاً

إذا شُفِعَ بغيره . وهو بعَصْره ينبوعُ زيتٍ غزيرٍ ثابتٍ لا يَصَّمَّدُ ولا يَزْنَخُ زمناً طويلاً ، ولا يكادُ يفضُلُه فى ذلك زيتٌ من الزيوت التى يأتَدِمُ بها الإنسانُ أو يتداوَى بها

وأكثرُ ما يُغرَسُ الزيتونُ لاستخراج زَيْتِه ؛ فإذا أُريدَ استخراجُه أُبقِيَ الزيتونُ على الشجرةِ حتى ينضَج ، ولكن ينبغى ألا يُؤَخَّرَ عن ميعاد جَنْيه لِتبقَى الشجرةُ مُخْصِبةً فى العام القابل

وبعدَ جَمْعِ الزيتونِ يُبسَطُ على الأرض فى سَمْكٍ لا يزيدُ على ثلاثة قراريطَ او أربعةٍ مُدّةَ يومين أو ثلاثةٍ لِيصَّعَّدَ بُخارُ رُطوبتِه ، ثم يُهرَسُ ويُجعلُ فى أكياسٍ من التِّيلِ[1] صفيقةِ النَّسْجِ، وتُوضَعُ تحتَ مِهْراسٍ ثقيل يدورُ عليها ، فيرشحُ الزيتُ من خِلالِها أوّلَ رَشْحة ، وهى أفضلُ الزيت وأطيبُه رائحةً وطعْماً وأنقاه لوْناً . وقد تُستخرَجُ منه رَشْحةٌ ثانيةٌ وثالثةٌ بترطيبِه ثم عَصْره . ويُنقَلُ الزيتُ بعد ذلك الى أحواضٍ عظيمة يمكثُ فيها مُدّةً حيثُ يُرَوَّقُ ويرسُبُ ما علِقَ به من لُبِّ الثمرةِ ، فيتحوّلُ من عصيرٍ غليظٍ مُسْوَدٍّ الى سائلٍ رائقٍ أصفرِ اللونِ إلى الخُضْرةِ

وتبلُغُ أنواعُ الزيتون ثلاثين نوعاً : ما بين صغيرٍ وكبيرٍ ومستطيلٍ ومُستدير وقليل الزيت وكثيره وطيّبِ الرائحة وكريهها وقليل المرارة وكثيرها على اختلاف ألوانِها وتفاوُت غلّتِها ، إلاّ أن المَعْنِيَّ بِه منها بِضْعةُ أنواعٍ

والزيتونُ من أقدمِ الأشجار المعروفة فى الدُّنيا وأكثرِها حُرْمةً فى

---

(١) هو النبات الذى يتخذ منه الثياب ويسمى بالعامية (التيل)

أكثر الأديانِ، ولا تخلو الكتبُ القديمةُ سماويةً أو غيرَ سماويةٍ من ذكرِه وتعظيمِ شأنِه والتيمُّن به

ووطنُه الأصليُّ طورُ سيناءَ وفلسطينُ والشام، ثم انتقل منها الى آسيا الصُّغرى وبلادِ الإغريق وجَنوبيّ أوربة وشماليّ إفريقية، ولا يُظَنُّ أن زراعته نجحت فى مصر فى أزمانها الخالية، لأنها إنما تنجح فى المنحدرات والسُّفوح الطينية الرَّملية المعرَّضة لهواء البحار، ومصرُ كانت فى تلك الزمان تستحيل الى رَدَغةٍ طينيةٍ مدةَ الفيضان. ولذلك أفلحَتْ زراعته نوعًا ما فى الفيوم أواخرَ القرن الماضى لكثرةِ منحدراتِها

وأوّلُ من جلبَه إليها أميرا مصر المرحومان محمد على باشا وابراهيم باشا ابنه وكلّ ما فى مصرَ من أشجار الزيتون منقولٌ من الفَيُّوم، وبلَغ تعداد أشجار الزيتون فى عهدِها الأوّل نحوَ ألفَيْ ألفِ شجرةٍ، إلاَّ أن أكثرها هلك بقلَّةِ العناية به ورطوبةِ أرضه. ويمكنُ غرْسُه فى مِصْرَ على حُدود الصحارى وفى الأرض المرتفعة قليلاً من شماليّ الشرقية والدقهلية والبُحَيرة

ويُزرَعُ الزيتون بغرس قضبانِه، أو قطعِ فسائِله من أصل أُمّها ونَقْلِها، أو ترْقيدِ أغصانِه فى جوف الأرض حتى تَنْبُتَ ثمّ تفصل من أُمّها وتنقَل فى الأرض

وينتشرُ الزيتونُ الآنَ فى الممالكِ التى على شواطئ بحرِ الرومِ وأواسطِ أمريكا وآسيا وفى أُوستراليا وزيلندة الجديدة

ولا تزالُ إيطاليا حافظةً لمقامِها الأوّل فى غَرْسِ الزيتون، وإن كانت جارتها فرنسا قد سبقتها فى نَتْج الزُّيُوت الفاخرة، غيرَ أن فى إيطاليا الآن نهضةً لاستجادةِ أنواعِ الزيوت ممَّا يجعلُها باقيةً على اشتهارها بصناعتِها

الأســـد

الأسدُ (ويُكنَى أبا الحارثِ وأبا شِبل) أكبرُ السباعِ[1] جسماً، وأهولُها خَلقاً، وأقواها صَوْلةً، وأشدُّها على الإنسانِ ضَراوةً، كبيرُ الرأسِ مستديرُه دقيقُ الخَصْر، أهْرَتُ[2] الشِّدْقَيْنِ، واسعُ المَنْخِرَين، صغيرُ الأذنين، مفتولُ الذِّراعين، برّاقُ العينين واسعُهما، حادّ الأنيابِ، صُلبُ البراثِن[3]، جَهيرُ الصَّوتِ، جرىءُ القلبِ، هائلُ المنظَر

وله في اللغة العربية أكثرُ من خَمْسمائةِ اسمٍ، منها أُسامةُ وقَسْوَرَةُ وحَيْدَرة وزُفَرُ واللَّيْثُ والبَيْهَسُ والضَّيْغَمُ والغَضَنْفَرُ والعَنْبَسُ والهِزَبْرُ والضِّرغامُ والرِّئْبالُ والدوّاس. وأُنثاه تُسَمَّى لَبُؤَةً وولدُه يُسَمَّى شِبْلاً

والأسدُ من أقدمِ أنواعِ السباعِ المعروفة، وقلّما تخلو لغةُ أُمةٍ وَحْشِيَّةٍ أو عريقةٍ في المدنيةِ من أخبارِه وسَرْدِ نعوتِه؛ فقد كان كثيرَ الانتشارِ في أكثرِ أقاليمِ العالَمِ القديمِ حتى أوربة، ولكنّ إلحاحَ الصيادين عليه قديماً وحديثاً جعلَه يتراجعُ في طريقِ الانقراض. وليست نِكايةُ مُحْدَثي الصيادين فيه بأكثرَ من نِكايةِ المتقدِّمين: يَدُلُّنا على ذلك ما حوَتْه أخبارُ الرومان من تعريضِهم مِئاتِ الأُسودِ في أعيادِهم وحفلِهم للفَناءِ؛ فقد قيل إن قائدَهم بُمْباى عرَض ستمائة أسدٍ في محفلٍ واحدٍ

وأكثرُ ما يكونُ الأسدُ الآن في إفريقية (إلّا بعضَ جهاتٍ انقرض منها)، وفي بلادِ ما بين النهرين وفارسَ وبعض بِقاعٍ خاصّةٍ في الهند. وقد

(١) السبع في عرف المحدَثين من علماء الحيوان هو آكل اللحوم. والفيل ليس بسبع عندهم

(٢) واسع (٣) جمع بُرثُن. وهو مخلَب السبع ويطلق أيضاً على كفه بأظافرها وعلى أصابعه

تَنَبَّه النـاس فى أزمانِنا الى وَشْكِ انقراضه ، فحُرِّمَ صيْدُه فى بعض البقاع لئلاَّ يبيدَ فيها

ويستحقُّ الأسدُ تسميتَه « ملكَ السباع »، لرَوْعة منظَرِه وعظمِ قوّته وشدّة صولتِه ودفاعِه عن نفسه وهيبة جميع السباع إيّاه، ولذلك ضُرِبَ به المثل فى الشجاعة والهيبة والنجدةِ، وممّا يزيدُ منظرَه هَوْلاً عِظَمُ مقدِمه وتكاثُفِ اللِّبَدِ على أعناق الذُّكورِ منه



الأسـد واللبؤة

ولا يكادُ يعادلُ الأسدَ حيوانٌ فى ايْده[1]؛ فلقد ينهَضُ بحَمل الثوْرِ العظيم، ويصرَعُ الإنسانُ بضرْبةٍ واحدةٍ من ذَنَبه. وليس فى السباع جميعاً ما هو أقوى منه ضَرْبةَ كفٍّ؛ فإن ضربةً منه تقضى على فريسته

ويبلغ متوسّط عُلوّ الأسدِ أربعَ أقدامٍ من الأرضِ إلى اعلَى مَنْكِبه

(١) قوته وشدة عضله

ويتراوح طُولُه بين ستّ أَقدام وسبع خلا ذَنَبَه الذى لا يقلُّ عن ثلاث؛ غير أنّ أنثاه دُونَه فى كلّ شيْءٍ إلاّ فى شراسة الخلُق فإنها أشدُّ

والأسدُ من الحيوان الذى ينْهشُ اللحمَ : يمزّقه بأنيابه المذرَّبة ويبتلعه ولا يمضُغه؛ ولهذا كان فكّاهُ لا يتحركان إلاّ إلى أعلى أو أسفل

وهو ذو ألوان : فمنه الأصفرُ والوَرْدُ[1] والأكْلَفُ[2] والأرْبدُ[3] والأعفرُ[4] ، ويكون لونُ لِبْدَته أقْتَمَ غالبًا دون سائر بدنه

والأسد كالنّمر والفَهْد من فصيلة الهِرَرَة لا يمتازُ فى خَلْقه منها إلاّ باللِّبَد فى الذكُور وعِظَم الجُثَّة : فأظافرُه على حِدَّتها وعِظَمها تختفى فى مَقانب كَفّه الليّنة؛ فيطأُ الأرضَ ولا يُشْعَرُ به . وعيناه تتّسِعُ نواظرُهما وتضيق تبعًا لقلّة الضوء وكثرته ولسانه خشن يعينه على تعرّق العظام

ويقطُنُ الأسدُ السُّهولَ الرملية والوعورَ الصخرية التى تكتنفُها أو تتخللُها الغِياضُ والآجام ومناقعُ المياهِ والغُدرانِ حيث يكثر عليها وُرودُ الوَحْش الكبير من أكَلَة النبات فيفترسها ، كالجواميس وبقَر الوحش والظباء وحُمُر الوحْش والزّرافىّ . وقد يفترسُ الفيلَ والكركدّنَ ، وقلما تسلَمُ منه دوابُّ المزارع التى تجاورُ عرينه ولا أهالُها . ومما عُرِفَ من طباعِه أنه لا يفترسُ صِغارَ الحيوان إلا فى الأقلّ النادر وأنه لا يسعَى الى الافتراس إلاّ اذا أمضَّه الجوعُ؛ واذا عرَض له حيوانٌ وهو شبْعانُ أغضَى عنه، وإن كانت مُشاهداتُ بعْض المحْدَثين

---

(١) الأسد الورد بين الأصفر والأحمر الذى تشوب حمرته سواد خفيف

(٢) الأكلف الأسود الى حمرة وصفرة قليلتين (قرنفلى)

(٣) الرمادىّ (الأساس) (٤) الأعفر الأبيض الى حُمرة وصُفرة قليلتين (نباتى)

من السُّيَّاح الأوربيين (مثل لِفِنْجِسْتُون[1]) تنكرُ على الأسدِ هذا الفضل المعروفَ به من قديم الزمان

ويندُرُ أن يخرُجَ الأسدُ لطلب رزقِهِ نهاراً، بل يظلّ سحابةَ نهاره رابضاً في خِيسِه؛ فإذا جَنَّ الليلُ عَسَّ يتطلَّبُه؛ فسرْعانَ ما تَهديه حِدَّةُ نظَرِه وقوَّةُ شَمِّه الى مكان الصَّيْد، فيتَّجهُ صَوْبَه بتسلُّل وترفُّق، حتى اذا سامتَه وصار على بِضْعِ خَطَوات منه وَثَب عليه وَثْبةً سريعةً يشفعُها زئيرٌ هائلٌ، فلطَمه لطمةً دَقَّ بها عنقَه أو أنشب براثنه في جسمِه. ويبدأ بالوُلوغ في دَمه ثم ينهشُ ما يكفيه من لَحْمِهِ ويترُكُ بقيّةَ شِلْوِه[2] ويعودُ الى عرينه. وتلحقُ به خلال ذلك طوائفُ من الضِّباع وبناتِ آوَى ترقُبُ من كَثَبٍ فراغَه من فريستِه فتنقضُّ عليها ولا تبقى لها أثر

والأسد شديدُ الخوفِ من النار وبهذه الخَلَّة يَتَّقي الصيادُون والسُّيَّاحُ شرَّه فيضرِمون حوْل خيامهم ودوابهم النيرانَ الكثيرة، بيدَ أن الأسد يغلِبهُم أحياناً على أمرهم؛ وذلك بأن يدني رأسه من الأرض، ويزأرُ زئيراً عظيماً متوالياً، فيدوى المكان بصوته، فيستولِى الذُّعْرُ على الدَّواب فلا تعرفُ المكانَ الذى أَتى منه الصَّوتُ، فتقطعُ الحبالَ وتقتحمُ النارَ فينقضّ عليها. ويتخذُ الأسدُ الزئيرَ حيلةً لصيده؛ فإذا اشتدَّ به الجوعُ ولم يُحِسَّ فريسة طِفقَ يزأرُ، فتخرُج الوحوشُ نافرة من مكامنها

---

(١) قسيس انجليزى سائح عاش مدة فى أواسط أفريقية لنشر المسيحية بين الزنوج وعرّف بأصقاع كثيرة منها (٢) الشلو جثة المقتول أو بعضها

رسائل

فى أغراض مختلفة

رسالة لأبى الفرج الببغاء[١] تهنئة بولاية :

سيّدى — أيّده الله — أرفعُ قَدْراً ، وأنبهُ ذِكراً ، وأعظمُ نبْلاً ، وأشهر فضلاً من أن نُهَنّئه بولايةٍ وإن جلّ خَطَرُها[٢] وعظُمَ قدرُها ، لأن الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدْلِه ، والرَّعيةِ بمحمود فعْلِه ، والأقاليم بآثار رياسته ، والولايات بسِمات[٣] سياسته . فعرّفَهُ الله يُمْنَ ما تولاّه ، ورعاه فى سائر ما أسترعاه[٤] ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يُعانيه ، والتسديد[٥] فيما يُبرِمُهُ[٦] ويُمضيه

رسالة فى اللوم والعتاب للمؤلف :

صديقى العزيز

سلاماً على مَنْ لا سلامَ لى منه ، وتحيّةً لِمَنْ لا حياةَ لِعهْدِى عنده ورَعْياً لمن لم يَرْعَ فىَّ حُسْنَ رِعْيةٍ

وبعْدُ فما كنتُ لأظُنَّ أنَّ عوادِىَ الأيام تُصالحُك على كَيْدِى ، وتُصارحُك بإفشاء سرّى ، وتُؤامِرُك فى تسوئةِ أمْرِى ، لِأَوَاخِىَّ[٧] عقَدَتْها بيننا يَدُ الصِّبا ، وأعتقدتُ ألاّ يَحُلّها إلاّ حُلولُ الأجَلِ ؛ ولكن وَيْحاً للإنسان : ما زالَ جَنيبَ[٨] الزّمان ، يغترُّ بغِيَرِه[٩] ويتمثّلُ بصورهِ ؛ فينسى

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد الببغاء بن نصر المخزومىّ من شعراء الشام توفى سنة ٣٩٨هـ (٢) شرفها وعظمها (٣) أمارات (٤) أى ماجعلك ترعاه وهو الرعية (٥) التوفيق والإصابة (٦) يحكمه ويقضيه وينفذه (٧) جمع آخيّة : وهى ما تربط به الدابة والمراد بها هنا رابطة المودة (٨) الفرس الجنيب : المجنوب الى آخر يسير بسيره (٩) حوادثه

الخُلَّة[١]، ويُخفِرُ[٢] الذِّمة ويَمَلُّ العافيةَ، ويبطَرُ الكرامةَ

على أن لَوْمى نفسى ليسَ بأهونَ مِنْ لَوْمى لك، وعَتْبى على ضميرى يربو على العَتْبِ عليك؛ إذ كان لى نُدْحَةٌ[٣] عن الإفراطِ فى الثِّقةِ بك، والتهالُكِ[٤] فى إلقاءِ قِيادى إليك. ولعلَّ القصدَ فى ذلك يكونُ أقصدَ سبيلٍ لحياتِنا المستقبلةِ ما لم تدخُلْ فى أُخرَى لا تُحتَمَلُ، أو تخرجْ من الأُولَى بعُذْرٍ يُقبَلُ، والسلام م

رسالة للمؤلف على لسان مُبِلٍّ[٥] من مرضٍ يشكُرُ لطبيبه الذى عالجه عنايتَه به:

سيدى النِّطاسىَّ[٦] الفاضل

لَئِنْ حقَّ السلامُ على مُولِى السَّلامةِ، ووجبتِ التَّحِيَّةُ لِمُنْقِذِ الحياةِ لقد صارَ حقًّا علىَّ بعْدَ أدائى لكَ هذيْنِ الفرْضَيْنِ، واغتباطى بنَيْلِ تَيْنِكَ الحُسْنَيَيْنِ، أنْ أقومَ لك بشُكْرٍ يستنفِدُ جَهْدَ نفسى، ويُحيطُ بكلِّ ما فى وُسْعى؛ وكيفَ لا وقد أعدتَ إلىَّ العافيةَ وكان أيْـئَسنى المرضُ منها، وأمتعتنى بنعيمِ الحياةِ بعد أن جفانى طيبُ عَيشِها، وبعد أن أعيا سَقامى نُطُسَ الأطباءِ، وملَّ عِيادتى أوْفَى الأخلاءِ. فإنْ كانت لى بعدُ مُنّةٌ[٧] فهى من مَحْضِ مِنَنِكَ[٨]، أو كان لى يدٌ فى عملٍ فهى بعضُ أياديك

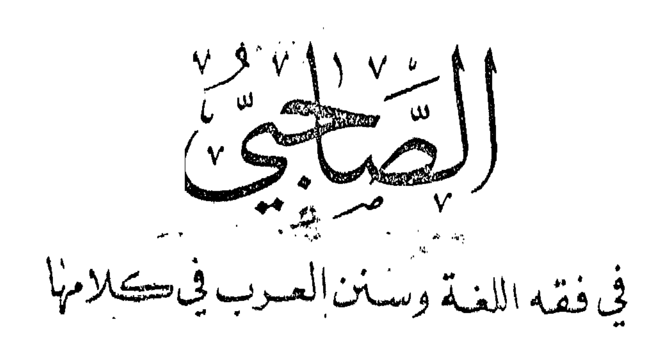
فجزاكَ اللهُ خيرَ ما يُجزَى طبيبٌ عن مُبِلٍّ، ومُكْثِرٍ من الفضل عن مُقِلٍّ. والسلامُ عليك ورحمةُ الله

---

(١) الصحبة (٢) يخون ويغدر (٣) سعة وفسحة (٤) مصدر تهالك فى الأمر: جدّ فيه (٥) أبلّ المريض من مرضه: برأ منه فهو مُبِلٌّ (٦) النِطاسىّ العالمُ والطبيبُ الماهر (٧) قوّة (٨) جمع مِنّة وهى النعمة والعطية

موقعة القادسية الحاسمة

لمَّا اختلَّ أمرُ الفُرْس ، وعظُمتْ الفِتنةُ بينهم أذِنَ أبو بكرٍ (رضى الله عنه) للمُثَنَّى بنِ حارثةَ الشَّيْبانِيّ وسُوَيْدِ بن قُطْبَةَ العِجْلِيّ بغَزْوِ فارسَ . ثم أمدَّهم بخالدِ بن الوليد ، ففتح الحِيرةَ وبعضَ ريفِ السَّواد . ثم سَيَّره بنِصْفِ جيش العِراق مَدَداً لجنود الشام . ولمَّا وَلِيَ عمرُ (رضى الله عنه) الخلافَ أمَدَّ المثنى بجَيْشٍ عليه أبو عُبَيْدِ بنُ مسعودٍ الثّقفيُّ ، فتسرَّعَ وعبَرَ الفُراتَ إلى العَدُوّ ، فنفَرتْ خيلُه من فِيلتِه ، فاضطربَ جيشُه ثم هُزِمَ ، وقُتل أبو عبيدٍ ، وهلَكَ من المسلمين نحوُ ثلاثةِ آلافٍ قتْلاً وغرَقًا . فامدَّهم عمرُ بجيشٍ آخرَ عليه جَريرُ بنُ عبدِ الله البَجَلِيُّ ، فانتصرَ على الفُرسِ فى عِدَّةِ وقائع ، واستباحَ العربُ سِقْيَ الفُراتِ ، حتى استقامَ أمرُ الفُرس ، وولَّوْا عليهم يَزْدَجِرْدَ آخرَ ملوكهم . فاستنفر الناسَ للدّفاع عن بلادهم ؛ فأجابوا ، وأمّرَ عليهم رُستُمَ أعظمَ قُوّادِ الفُرس يومئذٍ . ففَصَلَ رُسْتُمُ عن المدائن بجيشٍ جرّارٍ كثيرِ العُدَدِ والذخائر والفيلة يَربُو عددُهُ على مائةِ ألفِ مقاتلٍ . فلمَّا عَلِم العربُ بذلك بعثَ عمرُ بنُ الخطاب رُسُلاً إلى جميع قبائل العرب ، وندبَ فُرسانَها وخُطباءَها وشعراءَها وأهلَ الرَّأي والنَّجدة منها ؛ فانتدبَ له نحوُ عشرين ألفَ مقاتلٍ أمّرَ عليهم سعدَ بنَ أبي وقاصٍ القُرَشي . فنزل على القادسيَّة . ومات المُثنَّى قبل مَقْدَم سعدٍ بقليل . وتكاملَ عددُ المسلمين بضعةً وثلاثين ألفًا . واختلفتْ الرسُلُ مُدَّةً بين العرب وكِسْرَى يَزْدَجِرْدَ وبينهم وبين رستُمَ فى الدعوة إلى الإسلام من العَرب ، والوَعْد والوَعيد من الفُرس ، وانتهى الأمرُ بتحكيم السيف بينهم ؛ فعبر الفُرسُ الفُراتَ ونهرَ القادِسية ، واسند المسلمون



الصاحبي

في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها

تصنيف :

أحمد بن فارس

من أئمة اللغة في القرن الرابع

« شيخنا أبو الحسين – يعني ابن فارس – ممن رزق
« حسن التصنيف، وأمن فيه من التصحيف »
الصاحب بن عباد

عنيت بتصحيحه ونشره

المكتبة السلفية

لمؤسسيها

محب الدين الخطيب وعبد الفتاح القتلان

القاهرة : السكة الجديدة

القاهرة

١٣٢٨ – ١٩١٠

مطبعة المؤيد

مقدمة الناشر

الأمةُ العربيةُ اليومَ في دورِ نهضةٍ حديثة تلدُها الحاجة وتكيّفها العوامل.
والناظرُ الى شعوب هذا العصر بعين أفّاقةٍ نقادة — يرى أن هذه النهضة الحديثة ستؤولُ بالشعب العربيّ المجيد إلى انقلابٍ عظيم ، من حيثُ الشؤن الأجتماعية .

ولما كان الاحتفاظُ بالثمين من تُراث السلف ، والأخذُ بالنافع من نظام الخلف خيرَ ما تنتهجه الأمم من مناهج التقدم — عزمت (المكتبةُ السلفية) على أن تكون عاملاً صغيراً في عالم العمل ؛ فتخدمَ النهضةَ العربية الشريفة بنشر النافع من الفنون العصرية ، وإحياء ما كان صنّفه رجال هذه الأمّة على عهد حضارتها الماضية — خصوصاً ما كان منها في أصول لغتنا وفروعها ، لأنّه لاحياة للأمم في تيّار السّياسة وعمّان المجتمع إلاّ بحياة لغاتها.

ونحن نتقدم اليوم إلى أمتنا العزيزة بالكتاب (الصاحبيّ) في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، للأمام اللغويّ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ، استاذِ (بديع الزمان الهمذاني) وشيخ (الصاحب بن عباد) ومصنفِ الكتب الجليلة .

* * *

ولقد اعتمدنا في احياء (الصاحبيّ) ونشره على نسخةٍ صحيحة بخط الأستاذ اللغويّ الجليل المرحوم (الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزيّ الشنقيطيّ) ، من مكتبته المحفوظة في المكتبة المصرية الخديوية في القاهرة ،

وقد نقلها عن نسخة في إحدى مكتبات القسطنطينية، قُرأت على المصنف عام ٣٨٢ هـ وعلى ظهرها بخطه ما نصه :

« قرأ عليّ (أبو محمد نوح بن أحمد الأديب) أعزّه الله هذا الكتاب
« من أوّله إلى آخره ، وصحّحه وسمعه بقراءته (أبو العباس أحمد بن محمد
« المعروف بالغضبان) و (أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زَنْجُلة القاري) .
« وكتبه (أحمد بن فارس بن زكرياء) بخطه : (المحمدية) في شعبان
« من سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة . »

وفي آخرها يقول ناسخها المجاز له :

« وكتب (نوح بن أحمد اللوباساني) في شعبان سنة اثنتين وثمانين
« وثلاثمائة . »

وقال المرحوم (الشنقيطي) بعد ذلك :

« انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه يوم الثلاثاء لعشر خلت
« من شهر ربيع النبوي ، وكان ابتدائي فيه لعشر خلت من المحرم ، فيكون
« ظرف اكتتابه شهرين .
« واكتتبته من نسخة جليلة، جميلة الخط ، صحيحة جداً — إلاّ
« ما كان خطأً للمؤلف ، فلا يؤاخذ به الكاتب — وعلى النسخة خط
« المؤلف بيمينه ، وإجازته لتلاميذه : نوح بن أحمد ومن حضر معه .
« وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة ، لا أبتدي صفحة إلاّ بعد مقابلة
« الصفحة التي كتبتها قبلها ، فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد ولله الحمد .
« فجائت بحمد الله نسختي هذه أجلّ من أصلها وأصحّ ، لاحتوائها
« عليه وعلى ما ليس فيه (يعني تعليقاته على بعض مواضع الكتاب ، وقد

« اثبتناها في الطبع) .

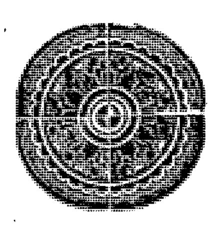
« وكتبها لنفسه (محمد محمود بن التلاميد التركزي) ثم وقفه على
« عصبته بعده وقفاً مؤبداً ، فمن بدله فأثمه عليه .

« وذلك بقسطنطينية المحمية ، لعشر خلت من ربيع النبوي ، سنة أربع
« وثلاثمائة وألف ، ردني الله تعالى منها سريعاً إلى المدينة مرداً جميلا ، عليه
« توكلت وكفى بالله تعالى وكيلا . »

*
* *

وبعد فهذا مبلغ النسخة الأصلية من الصحة ، ونحن قد بذلنا الجهد في
أن لاتجيء بعد الطبع دونها قبله — حتى بلغنا هذه الأمنية فيما نحسب .
وعلى الله الاتكال .

القاهرة : غرة جمادى الثانية ، ١٣٢٨



أحمد بن فارس

عن معجم الأدباء لياقوت ويتيمة الدهر للثعالبي وطبقات اللغويين والنحاة للسيوطي وعن ابن خلكان

نسبه وبلده :

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن محمد بن حبيب القزويني ـ أحد أئمة اللغة العربية في القرن الرابع للهجرة .

ولد في جهة (كرسف) و (وجيانا باذ) ، وهما قريتان من (رستاق الزهراء)، ولم نقف على تاريخ مولده . ومما يؤيد أنه ولد في كرسف مارواه مجمع عن أبيه محمد ابن أحمد ـ وكان من جملة حاضري مجالس أحمد بن فارس ـ قال : « أتاه آت ، فسأله عن وطنه ، فقال (الرجل) : كرسف . فتمثل الشيخ :

بـلادٌ بها شدَّت عليَّ تمائمي ،
وأوَّل أرض مسَّ جسمي ترابُها . »

ولم يذكر ياقوت قريتي كرسف وجيانا باذ في معجم البلدان ، وإنما قال في معجم الأدباء أنه وجد بخط مجمع بن محمد بن أحمد على نسخة قديمة من (كتاب المجمل) تصنيف ابن فارس ما صورته :

« تأليف الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء الزهراوي الاستاذ ـ خرذي . اختلفوا في وطنه ، فقيل كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة (كرسف) و (جيانا باذ) وقد حضرت القريتين مرارا ، ولا خلاف أنه قروي . »

هذا ما علمنا من خبر موطنه الاول . أما (المحمدية) التي قرئ (الصاحبي) فيها على ابن فارس بالاصل الذي نقل عنه الشنقيطي ، وفيها كتب كتابه (تمام الفصيح) فقد نقل ياقوت في معجم البلدان عن كتاب لمحمد بن أحمد الفقيه أن (المهدي) ـ لما قدم (الري) في خلافة (المنصور) ـ بنى مدينة الري التي بها الناس اليوم ، وجعل لها خندقًا وبنى فيها مسجدا ، وجرى ذلك على يد (عمار بن

لخصيب) وكتب اسمه على حائطها ، وتم عملها سنة ١٥٨ ، وجعل لها فصيلا يطيف به فارقين آخر . وسماها (المحمدية) . فأهل الري يدعون المدينة الداخلة (المدينة) ويسمون الفصيل (المدينـة الخارجة) والحصن المعروف بالزبيدية في داخل المدينة (المحمدية) . وفي تاريخ (أبي سـعيد الآبي) أنها سميت كذلك باسم المهدي .

أساتذته وتنقله في طلب العلم :

جاء في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي أن ابن فارس كان نحويا على (طريقة الكوفيين) . وقـد تعلم العلم عن أبيـه وعن (أبي الحسن علي بن ابراهيم بن سلمة القطان) ــ وهو كثيرا ماحدث ابن فارس في (الصاحبي) عنه ــ . وفي معجم الأدباء انه أخذ أيضا على (أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب) رواية ثعلب وعلى (أبي عبد الله أحمد بن طاهر المنجم) و (علي بن عبد العزيز المكي) و (أبي عبيد) و (أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني) غير ذلك من العلوم .

وكان ابن فارس يقول عن شيخه ابن طاهر المنجم : «مارأيت مثل أبي عبدالله أحمد بن طاهر ، ولا رأى هو مثل نفسه » .

وقال يحيى بن مندة الأصبهاني : «سمعت عمي عبد الرحمن بن العبدي يقول ، سمعت أبا الحسين أحمـد بن زكريا بن فارس النحوي يقول : دخلت بغـداد طالبا للحديث ، فحضرت مجالس بعض أصحاب الحـديث وليست معي قارورة ، فرأيت شابا عليه سمة الجمال فاستأذنته في كتب الحديث من قارورته فقـال : « من انبسط الى الاخوان بالاستئذان فقد استحق الحرمان . »

ويؤخذ من رواية (علي بن القاسم المقري) لرسالة (أوجز السير لخير البشر) عن مصنفها أحمد بن فارس أن المترجم به أقام مدة في مدينة الموصل وقرأ ابن القاسم تلك الرسالة فيها عليه .

أما أبو مصنف الصاحبي فكانت له يد في الادب ، كما يستدل من رواية ابن فارس عنـه قال : « سمعت أبي يقول : حججت فلقيت بمكة ناسا من (هذيل) ، فجاريتهم في ذكر شعرائهم ، فما عرفوا واحـدا منهم . ولكنني رأيت أمثـل الجماعة رجلا فصيحا وأنشدني :

إذا لم تحظَ في أرض فدعها ،

وحُثَّ اليَعْمَلات على وَجاها (١)

ولا يَغرُرك حظُّ أخيك فيها

إذا صفِرت يمينك من جَداها .

ونفسك فُزْ بها ـ إن خفت ضَيماً ـ

وخلِّ الدار تحزن من بكاها :

فإنَّك واجدٌ أرضاً بأرض ،

ولست بواجدٍ نفساً سواها .

علمه وتلامذته :

على من ذكرنا من الأئمة والاساتذة تلقى المترجم به العلم ، حتى كان ـ كما قال عنه أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر ـ من أعيان العلم بهمذان ومن أفراد الدهر ، يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء . وهو بالجبل كـ (ابن لنكك) بالعراق و (ابن خالويه) بالشام و (ابن العلاف) بفارس و (أبي بكر الخوارزمي) بخراسان .

وفي همذان قرأ (بديع الزمان الهمذاني) على ابن فارس، وله تلامذة كثيرون غيره .

ثم حمل منها الى الري بأجرة ليقرأ عليه (مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدوله أبي الحسين بن بويه الديلمي صاحب الري) فأقام بها قاطنا ، وتحول عن مذهب (ابن ادريس الشافعي) الى مذهب (مالك بن انس) وقال : « أخذتني الحمية لهذا الامام أن يخلو مثل هذا البلد عن مذهبه » .

وفي الري تعرف ابن فارس بـ (الصاحب بن عباد) وزير (فخر الدولة بن بويه) فكان الصاحب يكرمه ويتتلمذ له ويقول :

« شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف ، »

(١) ناقة عملة وعمالة ويعملة ، ج يعملات : فارهة (أي نشيطة وخفيفة وصبيحة) . وجي الماشي : حفي ، وهو أن يرق القدم أو الفرسن أو الحافر ، وينسجج .

وكان من ثمرات هذه الروابط أن وضع ابن فارس كتابه (الصاحبي) نسبة للوزير ودلالة على أنه صنفه ليودع في خزانته .

جمعت جامعة الأدب بين الصاحب وابن فارس حيناً من الدهر ، ثم تنازعت شؤن السياسة قلبيهما ـ بدليل ما رواه الثعالبي عن ابن عبد الوارث قال : (وكان الصاحب منحرفاً عن أبي الحسين بن فارس لانتسابه الى خدمة (آل العميد) ـ أو ابن العميد ـ وتعصبه لهم . فأنفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه ، فقال الصاحب : « رد الحجر من حيث جاءك » . ثم لم تطب نفسه بتركه ، فنظر فيه وأمر له بصلة .)

***

أمياله :

أما أخلاقه وأمياله وعواطفه ـ فلم يتصل بنا منها الا أنه كان كريما جوادا لا يبقي شيئا . وربما سئل فوهب ثياب جسمه ، وفرش بيته . . .

ويمكن لمن يجول بين أقواله وأشعاره جولة أن يخترق من الحجب مالم تخترقه النصوص التاريخية ، وان كان هذا في الغالب يترجم عن شعور ساعة محدودة ، أو مذهب يلزم صاحبه زمنا ثم يذهب بذهاب ذلك الزمن .

مثال ذلك أنك تجد ابن فارس في أبواب منشأ اللغة والخط من كتاب الصاحبي محافظاً ، ثم تراه في رسالته إلى (أبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب) حرّاً مغرقا في الحرية ، يناقش أباعمرو في انكاره على (أبي الحسن محمد بن علي العجلي) تأليفه في الحماسة . ويعترف للمتأخرين من صواغ الشعر تبريزهم في بعض مقطوعاتهم على شعراء الجاهلية وغيرهم ـ من حيث تأليف جيد القول ونقيه ، ومختاره ورضيه . وينتصر للقاعدة المقررة ، وهي أن العلوم خطرات الأفهام ونتائج العقول ، والدنيا أزمان ، ولكل زمان منها رجال . ومن الخطأ أن تقصر الآداب على أزمان دون أزمان ، وأن نعزو الاستعداد لرجال دون آخرين .

المفاضلة بين شعراء الجاهلية والمولدين

رسالة ابن فارس ـ الى ابن سعيد الكاتب :

أما رسالة أحمد بن فارس إلى أبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب فهي ـ كما قال عنها الثعالبي ـ في نهاية الملاحة ، وقد تضمنت أنموذجا من ملح شعراء الجبل وغيرهم من المعاصرين ، وفيها ظرف أخبارهم . وهذا نصها :

« ألهمك الله الرشاد ، وأصحبك السداد . وجنبك الخلاف ، وحبب اليك الانصاف .

وسبب دعائي بهذا لك ـ انكارك على (أبي الحسن محمد بن علي العجلي) تأليفه كتابا في الحماسة ، واعظامك ذلك . ولعله لو فعل ـ حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه ـ لاستدرك من جيد الشعر ونقيه ، ومختاره ورضيه كثيرا مما فات المؤلف الأول .

فماذا الأنكار ، ولمه هذا الاعتراض ، ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولمه تأخذ بقول من قال : « ماترك الأول للآخر شيئا » وتدع قول الآخر : « كم ترك الاول للآخر » ؟ وهل الدنيا الا أزمان ، ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة الاخطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ؟ ولمه لا ينظر الآخر مثل مانظر الأول ـ حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وماتقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟ أوماعلمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولمه جاز أن يقال بعد (أبي تمام) مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً . وحرمت حلالا . وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم ؟ ولما جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم وأهل النحو في مصنفاتهم والنظار في موضوعاتهم وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ولم يجز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ...

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير . ولذهب أدب غزير واضلت أفهام ثاقبة . ولكلت ألسن لسنة . ولما توشي أحد لخطابة . ولا سلك شعبا من شعاب البلاغة . ولمجت الاسماع كل مردد مكرر ، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي .

والى متى :

صفحنا عن بني ذهل

وله أنكرت على العجلي معروفا ، واعترفت لحمزة بن الحسين ما أنكره على أبي تمام في زعمه أن في كتابه تكريرا وتصحيفا وابطاء واقواء ونقلا لأبيات عن أبوابها الى أبواب لا تليق بها ولا تصلحها ، الى ماسوى ذلك من روايات مدخولة وأمور عليلة ؟

وله رضيت انا بغير الرضي ؟ وهلا حثثت على اثارة ماغيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر ؟

على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه . ولو فعله لقرأت مالم ينحط عن درجة من قبله من جد يروعك وهزل يروقك واستنباط يعجبك ومزاح يلهيك .

وكان بقزوين رجل معروف بأبي محمد الضرير القزويني حضر طعاما ، والى جنبه رجل أكول فأحس أبو حامد (١) بجودة أكله ، فقال :

وصاحب لي بطنه كالهاويه ،

كأن في أمعائه معاويه .

فانظر الى وجازة هذا اللفظ ، وجودة وقوع الامعاء الى جنب معاوية . وهل ضر ذلك ان لم يقله حماد عجرد وأبو السمقمق ؟ وهل في اثبات ذلك عار على مثبته ، أوفي تدوينه وصمة على مدونه ؟

وبقزوين رجل يعرف بابن الرياشي القزويني ، نظر الى حاكم من حكامها ــ من أهل طبرستان ــ مقبلا ، عليه عمامة سوداء وطيلسان أزرق وقميص شديد البياض

(١) لعله : أبو محمد . أو لعل (أبا محمد) الاولى أبو حامد .

وخفه أحمر ، وهو مع ذلك كله قصير ، على برذون أبلق هزيل الخلق طويل الحلق ، فقال حين نظره :

وحاكم جاء على أبلق ،
كعقعق جاء على لقلق .

فلو شاهدت هذا الحاكم على فرسه لشهدت للشاعر بصحة التشبيه وجودة التمثيل ولعلمت انه لم يقصر عن قول بشار :

كأن مثار النقع[1] فوق رؤسهم
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه .

فما تقول لهذا ، وهل يحسن ظلمه في انكار احسانه وجحود تجويده ؟

وأنشدني الأستاذ أبو علي محمد بن أحمد بن الفضل لرجل بشيراز يعرف بالهمذاني ، وهو اليوم حي يرزق ، وقد عاب بعض كتابها على حضوره طعاما مرض منه :

وُقيتَ الرَّدى وصروفَ العللْ
ولا عرفت قدماكَ الزَّللْ ،
شكى المرضَ المجدُ لما مرضتَ —
فلمّا نهضتَ سلماً أبلْ .
لكَ الذنبُ ، لا عتبَ إلا عليك —
لماذا أكلتَ طعام السفلْ ؟
طعام يسوَّى ببيع النبيذ —
ويصلح من خدْر ذاك العمل .

وأنشدني في شاعر ، هو اليوم هناك ، يعرف بابن عمرو الأسدي ، وقد رأيته فرأيت صفةً وافقت الموصوف :

(١) النقع : الغبار .

وأصفر اللون ، أزرق الحدقهْ ،

في كلّ ما يدّعيه غير ثقهْ ،

كأنه مالكُ الحزين إذا

همَّ بزرق وقد لوى عنقهْ .

إن قمتُ في هجوه بقافية

فكلّ شعر أقوله صدقهْ .

وأنشدني عبد الله بن شاذان القاري ليوسف بن حمويه ، من أهل قزوين ، ويعرف بابن المنادي :

إذا ما جئت أحمد مستميحاً

فلا يغررك منظرهُ الأنيقُ :

له لطف وليس لديه عرف ،

كبارقة تروق ولا تريقُ .

فما يخشى العدوُّ له وعيداً ،

كما بالوعد لا يثق الصديقُ .

وليوسف محاسن كثيرة ، وهو القائل ، ولعلك سمعت به :

حجّ مثلي زيارة الخمّار ،

واقتنائي العقار شرب العُقار ،

ووقاري إذا توقر ذو الشيـ —

بة وسطَ النديّ تركُ الوقار ،

ما أبالي إذا المدامة دامت

عذل ناه ولا شناعة جار .

ربَّ ليل كأنه فرع ليلى

مابه كوكب يلوح لساري ،

قد طويناه فوق خشف كحيل

أحورِ الطرفِ فاتن سحّارِ ،

وعكفنا على المدامة فيه

فرأينا النهار في الظهر جاري .

وهي مليحة كما ترى ، وفي ذكرها كلها تطويل والايجاز أمثل. وما أحسبك ترى بتدوين هذا وما أشبهه بأساً .

ومدح رجل بعض أمراء البصرة ، ثم قال بعد ذلك ـ وقد رأى توانياً في أمره – قصيدة يقول فيها كأنه يجيب سائلا :

جوَّدتَ شعركَ في الأمير —

فكيفَ أمركَ ؟ قلت فاتر .

فكيف تقول لهذا ومن أي وجه تأتي فتظلمه . وبأي شيء تعانده فتدفعه عن الايجاز والدلالة على المراد بأقصر لفظ وأوجز كلام ، وأنت الذي أنشدتني :

سَدَّ الطريق على الزمان —

وقام في وجه القطوب .

كما أنشدتني لبعض رجال الموصل :

فديتك، ماشبت عن كبرة

وهذي سنيَّ وهذا الحسابْ ،

ولكن هجرتَ فحلَّ المشيب —

ولو قد وصلتَ لعاد الشبابْ .

فلم لم تخاصم هذين الرجلين في مزاحمتهما فحولة الشعراء وشياطين الأنس ومردة

العالم في الشعر ؟

وأنشدني أبو عبد الله المغلسي المراغي لنفسه :

غداة تولت عيسُهم فترحلوا ،

بكيت على ترحالهم فعميتُ :

فلا مقلتي أدّت حقوق ودادهم ،

ولا أنا عن عيني بذاك رضيتُ .

وأنشدني أحمد بن بندار لهذا الذي قدمت ذكره ، وهو اليوم حي يرزق :

زارني في الدُّجى فنمَّ عليه

طيب أردافه لدى الرقباء ،

والثريا كأنها كفُّ خود

أبرزت من غلالة زرقاء .

وسمعت أبا الحسين السروجي يقول : « كان عندنا طبيب يسمى النعمان و يكنى أبا المنذر ، فقال فيه صديق لي :

أقولُ لنعمانٍ ، وقد ساق طبُّهُ

نفوساً نفيساتٍ الى باطن الأرضِ :

أبا منُذرٍ أفنيتَ ، فاستبق بعضنا

حنَانَيك : بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ .

مصنفاته :

المجمل : هو مع اختصاره جمع شيئا كثيرا .

العرق

خضارة : هو كتاب نعت الشعر .

الحجر

الصاحبي : صنفه لخزانة الصاحب بن عباد .

الثيات والحلي

الليل والنهار : لعله كتاب الأيام والليالي .

العم والخال

الأتباع والمزاوجة

الفصيح : وجد ياقوت نسخة منه ، وعليها خط للمصنف ، كتبه سنة ٣٩١ .

تمام الفصيح : وقعت لياقوت نسخة منه بخط المصنف ، كتبها في رمضان سنة ٣٩٠ .

متخير الألفاظ

حلية الفقهاء

ذخائر الكلمات

الحماسة المحدثة

مقاييس اللغة : كتاب جليل لم يصنف مثله .

خلق الانسان

الانتصار لثعلب

أصول الفقه

مقدمة الفرائض .

مقدمة كتاب دارات العرب

مقدمة في النحو

تفسير أسماء النبي عليه السلام

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم : صغير الحجم . اسمه (أوجز السير لخير البشر) طبع في بومباي في ٨ صفحات .

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

شرح رسالة الزهري الى عبد الملك بن مروان

غريب إعراب القرآن

جامع التأويل في تفسير القرآن : أربع مجلدات .

ذم الخطأ في الشعر

فتاوي فقيه العرب

كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين

وله رسائل أنيقة ومسائل في اللغة تغالى بها الفقهاء . ومنه اقتبس الحريري (صاحب المقامات) ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية في المقامة الطيبية وهي مائة مسئلة .

شعره :

ليس ابن فارس بين شعراء العربية من المكثرين الذين قصدوا القصائد ودونوا الدواوين وأرقصوا أنصار جيد القول ببدائع البيان ـ ولكنه استطاع مع ذلك أن يسمعنا رنيناً محزناً بعد كل دمعة تذرف من عينيه ، وأن يرينا أكماماً زاهية تفتح أهدابها سرورا لابتسامة تتراوح بين فوائده وشفتيه .

وقد أثبتنا في هذه الترجمة ماوصلت اليه يدنا من شعر هذا الامام . ومن ذلك قوله وهو في همذان شاكيا :

سقى (همذانَ) الغيثُ ، لست بقائل

سوى ذا ، وفي الأحشاء نار تضرَّمُ ،

ومالي لاأصفي الدعاء لبلدة

أفدت بها نسيانَ ما كنت أعلمُ :

نسيتُ الذي أحسنته ، غيرَ أنني

مَدينٌ وما في جوف بيتيَ درهمُ ...

وقوله في الشكوى أيضا :

وقالوا : كيف حالك ؟ قلت : خير ،

تقضى حاجة وتفوت حاجُ .

إذا ازدحمت همومُ الصدر قلنا :

عسى يوما يكون لها انفراجُ .

نديمي هرتي . وأنيسُ نفسي

دفاترٌ لي . ومعشوقي السّراجُ ...

وقوله في هذا المعنى :

يا ليت لي ألف دينار موجهة

وأن حظي منها فلس فلاس .

قالوا : فما لك منها ؟قلت : تخدمني

لها ومن أجلها الحمقى من الناس .

وقوله في القدر :

تلبَّسْ لباسَ الرضا بالقضا

وخل الأمور لمن يملكُ :

تقدّرِ أنت ، وجاري القضا —

ء مما تقدّرِه يضحكُ .

وقوله في الأصدقاء :

عتبت عليه حين ساء صنيعهُ

وآليت لا أمسيت طوع يديهِ .

فلما خبرت الناس خبر مجربٍ

ولم أر خيراً منه عدت إليهِ . (١)

وقوله في الغنى والفقر :

قد قال فيما مضى حكيمٌ :

ما المرء إلا بأصغريهِ .

فقلت قول امرء لبيب :

ما المرء إلاّ بدرهميهِ ،

---

(١) قال الثعالبي في اليتيمة : أخذه من قول القائل :

عتبت على سلم فلما هجرته وعاشرت أقواما رجعت الى سلم .

من لم يكن معْه درهماهُ
لم يلتفت عرسُه إليه !
وكان من ذلّه حقيراً
تبول سنّوره (١) عليه ...

وقوله في المعنى نفسه :

إذا كنت في حاجة مرسلاً ،
وأنت بها كلف مغرم ،
فأرسل حكيماً ولا توصه ،
وذاك الحكيم هو الدّرهم .

وقوله في الخاصة :

إسمع مقالة ناصح
جمع النصيحة والمقهْ :
إيّاك واحذر أن تبـ —
يت من الثقات على ثقهْ .

وقوله في التذمر من مهنة الأدب :

وصاحب لي أتاني يستشير ، وقد
أراد في جنبات الأرض مضطربا ،
قلت : اطّلب أيّ شيء شئت واسع ورد
منه الموارد — إلاّ العلم والأدبا ...

وقوله في عكس ذلك :

(١) في الآثار الباقية : سنورهم . والسنور : الهر .

إذا كان يؤذيك حرّ المصيف —
وكرب الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع —
فأخذك للعلم قل لي متى ؟

قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : قرأت بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحيم السلمي : وجدت بخط ابن فارس على وجه (الجمل) والأبيات له ، ثم قرأتها على سعد الخير الانصاري ، وأخبرني أنه سمعها من ابن شيخه أبي زكريا ، عن سليمان بن أيوب ، عن ابن فارس :

يادار سُعدى ! بذات الضال من إضم ،
سقاك صوب حيًا من واكف العين (١)
إني لأذكر أياماً بها ، ولنا
في كل إصباح يوم قرّة العين (٢)
تدني مشعشعة منا معتقة
تشجها عذبة من نابع العين (٣)
إذا تمزّزها شيخ به طَرَق
سرت بقوتها في الساق والعين (٤)
والزّق ملآن من ماء السرور ، فلا
تخشى توله مافيه من العين (٥)

(١) العين : سحاب ينشأ من قبل القبلة .
(٢) عين الانسان وغيره .
(٣) ماينبع من الماء .
(٤) الطرق : ضعف الركبتين . والعين هنا : عين الركبة .
(٥) توله الماء : تسربه . والعين هنا : ثقب يكون في المزادة.

وغاب عذالنا عنا، فلا كدر
في عيشنا من رقيب السؤ والعين [1]
يقسم الودّ فيما بيننا قسماً
ميزانُ صدق، بلا بخس ولا عين [2]
وفائض المال يغنينا بحاضره
فنكتفي من ثقيل الدين بالعين [3]
(والمجمل) [4] المجتبى تغني فوائدُه
حفاظه عن كتاب (الجيم) [5] و(العين) [6]

***

ومن قول ابن فارس في الغزل :

كلّ يوم لي من سلـ ـمى عتاب وسباب
وبأدنى ما ألاقي منهما يؤذى الشباب

وقوله في ذلك :

مرّت بنا هيفاء مقدودةٌ
تركية تنمى لتركيّ
ترنو بطرف فاتر فاتن
أضعف من حجة نحويّ.

---

(١) الرقيب والجاسوس .
(٢) العين في الميزان .
(٣) العين : المال الناض . قال أبو عبيد انما يسمونه ناضا اذا تحول عينا بعد أن كان متاعا .
(٤) كتاب المجمل (في اللغة): لأحمد بن فارس مصنف الصاحبي .
(٥) كتاب الجيم (في اللغة) : لأبي عمرو اسحق بن مرار الشيباني الكرماني المتوفى سنة ٢٠٦
(٦) كتاب العين (في اللغة) : للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ .

ابن فارس وابن بابك :

مما وقع لابن فارس وهو في الري ما حدث به هلال بن المظفر الريحاني قال : قدم (عبدالصمد بن بابك) الشاعر الى الري ، في أيام الصاحب ، فتوقع أبوالحسين أحمد ابن فارس أن يزوره ابن بابك و يقضي حق علمه وفضله . وتوقع ابن بابك أن يزوره ابن فارس و يقضي حق مقدمه . فلم يفعل أحدهما ما ظن صاحبه . فكتب ابن فارس الى أبي القاسم بن حسولة :

تعدّيت في وصلي ، فعدّي عتابك .
وأدني بديلاً من نواكم (١) ايابك .
تيقنتُ أن لم أحظ — والشمل جامع
بأيسر مطلوب — فهلا كتابك ؟
ذهبت بقلبٍ عيل بعدك صبرُهُ ،
غداة أرتنا المرْقلات (٢) ذهابك
وما استمطرت عيني سحابةَ ريبةٍ
لديك . ولا ثنت يميني سحابك . —
ولا نقّبتْ — والصبُّ يصبو لمثلها —
عن الوجنات الغانياتُ نقابك .
ولا قلتُ يوماً ، عن قِلى وسآمةٍ ،
لنفسك : « سلّي عن ثيابي ثيابك ! »
وأنت التي شيبّت — قبل أوانه —
شبابي ، سقى الغرُّ الغواني شبابك :
تجنّبت ما أوفى . وعاقبت ما كفى .

---

(١) الله : نواك . مرجليوث
(٢) المرقلات : النوق المسرعة بضرب من السير .

ألم يأن سعدى أن تكفّ عتابكِ ؟

وقد نبحتني من كلابك عصبةٌ

فهلاّ — وقد حانوا — زجرت كلابكِ ؟

تجافيت عن مستحسن البرّ جملةً

وجُرت على بختي جفاء ابن بابك ...

فلما وقف أبو القاسم الحسولي على الأبيات أرسلها الى ابن بابك ، وكان مريضاً ، فكتب جوابها :

وصلت الرقعة ، أطال الله بقاء الأستاذ ، وفهمتها . وأنا أشكو اليه الشيخ أبا الحسين ، فانه صيرني فصلا لا وصلا . وزجا (١) لا نصلا . ووضعني موضع الحلال من الموائد . و (تمت) من أواخر القصائد . وسحب اسمي سحب الذيل . وأوقعه موقع الذنب المحذوف من الخيل . وجعل مكاني مكان القفل من الباب . و (فذلك) من الحساب .

وقد أجبت عن أبياته بأبيات أعلم ان فيها ضعفا لعلتين علتي وعلتها . وهي :

أيا أثلاتِ الشعب (٢) من مرج يابسٍ !

سلام على آثاركنّ الدوارسِ .

لقد شاقني — والليل في شملةٍ (٣) الحيا ـ

إليكنّ توليع (٤) النسيم المخالس (٥) .

ولمحةُ برقٍ مستميتٍ كأنّه

---

(١) الزج : الحديدة التي في أسفل الرمح .

(٢) الأثلة (بسكون الثاء) : شجرة عظيمة لاثمر لها . والشعب (بكسر الشين) : المنفرج بين الجبلين أو الطريق في الجبل .

(٣) الشملة : السترة والرداء .

(٤) التوليع : الأغراء ، من ولع بالشيء اذا تعلق به .

(٥) خلست الشيء : اختطفته بسرعة على غفلة .

تردّدُ لحظ بين أجفان ناعس ،
فبتُّ كأنّي صعدة (١) عنيّة
تزعزع في نقع (٢) من الليل دامس .

*
* *

ألا حبذا صبحٌ اذا ابيض أفْقُه
يصدّع عن قرن من الشمس وارس (٣)
وكنت (٤) من الخَلْصاء تَرْكَبُ سيلَها
ورودُ (٥) المَطِي الجاثمات الكوانس (٦)
فياطارق الزوراء! (٧) قل لغيومها : «اس
تهلي على متن من الكرخ (٨) آنس .»
وقل لرياض القفْص (٩) تهدي نسيمها ،
فلست — على بعد المزار — بآيس .

*
* *

(١) الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج الى تثقيف .
(٢) الزعزعة : تحرك الشيء . والنقع : الغبار ، استعارة للظلام .
(٣) وارس : أصفر ، اشتق من الورس وهو نبت أصفر يكون في اليمن .
(٤) لعله : ركبت . مرجليوث .
(٥) ما كان بلون الورد من أسد وفرس وغيرها . وهو بين الكميت والأشقر .
(٦) كنس الظبي كنوسا : دخل كناسه ، واستعيرت هنا للمطي .
(٧) مدينة الزوراء : في الجانب الغربي من بغداد ، سميت كذلك لازورار (انحراف) في قبلتها أو لأن أبا جعفر المنصور جعل أبوابها الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة عند بنائها .
(٨) الكرخ : أماكن في العراق تضاف كل واحدة الى مدينة وتسمى بها . فيقال : « كرخ البصرة » و « كرخ بغداد » وغير ذلك .
(٩) القفص : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا قريبة من بغداد . وكانت من مواطن اللهو ومعاهد النزه ومجالس الفرح . تنسب اليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة . وقد أكثر الشعراء من ذكرها .

ألا ليت شعري ؛ هل أبيتن ليلةً
لَقىً بين أقراط المهى والمحابس ؟
وهل أرين الريَّ دهليز بابك ،
وبابك دهليز الى أرض فارس ،
ويصبح ردم السد قفلاً عليهما ،
كما صرت قفلاً في قوافي ابن فارس ؟

فعرض أبوالقاسم الحسولي المقطوعين على الصاحب وعرفه الحال ، فقال : « البادي أظلم . والقادم يزار . وحسن العهد من الايمان . »

وفاته :

هـذا ما انتهى الينا من ترجمة ابن فارس ، وكانت وفاته في الري في شهر صفر عام ٣٩٥ ، ودفن فيها مقابل مشهد (قاضي القضاة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني) .

وقال قبل وفاته بيومين يستغفر الله :

يارب ؛ إن ذنوبي قد أحطتَ بها
علما ، وبي وبأعلاني واسراري :
أنا الموحّد ، لكني المقرّ بها ،
فهب ذنوبي لتوحيدي وإقراري .





احمد محمد شبيري

بالاشتراك مع

الصاحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبه نستعين ، وصلى الله تعالى على محمد وآله

قال الشيخُ أبو الحسينِ أحمدُ بنُ فارسَ أدام الله تأييده :

هذا (الكتابُ الصاحبيُّ) في فقه اللغةِ العربيةِ وسننِ العربِ في كلامها . وإنما عنونتُه بهذا الاسم لأنّي لما ألّفتُه أودعتُه خزانةَ (الصَّاحبِ)[1] الجليل كافي الكفاة ، عمَّرَ اللهُ عِراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تجمُّلاً بذلك وتحسُّنا ، إذ كان ما يقبَله كافي الكفاة من علم وأدب مَرضيّاً مقبولا ، وما يَرْذُلُه أو يَنفيه منفيّاً مَرْذولا ، ولأنَّ أحسنَ ما في كتابنا هذا مأخوذٌ عنه ومُفاد منه . فأقول :

إنَّ لعلم العرب أصلاً وفرعاً : أمَّا الفرعُ فمعرفة الاسماء والصفات كقولنا «رجل» و «فرس» و «طويل» و «قصير» . وهذا هو الذي يُبدأ به عند التعلُّم .

وأمَّا الأصلُ فالقولُ على موضوع اللغة وأوَّليتها ومنشأها ، ثمَّ على

---

(١) الوزير أبو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ادريس الطالقاني — نسبة الى طالقان قزوين — المشهور بالصاحب ، وهو أول من لقب بهذا اللقب من الوزراء ، لانه كان يصحب أبا الفضل بن العميد فقيل له (صاحب ابن العميد) ، ثم أطلق عليه لقب (الصاحب) لما تولى الوزارة وبقي علما عليه ولقبا لكل وزير بعده . وهو من أئمة الادب والعلم ولد في ١٤ ذي القعدة عام ٣٢٦ وتوفي ليلة الجمعة ٢٤ صفر عام ٣٨٥ .

رسوم العرب في مخاطباتها ، ومالها من الافتنان تحقيقاً ومجازا .

والنّاسُ في ذلك رجلان : رجلٌ شُغِل بالفرع فلا يَعرِف غيرَه ، وآخَرُ جمع الأمرينِ معاً ، وهذه هي الرُّتبة العُليا ، لأنَّ بها يُعلم خِطابُ القرآن والسُّنة ، وعليها يُعول أهلُ النظر والفُتيا ، وذلك أنَّ طالبَ العلم العُلويّ يكتفي من أسماء « الطويل » باسم الطويل ، ولا يَضيرُه أن لا يعرف « الاشَقَّ » و « الامَقَّ » (١) وإن كان في علم ذلك زيادةُ فَضل .

وإنّما لم يَضِرْه خفاءُ ذلك عليه لانّه لا يكاد يجدُ منه في كتاب الله جل ثناؤه شيئاً فيُحْوَج إلى علمه ؛ ويقلُّ مثله أيضاً في ألفاظ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، إذ كانت ألفاظُه صلى الله عليه وسلم هي السّهلة العَذْبة .

ولو أنّه لم يعلَم توسُّع العرب في مخاطباتها لَعَيَّ بكثير من علم مُحْكَم الكتاب والسنّة ، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه « ولا تَطرُدِ الّذين يَدْعون ربَّهم بالغَداةِ والعَشيّ يُريدون وجهَه » إلى آخر الآية ؛ فسِرُّ هذه الآية في نَطْقها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوَحْشيّ من الكلام ، وإنّما معرفته بغير ذلك مما لعلّ كتابنا هذا يأتي على أكثره بعون الله تعالى .

والفرق بين معرفة الفروع ومعرفة الاصول أن مُتَوَسّماً بالادب لو سُئل عن « الجزْم » و « التَّسويد » (٢) في علاج النوق ، فتوقف أوعيَّ

---

(١) كلاهما بمعنى « الطويل » راجع (تهذيب الالفاظ) لابن السكيت و (فقه اللغة وسر العربية) لابي منصور الثعالبي .

(٢) قال ابن سيدة في (المخصص) : سودت الابل وهو — أن يدق لها المسح البالي من الشعر فنداوي به أدبارها .

به أو لم يعرفه ، لم ينقصه ذلك عند أهل المعرفة تقصاشائناً ، لان كلام العرب أكثر من أن يُحصى . ولو قيل له : هل تتكلم العربُ في النفي بالا تتكلم به في الاثبات ، ثم لم يعلمه لنقصه ذلك في شريعة الادب عند أهل الادب ، لا أنّ ذلك يُردد دينه أو يجرّه للأثم .

كما أن منوسماً بالنحو لو سئل عن قول القائل :

لَهِنَّكِ(١) من عبْسية لوَسيمةٌ
على هَنَواتٍ كاذبٌ مَن يقولُها

فتوقّف أو فكّر أو استمهل لكان أمرُهُ في ذلك عند أهل الفضل هيّناً ، لكن لو قيل له مكان « لَهِنَّكِ » : ما أصل القسم ، وكم حروفه ، وما الحروفُ الخمسة المشبّهة بالافعال التي يكون الاسم بعدها منصوباً وخبرُهُ مرفوعاً ؟ فلم يُجِب لحُكِم عليه بأنّه لم يُشامّ صناعة النحو قطّ .

فهذا الفصلُ بين الأمرين .

والذي جمعناه في مؤلّفنا هذا مفرّق في أصناف(٢) العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء . وإنّما لنا فيه اختصارُ مبسوط أو بسطُ مختصرٍ أو شرحُ مشكلٍ أو جمعُ متفرقٍ .

---

(١) لهنك : كلمة تستعمل تأكيدا . أصلها : لأنك .
(٢) يعني : تصانيف .

فأوّل ذلك :

باب القول على لغة العرب

أتوقيف ، أم اصطلاح ؟

أقول : انّ لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله جلّ ثناؤه « وعلّم آدمَ الاسماء كلَّها » فكان ابن عباس يقول : علمه الاسماء كلها وهي هذه التي يتعارَفُها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وروى حُصَيْف عن مُجاهد قال : علمه اسم كلّ شيء .

وقال غيرهما : إنما علّمه أسماء الملائكة .

وقال آخرون : علمه أسماء ذرّيته أجمعين .

والذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس . فان قال قائل : لو كان ذلك كما تذهب اليه لقال « ثم عرضهن أو عرضها » فلما قال « عرضهم » عُلِم أن ذلك لأعيان بني آدمَ أو الملائكة ، لأن موضوع الكناية في كلام العرب يُقال لما يَعقِل « عرضهم » ولما لا يعقل « عرضها أو عرضهن » - قيل له : إنما قال ذلك والله أعلم لأنه جمع ما يَعقل وما لا يعقل فغلّب ما يعقل ، وهي سنة من سنن العرب ، أعني (باب التغليب) . وذلك كقوله جل ثناؤه « والله خالق كلّ دابة من ماء : فمنهم مَن يمشي على بطنه ، ومنهم مَن يمشي على رِجلَيْن ، ومنهم مَن يمشي على أربع » فقال « منهم » تغليباً لمن يمشي على رجلين وهم بنو آدم .

فإن قال : أفتقولون في قولنا سيف وحُسام وعَضب إلى غير ذلك من أوصافه أنه توقيف حتىّ لا يكون شيء منه مُصْطَلَحاً عليه ؟ قيل له : كذلك نقول . والدليل على صِحّة ما نذهب اليه إجماعُ العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت اللغة مُواضَعَةً واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطلحنا على لغة اليوم ولا فرق .

ولعلّ ظاناً يظنّ أن اللغة التي دلّلنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد . وليس الامر كذا ، بل وقّف الله جلّ وعزّ آدمَ عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علّم بعد آدم عليه السلام من عرَب الانبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء أن يعلمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فآتاه الله جلّ وعزّ من ذلك ما لم يؤته أحداً قبله ، تماما على ما أحسنَه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت .

فان تعمَّل اليوم لذلك متعمِّل وجد من نُقّاد العلم من ينفيه ويرُدّه .

ولقد بلغنا عن (أبي الأسود) أن امرأ كلمه ببعض ماأنكره أبو الأسود ، فسأله أبو الأسود عنه فقال : « هـذه لغة لم تبلغك » فقال له « ياابن أخي ، لا خير لك فيما لم يبلغني » فعرّفه بلطف أن الذي تكلم به مختلَق .

وخَلّةٌ أخرى أنه لم يبلغنا أن قوما من العرب في زمان يقُارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، فكنا نَستدِل بذلك على اصطلاح كان قبلهم .

وقد كان في الصحابة رضي الله تعالى عنهم – وهم البُلغاء والفُصحاء – من

النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به . وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغةٍ أو احداث لفظةٍ لم تتقدمهم .

ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي إلا بانقضائه ولا تزول إلا بزواله، وفي ذلك دليل على صحة ما ذهبنا إليه من هذا الباب .

باب القول على الخط العربي

وأول من كتب به

يُروى أن أول من كتب الكتاب العربيَّ والسريانيّ والكُتُب كلها (آدمُ) عليه السلام ، قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه . فلما أصاب الأرضَ الغرقُ وجد كلُّ قوم كتابا فكتبوه ، فأصاب (اسماعيلُ) عليه السلام الكتابَ العربيّ .

وكان (ابنُ عباس) يقول : أوّلُ من وضع الكتاب العربيَّ (اسماعيلُ) عليه السلام ، وضعه على لفظه ومنطقه .

والرواياتُ في هذا الباب تكثر وتختلف .

والذي نقوله فيه : ان الخطّ توقيف ، وذلكَ لظاهر قوله عزَّ وجل « إقرأْ باسمِ ربّك الذي خَلَق ، خَلَق الانسانَ من عَلَق ، إقرأْ وربُّكَ الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يَعلْم » وقال جلّ ثناؤه « والقلم وما يسطرون » وإذا كان كذا فليس ببعيد أن يوَقّفَ آدمَ عليه السلام أو غيرَه من الانبياء عليهم السلام على الكتاب .

فأمّا أن يكون مُختَرِع اخترعه من تلقاء نفسه فشيءٌ لا تُعْلَم صحته

إلاّ من خبر صحيح .

وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعرابا ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً . قالوا والدليل على ذلك ماحكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال « إني إذن لرَجُل سوء ! » قالوا وإنّما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز الاّ الضغط والعصر . وقيل لآخر أتجرُّ فلسطين ؟ فقال « إني إذن لقويٌّ ! » . قالوا : وسُمع بعض فصحاء العرب يُنشد :

نحن بني عَلْقمةَ الأخيارا

فقيل له : لم نصبت « بني » ؟ فقال : مانصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النّصب إلاّ إسناد الشيء[1] . قالوا : وحكى (الاخفش) عن أعرابي فصيح أنّه سُئل أن يُنشد قصيدة على الدال فقال : وما الدال ؟ وحكي أن (أبا حيّة النُميري) سُئل أن يُنشد قصيدة على الكاف فقال :

كفى بالنّأي من أسماء كافِ ،

وليس لِسُقمها إذ طال شافِ .

قلنا : والأمر في هذا بخلاف ماذهب اليه هؤلاء . ومذهبنا فيه التوقيف فنقول : إن أسماء هذه الحروف داخلة في الأسماء التّي أعلم الله جلّ ثناؤه أنه علمها آدمَ عليه السلام ، وقد قال جل وعزّ «علمه البيان» ، فهل يكون أوّلُ البيان الا علمَ الحروف التي يقع بها البيان ؟ ولِمَ لايكون الذي علم آدم عليه السلام الاسماء كلّها هو الذي علمه الألِفَ والباء والجيم والدال ؟ فأما من حُكي عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجرّ والكاف والدال فانّا لم نزعم أنّ العرب

(١) يعني أنه لم يعرف أن نصبه على الاختصاص . الشنقيطي

كلها مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها ، وما العربُ في قديم الزمان إلا كنحن اليومَ : فما كلٌّ يعرفُ الكتابة والخطَّ والقراءة ، و(أبو حية) كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان في أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كاتبون منهم (أمير المؤمنين عليٌّ) صلوات الله تعالى عليه و(عثمان) و(زيد) وغيرهم .

فحدثني أبو الحسنِ عليُّ بنُ ابراهيمَ القَطَّان قال أخبرنا عليّ بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال حدثنا ابن مَهْديّ عن ابن المبارك قال حدثني أبو وائل شيخٌ من أهل اليمن عن (هانيء) قال : كنت عند (عثمان) رضى الله تعالى عنه، وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلني بكتِف شاة إلى (أُبيّ بن كعب) فيها « لم يتسنَّ » و « فأمهل الكافرين » و « لا تبديل للخلق » قال فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب « لخلق الله» ومحا فأمهل وكتب « فَمَهّل » وكتب « لم يَتَسَنَّهْ » ألحقَ فيها هاءً . أفيكون جهلُ (أبي حيّة) بالكتابة حجّةً على هؤلاء الأئمة ؟

والذي نقوله في الحروف هو قولنا في الاعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الاعراب أنا نستقريء [1] قصيدة (الحُطَيْئة) التي أولها :

شاقَتْكَ أظعانٌ لِليلَى ـ
دون ناظرة بواكر .

فَنَجدُ قوافيها كلَّها عند الترنُّم والاعراب تجيء مرفوعة، ولولا علمُ

---

(١) الاستقراء : التتبع والاحصاء.

(الحُطيئة) بذلك لأشبهَ أن يختلف إعرابُها، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد ـ لا يكاد يكون .

فان قال قائل : فقد تواترت الرّويات بأن (أبا الأسود) أولُ من وضع العربية، وأن (الخليل) أول من تكلم في العروض . قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل تقول إن هذين العِلْمين قد كانا قديماً وأتتْ عليهما الأيام وقلاّ في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الامامان ، وقد تقدم دليلنا في معنى الاعراب.

وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاقُ أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أومن قال منهم «إنه شعر» فقال (الوليدُ بنُ المغيرة) منكِراً عليهم « لقد عرضتُ مايقرؤه محمد على أقراء [(١)] الشعر ، هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أرَه يشبه شيئاً من ذلك » أفيقول (الوليدُ) هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟

وقد زعم ناس أنّ علوماً كانت في القرون الأوائل والزمن المتقادم ، وأنّها دَرسَت وجُدّدت منذ زمان قريب ، وترجمت وأصلحت منقولة من لغة إلى لغة . وليس ما قالوا ببعيد ، وان كانت تلك العلوم بحمد الله وحسن توفيقه مرفوضة عندنا .

فان قال : فقد سمعنا كم تقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا ، من أنها لا تجمع بين ساكنين ، ولا تبتدىء بساكن ، ولا تقف على متحرك ، وأنها تسمي الشخص الواحد بالاسماء الكثيرة ، وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد . قلنا : نحن نقول إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه أن ذلك توقيف حتى ينتهي الأمر إلى الموقّف الأول .

(١) أقراء الشعر : جمع قرء بالفتح ويضم ، بمعنى القافية .

ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويّون في ذوات الواو والياء والهمز والمدّ والقصر فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ولم يصوّروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنا في مثل « الخبء » و « الدفء » و «الملء» فصار ذلك كلّه حجة ، وحتى كَرِهَ من العلماء تركَ اتباع المصحف من كَرِهَ .

فحدثني عبد الرحمن بن حمدان عن محمد بن الجهم السِّمَّريّ عن (الفرّاء) قال «اتباعُ المصحف ـ إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب ـ وقراءةُ القراء أحبُّ اليَّ من خلافه » قال وقد كان (أبو عمرو بن العلاء) يقرأ « إن هذين لساحران » ولست أجترىء على ذلك . وقرأ «فأصَّدَّقَ وأكون»فزاد واواً في الكتاب ولست استحبّ ذلك . »

والذي قاله (الفراء) حسَن ، وما يحسن قول (ابن قتيبة) في أحرُف ذكرها ، وقد خالف الكُتّابُ المصحفَ في هذا .



باب القول في أن لغة العرب
أفضلُ اللغات وأوسعُها

قال جلّ ثناؤه « وانه لتنزيلُ ربّ العالمين ، نَزَل به الرُّوح الأمينُ على قلبك ، لِتكُون من المُنذِرين ، بلسان عربيٍّ مبين » فوصَفه جلّ ثناؤه بأبلغ ما يوصَف به الكلام ، وهو البيان .

وقال جلّ ثناؤه « خَلَق الانسان ، علَّمه البيان » فقدم جلّ ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توَحَّد بخلقه وتفرّد بانشائه ، من شمس وقمر ونجم وشجر وغيرِ ذلك من الخلائق المحْكمة والنشايا المُتْقَنة . فلمّا خصّ جلّ ثناؤه اللسانَ العربيَّ بالبيانِ عُلِم أن سائر اللغات قاصرةٌ عنه وواقعة دونه.

فان قال قائل : فقد يقع البيانُ بغير اللسان العربي ، لأن كلَّ مَن أفْهَم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن . قيل له : إن كنتَ تريد أن المتكلّم بغير اللغة العربية قد يُعربُ عن نفسه حتّى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان ، لأن الأبكم قد يدلُّ باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمّى متكلما ، فضلا عن أن يُسمَّى بيِّناً أو بليغاً . وإن أردت أنَّ سائر اللغات تبيّن إبانة اللغة العربية فهذا غَلط ، لأنا لو احتجنا أن نعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرةً ، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك ، وأين لسائر اللغات من السعَّة ما للغة العرب ؟ هذا مالا خفاء به على ذي نُهيَة .

وقد قال بعضُ علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل

والقلب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: ولذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الالسنة كما نُقل الانجيل عن السريانية الى الحبشية والرومية وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله جل ثناؤه «وإمّا تخافَنّ من قوم خيانةً فانبذ اليهم على سواء» لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدّية عن المعنى الذي أودِعَتْه حتى تبسُط مجموعها وتَصِل مقطوعها وتُظهر مستورها فتقول « ان كان بينك وبين قوم هدنة وعهد نخفت منهم خيانة ونقضاً فأعلمهم أنك قد نقضت ماشرطته لهم وآذِنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء» وكذلك قوله جلّ ثناؤه « فضربنا على آذانهم في الكهف» .

فان قال قائل: فهل يوجد في سنن العرب ونظومها ما يجري هذا المجرى؟ قيل له: ان كلام الله جل ثناؤه أعلى وأرفع من أن يُضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لايكون كذلك وهو كلام العلي الأعلى خالق كلّ لغة ولسان، لكنّ الشعراء قد يومئون إيماءً ويأتون بالكلام الذي لو أراد مُريد نقلَه لاعتاص وما أمكن إلا بمبسوطٍ من القول وكثير من اللفظ. ولو أراد أن يعبّر عن قول امريء القيس:

فدع عنك نَهْباً صيح في حَجراته (١)

بالعربية فضلا عن غيرها لطال عليه. وكذاقول القائل:

---

(١) صدر بيت له من قصيدة يذم فيها (خالد بن سدوس) ، قال (الشنقيطي) وتمامه:
ولكن حديثاً ماحديث الرواحل .
وما هو بدون صدره في معناه .

« والظنُّ على الكاذبِ »(١)

و« نِجارُها نارُها » (٢)

و « عَيٌّ بالأسْناف » (٣)

و « انْشأي يُرمَ لك »

و « هو باقِعَة» (٤)

و « قلبٌ لَو رَفع »

و « على يَدي فاخضَمْ»

و « وشأنك إلا تركُه متفاقم »

وهو كثير بمثله طالت لغةُ العرب اللغات . ولو أراد معبّرٌ بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة والاخفاق واليقين والشكّ والظاهر والباطن والحق والباطل والمبين والمشكل والاعتزاز والاستسلام لعيّ به . والله جلّ ثناؤه أعلم حيث يجعل الفضل .

---

(١) من قطعة في (حماسة أبي تمام) للحارث بن همام الشيباني ، والبيت الذي فيه هذه الجملة هو قوله :

أنا ابن زيابة ، ان تدعني
آتك ، والظن على الكاذب .

(٢) نجار الشيء : أصله . والنار : السمة . يقال « ما نار هذه الناقة ؟ » أي ما سمتها . و « نجارها نارها » مثل يضرب في شواهد الامور التي تدل على علم باطنها ، كما تدل سمة الابل على أصلها .

(٣) السناف والاسناف : كاللبب للفرس . قال (الزمخشري) في (أساس البلاغة) : عي فلان بالاسناف اذا دهش من الفزع كمن لا يدري أين يشد السناف قال :

اذا ماعي بالاسناف قوم
من الهول المشبه أن يكونا .

(٤) قال (الزمخشري) في أساس البلاغة : « هو باقعة من البواقع » للكيس الداهي من الرجال ، شبه بالطائر الذي يرد البقع — وهي المستنقعات — دون المشارع خوف القناص .

ومما اختُصت به لغةُ العرب ـ بعد الذي تقدم ذِكرناهُ قلبهُم الحروف عن جهاتها ، ليكون الثاني أخفَّ من الاول ، نحو قولهم « ميعاد » ولم يقولوا « مِوْعاد » وهما من الوعد ، الاَّ أن اللفظ الثاني أخفُّ .

ومن ذلك تركهم الجمعَ بين السَّاكنَين ، وقد تجتمع في لغة العجم ثلاث سواكن . ومنه قولهم « ياحارِ » ميلاً الى التخفيف .

ومنه اختلاسهم الحركاتِ في مثل :

فاليومَ أشرَبْ غيرَ مُستَحقبٍ (١)

ومنه الادغامُ ، وتخفيفُ الكلمة بالحذف ، نحو « لَمْ يَكُ » و « لَمْ أُبَلْ »

ومن ذلك اضمارهم الافعال ، نحو « امرأً أتقى الله » و « أمرَ مبكياتك ، لا أمرَ مضحكاتك » .

ومما لا يمكن نقلُه البتَّةَ أوصافُ السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الاسماء المترادفة . ومعلوم أن العَجَمَ لا تعرف للأسد غير اسم واحد ، فأما نحن فنُخرج له خمسين ومائة اسم .

وحدثني أحمد بن محمد بن بندار قال سمعت (أبا عبد الله بنَ خالَوَيْهِ الهمذاني) يقول : جمعت للأسد خمس مائة اسم وللحيَّة مائتين .

وأخبرني عليُّ بنُ أحمد بنِ الصبَّاح قال حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا (ابن أخي الأصمعي) عن عمه أن (الرشيد) سأله عن شعر لـ (ابن حزام العُكْليّ) ففسره ، فقال « يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغيرُ غريب » فقال « يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك وقد حفظتُ للحَجَرِ سبعين اسما ؟ »

---

(١) قال الشنقيطي ، تمامه :

اثما من الله ولا واغل .

وهذا كما قاله الأصمعي . ولكافي الكفاة (١) أدام الله أيامه وأبقى للمسلمين فضله - في ذلك كتاب مجرد .

- فأين لسائر الأمم ما للعرب ؟ ومن ذا يمكنه أن يُعبّر عن قولهم : ذات الزُّمَيْن ، وكَثْرَة ذات اليد ، ويد الدّهر ، وتَخاوَصت النجوم ، ومَجّت الشمسُ ريقها ، ودَرأ الفيء ، ومفاصل القول ، وأتى بالأمر من فصّه ، وهو رَحْب العَطَن ، وغَمْرُ الرّداء ، ويَخْلق ويَفري ، وهو ضيّق المَجَمّ ، قلق الوَضين ، رابط الجأش ، وهو ألوى ، بعيد المُسْتَمَرّ ، وهو شراب بأنقع ، وهو جُذَيْلُها المُحكَّك وعُذَيقُها المُرَجَّب ، وما أشبه هذا من بارع كلامهم ومن الإيماء اللطيف والإشارة الدّالة .

وما في كتاب الله جلّ ثناؤه من الخطاب العالي أكثر وأكثر ، قال الله جل وعز « ولكم في القصاص حياة » و « يحسبون كلّ صَيْحة عليهم » ، « وأُخرى لم تَقْدروا عليها قد أحاط الله بها » و « إن يتّبعون إلا الظنّ وإن الظن لا يُغني من الحقّ شيئاً » و « إنما بَغيكم على أنفسكم » ، « ولا يَحيق المكر السّيّء إلا بأهله » وهو أكثر من أن نأتي عليه.

وللعرب بعد ذلك كَلِم تلوح في أثناء كلامهم كالمصابيح في الدُّجى ، كقولهم للجَموع للخير : قَثُوم ، وهذا أمر قاتِم الأعماق ، أسْود النواحي ، واقتحف الشرابَ كلّه ، وفي هذا الأمر مصاعبُ وقُحَم ، وامرأة حَييّة قذِعة (٢) ، وتَقادَعوا تَقادُعَ (٣) الفراش في النار ، وله قَدَم صِدق ، وذا

(١) يريد به الصاحب بن عباد .
(٢) القذعة : القليلة الكلام ، الحيية.
(٣) أي تتابعوا تتابع .

أمر أنت أدرته ودبّرته ،وتقاذفَتْ بنا النّوى ،واشْتَفَّ الشراب ، ولك قُرعة هذا الأمر (خياره) ، وما دخلت لفلان قريعة [1] بيت ، وهو يَبْهَر القرينة إذا جاذبته ، وهم على قرو واحد (أي طريقة) ، وهؤلاء قَرَابينُ الملك ، وهو قشع (إذا لم يثبت على أمر) ، وقشبه بقبيح (لطخه) وصبي قِصع (لا يكادُ يشبّ) ، وأقبلت مَقاصِرُ الظلام ، وقطَّع الفرسُ الخيلَ تقطيعاً (إذا خلّفها) ، وليل أقعَس (لا يكاد يبرح) ، وهو منزول قفر .

وهذه كلمات من قُرحَة واحدة ، فكيف إذا جال الطرف في سائر الحروف مجالَه ؟ ولو تقصينا ذلك لجاوزنا الغرض ولما حوته أجلاد وأجلاد .

(١) القريعة : سقف البيت .



باب القول على لغة العرب

وهل يجوز أن يحاط بها ؟

قال بعض الفقهاء « كلام العرب لا يحيط به إلا نبي » .

وهذا كلام حريٌّ أن يكون صحيحاً . وما بلغنا أنّ أحداً ممن مضى ادّعى حفظ اللغة كلها . فأما الكتاب المنسوب إلى (الخليل) وما في خاتمته من قوله « هذا آخر كلام العرب » فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جلّ ثناؤه من أن يقول ذلك .

ولقد سمعت عليّ بن مِهْرُوَيْهِ يقول سمعت هرون بن هزاري يقول سمعت (سُفيان بن عُيَيْنة) يقول « من أحبّ أن ينظر إلى رجل خُلق من الذّهب والمِسك فلينظر الى الخليل بن أحمد » . وأخبرني أبو داود سليمان بن يزيد عن ذلك المَصاحِفي عن (النَّضر بن شُمَيْل) قال « كنا نُميِّل بين (ابن عون) و (الخليل بن أحمد) أيُّهما نقدّم في الزّهد والعبادة فلا ندري أيهما نقدم » قال : وسمعت النضر بن شميل يقول « ما رأيت أعلم بالسُّنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد » قال : وسمعت النضر يقول « أُكلت الدنيا بأدب الخليل وكتبه وهو في خُصّ لا يُشعَر به » .

قلنا فهذا مكان الخليل من الدين ، أفتُراه يُقدم على أن يقول « هذا آخر كلام العرب » ؟

ثم إن في الكتاب الموسوم به من الاخلال ما لا خفاء به على علماء اللغة ، ومَن نظر في سائر الأصناف الصحيحة علم صحة ما قلناهُ .

باب القول في اختلاف لغات العرب

اختلاف لغات العرب من وجوه:

أحدها ـ الاختلاف في الحركات كقولنا « نَستعين » و « نِستعين » بفتح النون وكسرها. قال (الفرّاء) هي مفتوحة في لغة قريش، وأسدٌ وغيرهم يقولونها بكسر النون.

والوجه الآخر ـ الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم «مَعَكم» و « معْكم ». أنشد الفراء:

ومَن يتّقْ فإنّ الله معْهُ
ورزق الله مُؤْتابٌ وغادِ.

ووجه آخر ـ وهو الاختلاف في إبدال الحروف نحو « أولئك » و « أُلالِكَ ». أنشد الفراء:

أُلالِك قومي لم يكونوا أُشابَةً،
وهل يعظُ الضِّلّيلَ إلّا أُلالكا؟

ومنها ـ قولهم « أنّ زيداً » و « عَنّ زيداً ».

ومن ذلك ـ الاختلاف في الهمز والتليين نحو « مستهزؤن » و « مستهزُوْن ».

ومنه ـ الاختلاف في التقديم والتأخير نحو « صاعقة » و « صاقعة ».

ومنها ـ الاختلاف في الحذف والاثبات نحو «استحييْت» و«استحيْت» و « صدَدْت » و « أصْدَدْت ».

ومنها ـ الاختلاف في الحرف الصحيح يبدلُ حرفاً معتلاً نحو « أما

زيد » و « أيما زيد » .

ومنها ـ الاختلاف في الامالة والتفخيم في مثـل « قضى » و « رمى » فبعضهم يفخّم وبعضهم يُميل .

ومنها ـ الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله ، فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضمّ، فيقولون « اشترَوُ الضلالة » و « اشترَوِ الضلالة » .

ومنها ـ الاختلاف في التـذكير والتأنيث فان من العرب من يقول « هذه البقر » ومنهم من يقول « هـذا البقر » و « هـذه النخيل » و « هذا النخيل » .

ومنها ـ الاختلاف في الادغام نحو « مهتدون» و « مُهَدُّون » .

ومنها ـ الاختلاف في الاعراب نحو «ما زيدٌ قائماً» و «ما زيدٌ قائم» و « إنّ هذين » و « إنّ هذان » وهي بالألف لغة ا (بني الحارث بن كعب) يقولون لكلّ ياء ساكنة انفتح ما قبلها ذلك . وينشدون :

تزوّدَ مِنّا بين أذناه ضربةً
دعته إلى هابي التراب عقيمِ .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الاعراب يقتضي أن يقال «إن هذان» قال : وذلك أن « هـذا » اسم منهوك ، ونُهْكُهُ أنه على حرفين أحـدهما حرف علة وهي (الألف) و (ها) كلمة تنبيه ليست من الاسم في شيء ، فلما ثُنّيّ احتيج الى ألف التثنيه ، فلم يوصل اليها لسكون الالف الأصلية ، واحتيج الى حذف احدهما فقالوا : ان حذفنا الألف الأصلية بقي الاسم على حرف واحد ، وان أسقطنا ألِفَ التثنية كان في النون منها عوض ودلالة على معنى

التثنية ، فحذفوا ألف التثنية .

فلما كانت الألف الباقيـة هي ألف الاسم ، واحتاجوا الى إعراب التثنية ـ لم يغـيروا الألف عن صورتها لأن الأعراب واختلافه في التثنية والجمع انما يقع على الحرف الذي هو علامة التثنية والجمع ، فتركوها على حالها في النصب والخفض .

قال : ومما يدلّ على هذا المذهب قوله جلّ ثناؤه « فذانك برهانان من ربّك » لم تحذف النون ـ وقد أضيف ـ لأنه لو حذفت النون لذهب معنى التثنية أصلاً ، لأنه لم تكن للتثنية هاهنا علامة الاّ النون وحدها ، فاذا حذفت أشبهت الواحد لذهاب علامة التثنية .

ومنها ـ الاختلاف في صورة الجمع نحو « أَسرى » و« اساري » .

ومنها ـ الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو « يأمُرُكم » و« يأمُرْكم » و « عُفِيَ له » و « عُفْيَ له » .

ومنها ـ الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل « هـذه أمّهْ » و «هذه امّتْ » .

ومنهـا ـ الاختلاف في الزّيادة نحو « أَنْظُرُ » و « أَنظورُ » . أنشـد الفراء :

الله يعلم أنّا في تلفُّتنا
يوم الفراق ـ الى جيراننا ـ صُورُ ،
وأنّني حيث ما يَثْني الهوى بَصري
ـ من حيث ماسلكوا ـ أدنو فأنظورُ .

وكلّ هذه اللغات مسماة منسوبة الى أصحابها، لكن هذا موضع اختصار، وهي وان كانت لقوم دون قوم فانها لما انتشرت تعاوَرَها كلٌّ.

ومن الاختلاف ـ اختلاف التضادّ، وذلك قول (حِمْيَر) للقائم «ثِبْ» أي اقعد.

فحدثنا علي بن ابراهيم القطّان عن المفسر عن القتيبي عن ابراهيم بن مسلم عن الزبير عن ظَمْياء بنت عبد العزيز بن مَوْألة قالت حدثني أبي عن جدي (موألة) أن (عامر بن الطُّفَيْل) قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فَوَثَّبَهُ وِسادة، يريد فرشه إياها وأجلسه عليها.

والوِثاب: الفراش بلغة حِمْيَر. قال: وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو «مَوْثبان» يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو، ويقولون للرجل «ثِب» أي اجلس.

وروي أن (زيد بن عبد الله بن دارِم) وفد على بعض ملوك حِمْيَر فألفاه في مُتَصَيَّد له على جبل مُشْرِف، فسلم عليه وانتسب له، فقال له الملك «ثِب» أي اجلس، وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال «لتجدني أيُّها الملك مِطْواعاً» ثم وثب من الجبل فهلك. فقال الملك: ما شأنه؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة، فقال «أما أنه ليست عندنا عربيّت: من دخل (ظَفَارِ) حَمَّر» وظفار المدينة التي كان بها، واليها ينسب الجَزْع الظَّفاري. أراد: من دَخل ظفار فليتعلم الحميرية.

آخر الجزء الاول من أجزاء الشيخ أبي الحسين

باب القول في أفصح العرب

أخبرني أبو الحسين أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقَزْوِينَ، قال حدثنا أبو الحسين محمدُ بن عباس الخُشْكي، قال حدثنا (اسماعيل بن أبي عُبَيد الله) قال:

أجمعَ علماؤنا بكلام العرب، والرُّواةُ لأشعارهم، والعلماء بلُغاتهم وأيامهم ومَحالّهم أن (قُرَيشاً) أفصحُ العرب ألْسنةً وأصْفاهم لغةً. وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبيَّ الرحمة محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم. فجعل قُريشاً قُطَّانَ حرَمِه، وجيران بيته الحرام، ووُلاتَهُ. فكانت وُفود العرب من حُجاجها وغيرهم يَفِدون الى مكة للحج، ويتحاكمون الى قريش في أُمورهم. وكانت قريش تعلّمهم مناسكَهم وتحكُمُ بينهم. ولم تزل العرب تعرِف لقريش فضلها عليهم وتسمّيها (أهلَ الله) لأنهم الصَّريح من ولد (اسماعيل) عليه السلام، لم تَشُبْهم شائبة، ولم تنقُلْهم عن مَناسبهم ناقلَة، فضيلةً من الله — جل ثناؤه — لهم وتشريفاً. إذ جعلهم رَهط نبيّه الأَدْنَيْنَ، وعِترتَه الصالحين.

وكانت قريش، مع فصاحتها وحُسن لغاتها ورِقَّة ألسنتها، اذا أتتهمُ الوُفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ماتخيّروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسَلائقهم التي طُبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب.

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم (عَنْعَنَة تَميم) ولا (عَجْرفيّة قَيْس) ولا (كَشْكَشَة أَسَد) ولا (كَسْكَسَة رَبيعَة) ولا الكَسْر الذي تسمعَه من (أسَد) و (قَيْس) مثل: «تِعلَمون» و«نِعلَم» ومثل «شِعير» و«بِعير»؟

باب اللغات المذمومة

أما (العَنْعَنَة) التي تُذكر عن (تميم) - فقلبهم الهمزة في بعض كلامهم عيناً. يقولون «سمعتُ عَنَّ فلاناً قال كذا» يريدون «أنّ».

ورُوي في حديث (قَيْلَة): «تَحْسَب عَنّي نائِمَة» قال (أبو عُبَيْد) أرادت تَحْسَب أني، وهذه لغة تميم. قال (ذو الرّمة):

أعَنْ ترسَّمتَ من خَرقاء منْزِلةً
ماءُ الصَّبابة من عَيْنيك مَسْجومُ؟

أراد «أن» فجعل مكان الهمزة عينا.

وأما (الكَشْكَشَة) التي في (أسَد) — فقال قوم: إنهم يبدلون الكاف شيناً فيقولون «عَلَيْشَ» بمعنى «عليك». ويُنشدون:

فعَيْناشِ عيْناها، وجيدُشِ جيدُها،
ولَوْنُشِ — إلاّ أنها غيرُ عاطلِ.

وقال آخرون: يَصِلون بالكاف شيناً، فيقولون «عَلَيْكِش».

وكذلك (الكَسْكَسة) التي في (ربيعة) — إنما هي أن يَصِلوا بالكاف سينا، فيقولون «عَلَيْكِسْ».

وحدثني عليٌّ بن أحمد الصبّاحيُّ، قال سمعت (ابن دُرَيْد) يقول: حروفٌ لا تتكلم بها العرب الاّ ضرورة، فاذا اضطُرُّوا اليها حوّلوها عند التكلم بها الى أقرب الحروف من مَخارجها.

فمن تلك الحروفِ الحرفُ الذي بين الباء والفاء. مثل «بور» اذا

اضطُروا . فقالوا « فور » .

ومثلُ الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم — وهي لغة سائرة في اليمن — مثل « جَمَل » اذا اضطرّوا قالوا « كَمَلَ » .

قال : والحرفُ الذي بين الشين والجيم والياء : في المذكر «غلَامِجْ » وفي المؤنث « غُلَامِش » .

فأما (بَنُو تميم) فانهم يُلحقون القاف باللَّهاة حتى تَغْلظ جداً فيقولون « القوم » فيكون بين الكاف والقاف ، وهذه لغة فيهم . قال الشاعر :

ولا أكُولُ لِكِدرِ الكَوْم : قد نضجت [١] ،
ولا أكولُ لبابِ الدّار : مَكْفولُ .

وكذلك الياء تجعل جيما في النَّسب . يقولون « غُلَامِجْ » أي « غلامي » .

وكذلك الياء المشدَّدة تحوَّل جيما في النَّسب . يقولون « بَصرِجّ » و « كُوفِجّ » قال الرّاجز :

خالي عُوَيفٌ، وأبو عَلِجّ ،
المُطعِمَانِ اللحمَ بالعَشِجِّ ،
وبالغَداةِ فِلَقَ البَرْنِجِّ .

وكذلك ما أشبهه من الحروف المرغوب عنها . كالكاف التي تُحوّل شيناً .

قلنا : أما الذي ذكره (ابن دُرَيد) في « بور » و « فور » فصحيح . وذلك أن بور ليس من كلام العرب ، فلذلك يحتاج العربيّ عند تعريبه إياه أن يُصيّره فاء . وأما سائر ما ذكره فليس من باب الضرورة في شيء . وأيٌّ

(٤) في نسخة : غايت .

ضرورة بالقائل الى أن يقلب الكاف شيناً ، وهي ليست في سجع ولا فاصلة ؟ ولكن هذه لغات للقوم على ما ذكرناه في باب اختلاف اللغات .

وأما من زعم أن (ولد اسماعيل) عليه السلام يُعيّرون (وَلَد قحْطان) أنهم ليسوا عربا ، ويحتجّون عليهم بأنّ لسانَهم (الحِمْيَريّة) وأنهم يُسَمُّون اللّحية بغير اسمها — مع قول الله جلّ ثناؤه في قصة من قال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي — وأنهم يُسمُّون الذّيب « القِلَوْبَ » — مع قوله « وأخاف أن يأكله الذّئب » — ويسمون الأصابع « الشَّناتِرَ » — وقد قال الله جلّ ثناؤه « يجعلون أصابعهم في آذانِهم » — وأنهم يسمون الصَّديق « الخِلْمَ » — والله جل ثناؤه يقول « أو صَديقِكم » — وما أشبه هذا . فليس اختلافُ اللُّغات قادحاً في الأنساب .

ونحن وان كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات ، فلسنا نُنكر أن تكون لكلّ قوم لغة . مع أن (قحطان) تذكر أنهم (العرَب العارِبة) ، وأن مَن سواهم (العرَب المتعرّبة) ، وأن (اسماعيل) عليه السلام بلسانهم نَطق ، ومن لغتهم أخَذَ ، وإنّما كانت لغةُ أبيه صلى الله عليه وسلم (العِبرية) وليس ذا موضعَ مفاخَرة فنَستقصي .

ومما يُفسد الكلام ويَعيبهُ (الخزْمُ) ولا نريد به الخزْمَ المستعمل في الشعر ، وإنما نريد قولَ القائل :

ولئنْ قومٌ أصابوا غِرّةً ،

وأصبْنا من زمان رَققا ،

لَلَقدْ كُنَّا لدى أزماننا

لِشَريجَيْنِ لِباسٍ وتُقى.

فزاد لاماً على « لقد » وهو قبيح جدا .

ويزعُم ناسٌ أن هذا تأكيد كقول الآخر :

فَلا والله لا يُلْفَى لما بي،

ولا لِلما بهم ـ أبَداً ـ دَوَاءُ .

فزاد لاماً على « لِما » وهذا أقبح من الأول. فأما التأكيد فأن هـذا لا يزيد الـكلام قوة ، بل يقبّحه . ومثله قول الآخر :

وصالياتٍ كَـكَمَا يؤثفَيْنْ .

وكل ذا من أغاليطِ من يغلَط ، والعرَب لا تعرفهُ .



باب القول في اللغة التي بها نزل القرآن

وأنه ليس في كتاب الله جل ثناؤه شيء بغير لغة العرب

حدّثنا أبو الحسن عليُّ بنُ ابراهيم القطّان قال حدثنا عليُّ بن عبد العزيز عن أبي عُبيد عن شيخ له (١) أنه سمع الكلبيّ يحدث عن أبي صالح عن (ابن عباس) قال : نزل القرآن على سبعة أحرُف أو قال بسبع لغات ، منها خمسٌ بلغة العَجُز من هَوازن وهم الذين يقال لهم (عُليا هَوازن) وهي خمس قبائل أو أربع ، منها (سَعدُ بن بكر) و (جُشَمُ بن بكر) و(نَصْر بن مُعاوية) و (ثَقيف) .

قال (أبو عُبيد) : وأحسب أفصَحَ هؤلاء (بني سعد بن بكر) لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أنا أفصح العرَب مَيْدَ أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر » وكان مُسْتَرْضَعاً فيهم ، وهم الذين قال فيهم (أبو عمرو بن العلاء) : أفصح العرب (عُليا هَوازن) و(سُفْلى تميم) .

وعن (عبد الله بن مسعود) أنه كان يَستَحبُّ أن يكون الذين يكتبون المَصاحف من (مُضر) .

وقال (عمر) : لا يُمْلِيَنَّ في مَصاحِفنا الاَّ غلمان (قريش) و(ثَقيف) .

وقال (عثمان) : اجعلوا المُمِليَ من (هُذَيل) والكاتبَ من (ثقيف) .

قال (أبو عبيد) : فهذا ما جاء في لغات مُضر . وقد جاءت لغاتٌ لأهل (اليَمن) في القرآن معروفةٌ . منها قوله جلّ ثناؤه «مُتَّكئين فيها على الأرائك» فحدثنا أبو الحسن علي عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال حدثنا

---

(١) قال الشيخ : أظن الشيخ هشام بن محمد . — (الأصل)

هُشَيْم أخبرنا منصور عن (الحسن) قال: « كُنا » يقال إنها بالحَبَشية.
وقوله « هَيْتَ لك» يقال انها بالحوْرانيَّة. قال: فهذا قول أهل العلم من الفُقَهاء.

قال: وزعم أهل العرَبية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم شيء، وأنه كلَه بلسانٍ عربيّ، يتأوَّلون قوله جلّ ثناؤه « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقوله « بلسان عربيّ مبين ».

قال (أبو عبيد): والصواب من ذلك عندي — والله أعلم — مذهب فيه تصديق القوْلين جميعاً. وذلك أنّ هذه الحروف وأصولها عجمية — كما قال الفقهاء — الاّ أنها سقطَت الى العرب فأعرَبَتها بألسنَتها، وحوّلتها عن ألفاظ العجم الى ألفاظها فصارت عربيَّة. ثم نزل القرآن وقد اختلَطت هذه الحروفُ بكلام العرَب. فمن قال انها عرَبية فهو صادق، ومن قال عجمية فهو صادق.

قال: وانمّا فسرّنا هذا لئلا يُقدِمَ أحد على الفقهاء فيَنْسبَهم الى الجهل، ويتوهَّم عليهم أنهم أقدموا على كتاب الله جَلَّ ثناؤه بغير ما أرادهُ الله جلّ وعزّ، وهم كانوا أعلمَ بالتأويل وأشدّ تعظيماً للقرآن.

قال أحمد بن فارس: ليس كل من خالف قائلا في مقالته فقد نَسبَه الى الجهل. وذلك أن الصدر الاول اختلفوا في تأويل آي من القرآن نخالف بعضهم بعضا. ثم خلَفَ من بعدهم من خلَف، فأخذ بعضهم بقولٍ وأخذ بعض بقول، حسب اجتهادهم وما دلَّتهم الدَّلالة عليه. فالقول إذن ماقاله أبو عبيد، وان كان قوم من الأوائل قد ذهبوا الى غيره.

فان قال قائل: فما تأويل قول أبي عبيد، فقد أعظم وأكبر؟

قيل له: تأويله أنه أتى بأمر عظيم وكبير. وذلك أن القرآن لو كان فيه

من غير لغـة العرب شيء ، لتوهّم متوهِّم أن العرب انما عَجَزت عن الاتيان بمثـله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها ، وفي ذلك ما فيه .

وإذا كان كذا فلاوجه لقول من يجيز قراءة القرآن في صلاته بالفارسية لأن الفارسـية ترجمة غير مُعْجِزة . وانمّا أمر الله جلّ ثناؤه بقراءة القرآن العربي المعجز . ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية لـكانت كتبُ التفسير والمصنفاتُ في معاني القرآن باللّفظ العربيِّ أولى بجواز الصَّلاة بها ، وهـذا لا يقوله أحد .

باب القول في مأخذ اللغة

توءخـذ اللغة اعتيادا كالصبي العربيّ يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخـذ اللغة عنهم على مرِّ الأوقات .

وتوءخذ تلقّناً من ملقّن .

وتوءخذ سماعاً من الرُّواة الثقات ذوي الصدق والأمانة، ويُتّقى المظنون .

فحدثنا عليُّ بن ابراهيم عن المَعْدَانيّ عن أبيه عن معروف بن حسان (١) عن اللَّيث عن (الخليل) قال : ان النَّحارير رُبمّا أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العـرب ارادة اللّبْس والتَّعْنِيت .

قلنا فليتَحرّ آخذُ اللغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة . فقـد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا . والله جل ثناؤه نستهدي التوفيق ، واليـه نرغب في إرشادنا لسبُل الصـدق ، انه خـير موفق ومعين .

(١) أبو معاذ معروف بن حسان . — (الأصل)

باب القول في الاحتجاج باللغة العربية

لغةُ العرب يحتج بها فيما اختُلف فيه ، اذا كان أيامَ أقرانك . قال (أبو بكر) : ومن العظيم أنّ علياً وعمر رضي الله عنهما قد قالا « القُرْءُ الحَيْضُ» فهل يُجْتَرا على تجهيلهما باللغة ؟

ومنها قوله في قوله جل ثناؤه « حَرِّضِ المؤمنين على القتال » أنه أرادَ الذكور دون الاناث . قال : وهذا من غريب ما يَغلَط فيه مثله . يقول الله جل ثناؤه « يا بني آدمَ ! » أفتَراه أراد الرِّجالَ دون النساء ؟

قال ابن داود : وإنَّ قَبيحاً مُفْرِطَ القَبَاحة بمن يعيب (مالك بن أنسٍ) بأنه لَحَنَ في مخاطبَةِ العامَّة بأن قال « مُطِرنا البارحة مطراً أيَّ مطراً » أن يرضَى هو لنفسه أن يتكلم بمثل هذا . لأنَّ النَّاس لم يزالوا يلحنون ويتَلاحَنُونَ فيما يخاطب بعضُهم بعضاً اتِّقاءً للخروج عن عادة العامة فلا يَعيبُ ذلك من يُنْصِفهم من الخاصة،وانمّا العيب على من غلِط من جهة اللغة فيما يغير به حكمَ الشّريعة والله المستعان .

فلذلك قلنا : انّ علم اللغة كالواجب على أهل العلم ، لئلاَّ يحيدوا في تأليفهم أو فتياهم عن سَنن الاستواء .

وكذلك الحاجة الى علم العربية ، فان الاعراب هو الفارق بين المعاني . ألا ترى أنّ القائل اذا قال «ماأحسن زيد» لم يفرّق بين التعجب والاستفهام والذمّ الا بالاعراب . وكذلك اذا قال « ضرب أخوكَ أخانا » و « وَجْهُكَ وجهُ حُرٍّ » و « وجهُك وجهُ حرٌّ » وما أشْبَهَ ذلك من الكلام المشتَبه .

هـذا وقد روي عن رسـول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم أنه قال

« أعربوا القرآن » .

وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤنه اجتنابَهم بعضَ الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى أن المحدّث يحدث فيلحن . والفقيه يؤلف فيلحن . فإذا نُبها قالا : ما ندري ما الاعراب وانما نحن محدّثون وفقهاء . فهما يسران بما يساء به اللبيب .

ولقد كلمت بعض من يذهبُ بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العُليا في القياس ، فقلت له : ما حقيقة القياس ومعناه ، ومن أي شيءٍ هو ؟ فقال : ليس عليّ هذا وإنما علي إقامة الدّليل على صحته .

فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ، ولا يدري ما هو . ونعوذ بالله من سوء الاختيار .



باب القول على لغة العرب

هل لها قياس ، وهل يُشتَقُّ بعض الكلام من بعض ؟

أجمع أهل اللغة — إلاّ من شذّ عنهم — أن للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتقّ بعض الكلام من بعض .

وأن اسم الجنّ مشتق من الاجتنان . وأن الجيم والنون تدُلاّن أبداً على الستر . تقول العرب للدِّرع : جُنَّة . وأجَنَّه الليلُ . وهذا جنين ، أي هو في بطن أمّه أو مقبور .

وأن الإنس من الظهور . يقولون : آنَسْت الشيءَ : أبصرته .

وعلى هذا سائرُ كلام العَرَب ، عَلِم ذلك مَن عَلِم وجَهِلَهُ مَن جهل .

قلنا : وهذا أيضاً مبنيٌّ على ما تقدم من قولنا في التوقيف . فان الذي وقَّفنا على أن الاجتنان التستر هو الذي وقَّفنا على أن الجنّ مشتق منه . وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فسادَ اللغة وبُطلانَ حقائقها . ونكتةُ الباب أن اللغة لا تؤخذ قياساً نَقيسهُ الآن نحن .

باب القول على أن لغة العرب لم تنته الينا بكليتها

وأن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير .

وأن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله .

ذهب علماؤنا أو أكثرهم الى أنّ الذي انتهى الينا من كلام العرب هو الأقلّ . قال : ولو جاءنا جميعُ ماقالوه لجاءنا شعرٌ كثيرٌ وكلام كثير .

وأحرِ بهذا القول أن يكون صحيحاً . لأنّا نرى علماء اللغة يختلفون في كثيرمما قالته العرب ، فلا يكاد واحد منهم يُخبِّر عن حقيقة ما خولف فيه، بل يسلك طريق الاحتمال والامكان .

ألا ترى أنّا نسألهم عن حقيقة قول العرب في الاغراء « كَذَبكَ كذا » وعما جاء في الحديث من قوله « كَذَبَ عليكم الحَجُّ » و« كَذَبَكَ العَسَلُ » وعن قول القائل :

كذبتُ عليكم أوْعِدُوني وَعَلِّلُوا
بيَ الأرضَ والأقوامَ قِرْدانَ مَوْظَبا .

وعن قول الآخر :

كَذَبَ العتيقُ وماءُ شَنٍّ باردٌ
إن كنتِ سائلتي غَبُوقاً فاذهبِ .

ونحن نعلم أن قوله « كذب » يَبْعُدُ ظاهره عن باب الإغراء .

وكذلك قولهم «عَنْكَ في الارض » و « عنك شيئاً » وقول الأفْوه :

عنكمُ في الارض إنّا مَذْحِجٌ
ورُويداً يفضح الليلَ النهارُ .

ومن ذلك قولهم «أَعمَدُ من سيّد قتله قومُه ؟» أي «هل زاد ؟»
فهذا من مشكل الكلام الذي لم يفسر بعدُ . قال ابن ميّادة :

وأَعمَدُ من قوم كفاهم أخوهم
صدامَ الأعادي حينَ فُلَّتْ نيوبُها؟

قال الخليل وغيره «معناهُ هل زدنا على أن كفينا ؟» وقال أبو ذُوَيب :

صَخِبُ الشوارب لا يزالُ كأنه
عبدٌ لآلِ أبي ربيعة مُسْبَعُ .

فقوله «مسبَعٌ» ما فُسِّرَ حتى الآن تفسيراً شافياً .
ومنه قول الأعشى :

ذاتُ غرْب ترمي المقدَّمَ بالرِّدْ-
ف ، اذا ما تتابع الأرواق .

وقوله في هذه القصيدة :

المهينينَ ما لهم في زمان الـ
ـجدب ، حتى اذا أفاق أفاقوا .

ومن هذا الباب قولهم «يا عيد مالَكَ» و «يا هَيْءَ مالَكَ» و «يا شَيْءَ مالَكَ» .

ولم يفسّروا قولهم «صهْ» و «وَيْهَكَ» و «إِنيهْ» ولا قولَ القائل :

بخائبكَ الحقَّ يهتفونَ وحيّ هلْ .

ويقولون «خائبكما» و «خائبكُم» .
فأمّا (الزَّجرُ والدّعاء) الذي لا يُفهَم موضوعُه-فكثير . كقولهم :

«حيَّ» و«حيَّ هلاَ» و«بِعَيْنٍ ما أرَيَنَّكَ» ـ في موضع اُعْجَل ٠ و«هَجْ» و«هَجاَ» و«دَعْ» و«دَعا» و«لَعاً» ـ للعاثِر يدعون له ٠ وينشدون :

ومَطِيَّةٍ حَمَّلْتُ ظَهْرَ مَطِيَّةٍ

حَرَجٍ تُنَمَّى مِنْ عِثارٍ بِدَعْدَعِ ٠

ويروى عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال «لا تقولوا : دَعْدَعْ ولا لَعْلَعْ ، ولكن قولوا : اللهم ارْفَعْ وانْفَعْ ٠» فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما كَرِهَهُما النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكقولهم في الزَّجر «أخِّرْ» و«أخِّرِي» و«ها» و«هلا» و«هابِ» و«ارْحَبِي» و«عَدِّ» و«عاجِ» و«ياعاطِ» و«يعاطِ» وينشدون :

وما كان على الجيْءِ ولا الهيءِ امتداحيكا ٠

وكذلك «إجْد» و«أجْدِمْ» و«حِدِّجْ» لا نعلم أحداً فسَّر هذا ٠ وهو باب يَكْثُرُ ويُصَحِّحُ ما قلناه ٠

ومن المُشْتَبِهِ الذي لا يقال فيه اليومَ الاَّ بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ لكنَّ الوقوف على كُنْهِهِ مُمْتاصٌ ـ قولنا «الحِينُ» و«الزَّمان» و«الدَّهر» و«الأوان» ـ إذا قال القائل أو حلف الحالف «والله لا كلمته حيناً ولا كلمته زماناً أو دهراً» ٠

وكذلك قولنا «بِضْعَ سنين» مُشْتَبِه. وأكثر هذا مُشْكِل لا يُقْصَر بشيء منه على حدّ معلوم ٠

ومن الباب قولهم في الغِنى والفقْر وفي الشريف والكريم واللئيم ، إذا قال «هذا لأغنياء أهلي» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كرامهم»

أو «لئامهم». وكذلك ان قال «امنعوه سفهاء قومي» لم يمكن تحديد السَّفه.

ولقد شاهدتُ منذ زمانٍ قريبٍ قاضياً يريد حجراً على رجل مكتهل. فقلت «ما السبب في حجره عليه؟» فقال «يزعم أنه يتصيّد بالكلاب وأنه سفيه» فقرئ على القاضي قوله جلّ ثناؤه «وما علّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ مما علّمكم الله، فكلوا مِمّا أمسكن عليكم» فأمسك القاضي عن الحجر على الكهل.

وكذلك اذا قال «مالي لِذوي الحسب» أو «امنعوه السَّفِلة» وما أشبه هذا مما يطول الباب بذكره فلا وجه في شيء من هذا غير التقريب والاحتمال، وعلى اجتهاد الموصى اليه أو الحاكم فيه. والا فانّ تحديده حتى لا يجوز غيره بعيدٌ.

وقد كان لذلك كله ناس يعرفونه. وكذلك يعلمون معنى ما نستغرب به اليوم نحن من قولنا «عبْسُور» في الناقة و«عَيْسَجور» و«امرأة ضِنانيّ» و «فرس أشَقُّ أمقُّ خِبَقٌّ» ذهب هذا كله بذهاب أهله ولم يبق عندنا الا الرسم الذي نراه.

وعلماء هذه الشريعة، وان كانوا اقتصروا من علم هذا على معرفة رسْمه دون علم حقائقه؛ فقد اعتاضوا عنه دقيقَ الكلام في أصول الدين وفروعه من الفقه والفرائض. ومن دقيق النحو وجليله. ومن علم العروض الذي يربي بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يبجح به الناسبون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة. ولكل زمان علم، وأشرف العلوم علم زماننا هذا والحمدلله.

باب انتهاء الخلاف في اللغات

تقع في الكلمة الواحدة لغتان . كقولهم « الصِّرام » و « الصَّرام » . و « الحِصاد » و « الحَصاد » .

وتقع في الكلمة ثلاث لغات . نحو « الزُّجاج » و« الزِّجاج » و« الزَّجاج » و « وَشْكانَ ذا » و « وُشْكانَ ذا » و « وِشْكانَ ذا » .

وتقع في الكلمة أربع لغات . نحو « الصِّداق » و « الصَّداق » و « الصَّدُقة » و « الصُّدْقة » .

وتكون منها خمس لغات . نحو « الشِّمال » و « الشَّمِل » و « الشَّمَل » و « الشَّأمَل » و « الشَّمْل » .

وتكون فيها ست لغات : « قُسْطاس » و« قِسْطاس » و « قُصْطاس » و « قُسْتاس » و « قُسَّاط » و « قِسَّاط » .

ولا يكون أكثر من هذا .

* * *

والكلام بعد ذلك أربعة أبواب :

الباب الأوّل ـ المجمع عليه الذي لا علة فيه ، وهو الأكثر والأعم . مثل : الحمد والشكر ، لا اختلاف فيه في بناء ولا حركة .

والباب الثاني ـ ما فيه لغتان وأكثر إلاّ أن إحدى اللُّغات أفصح . نحو « بَغْدَاذَ » و « بَغْدادَ » و« بَغْدانَ » هي كلها صحيحة ، إلاّ أن « بَغْدادَ » في كلام العرب أصحّ وأفصح .

والثالث ما فيه لغتان أو ثلاث أو أكثر ، وهي متساوية ، كـ« الحَصاد »

و« الحَصاد » . و « الصَّداق » و « الصِّداق » ، فأَيًا ما قال القائل فصحيح فصيح .

والباب الرابع ـ ما فيه لغة واحدة ، إلاَّ أن المُوَلَّدينَ غَيَّروا فصارت ألسنتهم بالخطإِ جاريةً . نحو قولهم « أَصْرَفَ الله عنك كذا » و « إنجاص » و« إمرأة مُطاعَةٌ » و « عِرْق النِّسا » بكسر النون ، وما أشبه ذا .

وعلى هذه الأبواب الثلاثة بنى (أبو العباس ثعلب) كتابه المسمى (فصيح الكلام) أخبرنا به (أبو الحسن القَطَّان) عنه .

آخر الجزء الثاني من أجزاء الشيخ أبي الحسين

باب مراتب الكلام

في وُضوحه وإشكاله .

أما واضح الكلام — فالذي يفهمه كلّ سامع عرَف ظاهرَ كلام العرب. كقول القائل : شربت ماءً ، ولَقيت زيداً .

وكما جاء في كتاب الله جلّ ثناؤه من قوله « حُرِّمَتْ عليكم المَيْتَةُ والدمُ ولحمُ الخِنْزير » وكقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا اسْتَيْقَظ أحدُكم من نومه ، فلا يَغْمِسْ يدَه في الإناء حتى يَغْسِلَها ثلاثاً . » وكقول الشاعر :

إن يحسدوني فاني غير لائمهم :
قبلي — من الناس — أهلُ الفضل قد حُسِدُوا .

وهذا أكثر الكلام وأعمّه .

وأما المشكل — فالذي يأتيه الاشكال من غَرابة لفظه ، أو أن تكون فيه إشارة الى خبر لم يذكره قائله على جهته ، أو أن يكون الكلام في شيءٍ غير محدود ، أو يكون وَجيزاً في نفسه غير مَبْسوط ، أو تكون ألفاظه مُشتركةً .

فأما المُشكِل لغرابة لفظه — فقول القائل « يَمْلَخُ في الباطل ملخاً ينْفُضُ مِذْرَوَيه » وكما أنه قيل « أيُدالكُ الرجل المَرْأةَ ؟ » قال « نعم ، إذا كان مُلْفَجاً » ومنه في كتاب الله جلّ ثناؤه « فلا تَعْضُلوهن» ، « ومِن الناس من يعبُد اللهَ على حَرْف» ، «وسَيِّداً وحَصُوراً » ، «ويُبْرِئُ الأكْمَهَ »

وغيرُهُ مما صنَّف علماؤنا فيه كتبَ غريب القرآن. ومنه في حديث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «على التِّيعةِ شاة . والتِّيمة لصاحبها . وفي السُّيوبِ الخُمُس لا خِلاطَ ولا وِراطَ ولا شِناقَ ولا شِغارَ . من أجْبى فقد أرْبى» وهذا كتابُه الى الأقيال العَبَاهِلة . ومنه في شعر العرب :

وقاتِم الأعْمَاق شأزٍ بمَنْ عوَّه

مَضْبُورَةٍ قَرْوَاء هِرْجَابٍ فُنُق .

وفي أمثال العرب «باقعةٌ» و «شرابٌ بأنْقُع» و «مُخْرَنْبِقٌ لِينْبَاع» .

والذي أشكلَ لايماء قائله الى خبر لم يُفصح به — فقول القائل «لم أفِرَّ يومَ عَنَيْنِ» و «رُويداً سَوْقَكَ بالقوارير» وقول امرئِ القيس :

دع عنك نَهباً صِيح في حَجَراته .

وقول الآخر :

ان العصا قُرِعَت لِذي الحِلْم .

وفي كتاب الله جلّ ثناؤه مالا يعلم معناه الاّ بمعرفة قصته ، قوله جلّ ثناؤه «قل مَن كان عَدُوّاً لجبْرِيل فانّه نَزّله على قلبك باذن الله» وفي أمثال العرب «عَسَى الغُوَيْرُ أبْؤُساً» .

والذي يشكل لأنه لايُحَدُّ في نفس الخطاب — فكقوله جلّ ثناؤه «أقيموا الصلاة» فهذا مجمل غير مفصل حتى فَسَّرَه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

والذي أشكل لوَجازة لفظه — قولهم :

الغَمَراتِ ثُمَّ يَنْجَلينَا

والذي يأتيه الاشكال لاشتراك اللفظ -قول القائل :

وضعوا اللُّجَّ على قَفَيَّ .

وعلى هذا الترتيب يكون الكلام كلُّه في الكتاب والسُّنة وأشعار العرب وسائر الكلام .

باب ذكر ما اختصت به العرب

من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب - الاعراب الذي هو الفارق بين المَعاني المتكافِئَة في اللفظ ، وبه يعرف الخبَر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منْعوت ، ولا تَعَجُّبٌ من استفهام ، ولا صَدْر من مصدَر ، ولا نعتٌ من تأكيد .

وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالأخبار ، وقد يكون الاعراب في غير الخبر أيضاً . لأنا نقول « أزيدٌ عندك ؟ » و « أزيداً ضربت ؟ » فقد عَمِل الاعراب وليس هو من باب الخبر .

وزعم ناس يُتَوَقَّفُ عن قبول أخبارهم أن الذين يُسمَّون الفَلاسِفة قد كان لهم إعرَابٌ ومؤلَّفاتٌ نحوٍ . قال أحمد بن فارس : وهذا كلام لا يُعَرَّجُ على مثله . وإنما تَشَبَّهَ القوم آنفاً بأهل الاسلام ، فأخذوا من كتب علمائنا ، وغيَّرُوا بعض ألفاظها ، ونسبوا ذلك الى قوم ذَوي أسماء منكرةٍ بتراجمَ بَشِعةٍ لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها .

وادَّعوا مع ذلك أن للقوم شعراً ، وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء ، نَزْرَ الحَلاوة ، غير مستقيم الوزن .

بلى ، الشِّعر شِعر العرب ، ديوانُهم وحافظ مآثِرهم ، ومُقيِّدُ أحسابهم، ثم للعرب العَروض التي هي ميزان الشِّعر ، وبها يُعرف صحيحه من سقيمه •

ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يُرْبي على جميع ما يتبجّحُ به هؤلاء الذين يَنْتَحِلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة غير أنها مع قلة فائدتها تُرِقّ الدِّين ، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه .

وللعرب حفظ الأنساب وما يُعلم أحدٌ من الأمم عُني بحفظ النسب عناية العرب . قال الله جلّ ثناؤه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى . وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتَعارفوا » فهي آية ما عَمِلَ بمضمونها غيرُهم .

ومما خَصّ الله جلّ ثناؤه به العَرَب طهارَتُهم ونَزاهتُهم عن الأدناس التي استَباحَها غيرهم من مُخالَطَةِ ذوات المحارِم . وهي منقبة تَعْلو بِجَمالها كلّ مأثرةٍ والحمد لله .



باب الأسباب الاسلامية

كانت العربُ في جاهليتها على إرثٍ من إرث آبائهم في لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالاسلام حالت أحوالٌ، ونُسخت ديانات ، وأُبطلت أمورٌ ، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إلى مواضع أخر ، بزيادات زيدت ، وشرائع شُرعت ، وشرائط شُرطت . فعفّى الآخرُ الأوّلَ ، وشُغل القوم – بعد المُغاوَرات والتجارات وتطلُّب الارباح والكدْح للمعاش في رحلة الشتاء والصَّيف ، وبعد الاغرام بالصَّيد والمُعاقرة والمياسرة – بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، وبالتَّفقُّه في دين الله عز وجل ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الاسلام .

فصار الذي نَشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن وحتى تكلَّموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوّن وحُفظ حتى الآن .

فصاروا – بعد ما ذكرناه – الى أن يُسئل إمامٌ من الأئمة وهو يخطب على منبره عن فريضة فيُفتي ويَحْسُبُ بثلاث كلمات . وذلك قول أمير المؤمنين عليٍّ صلوات الله عليه حين سُئل عن ابنتين وأبوين وامرأة «صار ثُمْنُها تُسْعاً» فسميت (المنبريَّة) .

والى أن يقول هو صلوات الله عليه على منبره والمهاجرون والأنصار متوافرون « سلوني ، فوالله ما من آية الاَّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ،

أم في سهل أم في جبل» وحتى قال صلوات الله عليه وأشار الى ابنيه« ياقوم ، استنبطوا مني ومن هذين علمَ مامضى وما يكون » والى أن يتكلم هو وغيره في دقائق العلوم بالمشهور من مسائلهم في الفرض وحده ، كالمشتركة، ومسئلة المباهلة والغَرَّاء ، وأُمّ الفَرُّوخ ، وأُمّ الأرامل، ومسئلة الامتحان ، ومسئلة ابن مسعود ، والأكدريّة ، ومختصرة زيد ، والخرقاء ، وغيرها ممّا هو أغمَضُ وأدقّ .

فسبحان من نقل أولئك في الزمن القريب بتوفيقه عمّا ألفوه ونشأوا عليه وغذوا به ، الى مثل هذا الذي ذكرناه . وكلّ ذلك دليل على حقّ الايمان وصحة نُبوة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

فكان مما جاء في الاسلام — ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق. وأنّ العرب انمّا عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق . ثم زادت الشريعة شرائطَ وأوصافًا بها سُمّيَ المؤمن بالاطلاق مؤمناً . وكذلك الاسلام والمسلم ، انمّا عرفت منه إسلامَ الشيء ثم جاء في الشَّرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لاتعرف من الكُفر إلاّ الغطاء والسَّتْر . فأما المنافق فاسمٌ جاء به الاسلام لقوم أَبْطَنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل من نافقاء اليَرْبوع . ولم يعرفوا في الفِسق إلا قولهم « فَسَقَتِ الرُّطبة » إذا خرجت من قِشرها ، وجاء الشرع بأن الفِسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه .

ومما جاء في الشرع — الصلاة وأصله في لغتهم الدُّعاء . وقد كانوا عَرفوا الركوعَ والسجودَ ، وإن لم يكن على هذه الهيئة ، فقالوا :

أَوْ دُرَّةٍ صَدَفِيةٍ ، غَوَّاصُها

بَهِجٌ ، متى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدِ .(١)

وقال الاعشى :

يُراوِحُ من صلوات المليك ـ
طَوْراً سجوداً ، وطوراً جُؤاراً .

والذي عرفوه منه أيضا ما أخبرنا به عليٌّ عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال ، قال (أبو عمرو) « اسْجَدَ الرجلُ : طأطأ وانحنى » قال حُمَيدُ بن ثور :

فضول أزِمَّتِها أسْجَدَت
سجودَ النصارى لأُربابِها .

وأنشد :

فقلن له : أسْجِدْ لِلَيْلَى ، فأسجَدا .

يعني البعير اذا طأطأ رأسه لِتَرْكَبَهُ .

وهذا وإن كان كذا فان العرب لم تعرِفه بمثل ما أتت به الشريعة من الأعدادِ والمَواقيت والتَّحريم للصلاة ، والتَّحليل منها .

وكذلك الصيام أصله عندهم الامساكُ ويقول شاعرهم :

خيلٌ صِيامٌ ، وأُخرى غير صائمة
تحت العَجاج ، وخيلٌ تعلُكُ اللُّجُما .

ثم زادت الشريعة النِّيَّة ، وحظَرَت الأكلَ والمُباشَرَةَ وغير ذلك من شرائع الصوم .

---

(١) البيت لزياد بن معاوية نابغة بني ذبيان من قصيدته في وصف المتجردة والبيت الذي قبل هذا :
قامت تَراءَى بين سجفي كلة .
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد »

وكذلك الحَجُّ ، لم يكن عندهم فيه غير القصد ، وسَبْر الجِراح . من ذلك قولهم :

وأشهدُ من عوفٍ حلولاً كثيرةً ،
يَحجُّون سِبَّ الزِّبرِقان المُزَعْفَرا .

ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره .

وكذلك الزَّكاة ، لم تكن العرب تعرفها إلاَّ من ناحية النَّماء ، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لاطالة الباب بذكره .

وعلى هذا سائر ما تركنا ذِكرَه من العُمْرَة والجهاد وسائر أبواب الفقه.

فالوجه في هذا اذا سُئل الانسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان لُغويٌّ وشرعيٌّ ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم ما جاء الاسلام به . وهو قياسُ ما تركنا ذكرَه من سائر العلوم ، كالنحو والعَروض والشِّعر : كل ذلك له اسمان لُغوي وصِناعيٌّ .

باب القول في حقيقة الكلام

زعم قوم أن « الكلام ما سُمع وفُهم » وذلك قولنا « قام زيد » و « ذهب عَمْرٌو » .

وقال قوم « الكلام حروف مؤلَّفة دالة على معنى » .

والقولان عندنا متقاربان ، لأن المسموع المفهوم لا يكاد يكون إلاّ بحروف مؤلَّفة تدل على معنى .

وقال لي بعض فقهاء بغداد : إن الكلام على ضربين مهمَل ومستعمَل . قال : فالمهمل « هو الذي لم يوضع للفائدة » والمستعمل « ما وضع ليفيد » فأعلمته أن هذا كلام غيرُ صحيح ، وذلك أن المهمَل على ضربين : ضربٌ لا يجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب بَتَّةً ، وذلك كجيم تؤلَّف مع كاف أو كاف تقدَّم على جيم ، وكعين مع غين ، أو حاء مع هاء أو غين ، فهذا وما أشبهه لا يأتلف .

والضرب الآخر ما يجوز تألُّف حروفه لكن العرب لم تَقُل عليه ، وذلك كإرادة مريد أن يقول « عضخ » فهذا يجوز تألُّفه وليس بالنافر ، ألا تراهم قد قالوا في الأحرف الثلاثة « خضع » لكن العرب لم تقل عضخ .

فهذان ضربا المهمل .

وله ضرب ثالث وهو أن يريد مريد أن يتكلم بكلمة على خمسة أحرف ليس فيها من حروف الذَّلَق أو الاطْباق حرف .

وأي هذه الثلاثة كان فانه لا يجوز أن يُسمى « كلاماً » لما ذكرناه

من أنه وإن كان مسموعاً مؤلفاً فهو غير مفيد . وأهل اللغة لم يذكروا المهمل في أقسام الكلام وإنما ذكروه في الأبنية المهملة التي لم تَقل عليها العرب . فقد صح ما قلناه من خطاءٍ من زعم أن المهمل كلام .

باب أقسام الكلام

أجمع أهل العلم أن الكلام ثلاثة : اسم وفعل وحرف .

فأما الاسم ـ فقال سيبويه « الاسم نحو رجل وفرس » وهذا عندنا تمثيل ، وما أراد سيبويه به التحديد ، إلاَّ أن ناساً حَكوْا عنه أن « الاسم هو المحدَّث عنه » وهذا شبيه بالقول الأول لأن « كيف » اسم ولا يجوز أن يحدَّث عنه .

وسمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن داود الفقيهَ يقول سمعت (أبا العباس محمد بن يزيد المُبرِّدَ) يقول : مذهب سيبويه أن «الاسم ما صَلَحَ أن يكون فاعلاً » قال : وذلك أن سيبويه قال « ألا ترى أنك لو قلت إن يضرب يأتينا وأشباهَ ذلك لم يكن كلاما ، كما تقول إن ضاربك يأتينا» قال: فدل هذا على أن الاسم عنده ما صَلَحَ له الفعل .

قال : وعارضه بعض أصحابه في هذا بأن « كيفَ» و«عندَ » و« حيثُ » و « أينَ » أسماء وهي لا تصلح أن تكون فاعلة . والدليل على أن أين وكيف أسماء قول سيبويه « الفتح في الاسماء قولهم كيف وأين » فهذا قول سيبويه والبحث عنه .

وقال الكسائي « الاسم ما وُصِفَ » وهذا أيضاً مُعارَض بما قلناه من

كيف وأين أنهما اسمان ولا يُنعتان .

وكان الفرّاء يقول « الاسم ما احتمل التنوين أو الاضافة أو الألف واللام » وهـذا القول أيضاً معُارَض بالذي ذكرناه أو نذكره من الأسماء التي لاتنوّن ولاتضاف ولا يُضاف اليها ولايدخلها الألف واللام .

وكان الأخفش يقول « إذا وجدت شيئاً يحسُنُ له الفعل والصفة نحو زيد قام وزيد قائم ثم وجـدته يثني ويُجمع نحو قولك الزيدان والزيدون ثم وجدته يمتنع من التصريف فاعـلم أنه اسم » . وقال أيضاً : ما حسُن فيـه « ينفعني » و « يَضُرُّني » .

وقال قوم : مادخل عليه حرف من حروف الخفض . وهذا قول هشام وغيره . وله قول آخر : ان الاسم ما نودِي . وكلّ ذلك معُارَض بما ذكرناه من كيف وأين ومن قولنا « إذا » وإذا اسم لِحِينٍ . فحدثني علي بن ابراهيم القطان قال سمعت أبا العباس محمـد بن يزيد المبرد يقول حـدثني أبو عثمان المـازِنيُّ قال : سألت الأخفَشَ عن « إذا » ما الدليل على أنها اسم لحين ؟ فلم يأتِ بشيء . قال : وسُئِلَ الجَرْمِيُّ فشغَّبَ . وسُئِلَ الرِّياشيُّ فجَوَّد وقال : الدليل على أنها اسم للحين أنه يكون ضميراً ، ألا ترى أنك تقول « القتال إذا يقوم زيد » كما تقول « القتال يوم يقوم زيد » ؟ وقد أومأ الفراء في معنى « إذا » الى هذا المعنى .

وعاد القول بنا الى تحديد الاسم . فقال المبرد في كتاب (المُقْتَضَب) : كل مادخل عليه حرف من حروف الجر فهو اسم فان امتنع من ذلك فليس باسم . وهذا معارض أيضا بكيف وإذا وهما اسمان لا يدخل عليهما شيء من حروف الجرّ .

وسمعت أبا بكر محمد بن أحمد البصير وأبا محمد سَلْمَ بن الحسن يقولان سُئِلَ الزَّجاج عن حد الاسم فقال : صوت مُقَطَّع مفهوم دالٌّ على معنى غيرُ دال على زمان ولا مكان . وهـذا القول معارض بالحرف وذلك أنا تقول « هل » و « بل » وهو صوت مُقَطَّع مفهوم دالٌّ على معنى غيرُ دال على زمان ولا مكان .

وقول من قال « الاسم ما صَلَحَ أن ينادى » خطأ أيضاً لأن كيف اسم وأين وإذا ، ولا يَصْلُحُ أن يقع عليها نداء .

قال أحمد بن فارس: هذه مقالات القوم في حدّ الاسم يُعارضها ما قد ذكرته . وما أعلم شيئاً مما ذكرته سلم من معارضة . والله أعلم أيٌّ ذلك أصحّ . وذُكر لي عن بعض أهل العربية أن « الاسم ما كان مُسْتَقِرّاً على المسمى وقت ذكرك إيَّاهُ ولازماً له » وهذا قريب .

باب الفعل

قال الكِسائي « الفعل مادل على زمان» .

وقال سيبويه « أما الفعل فأمثلة أُخِذت من لفظ أحداث الأسماء وبُنيت لما مضى، وما يكون ولم يقع ، وماهو كائن لم ينقطع» فيقال لسيبويه : ذكرتَ هذا في أوّل كتابك وزعمتَ بعدُ أنّ « لَيْسَ » و « عسى » و « نِعْمَ » و « بِئْسَ » أفعال ، ومعلومٌ أنها لم تُؤخَذ من مصادر . فان قلتَ : اني حددْتُ أكثر الفعل وتركت أقلّه قيل لك : إن الحد عند النُّظّار مالم يَزِد المحدود ولم يَنقُصْهُ ما هو له .

وقال قوم « الفعل ما امتنع من التثنية والجمع » . والرَّدُّ على أصحاب هذه المقالة أن يقال : إن الحروف كلها ممتنعة من التثنية والجمع وليست أفعالاً .

وقال قوم « الفعل ما حَسُنَتْ فيه التاء نحو قمتُ وذهبتُ » وهذا عندنا غلط لأنا قد نسميه فعلاً قبل دخول التاء عليه .

وقال قوم «الفعل ماحَسُنَ فيه أمسِ وغداً » وهذا على مذهب البصريين غيرُ مستقيم ، لأنهم يقولون أنا قائم غداً ، كما يقولون أنا قائم أمسِ .

والذي نذهب اليه ماحكيناه عن الكِسائيّ من أن «الفعل مادلّ على زمان كخرج ويخرج » دلّنا بهما على ماض ومستقبل .

باب الحرف

قال (سِيبوَيْهِ) : وأما ما جاء لمعنى ، وليس باسم ولافعل ، فنحو « ثُمّ » و « سَوْفَ » و« واو القسم » و « لام الاضافة » .

وكان (الأخْفَشُ) يقول : ما لم يحسُنْ له الفعل ولا الصفة ولا التثنية ولا الجمع ولم يَجُزْ أن يَتَصَرَّف - فهو (حرف) .

وقد أكثرَ أهلُ العربية في هذا ، وأقربُ ما فيه ما قاله سيبويهِ ، انه الذي يفيد معنًى ليس في اسم ولا فعل . نحو قولنا « زيدٌ منطلقٌ » ثم تقول « هل زيدٌ منطلق ؟ » فأفدْنا بـ« هل » ما لم يكن في « زيد» ولا «منطلق» .



باب أجناس الأسماء

قال بعضُ أهل العلم :

الأسماء خمسة ـ (اسم فارقٌ) و (اسم مُفارِقٌ) و (اسم مُشْتَقٌّ) و (اسم مُضاف) و (اسم مُقْتَضٍ) .

فالفارق ـ قولنا « رجل » و « فرس » فرقنا بالاسمين بين شخصين .

والمفارق ـ قولنا « طفل » يفارقه اذا كَبِر .

والمشتق ـ قولنا « كاتب» وهو مشتق من « الكتابة » ويكون هذا على وجهين : أحدهما مَبْنِيًّا على فَعَلَ وذلك قولنا « كتب فهو كاتب » ، والآخر يكون مشتقاً من الفعل غيرَ مبنيٍّ عليه كقولنا « الرحمن » فهذا مشتق من « الرحمة » وغير مبني من « رحم » .

وكلّ ما كان من الأوصاف أبعدَ من بنية الفعل فهو أبلغُ ، لأن «الرحمن» أبلغُ من « الرحيم » لأنا نقول « رَحِمَ فهو راحم ورحيم» ونقول«قدَر فهو قادرٌ وقَدير » . واذا قلنا « الرحمن » فليس هو من « رَحِمَ » وإنَّما هو من « الرَّحْمة » . وعلى هذا تجري النعوت كلُّها في قولنا « كاتب » و« كَتَّاب » و « ضارب » و « ضَرُوب » .

والمضاف ـ قولنا « كلّ » و « بعض » لا بدّ أن يكونا مضافين .

والمُقتضي ـ قولنا « أَخ » و « شَريك » و« ابن » و « خَصْم » كلُّ واحد منها إذا ذُكر اقتضى غيرَهُ ؛ لأن الشريك مُقتَضٍ شريكا والأخ مقتضٍ آخر .

وقال بعضُ الفقهاء :

أسماء الاعيان خمسة ـ (اسم لازمٌ) و (اسم مُفارقٌ) و (اسم مُشتَقٌّ) و (اسم مُضاف) و (اسم مُشَبَّهٌ) .

فاللازم ـ « انسان » و « سماء » و « أرض » لأن هـذه الأسماء لا تنتقلُ من مُسَمَّياتها .

قال : والمُفارِق — اللقب الذي يُسمى نحو « زيد » و « عمرو » وقد يقع أيضاً بأنْ يقال : المفارق « الطفل » لانه اسم يزول عنه بكِبَره .

والمشتق ـ كـ « دابَّة » و « كاتب » .

والمضاف ـ قولنا « ثوبُ عمرٍو » و « جزءُ الشيءِ » .

والمشبّه ـ قولنا « رَجُلٌ حَديدٌ وأَسَدٌ » على وجه التشبيه .

قال : وجِماعُها أنها وُضِعت للدّلالة بها .

قلنا : وهذه قسمة ليست بالبعيدة .

باب النعت

النَّعتُ ـ هو الوصف كقولنا « هو عاقل » و « جاهل ».

وذُكر عن (الخليل) أن النعت لا يكون إلاّ في محمود، وأن الوصف قد يكون فيه وفي غيره.

والنَّعتُ ـ يجري مَجْرَيَيْنِ: أحدهما تخليص اسم من اسم كقولنا « زيد العطَّار » و « زيد التَّميميّ » خلصناه بنعته من الذي شاركه في اسمه. والآخر على معنى المدح والذم نحو « العاقل » و « الجاهل ».

وعلى هذا الوجه تجري أسماء الله جلَّ وعز، لأنه المحمود المشكور المثنى عليه بكلّ لسان؛ ولا سميَّ له ـ جلّ اسمهُ ـ فيخلُص اسمه من غيره.

باب القول على الاسم

من أيّ شيءٍ أُخذ؟

قال قوم: الأسماء سِمات دالّة على المسمّيات، ليُعرف بها خطاب المخاطِب.

وهذا الكلام محتمل وجهين: أحدهما أن يكون الاسم سِمة كالعلامة والسِّيماء. والآخر أن يقال: إنه مشتق من «السِّمة». فإن أراد القائل أنها سِمات على الوجه الأول - فصحيح. وإن كان أراد الوجه الثاني - فحدثني أبو محمد سلْم بن الحسن البغدادي قال سمعت (أبا اسحاق إبراهيم بن السَّرِي الزَّجَّاج) يقول: معنى قولنا «اسمٌ» مشتق من «السموّ» والسموّ الرفعة. فالأصل فيه «سِمْوٌ» على وزن حِمْل وجمعه «أسماء» مثل قولك قِنْو وأقناء. وإنما جعل الاسم تنويهاً ودَلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم. ومن قال: إن اسماً مأخوذ من «وَسَمْتُ» فهو غلط، لأنه لو كان كذا لكان تصغيره «وُسَيْم» (١) كما أن تصغير عِدَة وصِلَة: وُعَيْدَة ووُصَيْلَة.

قال أبو اسحاق: وما قلناه في اشتقاق «اسم» ومعناه - قول لا نعلم أحداً فسَّره قبلنا.

قلت: وأبو اسحاق ثقة. غير أني سمعت أبا الحسين أحمد بن عليّ الأحول يقول سمعت أبا الحسين عبد الله بن سفيان النحوي الخزاز يقول سمعت (أبا العباس محمد بن يزيد المبرّد) يقول: الاسم مُشتق من «سما» إذا علا.

قال: وكان أبو العباس رُبما اختصني بكثير من علمه فلا يُشركني فيه غيري.

---

(١) قال الشنقيطي: صوابه «وسيماً».

باب آخر في الأسماء

قد قلنا فيما مضى ما جاء في الاسلام من ذكر المسلم والمؤمن وغيرهما .

وقد كانت حدثت في صدر الاسلام أسماء ، وذلك قولهم لمن أدرك الاسلام من أهل الجاهلية « مُخَضْرَم » . فأخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد مولى بني هاشم قال حدثنا محمد بن عباس الخُشْكي عن (اسماعيل بن أبي عبيد الله) قال : المخضرمون من الشعراء : من قال الشعر في الجاهلية ثم أدرك الاسلام .

فمنهم (حسان بن ثابت) و (لَبيد بن ربيعة) و (نابغة بني جَعدة) و (أبوزيد) و (عمرو بن شاس) و (الزِّبْرقان بن بدر) و (عمرو بن معدي كرب) و (كعب بن زهير) و (معن بن أوس) .

وتأويل المخضرم : من خَضْرَمت الشيء أي قطعته ، وخَضْرَم فلان عطيته أي قطعها ، فسمّي هؤلاء « مخضرمين » كأنهم قطعوا من الكفر إلى الاسلام . وممكن أن يكون ذلك لأن رتبتهم في الشعر نقصت لان حال الشعر تكامنت في الاسلام لما أنزل الله جلّ ثناؤه من الكتاب العربي العزيز . وهذا عندنا هو الوجه ، لأنه لو كان من القطع لكان كلٌّ من قُطع إلى الاسلام من الجاهلية مخضرماً ، والأمر بخلاف هذا .

ومن الأسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم : المِرباع ، والنَّشيطة ، والفُضول ، ولم نذكر الصَّفِيّ لأَن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اصطفى في بعض غزواته وخُصَّ بذلك ، وزال اسم الصَّفِي لما توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومما تُرك أيضاً : الأَتاوة ، والمَكْسُ، والحُلوان. وكذلك قولهم : إنْعَم صباحاً ، وانْعم ظلاماً . وقولهم للملك : أبَيْتَ اللعن. وتُرك أيضاً قول المملوك لمالكه : رَبي . وقد كانوا يخاطبون ملوكهم بالأرباب . قال الشاعر :

وأسْلَمْنَ فيها رَبَّ كِنْدَةَ وابنَهُ
وربَّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرعَرِ .

وتُرك أيضاً تسميةُ من لم يَحُجَّ « صَرورَةً » . فحدثنا علي بن ابراهيم عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد - في حديث الأعمش - عن عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة عن (أبي موسى) قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا صَرُورَةَ في الاسلام » ومعنى ذلك فيما يقال : هو الذي يَدَعُ النكاح تبتُّلاً . حدثني علي بن أحمد بن الصبَّاح قال سمعت (ابن دُرَيْد) يقول : أصل الصَّرُورة أن الرجل في الجاهلية كان إذا أحدث حدثاً فاجأ إلى الحرم لم يُهَجْ وكان إذا لقيه وليّ الدم في الحرم قيل : هو صَرورَة فلا تَهِجْه . ثم كثر ذلك في كلامهم حتى جعلوا المتعبد الذي يجتنب النساء وطيبَ الطعام: صرورة وصروريّاً ، وذلك عنى النابغة بقوله :

صَرورَةٍ متعبّد . (١)

أي منقبض عن النساء. فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام وأوجب إقامة الحدود بمكة وغيرها سمّي الذي لم يَحُجَّ « صَرورة » خلافاً لأمر الجاهلية ، كأنهم جعلوا أن تركه الحجَّ في الاسلام كترك المتألّه إتيانَ النساء والتنعّم في الجاهلية .

« ١ » من قصيدته في وصف (المتجردة) وتمام البيت قوله :
لو أنها عرضت لاشمط راهب
عبد الاله صرورة متعبد .

ومما تُرِك أيضاً قولهم : الابل تُساق في الصَّداق النَّوافِج . على أن من العرب من كان يكره ذلك . قال شاعرهم :

وليس تِلادي من وِراثة والدي ،
ولا شانَ مالي مُستفادُ النوافِج .

وكانوا يقولون « تَهْنِكَ النافِجةُ » (١) مع الذي ذكرناه من كراهة ذوي أقدارهم لها وللعقول . قال (جَنْدلُ الطُّهَويّ) :

وَمافَكَّ رِقّي ذاتُ خلْق خبَرْنَجٍ
ولا شانَ مالي صُدْقَةٌ وعقولُ .
ولكن نَماني كلُّ أبيضَ صارمٍ ،
فأصبحتُ أدري اليومَ كيف أقول .

ومما كُرِه في الاسلام من الألفاظ قول القائل « خَبُثَت نفسي » قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يقولَنَّ أحدُكم خَبُثَتْ نفسي » .

وكُرِه أيضاً أن يقال : استأثر الله بفلان .

ومما كرهه العلماء قول من قال : سُنَّة أبي بكر وعمر ، إنما يقال : فَرْضُ الله جلّ وعزّ وسُنَّتُه ، وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

ومما كانت العرب تستعمله ثم تُرِك قولهم : حِجْراً محجوراً . وكان هذا عندهم لمعنيين : أحدهما عند الحِرْمان إذا سُئِل الانسان قال حِجراً محجوراً ، فيعلم السائل أنه يريد أن يحرمه . ومنه قوله :

---

(١) وتهنئك ، على الخبر .

حَنَّتْ إلى النَّخلة القُصْوى فقلت لها :

حِجْرٌ حرام ألا تلك الدَّهارِيسُ .

والوجه الآخر : الاستعاذة . كان الانسان إذا سافر فرأى من يخافه قال : حِجْراً محجوراً . أي حرام عليك التعرّض لي . وعلى هذا فُسِّرَ قوله عزّ وجل « يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حِجْراً محجوراً » يقول المجرمون ذلك كما كانوا يقولونه في الدنيا .

باب ماجرى مجرى الأسماء

وإنما هي ألقاب

ومما جرى مجرى الاسم وهو لقب قولهم : مُدْركة وطابخة . وذلك في العرب على ثلاثة أضرب : ضربٌ مدح ، وضربٌ ذم ، وضربٌ تلقُّب الانسان لفعل يفعله .

فالمدح — تلقيبهم البَحْر والحَبْرَ والباقر والصادق والدّيباج وغيرهم.

والذم — فكتلقيبهم بالوَزَغ ورَشْح الحَجَر وما أشبه ذلك .

وأما اللقب المأخوذ من فعلٍ يُفعل — فكطابخة ومُدركة .

وقوله جلّ ثناؤه « ولا تَنابَزُوا بالألقاب » فقال (قتادة) : هو أن تقول للرجل : يافاسق يامنافق .

وروى الشَّعبيّ عن (أبي جُبَيْرَة بن الضحاك) - وأبو جبيرة رجل من من الأنصار من بني سلِمة - قال : فينا انزلت هذه الآية ، وذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدِمَ علينا ، وليس منا رَجُلٌ إلاَّ له لقبان أو ثلاثة

فجعل بعضنا يدعو بعضاً بلقبه ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل هو أحياناً يدعو الرجل ببعض تلك الألقاب ، فقيل له : يارسول الله إنه يغضب من هذا ، فأنزل الله جل ثناؤه « ولا تَنابَزُوا بالألقاب» .

وأما تسمية العرب أولادها بكلب وقرد ونمر وأسد ـ فذهب علماؤنا الى أن العرب كانت اذا وُلد لأحدهم ابن ذكر سماه بما يراه أو يسمعه مما يُتَفَاءَلُ به ، فان رأى حَجَراً أو سمعه تأوّل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر . وإن رأى ذئباً تأوّل فيه الفطنة والنُّكر والكسب . وان رأى حماراً تأوّل فيه طول العُمر والوقاحة . وان رأى كلباً تأوّل فيه الحِراسة و بُعدَ الصوت والإلفَ .

وعلى هذا يكون جميع ما لم نذكره من هذ الأسماء .



باب الأسماء التي تسمى بها الأشخاص

على المُجاوَرَة والسَّبب.

قال علماؤنا : العرب تسمّي الشيء باسم الشيء اذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب. وذلك قولهم «التيمُّم» لِمَسْح الوجه من الصعيد، وإنما التيمم الطلب والقصد. يقال : تيمَّمتك وتأممتك أي تعمّدتك.

ومن ذلك تسميتهم السحاب «سماءً» والمطر «سماء» وتجاوزوا ذلك الى أن سموا النبتَ سماءً. قال شاعرهم :

اذا نَزَل السماءُ بأرض قوم

وربما سموا الشحم «ندًى» لان الشحم عن النبت والنبت عن الندى قال (ابن أَحْمَرَ) :

كثور العداب الفَرْد يَضْرِبه النَّدى
تَعَلَّى النَّدى في متنه وتَحَدَّرا.

ومن هذا الباب قول القائل :

قد جعلتْ نفسيَ في أَديمِ

أراد بالنفس الماء وذلك أن قِوامَ النفس بالماء.

وذكر ناس أن من هذا الباب قوله جلّ ثناؤه «وأَنْزَلَ لَكُمْ من الأنْعام ثمانيةَ أَزواج» يعني خلق. وإنما جاز أن يقول أنزل لأن الأنْعام لا تقوم الاّ بالنبات والنبات لا يقوم الاّ بالماء، والله جلّ ثناؤه ينزل الماء من السماء. قال : ومثله «قد أَنزَلْنا عليكم لِباساً» وهو جلّ ثناؤه إنما أنزَلَ الماء، لكن

اللباس من القطن ، والقطن لا يكون إلاّ بالماء . قال : ومنه قوله جلّ ثناؤه « وليَستَعفِفِ الذين لا يجدون نكاحاً » إنما أراد والله أعلم ـ الشيء يُنكَحُ به من مَهر ونفقة، ولا بد للمتزوج به منه .

باب القول في أصول أسماء
قِيسَ عليها وأُلحِقَ بها غيرُها

كان (الأصمعي) يقول : أصل « الوِرد » إتيان الماء ، ثم صار إتيانُ كلِّ شيءٍ وِرْداً . و « القَرَب » طلبُ الماء . ثم صار يقال ذلك لكل طلب ، فيقال « هو يَقْرَب كذا » أي يطلبه و « لا تَقْرَب كذا » .

ويقولون « رَفَعَ عَقِيرَتَهُ » أي صوته . وأصل ذلك أن رَجلاً عُقِرَتْ رِجله فرفعها وجعل يَصيحُ بأعلى صوته ، فقيل بعد ذلك لكل من رفع صوته : رفع عقيرته .

ويقولون « بينهما مسافة » وأصله من « السَّوف » وهو الشم . ومثل هذا كثير .

قلنا : وهذا الذي ذكرنا عن (الأصمعي) وسائر ما تركنا ذكره لشهرته فهو راجع الى الأبواب الأُوَلِ ، وكلّ ذلك عندنا توقيف على ما احتججنا له .

وقول هؤلاء : إنه كَثُرَ حتى صار كذا ، فعلى مافسرناه من أن الفرع مُوَقَّفٌ عليه، كما أن الأصل موقَّف عليه .

باب الأسماء كيف تقع على المسميات

يُسمَّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين ، وذلك أكثر الكلام كرَجُل وفَرَس.

وتُسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد ، نحو « عين الماء » و « عين المال » و « عين السحاب » (١).

ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة. نحو « السيف والمهند والحُسام ».

والذي نقوله في هذا : ان الاسم واحد وهو « السيف » وما بعده من الألقاب صفات ، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الاخرى .

وقد خالف في ذلك قوم فزعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها فانها ترجع الى معنى واحد . وذلك قولنا « سيف وعضب وحُسام » .

وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة الاَّ ومعناه غيرُ معنى الآخر . قالوا : وكذلك الأفعال . نحو : مضى وذهب وانطلق . وقعد وجلس . ورقد ونام وهجع . قالوا : ففي « قعد » معنًى ليس في « جلس » وكذلك القول فيما سواهُ .

وبهذا نقول ، وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب .

واحتجّ أصحاب المقالة الاولى بأنه : لو كان لكلّ لفظة معنًى غير معنى الأُخرى لما أمكن أن يعبّر عن شيء بغير عبارته . وذلك أنّا نقول في «لا ريب فيه» : « لاشك فيه» ، فلو كان « الرَّيْب » غير «الشَّكّ» لكانت العبارة عن معنى الرّيب بالشك خطأ . فلما عُبِّرَ عن هذا بهذا علم أن المعنى واحد.

(١) للمصنف قصيدة استعمل فيها العين بأكثر معانيها وقد أثبتناها في ترجمته التي صدرنا بها هذا الكتاب. راجع صفحة [يه] .

قالوا : وإنما يأتي الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد في مكان واحد تأكيداً ومبالغة . كقولهم :

وهند أتى من دونها النأيُ والبُعدُ .(١)

فقالوا : فالنأي هو البعد قالوا : وكذلك قول الآخر إن الحبس هو الأصْرُ .

ونحن نقول : إن في قعد معنًى ليس في جلس . ألا ترى أنّا نقول « قام ثم قعد » و« أخَذَهُ المقيمُ والمُقْعِدُ » و « قَعَدَتِ المرأة عن الحيض » . ونقول لناس من الخوارج « قَعَدٌ » ثم نقول « كان مضطجعاً فجلس » فيكون القعود عن قيام والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لأن « الجَلْسَ : المرتفع » فالجلوس ارتفاع عما هو دونه . وعلى هذا يجري الباب كلُّه .

وأما قولهم : إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعبَّرَ عن الشيء بالشيء . فإنا نقول : إنما عُبِّر عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان ، فيلزمنا ما قالوه . وإنما نقول إن في كلّ واحدة منهما معنًى ليس في الاخرى.

ومن سُنَن العرب في الأسماء أن يسمّوا المتضادّين باسم واحد . نحو « الجَوْن » للأسود و « الجَوْن » للأبيض . وأنكر ناس هذا المذهب وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضدّه .

وهذا ليس بشيء . وذلك أن الذين رَوَوْا أن العرب تُسمي السيف مهنّداً والفَرَسَ طِرْفاً هم الذين رَوَوْا أن العرب تُسمِّي المتضادّين باسم واحد . وقد جرّدنا في هذا كتاباً ذكرنا فيه ما احتجوا به ، وذكرنا ردَّ ذلك

(١) البيت للحطيئة وصدره :
ألا حبذا هند وأرض بها هند .

ونقضه ، فلذلك لم نكرّره .

من ذلك « المائدة » لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام لأن المائدة من « مادَني يَميدُني » اذا أعطاك . وإلاّ فاسمها « خِوَان » .

وكذلك « الكأس » لا تكون كأساً حتى يكون فيها شراب . وإلا فهو « قدح » أو « كوب » .

وكذلك « الحُلَّة » لاتكون الاّ ثوبين : إزار ورداء من جنس واحد فان اختلفا لم تُدْعَ حُلَّة .

ومن ذلك « الظَّعِينَة » لا تكون ظعينة حتى تكون امرأة في هودج على راحلة .

ومن ذلك « السَّجْل » لا يكون سجلاً الاّ أن يكون دلواً فيه ماء .

و « اللِّحْيَة » لا تكون لحية الاّ شعراً على ذَقَن ولَحْيَيْن[1] .

ومن ذلك « الأرِيكَة » وهي الحَجَلَة على السرير لاتكون الاّ كذا . فسمعت عليّ بن ابراهيم يقول سمعت ثعلباً يقول : الأرِيكة لا تكون الاّ سريراً مُتَّخَذاً في قبة عليه شَوارُهُ ونَجْدُهُ[2] .

وكذلك « الذّنوب » لاتكون ذنوبا الاّ وهي ملأى ، ولا تسمّى خالية ذَنوباً .

ومن ذلك « القلم » لا يكون قلماً الاّ وقد بُرِيَ وأُصلح ، والاّ

---

(١) اللحي ، بفتح اللام : عظم الحنك الذي عليه الاسنان ، ويكون من الانسان حيث ينبت الشعر وهو أعلى وأسفل ، وجمعه ألح ولحي مثل فلس وأفلس وفلوس .

(٢) الشوار : الزينة . والنجد : ما زين به البيت من الأساس والفروش والستور التي تشد على الحيطان والجمع نجود .

فهو أُنبوبة .

وسمعت أبي يقول : قيل لأعرابي « ما القلم ؟ » فقال « لا أدري » فقيل له « تَوَهَّمْهُ » فقال « هو عود قُلِمَ من جانبيه كتقليم الأُظفور[1] فسُمِّيَ قلماً . »

ومن ذلك « الكوب » لا يكون الاّ بلا عروة .

و « الكوز » لا يكون الاّ بعُروة .

(١) الاظفور : بوزن أسبوع وجمعه أظافير بمعنى الظفر.



باب الاسمين المصطلحين

أخبرنا عليّ بن ابراهيم عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال، قال الأصمعي: اذا كان أخوان أو صاحبان وكان أحدهما أشهر من الآخر سُمّيا جميعاً باسم الأشهر، قال الشاعر:

ألا مَنْ مبلغٌ «الحُرَّيْنِ» عني
مُغَلْغَلَةً وخُصَّ بها أُبَيَّا ؟

وأحدهما هو (الحُرّ). وكذلك الزَّهدَمان والثعليتان. (١)

ويكون ذلك في الألقاب كقولهم لِقَيْسٍ ومُعاوية ابنَيْ مالك بنِ حَنْظَلة «الكُرْدوسان» ولِعَبْس وذُبْيان «الأَجربان».

وذَكَرَ الأبواب بطولها. وانما نذكر من كلّ شيءٍ رسماً لشُهرته.

(١) الزهدمان أخوان اسم أحدهما (زهدم) والآخر (كردم) قال قيس بن زهير:
جزاني الزهدمان جزاء سوء وكنت المرء أجزى بالكرامه
ومن ذلك (الدحرضان) وهما ماآن اسم أحدهما (دحرض) والآخر (وشيع). قال عنترة:
شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم



باب في زيادات الأسماء

ومن سُنن العرب الزيادة في حروف الاسم ، ويكون ذلك إما للمبالغة وإما للتشويه والتقبيح .

سمعت مَن أثِقُ به قال : تفعل العَرب ذلك للتشويه ، يقولون للبعيد ما بين الطرفين المفرط الطول « طِرِمّاح » وإنما أصله من « الطَّرَح » وهو البعيد ، لكنه لما أفرط طوله سُمي طرماحاً ، فشُوِّه الاسم لما شوهت الصورة . وهذا كلام غير بعيد .

ويجيء في قياسه قولهم « رَعْشَن » للذي يرتعش و « خَلْبَن » و « زُرْقُم » للشديد الزَّرَق و « صِلْدِم » للناقة الصُّلْبة ، والأصل صَلْد و « شَدْقم » للواسع .

ويكون من الباب قولهم للكثيرة التَّسَمُّع والتَّنَظُّر « سِمْعَنَّة ، نِظْرَنَّه » .

ومن الباب : كبير وكُبار وكُبَّار . وطُوَال وطُوَّال .

باب الحروف

قال أحمد بن فارس : هذا باب يصلح في أبواب العربية ، لكني رأيت فقهائنا يذكرون بعض الحروف في كتب الاصول ، فذكرنا منها ماذكرناه على اختصار .

فأصل الحروف – الثمانيةُ والعشرون التي منها تأليف الكلام كلّهِ . وتتولَّد بعد ذلك حروف كقولنا « اصْطَبر » و « ادَّكر » تولَّدت الطاء لعلة ، وكذلك الدال .

فأول الحروف (الهمزة) ، والعرب تنفرد بها في عُرْض الكلام مثل « قرأ » ولا يكون في شيء من اللغات إلا ابتداءً .

ومما اختصت به لغة العرب (الحاء) و (الظاء) . وزعم ناس أن (الضاد) مقصورة على العرب دون سائر الأمم .

قال أبو عبيدة : وقد انفردت العرب بالألف واللام اللتين للتعريف كقولنا « الرجل » و « الفرس » فليسا في شيء من لغات الأمم غير العرب .

باب ذكر دخول (ألف التعريف ولامه) في الاسماء

تدخل ألف التعريف ولامهُ على اسمين : متمكن وغير متمكن . فالذي هو غير متمكن « الذي » و « التي » . والمتمكن قولنا « رجل » ثم يكون ذلك للجنس والتعريف . فالأول قولنا « رجل » لِمنكر ، فاذا عُهِد مرّة قيل « الرجل » . والجنس قولنا « كثر الدينار والدّرهم » و « الذيب أخشاه إن مررت به » لا يريد به ذيباً بعينه ، انما يريد أنه يخشى هذا

الجنس من الحيوان.

ويكون الألف واللام بمعنى (الذي) كقولنا «جاءني الضاربُ عَمْراً» بمعنى الذي ضرب عمراً.

وربّما دَخلا على الاسم وضعاً، لا لجنس ولا لشيءٍ من المعاني كقولنا «الـكوفة» و«البصرة» و«البِشْرُ» و«والثَّرْثارُ». (١)

وربما دخلا للتفخيم نحو «العباس» و«الفضل». وهذان هما اللذان يدخلان في أسماء الله — جل وعز — وصفاتِهِ.

باب (الألف المُبْتَدَء بها)

يقولون: ألِفُ أصْلٍ، وألف وصل، وألف قَطْع، وألف استفهام، وألف المُخْبِرِ عن نفسه.

فالألف التي للأصل قولنا «أتى يأتي». وألف القطع مثل «أكرم». وألف الاستفهام نحو «أخَرَجَ زيد؟». وألف المُخْبِرِ عن نفسه نحو «أنا أخرجُ».

وألف الوصل — تدخل على الأسماء والأفعال والأدوات. ففي الأسماء قولنا «اسم» و«ابن» وفي الأفعال قولنا «اضْرِبْ». والتي تدخل على الأدوات مختلف فيها: قال قوم هي الألف في قولك «أَيم الله». والألف التي تدخل على لام التعريف مثل «الرجُل» وهذا في مذهب أهل البصرة. وكثيراً مّا سمعت (أبا سعيد السِيْرافِيّ) يقول في ألف (الرجل) (ألف لام التعريف). والكوفيون يقولون (ألف التعريف ولامه) وهما مثل «هل» و«بل».

---

(١) البشر والثرثار: اسمان لواديين.

بابُ وُجوهِ دُخول (الألف) في الأفعال

دخول الألف في الأفعال لوجوهٍ :

أحدها — أن يكون الفعل بالألف وغير الألف بمعنًى واحد نحو قولهم « رَمَيْتُ على الخمسين » و « أَرْمَيْتُ » أي زِدْت و « عَنَدَ العِرْقُ » اذا سال و « أَعْنَدَ » .

والوجه الآخر - أن يتغيَّر المعنَيان ، وان كان الفعلان في القياس راجعين الى أصل واحـد نحو « وَعَيْتُ الحديث » و « أوْعَيْتُ المتاعَ في الوعاء » . ومن هذا الباب « أسْقَيْتُهُ » اذا جعلت له سُقْيًا و « سَقَيْتُهُ » إذا أنت سقيته .

والوجـه الثالث — أن يتضادَّ المعنيان بزيادَة الألف نحو « تَرِبَ » إذا افْتَقَرَ و « أتْرَبَ » إذا اسْتَغْنَى .

والوجه الرابع — أن يكون الفعلان لشيئين مختلفين ، فيكون بغير ألف لشيء وبالألف لشيء آخر . من ذلك « حَيِيَ القومُ بعدَ هُزال » إذا حسنت أحوالهم و « أحْيَوْا » إذا حييت دَوابُّهم .

والوجه الخامس — أن يكون بالألف بمعنى العَرْض وبغير ألف لانفاذ الفعل نحو « بِعْتُ الفرس » إذا أمضيت بيعه و « أبَعْتُهُ » إذا عرضته لبيع .

والوجـه السادس — أن يكون بالألف إخبـارا عن مجيء وقت نحو « أحْصَدَ الزَّرعُ » حان له أن يُحْصد .

والوجه السابع - أن يكون دالاً على وجود شيء بصـفة نحو « أحْمَدْتُ الرجُل » إذا وجدته محموداً .

والوجه الثامن — أن يدل على إتيان فعل نحو « أخَسَّ الرجل » أتى بِخَسيسٍ .

وتكون الألف التعدية نحو « أذهبتُ زيداً ».

وربّما كانت هذه الألف للشيء نفسه [١]، ويكون الفاعل ذلك [٢] بلا ألف نحو « أقْشَعَ الغيمُ » و « قَشَعَتْه الريحُ »، و « أنْزفَت البئرُ » ذهب ماؤها و « نَزَفْناها نحنُ »، و « أنْسَلَ ريشُ الطائر » سقط و « نسلته أنا »، و « أكبَّ على وجهه » قال الله جل ثناؤه « أفَمَنْ يَمْشي مُكِبّاً على وجهِه » و « كَبَّهُ اللهُ » قال الله جل ثناؤه « فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ ».

باب شرح جُمَلٍ تقدَّمت [٣] في (ألِفَات الوَصْل)

ألفات الوصل — تكون في صدور الأسماء والأفعال والأدوات ويذكر أهلُ العربية أنها نَيِّفٌ وأربعون ألفاً — على تكرير يقع في بعضها - لأن الذي يذكر منها في المصادر مكرَّرٌ في الأفعال.

فأما التي في الأسماء فتسعَ عشرة ألفاً. وهي على ضربين: ألفٌ في اسم لم يَصدُر عن فعل، فالألفات في الأسماء التي لم تصدر عن الأفعال ثمانٍ: ألف « ابن » و « ابنة » و « اثنين » و « اثنتين » و « امرئ » و « امرأة » و « اسم » وألف ثامنة. والألفات في الأسماء الصادرة عن الأفعال هي التي في « اقتطاع » و « انقطاع » و « استعطاف » و « ارتداد » و « احمِرار » و « اسحنكاك » و « اقشعرار » و « اخروّاط » و « اعرِيراء » و « اطّواف » و « اثيقال ». وهذه تكون في الإدراج ساكنةً وإذا ابتدئ بها كانت مكسورة.

وأما التي في الأفعال — فثلاث: منها في الأمر بالفعل الثلاثي. مثل

---

(١) أي عند مايكون لازما. (٢) عند التعدية. (٣) تقدم ذكر ألف الوصل في (باب الألف المبتدء بها).

« اضْرِبَ ، اعلمْ ، اقْتُلْ » . ومنها في الأفعال الماضية التي صدرت عنها الأسماء المتقدم ذكرها إحدى عشرة ألفاً وهي : أفْتَعلَ ، وانْفَعلَ ، واسْتَفْعَلَ ، وافْعلَّ ، وافْعَالَّ ، وافْعَنْلَلَ ، وافْعلَّلَ وافْعوَّلَ ، وافْعوْعَلَ ، وافَّعَلَ ، وافَّاعلَ . وقد ذكرنا ترجمة هذه الأمثلة .

ثم تقع هذه الألفات بعينها في الافعال المستقبلة المأمور بها وهي : افْتَعِلْ ، وانْفَعِلْ ، واسْتَفْعِلْ ، وافْعَلِلْ ، وافْعَالِلْ ، وافْعَنْلِلْ ، وافْعوِّلْ ، وافْعوْعِلْ ، وافْعلِّلْ ، وافَّعلْ ، وافَّاعِلْ .

وقد أعلمتُ أن فيها تكريراً ليكون الباب أبلغ شرحاً .

وأما التي تقع في الأدوات — فقليلة على اختلاف فيها ، وإنما هي في قولهم « ايمُ الله » ؛ والألف التي مع اللام في قولنا « الرجُل » . وموضع الاختلاف أن الالف في «أيمُ » مقطوعة صحيحة . وهي بالهمزة أشبه منها بألفات الوصل ، إلاَّ أن تقول « إِيمُ الله » بالكسر فيكون حينئذ أشبه بألف الوصل .

والألف التي مع اللام قد تقدم ذكرها .

باب (الباء)

الباء من حروف الشفَه . ولذلك لا تأتلف مع الفاء والميم : أما الفاء فلا تقارنها باء متقدمة ولا متأخرة . وأما الميم فلا تتقدم على الباء ملاصقةً لها بوجهٍ . ومتأخرةً كذلك إلا في قولنا « شَبِمٌ » . وقد يدخل بينهما دخيل في مثل « عبَام » وهي على الأحوال يقِلُّ تأتُّفها معها .

وهي من الحروف الأصلية ، وما أعلمهم زادوها في شيء من ابنية

كلامهم ، إلا في حرف قاله الأغلب :

فَلَكَ ثدياها مع النتُّوب .

أراد « النتُّوء » فزاد الباء .

والباء تكون للالصاق ، وللاعتمال ، وفي موضع « عن » ، وفي موضع «من » ، وتكون للمصاحبة ،وتقع موقع « مع » ، وتقع موقع «في » و«على» ، وتكون للبدل ، ولتعدية الفعل ، وللسبب ، وتكون دالّة على نفس المُخْبَرِ عنه وظاهرها يُوهِم ان الإخبارَ عن غيره ، ومنها المُلْصَقَة بالاسم والمعنى الطرْح ، ومنها باء الابتداء ، ومنها باء القَسَم .

فالالصاق — قولك « مسحت يدي بالأرض » . ومن أهل العربية من يقول « مررت بزيد » انها للإلصاق ، كأنه ألصق المرورَ به . وكذا إذا قال « هزَأت به » .

والاعتِمَال ـ قولنا « كتبت بالقلم » و « ضربت بالسيف » . وذكر ناس أن هذه والتي قبلها سواء .

والباء الواقعة موقع « عن » قولهم ـ « سألت به » انما أردت عنه . ومنه « سَأَلَ سائِلٌ بعذابٍ واقع » . ومنه :

وسائلة بثعلبةَ بنِ سير

والباء الواقعة موقع « من» ـ في قوله جل ثناؤه « عيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ الله » أراد منها . و :

شَرِبَتْ بماء الدُّحْرُضَيْنِ(١) .

---

(١) من معلقة (عنترة بن شداد) وتمام البيت قوله :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر من حياض الديلم

وباء المصاحبة ـ « دخل فلان بثيابه وسيفه » وقوله عز وجل « وقد دخلوا بالكفر » ومنه « ذهبت به » لأنك تكون مصاحباً له .

والباء التي في موضع « في » قوله :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلال . ــ

والتي في موضع « على » قوله :

أَرَبٌّ يبول الثَّعْلُبانُ برأسه (١) ؟

أراد « على » .

وباء البدل ـ قولهم « هذا بذاك » أي عوض منه . ومنه :

قالت بما قد أراهُ بصيرا .

وباء تعدية الفعل ـ « ذهبت به » بمعنى « أذهبته » . وقوله جل ثناؤه ـ « أسرى بعبده » ليس من ذا ، لان سرى وأسرى واحد .

وباء السبب ـ قوله جل ثناؤه « والذين هم به مشركون » أي من أجله . فأما قوله جل وعز « وكانوا بشركائهم كافرين » فيحتمل أن يكونوا كفروا بها وتبرأوا منها . ويجوز أن تكون باء السبب ، كأنه قال « وكانوا من أجل شركائهم كافرين » .

والباء الدالّة عن نفس المُخبَر عنه والظاهر أنها لغيره ـ قولك « لقيت بفلان كريماً » إنما أردته هو نفسه . ومنه قوله :

ولم يَشْهَدِ الْهَيْجَا بِأَلْوَثَ مُعْصِمِ . ــ

يقول ؛ ان الناقة شربت من ماء (دحرض) وماء (وشيع) .. ويسميان معا (الدحرضين) على التغليب ـ ونفرت عن حياض الديلم خوفا وفزعا ، لانها حياض أرض الاعداء .

(١) تكملته :

لقد ذل من بالت عليه الثعالب .

أراد نفسَهُ .

والزّائدَة ـ قولك « هَزَزْت برأسي » و « لا يَقرأنَ بالسُّوَر »

وباء الابتداء ـ قولك « باسم الله » المعنى أبدًا باسم الله .

وباء القَسَم ـ « أُقْسِمُ بالله » ثم يحذف « أقسم » فيقال « بالله » . فاذا أرادوا أن يُقسموا بمُضْمَر لم يقولوه إلاَّ بالباء ، يقولون « والله » فاذا أضمروا قالوا « به لا فعلت » قال :

ألا نادَتْ أُمامةُ بارْتِحال
لِتُحْزِنَني ، فلا بِكِ ماأُبالي(١) .

فأما قوله جلّ ثناؤه «ولم يَعْيَ بخَلْقِهِنَّ» ، « بقادر » فقال قوم الباء في موضعها وأن العرب تعرف ذلك وتفعله . قال امرؤ القيس :

فان تَنْأَ عنها حقْبَةً لم تُلاقِها
فانَّكَ مما أحْدَثَتْ بالمُجرَّب(٢) .

وقال قوم : إنما هو « بالمُجَرِّبَ » بكسر الراء ، ويكون معناه « كالمُجرِّب » كما قال عديّ :

إنني والله ـ فاقبل حلْفَتِي ـ
بأبِيلٍ كُلَّما صَلَّى جأَرْ .

قالوا : معناه « كأبيل » وهو الراهب وبمنزلته في الدين والتقوى .

---

(١) من أبيات لغوية بن سلمى بن ربيعة اختارها أبو تمام في حماسته وفي رواية « باحتمال » بدل « بارتحال » والمعنى واحد .

(٢) من قصيدته التي وصف بها فرسه والصيد عند ما نزل به (علقمة بن عبدة) فتذاكرا الشعر وادعاه كل واحد منهما فتحا كم امرؤ القيس بهذه القصيدة وعلقمة بقصيدة مثلها الى زوجة امريء القيس فحكمت لعلقمة ، فطلقها الاول وتزوجها الثاني .

ومن روى بيت امرئ القيس بالفتح فالمعنى « بموضع التجريب » كما قال جلّ ثناؤه « فلا تحسبنّهم بمفازةٍ من العذاب » أي بحيث يفوزون. وكذلك « بالمجرَّب » أي بحيث جُرِّبت وبحيث التجريب ، والمُجرَّب والتجريب واحد . كقولهم « مُمَزَّق » بموضع تمزيق في قوله جلّ ثناؤه « ومزّقناهم كُلَّ مُمَزَّق » .

بابُ (التاء)

التاء — تزاد في الكلام اولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة: فزيادتها في الأسماء أُولى في نحو « تَنْضُب (١)» و« تَتْفُل (٢)» . وفي الفعل « تَفَعَّل » وما أشبهه . والثانية نحو «اقتدر» . والثالثة «استفعل» . والرابعة « سَنْبَتَة من الدهر » لأن الأصل « سَنْبَة » . والخامسة مثل «عفريت» . والسادسة مثل «عنكبوت» .

ومن التاء — تاء القسم نحو « تالله » . قالوا : هي عِوَض من الواو كقولهم « تُجاه » و « تُكلان » .

وتقع في جمع المؤنث نحو « قائمات » .

وتكون بدلاً من الهاء في لغة من يقول « ليست عندنا عربيت » .

وتاء — تدخل على «ثمّ » و «رُبَّ » و «لا» ، كقولهم ثُمَّت ورُبَّتَ ولاتَ حِين . وناس يقولون : هي داخلة على «حين» .

وتاء المؤنث — نحو « هي تفعل » .

وتاء النفس — نحو « فعلتُ » و « فعلتَ » في المخاطبة . و «فعلتِ»

(١) نوع من الشجر . (٢) اسم دويبة .

و « فَعلَتْ » في الاخبار عن المؤنث .

وتاء — تكون بدلاً من سين في بعض اللغات . أنشد ابن السِّكِّيت :

يا قبَّحَ اللهُ بني السِّعْلاتِ
عَمْرو بن مسعود شرارِ النّاتِ (١)

وأما (الثّاء)

فلا أعرف لها عِلّةً ، ولا تقع زائدةً .

وكذلك (الجيم)

إلاّ في الذي ذكرناه من اللغات المستكرَهة .

و (الحاء) و (الخاء)

لا أعرف لهما علّةً .

و (الدّال)

لا علّة لها إلاّ في لغة من يقلب التاء دالاً . فحدثنا عليّ عن محمد بن فَرَح عن سَلَمَةَ عن الفَرّاء قال : قوم من العرب يقولون « أجْدَبِيكَ » في موضع «أجتَبِيكَ» يجعلون تاءَ الافتعال بعد الجيم دالاً . ويقولون « اجْدَمَعُوا » . وأنشد :

فقلت لصاحِبي : لاتحبسانا
بِنَزْعِ أُصولهِ واجْدَزّ شِيحا .

و (الراء)

لا أعرف لها علّة.

(١) تكملته :

ليسوا أعفاء ولا أكيات .

وكذلك (الزاي)

إلاّ في قولهم « رَازِيٌّ » و « مَرْوَزِيٌّ » (١).

وأما (السين)

فانها تزاد في « استفعل » . ويختصرون « سَوْفَ أفْعَلُ » فيقولون « سَأفْعلُ ».

ولا أعرف (للشين) علّة غير الذي ذكرناه في الحروف المستكرهة.

وكذلك في الحروف التي بعدَها حتى (العين) .

وعِلة (العين) أنّها تقوم مقام الهمزة في لغة (بني تميم) يقولون « علمت عَنّ ذاك » كأنما أراد «أنّ » .

وكذلك الحروف التي بعدها حتى (الفاء) .

باب (الفاء)

قال البصريون « مررت بزيد فعمرو : الفاء أشركتْ بينهما في المرور وجعلتْ الأول مبدوأ به » .

وكان الأخفش يقول « الفاء تأتي بمعنى الواو » وأنشد :

بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ . (٢)

وخالفه بعضهم في هذا فقال : ليس في جعل الشاعرِ الفاء في معنى الواو فائدةٌ ، ولا حاجة به إلى أن يجعل الفاءَ في موضع الواو ووزنُ الواو كوزن الفاء . قال : وأصل الفاء أن يكون الذي قبلها علةً لما بعدها . يقال

(١) رازي : نسبة الى (الري) مدينة في فارس . ومروزي : نسبة الي (مرو) مدينة أيضا .

(٢) مطلع معلقة (امرئ القيس) وصدره :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

«قام زيد فقام الناس» .

وزعم الأخفش أن الفاء تُزاد ، يقولون « أخوك فَجَهَدَ » يريد أخوك جَهَدَ ، واحتجَّ بقوله جلّ ثناؤه « فانَّ له نارَ جَهَنَّم » .

وكان قُطْرُب يقول بِقَوْلِ الأخفش ، يقول : إن الفاء مثلُ الواو في « بين الدخول فحَوْمَلِ » قال : ولولا أن الفاء بمعنى الواو لفسد المعنى ، لأنه لا يريد أن يُصيِّره بين (الدَّخول) أولاً ثم بين (حَوْمَل) وهذا كثير في الشعر .

وتكون الفاء جوابا للشرط . تقول « إن تَأتني فَحَسَنٌ جميل » ومنه قوله جل ثناؤه « والذين كفروا فتعسا لهم » دخلتِ الفاء لأنه جعل الكفر شريطة كأنه قال : ومن كفر فتعساً له .

وأمّا (القاف)

فلا أعلم لها علة إلاّ في جعلهم إيّاها عند التعريب مكان الهاء نحو « يَلْمَق » .

باب (الكاف)

تقع الكاف مخاطبة : للمذكر مفتوحة ، وللمؤنث مكسورة . نحو « لَكَ » و « لَكِ » .

وتدخل في أول الاسم للتشبيه فتخفض الاسم . نحو « زيد كالأسد » وأهل العربية يقيمونها مقام الاسم ويجعلون لها محلا من الاعراب ، ولذلك يقولون « مررت بكالأسد » أرادوا بمثل الأسد . وأنشدوا :

على كالخنيف السَّحق يدعو به الصدى ،
له قُلُبٌ عادِيَّةٌ وصُحُونُ

فأما الكاف في قوله جل ثناؤه «أرأيتكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليّ؟» فقال البصريون: هذه الكاف زائدة، زيدت لمعنى المخاطبة. قال محمد بن يزيد: وكذلك رُوَيْدكَ زيداً. قال: والدليل على ذلك أنك إذا قلت أرأيتكَ زيداً؟ فانما هي أرأيت زيداً؟ لأن الكاف لو كانت اسماً لاستحال أن تُعدّى «أرأيت» الى مفعولين إلاّ والثاني هو الأول. يريد قولهم «أرأيتَ زيداً قائماً؟» لا يتعدى «رأيتَ» إلى مفعولين إلا إلى مفعول هو «زيد» ومفعول آخر هو «قائم» فالأول هو الثاني. قال: و «أرأيتك زيداً؟» الثاني غير الكاف، قال: وإن أردت رؤية العين لم يتعد إلا إلى مفعول واحد. قال: ومع ذلك إن فعل الرجل لا يتعدى إلى نفسه فيتصل ضميراً إلا في باب «ظَنَنْتُ» و «عَلِمْتُ». فأما ضربتُني وضَرَبْتُكَ فلا يكون. وكذلك إذا قلت «رُوَيْدَكَ زيداً» انما يُراد «أرودْ زيداً» قال الزجاج: الكاف في هذا المكان لا موضع لها لأنها ذكرت في المخاطبة توكيداً. وموضع هذا نصب بـ «أرأيتك؟».

وقال الكوفيون: إن محلّ هذه الكاف الرفع إذا قلنا «لولاك» فهي في موضع رفع. ثم تقول «لولا أنتَ» وإنما صَلَح هذا لأن الصورة في مثل هذا صورة واحدة في الرفع والنصب والخفض.

وتكون الكاف دالّة على البعد. تقول «ذا» فاذا بعُد قلتَ «ذاك».

وتكون الكاف زائدة كقوله «ليس كمثله شيء».

وتكون للعجب نحو «ما رأيت كاليوم ولا جِلْدَ مُخبَّأةٍ».

باب (اللام)

اللام – تقع زائدة في موضعين: في قولهم «عبدل» وفي قولهم «ذلك».

واللام تكون مفتوحة ومكسورة : ففي المفتوحات (لام التوكيد) وربما قيل (لام الابتداء) نحو قوله جل ثناؤه « لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً » . وقال :

لَلُبْسُ عَبَاءَة وَتَقَرَّ عيني
احَبُّ إليَّ من لبس الشُّفُوف(١).

وتكون خبراً لـ « ان » : إنَّ زيداً لقائمٌ .

ولام التوكيد : إن هذا لأَنت .

وتكون في خبر الابتداء نحو « أُم الحُلَيْس لعجوز » .

وزعم ناس أنها تقع صِلةً لا اعتبار بها . ويزعم أنه اعتبر ذلك من قراءة بعض القراء « إلا أنهم لَيأكلون » ففتح « أن » وألغى اللامَ . وأنشد بعضُ أهل العربية :

وأعلمُ علماً ليس بالظّنّ أنهُ
متى ذلَّ مولى المرء فهو ذليلُ ،
وأن لِسان المرء ـ مالم تكن له
حصاة ـ على عوراته لدليلُ(٢).

ولامُ تكون جوابَ قَسَم « والله لَأَقومَنَّ » وتلزمها النونُ فان كانت للماضي لم يُحتَجْ إلى النونْ « والله لَقامَ » .

ولام الاستغاثة نحو قولهم « يا لَلنَّاس » فان عَطَفْتَ عليها أُخرى

(١) البيت من قصيدة لميسون بنت بحدل في تفضيل البداوة وبساطتها على الحضارة وزخرفها ، أنشأتها عند ما جيء بها من البادية الى قصر معاوية بن أبي سفيان في دمشق .

(٢) البيتان لطرفة بن العبد البكري من قصيدته التي أنشدها في عبد عمرو بن بشر بن عمرو ابن مرثد ومطلعها قوله :

لهند بحزان الشريف طلول تلوح وأدنى عهدهن محيل .

وفي رواية « اذا ذل » مكان « متى ذل » و « الحصاة » التي في البيت الثاني بمعنى العقل والرأي.

كَسَرْتَ . يُنشِدون :

يُبْكيك ناءٍ بعيدُ الدّارِ مُغْتَرِبٌ
يالَلكهولِ وللشبّانِ والشِّيَبِ !(١)

قال بعض أهل العلم : إن لام الاضافة تجيء لمعان مختلفة :

منها أن تصيّرَ المضافَ للمضافِ إليه . نحو « ولله ما في السماوات » .

ومنها أن تكون سبباً لشيء وعِلةً له . مثل « انما نُطعِمُكم لِوَجهِ الله » .

ومنها أن تكون إرادةً . نحو « قمتُ لِأضرب زيداً » بمعنى قمت أريد ضَرْبَهُ .

ومنها أن تكون بمعنى « عند » مثل قوله جل ثناؤه « أقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري » و « لِدُلوكِ الشمس » أي عنده .

ومنها أن تكون بمنزلة « في » . مثل قوله جل وعز « لِأوّلِ الحَشْر » أي في أول الحشر .

ومنها أن تكون لمرور وقت . نحو قول النابغة :

تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فعرفتها
لِستّةِ أعوامٍ وذا العامُ سابعُ (٢)

ومنه قولهم « غلام له سنة » أي أتت عليه سنة .

وتكون بمعنى « بعد » مثل قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم

(١) يرويه النحويون في الشواهد : يالَلكهول وللشبان للعجب .

(٢) من قصيدته التي يمدح بها (النعمان بن المنذر) ويعتذر اليه ويهجو (مرة بن ربيعة) لما قذف عليه عند النعمان . ومطلعها :

عفا (ذو حسا) مِن (فرتنا) فالفوارع . فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

« صوموا لِرُؤيته » أي بعد رؤيته .

وتكون للتخصيص . نحو « الحمد لله » وفي الكلام « الفصاحة لقريش والصباحة لبني هاشم » .

وتكون للتعجب . نحو « لِلّه دَرُّه ! » ويُنشدون :

لِلّه يبقى على الأَيّام ذو حِيَدٍ
بِمُشْمَخِرٍّ به الظَّيّانُ والآسُ .(١)

ويقولون « يا لِلْعَجَب ! » معناه : ياقوم تعالوا الى العجب ولِلْعجب أدعو .
وقد تجتمع التي للنداء والتي للعجب فيقولون :

ألا يالَ قوم لِطَيْف الخيالِ
يُؤَرّقُ من نازِحٍ ذي دلال .

وتكون للأمر . نحو « لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » وربما حُذفت هذه فيقولون:
محمد تَفْدِ نفسَكَ كلُّ نَفْسٍ (٢)

وقالوا في لام الأمر : كان الأصل « اذهب » فلما سقطت الألف لم يوصل إلى الفعل إلا بلام ، لأن الساكن لا يُبْدأُ به .

وقوله جل ثناؤه « إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً لِيغْفِرَ لكَ الله » فقال قائل : لِمَ جاز أن تكون المغْفِرة جزاءً لِمَا امْتَنَّ به عليه وهو قوله « إنّا فتحنا لك فتحاً » ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أن الفتح وان كان من الله جلّ ثناؤه فكل فعل يفعله العبد من خير فالله الموفق له والمُيَسّر ، ثم يجازي عليه ، فتكون الحسنة من العبد مِنّةً من الله جل وعز عليه ، وكذلك جزاؤه له عنها

(١) من شواهد سيبويه .
(٢) تكملته : اذا ماخفت من شيء تبالا .

مِنَّة . والوجه الآخر أن يكون قوله جلّ ثناؤه « إذا جاء نَصرُ اللهِ والفتحُ ورأيتَ النَّاسَ يَدخُلُون في دينِ اللهِ أفْوَاجاً فَسبِّحْ بحمدِ ربِّكَ واستَغْفِرْهُ » فأمرَهُ بالاستغفار إذا جاء الفتح ، فكأنه أعلمه أنه اذا جاء الفتح واستغفر غفر لهماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فكأن المعنى على هذا الوجه : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، فاذا جاء الفتح فاستغفر ربك ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . وقال قوم : فتحنا لك في الدِّين فتحاً مبيناً لتهتدي به أنت والمسلمون فيكون ذلك سبباً للغفران .

ومن اللامات لام العاقبة . قوله جل ثناؤه « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَناً . » وفي أشعار العرب ذلك كثير :

جاءت لتُطعمَه لحماً ويَفْجَعَها
بابنٍ ، فقد أطعمت لحماً وقد فجعا .

وهي لم تجيء لذلك ، كما أنهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن صارت العاقبة ذلك .

ومن الباب قوله جل ثناؤه « ربَّنا لِيَضِلُّوا عن سَبِيلِكَ » أي : آتيتهم زينةَ الحياة فأصارهم ذلك الى أن ضلوا . وكذلك قوله جلّ ثناؤه « فتَنَّا بعضهم ببعض ليقولوا ... » هي لام العاقبة .

وتكون زائدة . نحو « هم لِرَبِّهم يَرْهَبُونَ » و « للرُّؤْيا تَعْبُرُونَ » .

باب زيادة (الميم)

والميم تزاد أولى في مثل : مُفْعَل ومِفْعَل ومَفْعَل وغير ذلك .
وتزاد في أواخر الأسماء . نحو : زُرْقُم وشَدْقَم .

و (النون)

تزاد أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة.

فالأولى ـ «نَفْعَل». وقالوا «نَرْجِس» وليس نرجس من كلام العرب، والنون لا تكون بعدها راء.

والثانية ـ نحو «ناقةٌ عَنْسَلٌ».

والثالثة ـ في «قَلَنْسُوَة».

والرابعة ـ في «رَعْشَن».

والخامسة ـ في «صَلَتَان».

والسادسة ـ في مثل «زَعْفَرَان».

وتكون في أول الفعل للجمع. نحو «نخرج».

وعلامة للرفع في «يخرجان» فإذا قلنا الرجلان فقال قوم هي عوض من الحركة والتنوين. وقال آخرون: هي فرق بين الواحد المنصوب والاثنين المرفوعين.

وتقع في الجمع نحو «مسلمون» وربما سقطت فقالوا «الحافظو عورة العشيرة[1]».

وتكون ثانية فعل المطاوعة نحو «انكسر» و «بَغَيْتُهُ فانْبَغَى».

وتكون للتأكيد مُخَفَّفَة ومُثَقَّلَة. نحو «اضْرِبَنْ» و «اضْرِبَنَّ» إلا أنها تقلب عند التخفيف في الكتاب ألفاً. نحو «لَنَسْفَعاً».

وتكون للمؤنثة. نحو «تفعلين» وللجماعة «تفعلن».

وتُلحق آخر الاسم في «زيدٌ خرج» فَرْق بين المفرد والمضاف.

(١) من بيت لدرهم بن زيد الانصاري وهو:

والحافظو عورة العشيرة لا يأتيهمو من ورائنا وَكَفُ

ويقولون : فرقاً بين ما يجري ومالا يجري . وقالت الجماعة إنما اختيرت النون لأنها أشبه بحروف الاعراب من جهة الغُنَّة .

ومما تختص به النون من بين سائر الحروف انقلابُها في اللفظ إلى غير صورتها ضرورة ، وذلك إذا كانت ساكنة وجاءت بعدها باء تنقلب ميماً . نحو « عنْبر » و « شنْباء » .

و (الهاء)

تُزاد في « يا زَيْداه » وفي « سلْطَانيهْ » وهم يسمونها (استراحة) و (بيانَ حركة) . وللوقف على الكلمة نحو « عِهْ » و « شِهْ » و « اقْتَدِهْ » .

باب (الواو)

لاتكون الواو زائدةً أولى . وقد تزاد ثانيةً وثالثة ورابعة وخامسة .

فالثانية نحو « كوثر » . والثالثة نحو « جدول » . والرابعة نحو « قَرنُوة » . والخامسة نحو « قَمَحْدُوة » .

وتكون للنَّسَق ، وهو العطف ، نحو « زيد وعمرو » .

وتكون علامةَ رفع نحو « أخوك والمسلمون » .

فاذا قالوا « يُعجبني ضَرْبُ زيدٍ وتَغْضَبَ » فقال قوم : نُصِبَ « تَغضبَ » على إضمار « أنْ » معناه وأن تغضب فيصيرُ في معنى المصدر . كأنك قلتَ « يعجبني ضَرْبُ زيد وغضبُكَ » فتخرج بذلك من أن تكون ناسقةَ فعلاً على اسم . ويقولون :

لَلُبْس عباءة وتَقَرَّ عيني

بمعنى وأن تقرّ عيني . فان نَسَقْتَ فعلاً على فعل مجموعين فاعرابُهما

واحد نحو « يقوم ويضرب زيداً » فإن لم تُرِدِ الجمعَ بينهما نصبتَ الثاني فيقال نَصبَ باضمار « أنْ » يقولون « لا تأكلِ السمكَ وتشربَ اللبنَ » و:

لا تَنْهَ عن خُلُق وتَأْتِيَ مِثْلَهُ (١)

وتكون بمعنى الباء في القَسَم نحو « واللهِ » .

وتكون الواو مُضْمَرَة في مثل قوله جل ثناؤه « ولا على الذينَ إذا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهم قلت : لا أجدُ ما أحْمِلُكم عليه تولَّوْا » التأويل : ولا على الذين ـ إذا ما أتوك لتحملهم وقلت : لا أجد ما أحملكم عليه ـ تولوا . فجواب الكلام الأول تولّوا .

وتكون بمعنى « رُبّ » . نحو « وَقَاتِمِ الأعْماقِ » .

وتكون بمعنى « معَ » كقولهم « استَوَى الماءُ والخَشَبَةَ » أي مع الخشبة وأهل البصرة يقولون في قوله جلّ ثناؤه « فأجْمِعوا أمْرَكم وشُرَكاءَكم » معناها مع شركائكم . كما يقال «لو تُرِكت الناقة وفَصِيلَها » أي مع فصيلها . وقال آخرون : أجْمِعوا أمركم وادعوا شركاءكم ، اعتباراً بقوله جلّ وعز « وادعوا من استطعتم » .

وتكون صِلَةً زائدةً كقوله جلّ وعز « إلاّ ولها كتابٌ معلوم » المعنى إلا لها .

وتكون بمعنى « اذ » كقوله جلّ وعز « وطائفةٌ قد أهَمَّتْهُم » يريد اذ طائفة . وتقول « جيئت وزيدٌ راكب » أي اذ زيد .

وقال قوم : للواو معنيان : معنى اجتماع ومعنى تفرُّق نحو « قام زيد

---

(١) تمامه : عار عليك اذا فعلت عظيم .
وهذا البيت ينسب لابي الاسود الدؤلي وقيل لغيره .

وعمرو » . وان كانت الواو في معنى اجتماع لم تُبَلْ بأيّهما بَدأتَ . وان كانت في معنى تَفرُّق فعمرو قائم بعد زيد .

وذهب آخرون الى أن الواو لا تكون إلاّ للجمع . قالوا : اذا قلت « قام زيد وعمرو » جاز أن يكون الأمر وقع منهما جميعاً معاً في وقت واحد وجاز أن يكون الأول تقدم الثاني ، ونكتة بابها أنّها للجمع .

وتكون الواو عَطْفاً بالبناء على كلام يُتوَهَّم وذلك قولك — اذا قال القائل « رأيتُ زيداً عند عمرو » — قلتَ أنتَ « أوَ هو ممن يُجالسه ؟ » قال البصريون: معناهُ كأنّ قائلا قال « هو ممن يجالسه » فقلتَ أنت « أوَ هو كذلك ؟ » . وفي القرآن « أوَ أَمِنَ أهلُ القُرى ؟ » وكذلك قوله جل ثناؤه « إنّا لَمَبْعوثُون ، أوَ آباؤنا ؟ » فليس بأو إنما هي واو عطف دخل عليها ألف الاستفهام كأنه لما قيل لهم « إنكم مبعوثون وآباؤكم » استفهموا عنهم.

وتكون الواو مُقْحَمَةً كقوله جلّ ثناؤه « فاضْرِبْ بِهِ ولا تَحْنَثْ » أراد — والله أعلم — فاضرب به لا تحنث ، جزماً على جواب الأمر ، وقد تكون نهياً والأول أجود . وكذلك « مَكنّا لِيوسُفَ في الأرض ولِنُعلّمهُ » أراد « لنعلمه » وقد قيل « ولنعلمه فعلنا ذاك » . وكذلك « وحِفْظاً من كل شيطان » أي « وحفظا فعلنا ذلك » . وقوله :

فَلمَّا أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحى (١)

قيل : هي مُقْحمَة . وقيل : معناه أجزنا وانتحى .

---

(١) من معلقة (امرئ القيس) وتمامه :

بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل .

باب (الياء)

الياء ـ تُزاد أولى وثانيةً وثالثة ورابعة وخامسة .

فالأولى « يَرْمَعٌ [١] » و « يرْبوعٌ » . والثانية « حَيْدَرٌ [٢] » . والثالثة « خَفَيدَدٌ » . والرابعة « إصليتٌ [٣] » . والخامسة « ذَفاري [٤] » .

وتكون أولى في الافعال نحو « يضرب » .

وللاضافة نحو « عِبادِي » .

وللتثنية والجمع نحو « الزَّيْدَيْنِ » والزَّيْدِينَ » .

وتكون علامة للخَفْض نحو « أَخيك » .

وللتَّأنيث نحو « استَغْفِرِي » .

وللتَّصغير نحو « بُيَيْتٌ » .

وللنَّسَب نحو « كُوفِيّ » .

---

(١) اليرمع : الحصى الابيض الذى يلمع ، أخذ من رماءة الصبي وهي مايرمع (يتحرك) من يافوخه في أوان الرضاع .

(٢) الحيدر : القصير .

(٣) سيف اصليت : ماض في الضريبة مشتق من « صلت » وهو الأملس البراق .

(٤) هذه الكلمة مشتبهة في رسمها بين « ذفاري» و « ذباري » لتقاربهما في القاعدة المغربية التي كان المرحوم الشنقيطي يكتب بها .



باب القول على الحروف المفردة

الدَّالَّةِ على المعنى

وللعرب الحروف المفردة التي تدلُّ على المعنى . نحو التاء في « خَرَجْتُ » و « خَرَجْتَ » . و « ثَوْبي » و « فَرَسي » .[1]

ومنها حروف تدلّ على الأفعال نحو « إزيداً[2] » أي عِدْهُ . و « حِ » من وحَيْتُ . و « دِ » من وَدَيْتُ و « شِ » من وَشَيْتُ و « عِ » من وَعَيْتُ و « فِ » من وَفَيْتُ و « قِ » من وقَيْتُ و « لِ » من وَلِيتُ و « نِ » من وَنَيْتُ و « هِ » من وَهَيْتُ ، الاّ أنّ حذّاقَ النحويين يقولون في الوقف عليها « شِهْ » و « دِهْ » فيقفون على الهاء .

ومن الحروف ما يكون كناية ولَهُ مواضع من الاعراب نحو قولك « ثوبه » فالهاء كنايةٌ لها محلٌّ من الاعراب .

ومنه ما يكون دَلالةً ولا محلّ له مثل « رأيتهما » فالهاء اسم له محلّ والميم والألف علامتان لا محلّ لهما ، فعلى هذا يجيء الباب .

فأمّا الحروف التي في كتاب الله جلّ ثناؤه فواتحَ سور فقال قوم : كل حرف منها مأخوذ من اسم من أسماء الله ، فالألف من اسمه « الله » واللام من « لطيف » والميم من « مجيد » . فالألف من آلائه واللام من لطفه والميم من مجده . يُروَى ذا عن (ابن عباس) وهو وجه جَيد ، وله في كلام العرب

(١) كذا بالاصل ولا يستقيم . وصوابه : ونحو الياء في « ثوبي » و « فرسي » . الشنقيطي

(٢) من « وأى وأياً » بمعنى وعد . وتقول العرب « لاخير في وأي انجازه بعد لاي » أي بعد بطء .

شاهد ، وهو :

قلنا لها : قفي . فقالت : قاف .

وقال آخرون : ان الله جل ثناؤه أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو الكتاب الذي أنزله الله جل ثناؤه لاشك فيه . وهذا وجه جيد ، لأن الله جلّ وعزّ دل على جلالة قدر هذه الحروف ، اذ كانت مادّة البيان ومباني كتب الله عزّ وجل المنزلة باللغات المختلفة ، وهي أصول كلام الأمم ، بها يتعارفون ، وبها يذكرون الله جلّ ثناؤه . وقد أقسم الله جل ثناؤه في كتابه بالفجر والطور وغير ذلك ، فكذلك شأنُ هذه الحروف في القسم بها .

وقال قوم : هذه الأحرف من التسعة وعشرين حرفاً دارتْ بها الألسنة ، فليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه جل وعز ، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبلائه ، وليس منها حرف الا وهو في مدة أقوام وآجالهم : فالألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون . رواه (عبد الله بن أبي جعفر الرازي) عن أبيه عن (الرّبيع بن أنس) وهو قول حسَنٌ لطيف ، لأنّ اللهَ جلّ ثناؤه أنزل على نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الفرقان فلم يدع نظماً عجيباً ولا علماً نافعاً الا أودعه اياَّهُ ، عَلِمَ ذلك من عَلِمهُ وجهِلهُ من جهِلَهُ . فليس منُكراً أن ينزل الله جلّ ثناؤه هذه الحروفَ مشتملة ــ مع ايجازها ــ على ما قاله هؤلاء .

وقولٌ رُوِي عن (ابن عباس) في «ألم» : أنا الله أعلم . وفي «ألمص» : أنا الله أعلم وأفصل . وهذا وجه يقرب مما مضى ذكره من دَلالة الحرف الواحد على الاسم التامّ والصفة التامّة .

وقال قوم : هي أسماء للسُّور فـ « ألم» اسم لهذه و « حم » اسم لغيرها . وهذا يُؤثَرُ عن جماعة من أهل العلم ، وذلك أن الأسماء وضعت للتمييز ، فكذلك هذه الحروف في أوائل السُّوَر موضوعة لتمييز تلك السُّور من غيرها .

فان قال قائل : فقد رأينا « ألم » افتتح بها غير سورة ، فأين التمييز ؟ قلنا : قد يقع الوفاق بين اسمين لشخصين ، ثم يميز ما يجيء بعد ذلك من صفة ونعت كما قيل « زيد وزيد » ثم يميزان بأن يقال « زيد الفقيهُ » و « زيد العربيُّ » فكذلك إذا قرأ القارئ « ألم ذلك الكتاب » فقد ميزها عن التي أولها « ألم الله لا إله الا هو » .

وقال آخرون : لكل كتاب سرٌّ وسرّ القرآن فواتح السور . وأظنّ قائل هذا أراد أن ذلك من السرّ الذي لا يعلمه إلا الخاص من أهل العلم والراسخون فيه .

وقال قوم : إن العرب كانوا اذا سمعوا القرآن لغوا فيه وقال بعضهم لبعض «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» فأنزل الله تبارك وتعالى هذا النظم ليتعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم ، واستماعهم له سبباً لاستماع ما بعده ، فترق حينئذ القلوب وتلين الأفئدة .

وقول آخر : ان هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي أ ب ت ث فجاء بعضها مقطعاً وجاء تمامها مؤلفاً ليدل القوم الذين نزل القرآن فيما بين ظهريهم أنه بالحروف التي يعقلونها فيكون ذلك تقريعا لهم ودلالة على عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد أن أعلموا أنه منزل بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها .

قال (أحمد بن فارس) : وأقرب القول في ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا : إن أولى الأمور أن تجعل هذه التأويلات كلها تأويلاً فيقال : إن الله جل وعز افتتح السور بهذه الحروف ارادةً منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنىً واحد . فتكون الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً للسور ، وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله جل ثناؤه ، وأن يكون الله جل ثناؤه قد وضعها هذا الموضع قسماً بها ، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين ، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز في انعامه وافضاله ومجده ، وأن الافتتاح بها سبب لأن يستمع الى القرآن من لم يكن يستمع ، وأن فيها اعلاماً للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو بهذه الحروف ، وأن عجزهم عن الاتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعالمة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجحودهم ، وأن كل عدد منها اذا وقع في أول سورة فهو اسم لتلك السورة .

وهذا هو القول الجامع للتأويلات كلها من غير اطراح لواحد منها .

وانما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلاً من حيث يزول به العذر ، لأن المرجع الى أقاويل العلماء ، ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالطعن وهم من العلم بالمكان الذي هم به ، ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق . والله أعلم بما أراد من ذلك .

باب الكلام في حروف المعنى

رأيتُ أصحابنا الفقهاء يضمّنون كتبهم — في أصول الفقه — حروفاً من حروف المعاني، وما أدري ما الوجه في اختصاصهم إيّاها دون غيرها. فذكرت عامّة حروف المعاني رسماً واختصاراً، فأوّل ذلك ما كان أوّله ألف:

باب (أم)

أم — حرف عطف نائب عن تكرير الاسم أو الفعل نحو «أزيد عندك أم عمرو؟».

ويقولون: ربّما جاءت لقطع الكلام الاوّل واستئناف غيره، ولا يكون حينئذ من باب الاستفهام. يقولون «إنّها لَإِبِلٌ أم شاء». ويكون ههنا — في قول بعضهم — بمعنى «بل» كقوله جلّ ثناؤه «أم يقولون شاعر» وينشدون:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط
غلس الظلام من الرّباب خيالا(١)

وقال أهل العربية: أمررت برجل أم امرأة «أم» تُشرك بينهما كما أشركت بينهما «أو».

وقال آخرون: في «أم» معنى العطف، وهي استفهام كالألف، إلاّ أنها لا تكون في أول الكلام لأن فيها معنى العطف.

وقال قوم: هي «أو» أبدلت الميم من الواو لتحول الى معنى، يريد الى معنى «أو» وهو قولك في الاستفهام «أزيد قام أم عمر؟» فالسؤال

(١) من قصيدة للاخطل في هجو جرير.

عن أحدهما بعينه . ولو جيئت بـ « أو » لسألت عن الفعل . وجواب أو « لا » أو « نعم » وجواب أم « فلان » أم « فلان » .

وقال (أبو زيد) : العرب تزيد « أم » . وقال في قوله جل ثناؤه « أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهِينٌ » : معناه « أنا خير » .

وكان (سيبويهِ) يقول : « أفلا تبصرون » : أم أنتم بصراء .

وكان (أبو عُبَيْدة) يقول : « أم » يأتي بمعنى ألف الاستفهام كقوله جل ثناؤه « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ؟ » بمعنى « أتريدون ؟ » .

وقال (أبوزكريا الفراء) : العرب تجعل « بل » مكان « أم » وأم مكان بل . إذا كان في أول الكلمة استفهام . فقال :

فوالله ما أدري أسلمى تغوّلتْ ،
أم النومُ ، أم كلٌّ إليّ حبيب .

معناها « بل » .

فأما قوله جلّ ثناؤه « أم حَسِبْتَ أن أصحابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانوا من آياتنا عجباً ؟ » فقيل : أظننت يا محمد هذا ، ومن عجائب ربك جل وعزّ ماهو أعجب من قصة أصحاب الكهف ؟

وقال آخرون : « أم » بمعنى ألف الاستفهام كأنه قال « أَحَسِبْتَ ؟ » و « حسبت » بمعنى « علمت » ويكون الاستفهام في « حسبت » بمعنى الامر كما تقول لمن تخاطبه « أعلمت أن زيداً خرج ؟ » بمعنى أمر أي اعلم أن زيداً خرج . قال : فعلى هذا التدريج يكون تأويل الآية : إعلم يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً .

باب (أو)

أو — حرف عطف يأتي بعد الاستفهام للشكّ : « أزيد عندك أو بكر ؟ » تريد «أحدهما عندك ؟ » فالجواب « لا » أو « نعم » . وإذا جعلت مكانها « أم » فأنت مثبت أحدهما غير أنّك شاكٌّ فيه بعينه فتقول « أزيد عندك أم عمرو ؟ » فالجواب « زيد » أم « عمر » .

وتكون « أو » للتخيير كقوله جل ثناؤه « فإطعامُ عشرةِ مساكينَ من أوسطِ ما تُطعِمون أهليكم ، أو كِسْوتُهم ، أو تحريرُ رقبة » .

وتكون للاباحة تقول « خذ ثوباً أو فرساً » .

وأمّا قوله جلّ ثناؤه «ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفورا » فقال قوم: هذا يُعارَض ويُقابَلُ بضدّه فيصحّ المعنى ويبين المراد ، وذلك أنّا نقول « أطِعْ زيداً أو عمراً » فانما نريد أطع واحداً منهما ، فكذا إذا نهيناه وقلنا « لا تطع زيداً أو عمراً » فقد قلنا لا تُطع واحداً منهما .

وقوله جلّ ثناؤه « الى مائة ألف أو يزيدون » فقال قوم : هي بمعنى الواو « ويزيدون » . وقال آخرون : بمعنى « بل » . وقال قوم : هي بمعنى الاباحة كأنه قال : إذا قال قائل « هم مائة ألف » فقد صدق وان قال غيره « بل يزيدون على مائة ألف » فقد صدق . وقول القائل « مررت برجل أو امرأة » فقد أشركَتْ « أو » بينهما في الخفض واثبتت المرور بأحدهما دون الآخر .

وتكون « أو » بمعنى « إلاّ أنْ » تقول « لألزمنَّك أو تُعطيني حقي » بمعنى إلاّ أن تعطيني . قال امرؤ القيس (١) :

---

(١) من قصيدته التي أنشدها وهو ذاهب من الجزيرة العربية الى قيصر الروم في القسطنطينية

فقلتُ له لاتبكِ عينُكَ ، إنَّما
نُحاول مُلكاً أو نَموتَ فنُعذَرا .

وزعم قوم أن «أو» تكون بمعنى الواو ويقولون : كل حق لها داخل فيها أو خارج منها ، وكل حق سميناه في هذا الكتاب أو لم نسمه وان شئت قلت بالواو وأنشدوا :

فذلكما شهرين أو نصفَ ثالث
الى ذا كما ماغيَّبتني غيابيا .

وكان الفراء يقول : في «مائة ألف أو يزيدون» : بل يزيدون. وقال بعض البصريين منكراً لها : لو وقعت « أو » في هذا الموضع موقع «بل» لجاز أن تقع في غير هذا الموضع وكنا نقول « ضربت زيداً أو عمراً » على غير الشك لكن بمعنى « بل » ، وهذا غير جائز قالوا : ووجه آخر أنَّ بل تأتي للاضراب بعد غلط أو نسيان، وهذا منفيّ عن الله جل ثناؤه ، فان أتي بها بعد كلام قد سبق من غير القائل فالخطأ انما لحِقَ كلام الأول نحو قوله جلّ ثناؤه « وقالوا : اتخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً » فهم أخطوءا في هذا وكفروا به فقال جل وعز « بل عباد مكرمون » . وزعم قوم أن معناها « أو يزيدون على ذلك » .

قلنا : والذي قاله (الفراء) فقول قد تقدمه فيه ناس . وقول من قال : ان «بل» لايكون الاّ اضراباً بعد غلط أو نسيان فخطأ ، لأن العرب تُنشد :

يستعين به على (المنذر بن ماء السماء) وعلى (بني أسد) الذين قتلوا والد امرئ القيس وكان أميرا عليهم . ومطلع القصيدة قوله :

سمالك شوقي بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

والبيت الذي قبل الذي ذكره ابن فارس قوله عن صاحبه (عمرو بن قميئة) :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

بل ما هاج أحزاناً وشجواً قد شجا [١]

وهذا ليس من المعنيين في شيء .

فأما قوله « أو أشَدُّ قَسْوَةً » وما أشبهه من قوله عز وجل « كلمح البصر أو هو أقرب » أن المخاطب يعلمه ، لكنه أبهمه على المخاطَب وطواه عنه . وقال آخرون : بعضها كالحجارة وبعضها أشدّ قسوة . أي هي ضربان : ضرب كذا أو ضرب كذا .

باب إي وأيْ

إي — في زعم أهل اللغة يكون بمعنى « نعم » تقول « إي وربي » أي « نعمْ وربّي » قال الله جل ثناؤه « وَيستنبؤُنكَ أحَقٌّ هو ؟ قل : إي وربي »

وأيْ — معناها « يقول » ومثال ذلك أن تقول في تفسير « لاريب فيه » : « أي لاشك فيه » ، المعنى : يقول لاشك فيه .

وسمعتُ أبا بكر أحمدَ بن عليّ بن اسماعيل الناقد يقول سمعت أبا اسحاق الحربيّ يقول سمعت عمر بن أبي عمرو الشّيْبانيّ يقول : سألت أبي عن قولهم « أيْ » ، فقال : كلمةٌ للعرب تُشيرُ بها الى المعنى .

باب إنّ وأنّ وإنْ وأنْ

قال (الفرّاء) : « إنّ » مقدرة لقسم متروك استُغْنِيَ بها عند التقدير : « والله انّ زيداً عالمٌ » . وكان (ثعلب) يقول : ان زيداً لقائم » هو جواب « مازيد بقائم » ف« انّ » جواب « ما » و « اللام » جواب « الباء » . وكان

(١) مطلع أرجوزة مشهورة من نظم (العجاج) ولفظ « بل » زائد على الاصل . وبقية البيت قوله :
من طلل كالأتحمي أنهجا

بعض النحويين يقول : « انّ » مُضارِعَة للفعل لفظاً ومعنىً : أما اللفظ فللفتحة [١] فيها كما تقول «قامَ » . والمعنى [٢] في « ان زيداً قائم » : ثبت عندي هذا الحديث . وقال (سيبويه) : سألت (الخليل) عن رجل سميناه بـ« ان » كيف اعرابه ؟ قال : بفتح الألف لأنه يكون كالاسم ، واذا كان بكسر الألف لكان كالفعل والأداة ، ولذلك نُصب في ذاته لأنه كالفعل ومعناه التثبيت للخبر الذي بعده ، ولذلك نصب به الاسم الذي يليه . ومما يدل على أن « إن » للتثبيت قول القائل :

إنَّ محَلاًّ وانَّ مُرْتَحَلا

وانَّ في السَّفْرِ ما مضوا مَهَلا [٣]

وتكون « أنّ » — بمعنى « لَعَلّ » في قوله عزّ وجل « وما يشعركم أنّها إذا جاءت » بمعنى « لعلّها إذا جاءت » . وحكى (الخليل) : «إئتِ السوقَ أنّكَ تشتري لنا شيئاً » بمعنى « لعلّكَ » .

و « أنّ » إذا كانت اسماً كانت في قولك « ظننت أن زيداً قائم » فيكون « أن » والذي بعدها قصةً وشأناً نحو « ظننت ذاك » فيكون محلّه نصباً ، وإذا قلت « بلغني أن زيداً عالمٌ » فهذا في موضع رفع . وإذا قلنا « عجبت من أنّ زيداً كذلكَ » فمحله خفض على ما رتبناه من أنه اسم .

وأما « إنْ » — فانها تكون شرطاً ، تقول «إنْ خرجتَ خرجتُ» .

وتكون نفياً كقوله جلّ وعزّ « إنِ الكافرون إلا في غُرور »

---

(١) يعني أن مشابهة « ان » للفعل لفظا بفتح آخرها .

(٢) يعني أن مشابهتها للفعل من حيث المعنى بكونها تفسر به .

(٣) مطلع قصيدة من شعر (الاعشى) ومنها قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا

وكقول الشاعر :

وما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ (١)

وتكون بمعنى « إذْ » قال الله جل وعز « وأنتم الأَعْلَوْنَ انْ كنتم مؤمنين » بمعنى « اذ » لأنه جل وعز لم يخبرهم بعلوّهم الا بعد ما كانوا مؤمنين .

وزعم ناس أنها تكون بمعنى « لقد » في قوله جلّ ثناؤه « ان كُنّا عن عبادتكم لغَافِلينَ » بمعنى « لقد كنا » .

و « أنْ » — تجعلُ الفعلَ بمعنى المصدر ، كقوله جل ثناؤه « وأن تصوموا خيرٌ لكم » بمعنى « والصوم خير لكم » .

وتكون بمعنى « اذ » تقول « أعجبني أنْ خرجتَ » و« فرحتُ أنْ دخلتَ الدار » .

---

(١) ورد في كتب الأدب بالرفع « وما ان طبنا جبن » وهو من قصيدة أنشدها (فروة بن مسيك بن الحارث بن سلمة المرادي الصحابي) وتروى لعمرو بن قماس . وقيل في سبب انشادها أن (همدان) جمعت ا (مراد) في أيام الجاهلية جمعا كثيرا وساروا اليهم فالتقوا في (الاحرمين) فظفروا بمراد وأصابوا منهم ، فقال في ذلك فروة :

ان نهزم فهزامون قدما وان نهزم فغير مهزمينا
وان طبنا جبن ولكن منايانا ودولة آخرينا
فبيناه يسر به ويرضى ولو مكثت غضارته سنينا
اذا انقلبت به كرات دهر فألفى بعد غبطته منونا
ومن يغبط (يغرر) بريب الدهر يوما يجد ريب الزمان له خؤونا
فأفنى ذلكم سروات قومي كما أفنى القرون الاولينا
فلو خلد الملوك اذن خلدنا ولو بقي الكرام اذن بقينا

ويروى منها:

اذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا : أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
كذاك الدهر دولته سجال تكر صروفه حينا فحينا

وقد تُضْمَر في قوله :

ألا أيُّهذا الزَّاجِرِيّ أحْضُرَ الوغا [١]

وتكون بمعنى « أي » قال الله جل ثناؤه « وانْطَلَقَ الملأُ منهم أنِ امشُوا » بمعنى : أي امشوا .

باب (الى)

تكون « إلى » بمعنى الانتهاء ، تقول « خرجتُ من بَغْدادَ الى الكوفة » .

وتكون بمعنى « مع » . قالوا في قوله جلّ ثناؤه « مَنْ أنصاري الى الله؟ » : بمعنى « مع الله » وقال قوم : معناها مَن يُضيف نُصرتَه الى نصرة الله جل وعز لي ؟ فيكون بمعنى الانتهاء ، وكذلك قوله جلّ ثناؤه « ولا تأكلوا أموالَهم الى أموالكم » .

وربّما قامت « الى » مقام « اللام » قال (الشَّمَّاخ) :

فالْحق بِبَجلةَ ، ناسِبْهُم وكُنْ معهُمْ
حتّى يُعيرُوكَ مجداً غيرَ مَوْطُودِ .
واتركْ تُراثَ خُفافٍ إنهم هلكوا
وأنت حَيٌّ الى رِعْلٍ ومَطرُودِ [٢]

---

(١) من معلقة (طرفة بن العبد) وفي رواية « ألا أيهذا اللائمي » وفي رواية أخرى :

ألا أيهذا اللاحي أن أشهد الوغى وأن أحضر اللذات هل أنت مخلد ؟

والشاهد هنا نصب « أحضر » مع اضمار « أن » على رواية الكوفيين ، والبصريون يرفعونها.

(٢) البيتان من قصيدة (الشماخ بن ضرار الغطفاني) التي يهجو بها (لربيع بن علباء السلمي) ومطلعها :

طال الثواء على رسم بيمؤد أودى وكل خليل مرة مود

و (بجلة) التي في البيت الاول اسم لقبيلة . و (خفاف) التي في البيت الثاني اسم رجل تنسب اليه طائفة . و (رعل) قبيلة منسوبة الى (رعل بن مالك بن عوف) وهي في (اليمن) . و (مطرود) قبيلة منسوبة الى (مطرود بن كعب) . قيل ان الثلاثة بنو أب واحد . وقيل ان (خفافا) غير (رعل) و (مطرود) . والشاهد مجيء « الى » بمعنى « اللام » .

يقول : اترك تُراث (خفاف) لرعل ومطرود . وخفافٌ ورعل ومطرود بنو أب واحد . وأخبرنا عليّ ابن ابراهيم القطان عن ثعلب عن (ابن الأعرابي) قال : ألقى عليّ أعرابيٌّ هذا البيت فقال لي : ما معناه ؟ فأجبته بجواب ، فقال لي : ليس هو كذا . وأجابني بهذا الجواب . وكان الذي أجابهُ به ابنُ الأعرابي أن خفافاً من غير رعل ومطرود .

باب (ألاَ)

ألاَ — افتتاح كلام . وقد قيل : إن « الهمزة » للتنبيه و « لا » نفيٌ لدعوى في قوله جلّ ثناؤه « انما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون » فالهمزة تنبيهٌ لمخاطب و « لا » نفي للاصلاح عنهم .

وفي كلام العرب كلمة اخرى تُشبهها لم تجيءْ في القرآن وهي « أمَا » وهي كلمة تحقيق إذا قالت « أمَا إنّه قائمٌ » فمعناه « حقًّا إنّه قائمٌ » .

باب (إنما)

سمعت عليَّ بن ابراهيم القطّان يقول سمعت ثعلباً يقول سمعت سلمة يقول سمعت الفرّاء يقول : إذا قلتَ « انّما قمْت » فقد نفيتَ عن نفسكَ كلَّ فعل إلاّ القيام ، وإذا قلت « إنما قامَ أنا » فانك نفيتَ القيامَ عن كلّ أحد وأثبتَّهُ لنفسك .

قال الفرّاء : يقولون « ماأنتَ إلاَ أخي » فيدخل في هذا الكلام الافراد ، كأنه ادّعى أنه أخٌ ومولىً وغير الأخوّة ، فنفى بذلك ماسواها . قال : وكذلك اذا قال « إنما أنت أخي » . قال الفراء : لايكونان أبداً إلا ردّاً ،

يعني أن قولك «ما أنت إلا أخي» و «إنما قام أنا» لا يكون هذا ابتداء أبداً وإنما يكون ردّاً على آخر، كأنه ادّعى أنه أخٌ ومولىً وأشياء أُخر، فنفاه وأقرّ له بالأخوة، أو زعم زاعم أنه كانت منك أشياء سوى القيام فنفيتَها كلّها ما خلا القيام.

وقال قوم: «إنما» معناه التحقير. تقول «إنما أنا بشر» محقراً لنفسك. وهذا ليس بشيء: قال الله جل ثناؤه «إنما الله إلهٌ واحد» فأين التحقير هاهنا؟

والذي قاله الفرّاء صحيح، وحجته قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «إنما الولاء لمن أعتق».

باب (إلاّ)

أصل (الاستثناء) - أن تستثني شيئاً من جملة اشتملت عليه في أول ما لفظ به، وهو قولهم «ما خرج الناسُ إلا زيداً» فقد كان «زيد» في جملة الناس ثم أُخرج منهم، ولذلك سمي (استثناءً) لأنه ثُنِّيَ ذكره مرةً في الجملة ومرّة في التفصيل. ولذلك قال بعض النحويين: المستثنى خرج مما دخل فيه، وهذا مأخوذ من «الثِّنَا» والثِّنا الأمر يثنَّى مرّتين: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لا ثِنا في الصدقة» يعني لا تؤخذ في السنة مرتين. قال (أوس):

أفي جَنْبِ بَكْرٍ قطَّعتْني ملامةً؟
لعَمري لقد كانت ملامتُها ثِنا.

يقول: ليس هذا بأوّل لومها، فقد فعلته قبل هذا، وهذا ثِناً بعده.

في شعر العرب قول (أبي خراش) :

نجا سالم ، والنفس منه بشدقه ،

ولم ينجُ إلا جفنَ سيفٍ ومئزَرا .

فاستثنى الجفن والمئزر وليسا من سالم، إنما هذا على الاختصار. وأنشد :

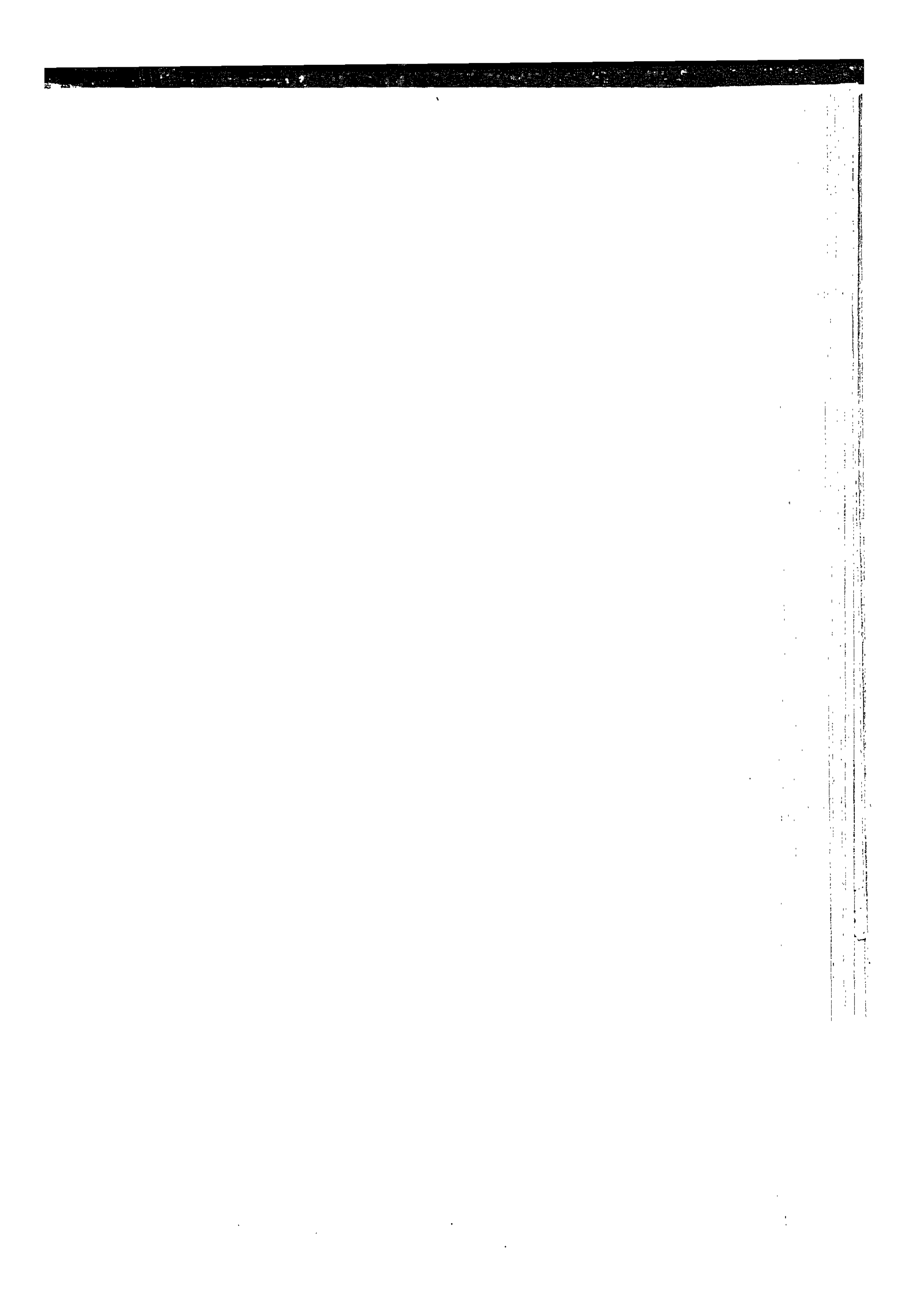
وبلدة ليس بها أنيسُ

إلاّ اليعافير والا العيسُ

معناه « لكن فيها » ومثله قوله جلّ ثناؤه « فانهم عَدُوّ لي ، إلا رب العالمين » وأما قوله « لئلا يكون للناس عليكم حجة ، الا الذين ظلموا » فقال قوم أراد « الا على الذين ظلموا فان عليهم الحجة » ويكون حينئذ « الذين » في موضع خفض ويكون أيضاً على «لكن الذين ظلموا فلا تخشوهم» تبتدئه . وقال « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا » فهذا قد انقطع من الاوّل ويجوز أن يكون على الاستثناء من أوله كأنه قال « الا الذين ظلموا فجادلوهم بالتي هي أسوأ من لسان أو يدٍ » أي أغلظ ، يريد مشركي العرب . وقوله جلّ ثناؤه « لايحب الله الجهر بالسوء من القول ، الا من ظُلم » قال قوم إنما يريد المُكْرَه لأنه مظلوم فذلك عنه موضوع وإن نطق بالكفر . والاستثناء باب يطول .

وقد يُستثنى من الشيء الموحَّد لفظاً وهو في المعنى جمع ، نحو « ان الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا » .

واستثناء الشيء من غير جنسه لا معنى له مع الذي ذكرناه من حقيقة الاستثناء .



وإذا جمع الكلام ضروباً من المذكورات وفي آخره استثناء فالأمر الى الدليل فان جاز رجعه على جميع الكلام كان على جميعه كقوله جل ثناؤه « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله – ثم قال – الا الذين تابوا » والاستثناء جائز في كلّ ذلك والذي يمنع منه الدليل قوله جل ثناؤه « فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً » فالاستثناء هاهنا على ما كان من حق الله جل ثناؤه دون الجلد .

باب من (الاستثناء) آخر

قال قوم : لا يُستثنى من الشيء الا ما كان دون نصفه : لا يجوز أن يقال عشرة إلا خمسة . وقال قوم : يُستثنى القليل من الكثير ويستثنى الكثير مما هو أكثر منه . وهذه العبارة هي الصحيحة . فأما من يقول : يُستثنى الكثير من القليل فليست بالعبارة الجيدة ، قالوا : فيقال «عشرة إلا خمسة» حتى يبلغ التسعة قالوا : ومن الدليل على أن نصف الشيء قد يستثنى من الشيء قوله جلّ ثناؤه « ياأيها المزَّمّلُ قُم الليلَ الا قليلا — ثم قال — نصفه » أفلا تراه سمي النصف قليلا واستثناه من الأصل ؟

قال أحمد بن فارس : واعترض قوم بهذا الذي ذكرناه على (أبي عبد الله مالك بن أنس) في قوله في (الجائحة) لأن مالكاً يذهب الى أن الجائحة اذا كانت دون الثلث لم يوضع لأنها قليل بمنزلة ما تناله (العوافي) من الطير وغيرها وما تلقيه الريح ، فاذا بلغت الجائحة الثلث وما زاد فهي كثيرة ولزم وضعها للحديث المرويّ فيها . قال المعترض على أبي عبد الله مالك رضي الله تعالى عنه : فقد دفع هذا الفصل المعنى الذي ذهب اليه مالك ، لأن قوله جل

ثناؤه «قُمِ الليلَ إلا قليلا» قد جعل النصف قليلا، فاذا كان نصف الشيءُ قليلا منه وجب أن يكون كثيره ما فوق النصف.

فالجواب عن هذا أن مالكاً انما ذهب في جعله الثلث كثيراً الى حديث حدثناه (عليّ بن ابراهيم) عن محمد بن يزيد عن هشام بن عمار عن ابن عيينة عن الزهري عن (عامر بن سعد) عن أبيه قال «مرضتُ عامَ الفتح حتى أشرفت، فعادَني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت: أي رسول الله إن لي مالاً وليس يرثني إلا ابنتي أفأتصدّق بثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير، إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالَةً يتكففون الناس» فبقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ مالك، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم بتأويل كتاب الله جل ثناؤه.

باب (إيّا)

إيّا - كلمة تخصيص. إذا قلت «إياك أردتُ» وكان الأصل «أردتك» فلما قدمت الكاف كما تقدم المفعول به في «ضربت زيداً» لم تستقم كاف وحدها مقدمة على فعل فوصل بها «إيّا».

وقد تكون «إيّا» للتحذير كقوله:

فإيّاكم وحيّةَ بطن وادٍ
هموزَ الناب ليس لكم بسيّ.

باب (اذا)

تكون «اذا» شرطاً في وقت موقت. تقول «اذا خرجتَ خرجتُ»

وزعم قوم أن « اذا » تكون لغواً وفضلا وذكروا قوله جلّ ثناؤه « إذا السماء انشقت » قالوا : تأويله « انشقت السماء » كما قال « اقتربت الساعة » و « أتى أمر الله » . قالوا : وفي شعر العرب قوله :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدةٍ
شلاًّ كما تطرد الجمّالةُ الشردا

المعنى : حتى أسلكوهم .

وأنكر ناس هذا وقالوا : « إذا السماء انشقت » لها جواب مضمر . وقول القائل « حتى إذا أسلكوهم » فجوابه قوله « شلاًّ » ، يقول « أسلكوهم شلّوهم شلاًّ » . واحتج أصحاب القول الأول بقول الشاعر :

فاذا وذلك لا مَهاةَ لذكره
والدهرُ يَعْقِب صالحاً بفساد

قالوا : المعنى « وذلك » .

وقال أصحاب القول الثاني : الواو مقحمة . المعنى « فاذا ذلك » . وقولهم « إذا فعلت كذا » يكون على ثلاثة أضرب : ضربٌ يكون المأمور به قبل الفعل تقول « إذا أتيتَ الباب فالبس أحسنَ لباس » ومنه قوله جل ثناؤه « إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا » . وضربٌ يكون مع الفعل كقولك « إذا قرأتَ فترسَّلْ » . وضربٌ يكون بعد الفعل نحو « إذا حللتم فاصطادوا » و « إذا نودي للصلاة فاسعوا » .

باب (إذ)

إذ ـ تكون للماضي تقول « أتذكر إذ فعلتَ كذا ؟ » فأما قوله جل

ثناؤه « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا » ف « ترى » مستقبل و « إذ » للماضي ، وإنما كان كذا لأن الشيء كائن وإن لم يكن بعد ، وذلك عند الله جل ثناوه قد كان ، لأن علمه به سابق وقضاءه به نافذ فهو كائن لامحالة ، والعرب تقول مثل ذا وإن لم تعرف العواقب . قال :

ستندم إذ يأتي عليك رعيلنا
بأرعن جرار كثير صواهله

وقوله جل ثناؤه « وإذ قال اللهُ : ياعيسى » فقال قوم : قال له ذلك لمّا رفعه إليه . وقال آخرون : « إذ » و « إذا » بمعنى . كقوله جل ثناؤه « ولو ترى إذ فزعوا » بمعنى « إذا » . قال (أبو النجم) :

ثم جزاهُ اللهُ عنّا إذ جزى
جنات عدن في العلا لي العُلَى

المعنى « إذا جزى » لأنه لم يقع . ومثله قول (الأسود) (١) :

الحافظ الناس في تَحُوط إذا
لم يرسلوا تحت عائذ رُبَعَا
وهبّت الشمأل البليل وإذ
بات كَمِيعُ الفتاة مُلتفِعا

قالوا : ف « إذا » و « إذ » بمعنىً . قال :

وندمانٍ يزيد الكأس طيباً
سقيت اذا تغوَّرت النجومُ

(١) قلت : الصواب أنه قول (أوس بن حجر) يرثي (فضالة أبا دليجة) . وليس هو قول (الاسود) .
الشنقيطي

و « إذ » ـ تكون بمعنى « حين » كقوله جل ثناؤه « ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » أي « حين تفيضون ».

باب (إذاً)

إذاً ـ مجازاة على فعل يقول «أنا أقوم» فتقول «إذاً أقوم معك» . هذا هو الأصل . ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « فإني إذاً صائم » إي إذ لم يحضر الطعام فإني صائم وقال الشاعر :

أُزجُرْ حِماري لا يرتعْ بروضتِنا
إذاً يرد وقيد العير مكروبُ .

باب (أيّ)

أيٌّ ـ تكون استفهاماً . تقول « أيُّ الرجلين عندك ؟ » .

وتكون للترجيح بين أمرين تقول « أيّامّا فعلت فلي كذا » أي إن فعلت هذا وإن فعلت هذا .

وتكون للتعجب نحو « أيُّ رجلٍ زيدٌ ! » .

باب (أنَّى)

أنّى ـ بمعنى « كيف » كقوله جلّ ثناؤه « أنّى يُحيي هذهِ الله ؟ » .

وتكون بمعنى « مِنْ أينَ » كقوله « أنّى يكون له ولد ؟ » أي من أين . والأَجْوَدُ أن يقال في هذا أيضاً كيف . قال (الكميت) :

أنّى ومن أين آبكَ الطربُ
من حيثُ لا صَبْوَةٌ ولا رِيَبُ ؟

فجاء بالمعنيين جميعاً .

باب (أينَ) و (أينما)

أينَ ـ تكون استفهاماً عن مكان. نحو «أينَ زيدٌ؟».

وتكون شرطاً لمكان. نحو «أين لقيت زيداً فكلِّمْهُ» بمعنى في أي مكان.

فأمَّا «أينَمَا» ـ فإنّما يكون شرطاً لمكان. نحو «أينَمَا تجلِسْ أجْلِسْ» ولا يكون استفهاماً.

باب (أيّانَ)

أيّانَ ـ بمعنى «متى» و «أيّ حين». قال بعض العلماء: نُرى أصلها «أيَّ أوان» فحذفت الهمزة وجعلت الكلمتان واحدة. قال الله جلّ ثناؤه «أيّانَ يُبعثون؟» أي متى و «أيّان يومُ الدين؟» أي متى.

باب (الآنَ)

يقولون: «الآن» حدُّ الزمانين، حدّ الماضي من آخره وحدُّ المستقبل من أوّله. وكان (الفرّاء) يقول: بُني على الألف واللام لم يُخلَعا منه وتُرى على مذهب الصِّفة لأنه صفة في المعنى واللفظ، كما فعلوا في «الذي» و «الذينَ» فتركوهما على مذهبِ الأداة، والألف واللام غير مفارِقين. ومثله قوله:

فإنَّ الالاءِ يَعلَمونكَ منهمُ
كعلمي مُظَنُّوكَ ما دُمتَ أَشعَرا

فأدخل الألف واللام على «أُولاء» ثم تركها مخفوضة في موضع نصب كما كانت قبل أن يدخلها الألف واللام ومثله:

وإنّي حُبِسْتُ اليومَ والامسِ قبله
بِبابكَ حتى كادتِ الشمسُ تغرُبُ

فأدخل الألف واللام على «أمس» ثم تركه مخفوضاً على جهته الأُولى.

ومثله:

تَفَقَّأَ فوقه القَلَعُ السَّواري
وجُنَّ الخازِ بازِ به جُنُونا

وأصل «الآن» إنما كان «أَوَان» حذفت منها الألف وغُيِّرت واوها الى الألف، كما قالوا في الراح «الرياح» أنشد الفرّاء أنشدني (أبو القَمْقَام الأَسدي):

كأنّ مَكاكِيَّ الجِواءِ غُدَيَّةً
نشاوَى تَساقوا بالرِّياحِ المُفلْفَلِ

فجعل «الرياح» و«الأَوان» مرةً على جهة «فَعَل» ومرة على جهة «فَعَال» كما قالوا «زَمَن» و«زَمَان» وان شئتَ جعلتَ «الآن» من قولكَ «آنَ لكَ أن تفْعَل» أدخلتَ عليها الألف واللام ثم تركتها على مذهب فِعْل فأتى النصب من نصب «فَعَلَ» وهو وجه جيد. كما قالوا «نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قِيل وقال» و«الآن» في كتاب الله جل ثناؤه «الآن وقد عَصَيْتَ قبلُ»، «الآن وقد كنتم به تستعجلون» أي في هذا الوقت وهذا الأَوان تتوب وقد عصيت قبل.

قال (الزجاج): «الآنَ» عند (الخليل) و(سيبويه) مبنيٌّ على الفتح تقول «نحن من الآنَ نَصِيرُ اليكَ» فتفتح. لان الألف واللام انما تدخل

لعهد ، و«الآن» تعهد قبل هذا الوقت ، فدخلت الألف واللام للاشارة الى الوقت . المعنى « نحن من هذا الوقت نفعل » فلما تضمّنتْ معنى هذا وجب أن تكون موقوفة ففتحت للالتقاء الساكنين .

باب (إمّا لا)

هما كلمتان « إمّا » و « لا » تقول « أُخرج » فاذا امتنع قلت « إمّا لا فتكلّمْ » أي « إن لم يكن منكَ خروج فليكن منك تكلم » .

ف « إمَّا » شرط و « لا » جَحْدٌ . كأنك قلت « إن لا » .

باب (أمَّا) و (إمَّا)

أمّا — كلمة اخبار لا بدّ في جوابها من « فاء » . تقول «أمّا زيد فكريم» .

وإمّا — تكون تخييراً واباحة . نحو اشربْ إما ماءً واماّ لبناً .

وقد تكون بمعنى الشرط ، والأكثر في جوابها نون التوكيد . نحو « إمّا ترَيِنَّ مِن البَشَر أحداً » و « قُل رَبِّ إمّا تُرِيَنّي ما يُوعَدُونَ » وقد يكون بلا « نون » نحو قوله :

إمّا تَرَيْ راسي عَلاني أغثمُهْ

ومما اوله (باء)

(بَلَى)

بَلَى — تكون اثباتاً لمنفيّ قبلها . يقالُ « أما خرج زيدٌ ؟ » فتقول « بَلَى » والمعنى أنّها « بل » وُصِلَتْ بها ألفٌ تكون دليلا على كلام . يقول القائل « أما خرج زيد ؟ » فتقولُ « بَلَى » ف « بلَ » رُجُوع عن جَحْد و « الالف » دلالةُ كلام ، كأنك قلت « بل خرج زيد » . وكذلك قوله جل

ثناؤه « ألستُ بربّكم ؟ قالوا : بَلَى » المعنى والله أعلم « بل أنت ربُّنا » .

(بَلْ)

بَلْ – إضرابٌ عن الأوّل واثباتٌ للثاني . واختلف فيه أهل العربيّة .
فقال قوم : جائز « مررت برجل بل حمارٍ » وقد يكون فيه الرفع أي « بل هو حمارٌ » .

والكوفيون لاينسقُون بـ « بَلْ » إلاّ بعد نفيٍ . قال (هشام) :
محالٌ « ضَرَبتُ أخاكَ بَلْ أباكَ » لأن الأوّل قد ثبّتَ له الضرب .

والبصريون يقولون : لمّا كانت « بل » تقع للإضراب ، وكنّا نُضرِب عن النفي وقعت بعد الايجاب كوقوعها بعد النفي . و «لا بل» مثلها .

وقال قوم : يكون « بَلْ » بمعنى « إنّ » في قوله جلّ ثناؤه « ص . والقرآنِ ذي الذِّكر ، بل الذين كفروا – معناه إنّ الذين كفروا – في عزة » .
قالوا : وذلك أنّ القسَم لا بُدّ له من جواب .

ويزعُم ناسٌ أنها إذا جاءت في الاثبات كانت استدراكاً . تقول « لقيتُ زيداً بل عمراً » وهذا عند الغلط .

(بَلْهَ)

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يقول الله جلّ ثناؤه : أعدَدْتُ لعباديَ الصّالحينَ مالا عَينٌ رأتْ ولا اذنٌ سمعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشَر ، بَلْه ما أطلَعْتُهُم عليه » قالوا : معناه « سِوى » و « دَعْ » كأنه قال « سوى ما أطلعتهم عليه » و « دَعْ ما أطلعتهم » قال (أبو زُيَيد) :

تمشي القَطُوفِ إذا غنّى الحُداةُ لها
مَشْيَ النَّجيبة ، بَلْهَ الجِلَّةَ النُّجُبا

(بَيْدَ)

قالوا : « بيد » بمعنى « غَيْرَ » . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « نحن الآخِرُونَ السابِقُونَ يومَ القيامة ، بَيْدَ أَنَّهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناهُ من بعدهم » أى « غيرَ أنّهم » قال الشاعر :

عَمْداً فعلْتِ ذاك بَيْدَ أني
إخالُ لو هلَكْتُ لم تُرِنّي

(بينا) و (بينما)

هما لزمان غير محدود . واشتِقاقُهما مِن قولنا « بيني وبينه قِيدُ كذا » فاذا قلنا « بَيْنَا نحنُ عِنْدَ زَيْدٍ أتانا فلان » فالمعنى « بَيْنَ أنْ حَصَلْنا عند زيد وبين زمان آخر أتانا فلان » قال :

فَبَيْنَا نحنُ نَرْقُبُه أتانا
مُعَلِّقَ شَكْوَةٍ وزِنَادِ رَاعِ

(بَعْدُ)

يَدُلُّ على أن يَعقُبَ شيْءٌ شيئًا . تقول : « جاء زيدٌ بعد عمرو » ويقولون: انها تكون بمعنى « مع » يقال « هو كريم وهو بعد هذا فقيه » أي « مع هذا » ويتأولون قول الله جلّ ثناؤه « والارض بعد ذلك دحاها » على هذا ، بمعنى « مع ذلك » .

ومما أوله (تاء)

(تَعَالَ)

يقال : إنها أمرٌ أي « تفاعلْ » من « عَلَوتُ . تعالى . يتعالى » فاذا أمرتَ قلت « تَعالَ » كما تقول « تَقاضَ » .

قالوا : وكثرت في الكلام حتى صارت بمنزلة « هَلُمَّ » حتى يقال لمن هو في علُوّ « تَعالَ » وأنتَ تُريدُ « اهبطْ » .

ولا يجوز أن تَنْهَى بها . وقد تُصَرَّف فيقال « تعالَيتُ » و « إلى أيّ شيءٍ أتَعالى؟ » .

ومما أوله (ثاء)

(ثُمَّ)

ثُمَّ ـ يكون لِتراخي الثاني عن الأول : « جاء زيد ثمّ عمرو » .

وتكون « ثم » بمعنى « واو العطف » قال الله جلّ ذِكرهُ « فإلينا مرْجِعُهم ثم الله شهيد على مايفعلون » أي وهو شهيد .

وتكون بمعنى التعجّب كقوله جل ثناؤه « ثم يَطْمَعُ أنْ أزيدَ » و« ثمّ الذي كفروا بربهم يعدلون » وأنشد (قطرب) أن « ثمّ » بمعنى « الواو » :

سألت ربيعةَ : مَن خَيرُها
أباً ثم اماّ ؟ فقالت : لِمَهْ ؟

ومنه قوله جلّ ثناؤه « ثُمّ إنّ علينا بَيانَهُ » فأمّا قوله جلّ وعزّ « ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم » فقال قوم معناها « وصورناكم » وقال آخرون : المعنى « ابتدأنا خلقكم » لأنه جلّ ثناؤه ابتدأ خَلقَ آدم عليه السلام من

تُراب ، ثم صوَّره . وابتدأ خلق الانسان من نُطْفَة ثم صوَّره . قالوا : فـ « ثمّ » على بابها . قال الله جلّ ثناؤه « يُوَلُّوكم الأدبارَ ثم لا يُنصَرون » .

وزعم ناس أن « ثمّ » تكون زائدة . قال الله جلّ ثناؤه « وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا ، حتىّ إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ - إلى قوله جل ثناؤه - ثم تابَ عليهم » معناه « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض تاب عليهم » وقوله جل ثناؤه « خلقكم من طين ثم قضى أجلاً » وقد كان قضى الأجل ، فمعناه « أُخبرُكم أني خلقته من طين ، ثم أخبركم أنّي قضيتُ الأجَل » كما تقول « كلمتُكَ اليومَ ثم قد كلمتُكَ أمسِ » أي اني اخبرك بذاك ثم أُخبرك بهذا .

وهذا يَكونُ في الجُمَلِ ، فأما في عطف الاسم على الاسم ، والفعل على الفعل فلا يكون إلاّ مرتَّباً أحدُهما بعد الآخر .

و : (ثَمَّ)

بمعنى « هنا لك » قال الله جلّ ثناؤه « وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ نعيماً » وقُرأتْ « إلينا مرجعهم ثَمَّ اللهُ شهيدٌ » أي : هنا لك الله شهيد .

ومما أوله (جيم)

(جيْرِ)

يقولون : « جيْرِ » بمعنى « حقَّاً » قال (المُفَضَّل) : هي خَفْضٌ أبداً ، وربَّما نوّنوها . وأنشد المفضَّل :

ألا ياطالَ بالغَرَباتِ لَيْلي
وما تلقَى بَنو أَسَدٍ بِهِنَّهْ

وقائلةٍ : أسِيتَ . فقلت : جَيْرِ
أسِيٌّ إنّه من ذاكَ إنَّهْ
أصابَهُمُ الحِمَا وهمُ عَوافٍ
وكُنَّ عليهم نَجْساً لِعَنَّهْ
فجئتُ قبورَهم بَدْأً ولمّا
فنادَيتُ القبورَ فلم يُجِبْنَهْ
وكيفَ تجيبُ أصداءٌ وهَامٌ
وأجسادٌ بَدِرْنَ وما نُخِرْنَهْ

الحِما : أراد الحِمَام . وبَدِرْنَ : طُعِنَّ في البوادِر .

(لاجَرَمَ)

قال : « جَرَمَ » بمعنى « حُقّ » قال:

ولقد طعنتُ أبا عُيَيْنَةَ طعنةً
جَرَمَتْ فَزارَةُ بَعدَها أن يَغْضَبُوا

وذكر ناس أنها بمعنى « لا بُدّ » و « لا مَحَالَةَ » .

وأصح ماقيل في ذلك أن « لا » نفي لما ظَنُّوا أنه ينفعهم في قوله جل ثناؤه « لاجرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون » والمعنى « لا » أي « لا ينفعهم ظنُّهم » ثم يقول مبتدئاً « جَرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون » أي « كَسَبَهم ذلك » و « حُقّ أنهم في الآخرة هم الأخسرون » .

قال (ابن قتيبة) : وليس قول من قال « حُقَّ لفَزارة الغضب » بشيء ، والأمر بخلاف ما قاله ، لأن الذي يحصُل من الكلمة ما قلناه أنه بمعنى

« حُقّ » فيكون على هذا «جَرَمت فزارة بعدَها أن يغضبوا » المعنى « أَحقَّتْ الطَّعنة لفزارة الغضبَ » . ومنه قوله جل ثناؤه « وتَصِفُ أَلسنتُهم الكَذِبَ أنَّ لهم الحسنى ــ ثم قال ــ لا » وهو ردّ عليهم ، وقال بعدها « جَرَمَ أنَّ لهم النارَ » أي حُقَّ وكسب .

ومما أوله (حاء)

(حتَّى)

تكون للغاية . قال الله جلّ ذكره « هي حتىّ مطلع الفجر » بمعنى « إلى » وقال تبارك اسمه « حتى يبلغ الكتابُ أجلَه » .

وتكون بمعنى « كَيْ » تقول « ا كلّه حتىّ يرضى » أي « كي يرضى » .

ويقولون : انها تكون بمعنى العطف ، تقول « قَدِمَ الجيشُ حتىّ الأتباعُ » .

ومذهب أهل البصرة أنه لا يجوز أن يُعطَف بها حتى يكون الثاني من الأول . قالوا : لو قلت « كلَّمت العربَ حتى العجم » لم يجز . وقال (الفرّاء) لا يجوز « كلّمت أخاك حتى أباك » وهو مثل الاستثناء ، كما لا يجوز « كلمت أخاك إلاَّ أباك » .

وأجاز (الفرّاء) « إنه ليقاتل الرَّجّالةَ حتى الفرسانَ » و « ان كلبي ليصيد الأرانبَ حتى الظِّباءَ » خفضاً ونصباً ، قال الفراء : لأن الظباء وإن كانت مخالفة للأرانب فانها من الصيد وهي أرفع منها .

وقال البصريون : هذا خطأ وفيه بطلان الباب . قالوا : لأن « حتىّ » إنما جعلت لما تتناهى اليه الأشياء من أعلاها وأسفلها مما يكون منتهى في الغاية ، فاذا قلت « ضربتُ القوم » جاز أن يتوهم السامع أن زيدا لم يدخل

في الضرب ، إما لأنه أعلاهم أو لأنه أدونهم ، فمعنى «إلى» فيها قائم اذا كانت «الى» منتهى الغاية .

والكوفيون لايجعلون «حتّى» حرف عطف، إنما يعربون مابعدها باضمار.

(حاشا)

معناها الاستثناء ، واشتقاقها من « الحشا » وهي « الناحية » تقول « خرجوا حاشا زيدٍ » أي : إني أجعله في ناحية من لم يخرج ولا أجعله في جملة مَن خرج . قال الشاعر :

بأيّ الْحَشَا أمسَى الخليطُ المُباينُ ؟

ومن ذلك قولهم « لا أُحاشي بك أحداً » أي : لا أجعلك وإيّاه في حَشاً واحد ، أي في ناحية واحدة بل أميّزك عنه .

ومما أوله (خاء)

(خَلا) و (ما خَلا)

أصلهما من قولنا « خلا البيت » و « خلا الاناء » إذا لم يكن فيه شيء. كذلك إذا قلنا « خرج الناس خلا زيدٍ » فانّما نُريد: أنه خلا من الخروج ، أو خلا الخروجُ منه . وعلى هذا التأويل فالنصب فيه أحسن . ومنه قول العرب « افعَلْ كذا وخلاك ذمّ » يريدون « عَدَاك الذّمُّ » و « خلوتَ من الذمّ » .

ومما أوله (راء)

(رُبّ)

يقولون : للتقليل ، وهي مناقضة لـ « كَمْ » التي للتكثير ، تقول « رُب

رجلٍ لَقِيتُه » .

وقال قوم : وُضِعت لتذكُّر شيءٍ ماضٍ من خيرٍ أو شرٍ . قال :

رُب ركبٍ قد أناخُوا حوْلَنا
يَشربون الخمرَ بالماء الزُّلال .

قالوا : وعلى هذا التأويل قوله جل ثناؤه « رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفروا لو كانوا مسلمين » .

(رُوَيْدٌ)

قالوا : هو تصغيرُ « رُود » وهو المهل . قال :

كأنَّها مثل من يَمشي على رُودِ

وقال بعضهم : في قوله جل ثناؤه « أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً » أي قليلا .

(ذو) و (ذات) [1]

ذو — يدلُّ على المُلك . تقول « هو ذو الثَّوْب » .

وقد يكون في غير المُلك أيضاً ، بل يكون في صفة من صفاته نحو قولك «هو ذو كلام» و «ذو عارِضَة» . فمن الملك قوله جل ثناؤه «ذوالعرش المجيد» .

وأما «ذات» — فيكون في المؤنث كـ «ذا» . وتكون لها معانٍ اخر : تكون كِنَايةً عن ساعة من يوم أو ليلة أو غير ذلك ، كقولك « ذاتُ يومٍ » و « ذاتُ عَشيَّةٍ » .

وتكون كنايةً عن الحال كقوله :

وأهلُ خِباءٍ صالحٍ ذاتُ بينهم
قد احتربوا في عاجل أنا آجلُهْ

(١) كذا في الأصل مؤخرا ما أوله « ذال » على ما أوله «راء».

ومن هذا قوله جل ثناؤه « وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكم » أي الحال بينكم وأزيلوا المشاجرة .

ومن الزمان قوله :

لمَّا رأت أرَقي وطُولَ تقلُّبي
ذات العِشاءِ وليْليَ الموصولا

وتكون للبِنْيةِ تقول « هو في ذاته صالح » أي : في بنيته وخِلْقته .

وتكون للإرادة والنِّيَّة كقوله جلّ ثناؤه « والله عليمٌ بذات الصُّدور » أراد السرائر . ومنه فيما ذكروا قوله :

مَحلَّتُهم ذاتُ الإِلَه ودينُهم
قَويمٌ ، فما يَرْجون غيرَ العواقِبِ (١)

فقوله « ذاتُ الإِلَه » أي إرادتُهم اللهُ تبارك اسمه .

(سَوْفَ)

تكون للتأخير والتنفيس والأناة .

(سِوَى)

تكون بمعنى « غير » وهما جميعاً في معنى « بَدَل » وهي مقصورةٌ مكسورة فإذا مُدّتْ فُتِح أوّلها . قال :

تَجانَفُ عن جَوِّ اليَمامةِ ناقتي
وما عدَلتْ عن أهلِها لِسوائِكا

أي : لغيرك . و « سَواءِ الجحيم » وسطها ، في غير معنى الأوّل .

وقد جاء « سِوَى » أيضاً . قال الله جل ثناؤه « مَكاناً سِوًى » .

(١) ويروى بالجيم « مجلتهم » .

(سِيَّما)

أصلُها « السِّيُّ » وهو « المِثْلُ » . تقول « ولا سِيماَ كذا » أي « ولا سواءَ » قال (امرؤ القيس) :

ألا رُبَّ يومٍ لكَ منهن صالحٍ
ولا سِيماَ يوماً بدارةِ جُلْجُلِ

وأصلُه راجع إلى « السِّيِّ » وهو المثل . يقولون « هما سيان » قال (الحُطَيْئَة) :

فإيّاكم وحيّة بَطن وادٍ
هَمُوز النّابِ ليسَ لكم بِسِيِّ

وسمعت أبا الحسن المعروف بابن التركية يقول ، سمعت (ثعلباً) يقول : من قاله بغير اللفظ الذي قاله (امرؤ القيس) فقد أخطأ .

(شَتّانَ)

أصلها من « شتَّ » ومن « التَّشتُّت » وهو التَّفرقُ والتباعد ؛ تقول « شَتّانَ ما هُما » أي : بَعُدَ ما بينهما ، ويقال : هذا هو الأفصح ، وينشدون :

شَتَّانَ ما يومي على كُورِها
ويوم حَيَّانَ أخي جابِرِ .

وربما قالوا « شتان ما بينهما » وليس بالفصيح .

(عَنْ)

يدلّ على الانحطاط والنزول ، تقول « نَزَلَ عن الجبل » و « عن ظهر الدّابة » و « أخذ العِلْمَ عن زيد » لأن المأخوذَ عنه أعلا رُتبةً من الآخذ .

وتكون بمعنى « بَعْد» في قوله « لم تنتطق عن تفضل » . ولها وجوه والأصلُ ماذكرناهُ .

(عَلَى)

تكون للعلوّ ، تقول « هو على السطح » .

وتكون للعزيمة ، كما تقول « أنا على الحجّ العامَ » .

وتكون للثبات على الأمر تقول « أنا على ما عَرَفتَني به » .

وتكون للخلاف ، مثل « زيدٌ على عمرو » أي : مُخالِفُه .

وهي - وإن انْشَعَبَتْ - راجعة إلى أصل واحد .

(عَوْض)

عوض - لزمان غير محدود ولا معلوم كنهُهُ ، كما قلناه في « الحِين » و « الدّهر » . قال (الأعشى) :

رضيعَيْ لبانٍ ثدي أُمٍّ تقاسما
بأسحمَ داجٍ عَوض لا نتفرق

ويقولون « لا آتيك عوض العائضين » .

(عَسَى)

للقرب والدُّنوّ ، قال الله جل ثناؤه « قُلْ عسَى أن يكونَ رَدِفَ لكم » .

والأفصح أن يكون بعدها « أَنْ » ورُبّما لم يكن . قال :

عسى فَرَجٌ يأتي به الله إنّهُ
لهُ كلَّ يوم في خَليقته أمرُ

قال (الكسائي) : كل ما في القرآن من « عسى » على وجه الخبر فهو

مُوَحَّد : « عسى أنْ يكونوا خيراً منهم » و « عسى أن يكنّ خيراً منهنّ » و « عسى أنْ تَكرهوا شيئاً » ووُحِّدَ على « عسى الأمر أن يكون كذا » .

وما كان على الاستفهام فانه يُجْمَع كقوله جل وعز « فهل عَسَيْتُم » قال (أبو عُبَيْدة) في قوله جل ثناؤه « هَلْ عَسَيْتُم » : هل عدوتم ذاك ، هل جُزْتُوه .

(غَيْر)

غَيْر — تكون استثناء ، وتقوم مقامها « إلاّ » ، تقول « خرج الناسُ غير زيد » تريد « إلاّ زيداً » .

أو تكون حالاً ، وتقوم مقامها « لا » تقول « فعلت ذلك غير خائف منك » أي « لا خائفاً منك » .

(في)

زعموا أن « في » للتضمُّن ، تقول « المال في الكيس » و « الماء في الجرَّة » . ويقولون : إنها تكون بمعنى « على » في قوله جلّ ثناؤه « وَلا صلِّبَنَّكُمْ في جُذُوع النَّخْل » .

وانها تكون بمعنى « مع » في قوله جل ثناؤه « في تِسْعِ آيات » .

وكان بعضهم يقول : انما قال « ولأُصلبنكم في جذوع النخل » لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر المقبور فلذلك جاز أن يقال فيه هذا . وأنشدوا :

هُمُ صلبوا العَبْديَّ في جذْع نخلة
فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلاّ بأجْدَعا

(قَدْ)

قَدْ — جواب لمتوقَّع، وهي نقيضُ «ما» التي للنفي، وليس من الوجه الابتـداء بها إلا أن تكون جواباً لمتوقع، وقوله جل وعزّ «قد أفلح المؤمنون» على هـذا المعنى، لأن القوم توقعوا علمَ حالهم عندَ الله تبارك اسمه فقيل لهم «قد أفلح المؤمنون» والحقيقةُ ما ذكرناهُ.

(كَمْ)

موضوعة للكثير في مقابلة «رُبَّ» تقول «كم رجل لقيت».

وتكون استفهاماً، تقول «كم مالُكَ ؟».

وقال (الفرّاء): نُرى أن قول العرب «كم ما لُك ؟» أنها «ما» وُصلتْ من أولها بكاف، ثم ان الكلام كثر بـ«كم» حتى حُذِفَت الألف من آخرها وسكّنت ميمها، كما قالوا «لِمْ قلتَ ذاك ؟» ومعناهُ «لِمَ» و «لِمَا قلت» قال:

فأنا الأسْوَدُ لِمْ أسلَمْتَني
لِهُمُوم طارِقَاتٍ وَذِكَرْ ؟

وقيل لبعض العرب «مذ كم قعد فلان ؟» فقال «كَمُذْ أخذتَ في حديثك» فزيادةُ الكاف في «مُذْ» دليل على أن الكاف في «كم» زائدة، وعابَ (الزّجّاجُ) على (الفرّاء) قوله في «كم»، وقال: لوكانت في الأصل «كما» وأسقطت الف الاستفهام لتُركتْ على فتحها، كما تقول «بِمَ» و «عَمَّ» و «فِيمَ أنت».

والجوابُ عمّا قاله ما ذكره (أبو زكريّاء) وهو كثرة الاستعمال.

وحجته ما ذكره في « لِمْ » .

(كَيْفَ)

سؤال عن حال ، تقول « كَيْفَ أنتَ ؟ » أي : بأيّ حال أنتَ ؟ وقال بعض أهل اللغة : لها ثلاثة أوجهُ :

أحدها ـ سؤال محض عن حال ، تقول « كَيْفَ زيدٌ ؟ » .

والوجه الآخر ـ حالٌ لا سؤال معه ، كقولك « لأُكْرِمَنَّكَ كيف كنتَ » أي : على أيّ حال كنت .

والوجه الثالث ـ « كيف » بمعنى التعجيب . وعلى هذين الوجهين يُفسَّر قوله « فقُتِل كيف قدَّر » قالوا : معناها « على أيّ حال قدَّر » وتعجيب أيضاً . ومن التعجيب قوله جل ثناؤه « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ! »

وقد يكون « كيف » بمعنى النفي . قال :

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِي بعدما
لاحَ في الرَّأس مَشِيبٌ وَصَلَعْ(١)

ومنه قوله جل ثناؤه « كيف يكون للمشركينَ عهدٌ عند الله » و« كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم » .

وتكون توبيخاً ، كقوله جلّ ثناؤه « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله » .

---

(١) من قصيدة أنشدها (سويد بن أبي كاهل اليشكري) واختارها (المفضل الضبي) وأولها :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع
حرة تجلو شتيتا واضحا كشعاع الشمس في الغيم سطع
صقلته بقضيب ناضر من أراك طيب حتى نصع

فأمّا قوله « فكيف اذا جيئنا من كلّ أُمة بشهيد » فهو توكيدٌ لِمَا تقدّم من خبر وتحقيق لِمَا بعده ، على تأويل : ان الله لايظلم مثقالَ ذرّة في الدنيا فكيف في الآخرة .

(كادَ)

قال (أبو عبيدة) : « كاد» للمقاربة فيقوله جل ثناؤه « لمْ يَكَدْ يراها » أي : لَمْ يرَ . ولَمْ يُقارب . ومن المقاربة قول (جرير) :

حيُّوا المقام وحيّوا ساكن الدارِ
ما كدتَ تعرف إلا بعدَ إنكارِ

ويقولون « كاد النَّعامُ يطير » .

فهذه المقاربة للشبه ولا يكون ، وبيت (جرير) يكون .

(كَانَ)

يدلّ على المُضيّ ، تقول « كانَ له مالٌ » .

وتكون بمعنى القُدْرة ، كقوله جلّ ثناؤه « ما كان لكم أن تُنبتوا شجرها » أي : ماقدرتم .

وتكون بمعنى « صار » كقولك « إن كنتَ ابي فَصِلْني » أي : إذا صرتَ ابي . وأنشد :

أجزت إليه حُرَّة أرْحَبِيَّة
وقد كانَ لونُ الليل مثلَ الأَرنْدج

أي : صار .

وتكون بمعنى الرهون ، كقوله جل ثناؤه « قُلْ سبحانَ رَبّي هل كنتُ

إلا بشراً ؟ » أي : هل أنا إلا بشر .

وتكون بمعنى « ينبغي » قال الله جل ثناؤه « قلتم ما يكون لنا » أي : ما ينبغي لنا .

و « كان » تكون زائدةً ، كقوله :

وجيرانٍ لنا ـ كانوا ـ كرام[1]

وفي كتاب الله جل ثناؤه « قال وما علمي بما ـ كانوا ـ يعملون » أي : بما يعملون ، لأنه قد كان عالماً بما عملوه وهو إيمانهم به .

(كَأَيِّنْ)

كَأَيِّنْ ـ يكون بمعنى « كَمْ » قال الله جل ثناؤه « وكأيِّنْ من قَرْيةٍ عَتَتْ عن أمرِ ربِّها » .

وفيها لغتان : « كَأَيِّنْ » بالهمز والتشديد . و « كَائِنْ » . وقد قُرِئ بهما ، قال الشاعر :

وكائِنْ أرينا الموتَ من ذي تحيَّةٍ
اذا ما ازدَرانا أو أصرَّ لِمَأْثَمِ

وسمعت بعض أهل العربية يقول : ما أعلم كلمةً يثبتُ فيها التنوين خطّاً غير هذه .

(كَأَنَّ)

كلمة تشبيه ، قال قوم : هي « إنَّ » دخلت عليها كافُ التشبيه ففتحت ، وقد تخفف قال الله جل ذكره « كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ » إلا أنّها إذا ثُقّلت

(١) عجز بيت من قصيدة أنشدها (الفرزدق) . وصدره :
فكيف اذا مررت بدار قوم

في مثل هذا الموضع قُرِنَتْ بها الهاء فقيل «كأنّه لم يَدْعُنا» . وقالت (الخنساء) في التخفيف :

كأَنْ لم يكونوا حِمًى يُتّقى
إذ الناسُ إذ ذاكَ مَن عزّ بَزّا[1]

أرادت : كأنّهم لم يكونوا .

(كَلاَّ)

تكون ردّاً ورَدْعاً ونفياً لدعوى مُدَّعٍ إذا قال « لقيتُ زيداً » قلتَ « كَلاَّ » .

وربما كانت صِلَةً ليمين ، كقوله جل ثناؤه « كَلاَّ والقمر » . وهي — وإن كانت صِلةً ليمين — راجعةٌ إلى ما ذكرناهُ . قال الله جل ثناؤه « كَلاَّ لا تُطِعْهُ » فهي رَدْعٌ عن طاعةِ مَن نَهاهُ عن عبادة الله جل ثناؤه . ونكتة بابها النفي والنهي .

وزعم ناس أن أصل « كَلاَّ » : « كَلاَ » و « لاَ » . قال :

أصابَ خَصاصَةً فَبَدا كَلِيلا
كَلا وانْغَلَّ سائِرُه انْغِلالا[2]

---

(١) من مراثيها المشهورة ، ومطلعها :

تعرقني الدهر نهشا ووخزا وأوجعني الدهر قرعا وغمزا

(٢) من قصيدة أنشدها (ذوالرمة) في مدح (بلال بن أبي بردة) وفي رواية « وانغل جانبه » ومنها قبله :

أمية أحسن الثقلين جيدا وسالفة وأحسنه قذالا
تريك بياض لبتها ووجهاً كقرن الشمس أفتق حين زالا

ثم يأتي البيت الذي ذكره (ابن فارس) ومنها البيت المشهور وفيه ذكر الممدوح :

سمعت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح انتجعي بلالا

وهذا ليس بشيءٍ . و « كَلاّ » كلمة موضوعة لما ذكرناه على صورتها في التثقيل ، وقد ذكرنا وجوهَ « كَلاَّ » في كتاب أفردناه .

فأما نقيض « كَلاَّ » فقال بعض أهل العلم : إن « ذلك » و « هـذا » نقيضان لـ « لا » . و « أَن » كذلك نقيض لـ « كَلاَّ » . قال : وقوله جل ثناؤه « ذلك ولو يشاء الله لانْتَصَر منهم » على معنى : ذلكَ كما قلنا وكما فعلنا . ومثله « هذا وإن للطَّاغِينَ لَشَرَّ مآب » بمعنى : هذا كما قلنا وإن للطاغين لشرّ مآب .

قال : ويدل على هذا المعنى دخول « الواو » بعد قوله « ذلك » و « هذا » لأن ما بعد الواو يكون مَنْسوقاً على ما قبله بها وإن كان مُضْمَرا . وقال جل ثناؤه « وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدة ـ ثم قال ـ كذلك » أي كذلك فعلناه ونفعله من التنزيل . ومثله في القرآن كثير .

(لَوْ) و (لَوْلاَ)

لَوْ ـ تدل على امتناع الشيءْ لامتناع غيره ، تقول « لو حَضَر زيدٌ لحضرتُ » . فامتنع هذا لامتناع هذا .

وكان (الفراء) يقول : « لو » يقوم مقام « إنْ » ، قال جل ذكره « ولو كَرِهَ الكافرون » بمعنى : وان كره ، ولولا أنها بمعنى « ان » لاقتضت جواباً لأنّ « لو » لا بدّ لها من جواب ظاهر أو مُضْمَر كقوله جل ثناؤه « ولو نَزَّلْنا عليكَ كتاباً في قِرطاسٍ فلَمَسوهُ بأيديهم لَقال ـ » وإنما وُضِعت مقامَ « انْ » لأنّ في كل واحد منهما معنى الشرط ، كما يقال في الكلام « لأكْرِمَنَّكَ وانْ جَفَوْتَني ـ و ـ لو جفوتني » و « لأعْطِيَنَّكَ وانْ مَنَعْتَني ـ و ـ لو منعتني » .

وأمّا «لَولا» ـ فانها تدل على امتناع الشيء لوجود غيره . تقول «لولا زيدٌ لضربتك» فانما امتنعت من ضربه لأجل زيد .

وقد يكون «لولا» بمعنى «هلاَّ» كقوله جل ثناؤه «فلولا اذْ جاءهم بأسنا تَضرّعوا» أي «فهلاَّ» . قال الشاعر :

تَعدُّونَ عقرَ النيب أفضل مجدكم
بَني ضَوْطَرَى لولا الكميَّ المقنّعا[1]

أي «هلاَّ» .

وكذلك «لَوْمَا» ، كقوله جل ثناؤه «لَوْمَا تأتينا بالملائكة» أي «هلاَّ تأتينا» .

وأما «لولا» الاولى فكقوله جل ثناؤه «فلولا أنّه كان من المسبّحين لَلَبِثَ في بطنه» وقوله جل وعز «فلولا كانت قريةٌ آمنَتْ» فلها وجهان: أحدهما أن يكون بمعنى «هلاّ» والوجه الآخر أن يكون بمعنى «لمْ» يقول: فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قومَ يونُسَ . ومثله «فلولا كان من القرون من قبلكم أُولو بقيّةٍ ينهَوْن عن الفساد في الأرض» بمعنى لم يكن.

(لمْ) و (لما)

لَمْ ـ تنفي الفعلَ المستقبل وتنقلُ معناهُ الى الماضي . نحو «لم يقم زيد» تريد : ما قام زيد . فان دخل عليها حرفُ جزاء لم تنقل معنى الاستقبال ، تقول «إنْ لَمْ تَقُمْ» ولا يحسُن السكوت عليها إلا اذا كانت جواباً لمثبَت كأنّ قائلاً قال «قد خرج زيد» فتقولُ «لمَّا» .

(١) البيت من شعر (جرير) .

و «لمّا» - لا تدخل إلاّ على مستقبل، تقول «جيئت ولما يجيء زيدٌ بعدُ» فيكون بمعنى «لمْ» كقوله جل ثناؤه «بل لما يذوقوا عذاب».

فأمّا «لمّا» التي للزمان فتكون للماضي، تقول «قصدتُكَ لمّا وَرَدَ فلان»:

(لَنْ)

لَنْ — تكون جواباً للمثبِت أمراً في الاستقبال، يقول «سيقوم زيد» فتقول أنت «لن يقومَ».

وحكي عن (الخليل) أنّ معناها «لا أنْ» بمعنى «ما هذا وقت أن يكون كذا».

(لا)

لا — حرف نَسَقٍ يَنفي الفعلَ المستقبَل، نحو «لا يخرجُ زيدٌ». وينهى به نحو «لا تفعلْ». ويكون بمعنى «لمْ» إذا دخلتْ على ماض كقوله جل ثناؤه «فلا صدَّقَ ولا صلَّى» أي: لم يُصدِّقْ ولم يُصلّ. وقال الشاعر:

وأي خميس لا أفأْنا نهابه
وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

وأنشدني أبي:

ان تَغْفِرِ اللهمَّ تغفرْ جَمّاً
وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألَمّا (١)

---

(١) كان عرب الجاهلية يقولون عند مايطوفون بالبيت:
لاهم إهذا رابع ان تما أتمه الله وقد أتما
ان تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما
والبيتان من نظم (أبي خراش خويلد بن مرة القردي) نسبة الى (قردد) وهو (عمرو بن

أي : أيٌّ عبد لك لم يُلِمَّ بالذنب .

وكان (قطرُب) يقول : إن العرب تُدخل « لا » توكيدا في الكلام كما يُدخلون « ما » في مثل قوله جلّ ثناؤه « فقليلاً ما يؤمنون » و « فبما نقضهم » وكذلك « ما منعك ألاّ تسجُد » أي : ما منعك أن تسجد . وكذلك « لا أُقسِم بيوم القيامة » المعنى : أُقسم . وقد يجوز في « لا أقسم » أن يكون نفى بها كلاماً تقدَّم منهم ، كأنه قال : ليس الأمرُ كذا ؟ ثم قال : أُقسم . وقال (زُهَير) في « لا » :

مُوَرَّثُ المَجْد لا يَغْتالُ هِمَّتَهُ

عن الرِّياسة لا عَجْزٌ ولا سَأمُ (١)

أي : لا يغتالها عجز . وقال :

بيوم جَدودا لا فَضَحتُم أباكُمُ

وسالمتُمُ والخيلُ تَدْمى نُحورُها

يريد : فضحتم أباكم . وحكى (قطرب) : « ضربتُ لا زيداً » . وقال آخر :

وقد حداهن بلا غير خُرُقْ

وقال (الهُذلي) :

أفمنك لا برق كأنّ وميضه

غاب تسنّمه ضِرامٌ مُثقَبُ

معاوية بن سعيد بن هذيل) . قال (السكري) في (أشعار هذيل) قال (الاصمعي) أخبرنا (ابن أبي طرفة الهذلي) أن (أبا خراش) أنشد هذين البيتين وهو يسعي بين (الصفا) و (المروة) وثم شجر يومئذ .

(١) من قصيدته التي يمدح بها (هرم بن سنان) ومطلعها :

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الارواح والديم

ومن الباب قوله جل ثناؤه « لئلاّ يعلم أهل الكتاب » .

قال (أبو عبيدة) في قوله جل ثناؤه «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال: «لا» من حروف الزوائد لتتميم الكلام ، والمعنى الغاؤها . قال(العجاج):

في بئر ـ لا ـ حُورٍ سرى وما شعرْ

أي : بئر حُور ، أي هَلَكة . وقال (أبو النجم) :

فما ألوم البِيضَ أن ـ لا ـ تَسْخَرا

يقول : فما ألومهنّ أن يَسْخَرْنَ . وقال (الشمّاخ) :

أعائشَ ما لأهلكِ (١) ـ لا ـ أراهم
يُضيعون الهِجانَ مع المُضيعِ ؟

يريد : أراهم يضيعون السَّوام ، و « لا » انما هي لغو . وقال :

ويلحينني في اللهو أن ـ لا ـ أُحبَّه
ولِلَّهو داعٍ دائبٌ غير غافلِ

المعنى : يلحينني في اللهو أن أحبه . وفي القرآن « ما منعك أن ـ لا ـ تسجد » أي : أن تسجد .

قال (احمد بن فارس) : أما قوله إن « لا » في « ولا الضّالين » زائدة فقد قيل فيه : إن « لا » إنما دخلت هاهنا مُزيلةً لتوهّم متوهم أن الضالين هم المغضوب عليهم ، والعرب تنعت بالواو ، يقولون « مررت بالظريف والعاقل » فدخلت « لا » مُزيلةً لهذا التوهم ومُعلمةً أن الضالين هم غير المغضوب عليهم . وأما قوله في شعر (الشماخ) : إن «لا» زائدة في قوله « مالأهلك

---

(١) ورد في ديوانه الذي شرحه العالم اللغوي الاديب الشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي « مالقومك » .

لا أراهم » فغلطٌ من (أبي عبيدة) لأنه ظنّ أنه أنكر عليهم فساد المال ، وليسَ الأمر كما ظنَّ ، وذلك أن « الشماخ » احتجّ على امرأته بصنيع أهلها أنهم لا يُضيعون المالَ . وذلك أن امرأة الشماخ وهي (عائشة) قالت للشماخ : لِمَ تشدّد على نفسك في العيش حتى تلزَم الابلَ وتعزبَ فيها ؟ فهوِّن عليك . فردّ على امرأته فقال : مالي أرى أهلك يتعهدون أموالهم ولا يضيعونها ، بل يصلحونها ، وأنت تأمرينني باضاعة المال ؟ فقال :

أعايشَ مالأهلكِ لا أراهم
يُضيعون الهجانَ مع المُضيعِ ؟
وكيف يُضيع صاحبُ مُدْفآت
على اثباجهنّ من الصقيع ؟
لَمالُ المرءِ يُصلحه فيُغني
مَفاقِرَهُ أعفُّ من القُنوع

و « لا » تنفي الاسمَ المنكور ، نحو « لا رجلٌ عندكَ » .

(لاتَ)

اختلف الناسُ فيها : فمنهم من زعم أن « التاء » متصلة بـ « لا » وأنها بمنزلة « ليس » على تأويل « وليس حينَ مناصٍ » نصَب « حين » بـ « ليس » وقال (الأفوه) [1] وجعل « لاتَ » بمعنى « حِين » :

---

(١) هو (صلاة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه بن أود بن صعب ابن سعد العشيرة) ولقب بالافوه لانه كان غليظ الشفتين ظاهر الاسنان . كان سيد قومه زمن قدماء شعراء الجاهلية وكانو يصدرون عن رأيه والعرب تعده من حكمائها وهو القائل :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
تهدا الامور بأهل الرأي ما صلحت فان تولت فبالاشرار تنقاد

والبيت الذي استشهد به ابن فارس من قصيدة لهذا الشاعر العربي وهي من جيد شعر العرب وقد

تركَ الناسُ لنا أكتافَهم

وتولوا لاتَ لم يُغْنِ الفرار

(لَدُنْ)

لدُنْ ـ بمعنى « عِنْدَ » . قال الله جل ثناؤه « قد بلغتَ من لدُنّي عذرا » وقال « لاتخذناهُ من لدُنّا » أي : من عندنا .

وقد تحذف النون من « لدن » قال الشاعر :

من لدُ لَحْيَيْهِ إلى منحورهِ

و : (لَدَى)

بمعنى « لدن » قال الله جل ثناؤه « وألْفيا سَيدَها لدَى الباب » .

(لَيْسَ)

ليس ـ نفيٌ لفعل مستقبَل تقول « ليس يقوم » .

وزَعم ناس أنها من حروف النَّسَق نحو « ضربتُ عبدَ الله ليس زيداً » و « قام عبد الله ليس زيدٌ » و«مررت بعبد الله ليس بزيد » لايجوز حذف الباء لأنك لاتضمر المرور والباء. ولو قلتَ «ظننت زيداً ليس عمراً قائماً » جاز. قال (لبيد) :

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن انشادها لما فيها من ذكر اسماعيل عليه السلام في قوله :

وبنت نجرهم نبلا فرمى جرهما منهن فوق وغرار

وأول القصيدة قوله :

ان ترى رأسي فيه نزع وشواتي خلة فيها دوار

ومنها :

انما نعمة قوم متعة وحياة المرء ثوب مستعار

حتم الدهر علينا أنه ظلف ما نال منا أو جبار

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار

وإذا جوزيت فرضاً فاجزه :

إنما يجزي الفتى ليس الجمل .

والبصريون يقولون : لا يجوز العطف بـ « ليس » ، وهي لا تُشبه من حروف العطف شيئاً . ألا ترى أنه يبتدأ بها ويضمر فيها ، وروى (سيبويه) هذا البيت :

إنما يجزي الفتى غيرَ الجمل

قالوا : وخطأ « رأيت زيدا ليس عمرا » لأنه لا يكون على تقديرهم فعل بلا فاعل ، وكان (الكسائي) يقول : أجريتُ « ليس » في النسق مجرى « لا » .

(لَعَلّ)

لَعلَّ ـ تكون استفهاماً وشكّاً . وتكون بمعنى « خَليق » .

وحُكي عن (الكسائي) أن « لعلّما » تأتي بمعنى « كأنما » وأنما . وأنكر (الفراء) هذا ، قال : لأن « أنما » معبرة عن « أنّ » ولا يجوز أن تُسقط « ما » منها أبدا .

وأهل البصرة يقولون : « لعل » ترجٍّ . وبعضهم يقول : توقُّع .

وتكون « لعلّ » بمعنى « عسى » . وتكون بمعنى « كي » . قال الله جلّ ثناؤه « وأنهارا وسبلاً لعلّكم تهتدون » يريد : لكي تهتدوا .

(لَكِنْ)

قال قوم : هي كلمة استدراك تتضمن ثلاثة معانٍ : منها « لا » وهي نفي و « الكاف » بعدها مخاطبة و « النون » بعد الكاف بمنزلة « إنّ » الخفيفة أو الثقيلة ، إلا أن الهمزة حذفت منها استثقالا لاجتماع ثلاثة معان

في كلمة واحدة ، فلا تنفي خبرا متقدما وإن تُثبت خبرا متأخرا ،ولذلك لا تكاد تجيء الا بعد نفي وجحد، مثل قوله جل ثناؤه « وما رميْتَ إذ رميتَ ولـكنّ اللّهَ رَمى » . ومما يدلّ على أن النون في « لـكن » بمنزلة « إن » خفيفةً أو ثقيلة أنك إذا ثقّلتَ النون نصبتَ بها وإذا خففتها رفعتَ بها .

(مذْ) و (منذُ)

هما ابتداءُ غايةٍ في زمان . نحو « مُذُ اليومِ » و « مُنْذُ الساعةِ » .

(مَا)

أصلُ « مَا » أنها تكون لغير الناس تقول « مامرَّ بك من الأبل؟».

فأمّا قوله جل ثناؤه « وما خلَقَ الذكرَ والانثى » فقال (أبو عبيدة) : معناها « ومَن خلقَ الذكر والأنثى » . وكذلك « والسماء وما بناها » أي « ومن بناها » وكذلك « ونفس وما سوَّاها » . قال : وأهل مكّةَ يقولون إذا سمعوا صوتَ الرعد « سبُحانَ ما سبّحتَ له » وبعضهم يقرأ « وما خلَقَ الذكرِ والأنثى » أي : وخالقِ الذكرَ والانثى .

و « ما » تكون صِلةً ، كقوله جل ثناؤه « قليلاً مّا تذكَّرون » المعنى: قليلاً تذكّرون . ولو كانت اسماً لارتفـع فقلت « قليلٌ ما تذكرون » أي : قليلٌ تذكركم .

و «ما» تكون للتفخيم ، كقوله جلّ ثناؤه « الحاقّةُ ما الحاقّة ». ومنه:

بَانَتْ لِتَحزُنَنا عفَارَهْ

ياجارَتا ما أنتِ جارَهْ

وذكر بعضهم أن « ما » هـذه هي التي تذكر في التعجب اذا قلنـا

« ما أحسنَ زيدا » .

وقد تكون « ما » مُضمَرةً ، كقوله جـل ثناؤه « وإذا رأيتَ ثَمَّ » أراد : ما ثَمّ . وكما قال « هذا فِراقُ بيني وبينك » أي : ما بيني . و « لقد تقطَّعَ بينَكم » أي : ما بينَكم . فاذا قلت « بينُكم » فمعناه : وصلُكم .

وتكون للنفي ، نحو « مافعلتُ » .

وتكون للاستفهام ، نحو « ماعندك ؟ » . وزعم ناس في قولهم « قَبْلَ عَيْرٍ وما جرى » أن « ما » للنفي . وأنشدوا قول (الشمّاخ) :

أَعَدْوَ الْقِمِصَّى قَبْلَ عَيْرٍ وما جَرَى
ولم تدْرِ ماخُبرِي ، ولم أدرِ مالَها (١)

يقول : نفرتْ هذه المرأة منيّ مثل ما نفرت أتان من عَيْر من قبل أن يبلوَها ويعدوَ إليها . وما جرى ، أي : لم يجرِ إليها .

(مِنْ)

يُسميها أهل العربية « ابتداء غاية » . وتكون للجنس ، نحو « خاتمٌ من حديد » .

وتكون للتبعيض ، نحو « أكلت من الرّغيف » .

وتكون رفعاً للجنس نحو « ماجاءني من رجل » .

وتكون صِلةً ، نحو قوله جل ثناؤه « مِن خيرٍ مِن ربكم » و « نكفّر

(١) كان الشماخ قد تزوج امرأة من (سليم) فادعت انه ضربها وكسر يدها . فشكاه قومها الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فأنكر ماادعوا عليه ، فأمر عثمان كثير بن الصلت أن يستحلفه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل . فقال الشماخ في ذلك القصيدة التي منها هذا البيت . ويروي « القبصى » بالباء و « القبضى » بها وبالضاد و « مابالي » بدل « ماخبري » . ومطلعها :

ألا أصبحت عرسي من البيت جامحا   على غير شيء ، أي أمر بدالها ?

عنكم مِن سيئاتكم » .

وتكون تعجّبا ، نحو « ماأنت مِن رجل » و « حَسْبُكَ من رجل » .

وتكون بمعنى «على» ، قال الله جلّ ذكره « ونصرناهُ مِن القوم ـ».

وكان (أبو عبيدة) يقول في قوله جلّ وعز « مَن يعمل مِنَ الصالحات » : ان « مِن » صلة . قال (أبو ذُؤَيب) :

جزَيتُكِ ضِعفَ الوُدّ لمّا أردته
وما إن جزاكِ الضِّعفَ مِن أحد قبلي

وقال غيره : لا تزاد من أمرٍ واجب ، يقال « ماعندي من شيء » و« ما عنده من خير » و « هل عندك من طعام ؟ » . فاذا كان واجباً لم يحسُن شيء من هذا : لا تقول « عندك من خير » .

(مَنْ)

اسم لِمَن يعقل . تقول « لقيتُ مَن لقيتَ » و « مَن مرّ بك ؟ » في الاستفهام . وهو يكون في الواحد والاثنين والجميع . ويخرج الفعل منه على لفظ الواحد والمعنى تثنية أو جمع . قال :

تعالَ ، فإن عاهدتَني لاتخونني
نكن مثلَ مَن ياذِيبُ يَصطحبانِ [(١)]

وكذلك يكون في المؤنث . قال الله جل ذكره « ومَن يقنُتْ منكنّ » .

(١) البيت من قصيدة خاطب (الفرزدق) بها ذئبا وقد أبصره ينهش شاة له مسلوخة فقطع الفرزدق رجل الشاة ورمى بها اليه فأخذها وتنحى ، ثم عاد ، فقطع الفرزدق اليد ورمى بها اليه . ويروى الشطر الاول من هذا البيت « تعش ، فان واثقتني لاتخونني » . أما أول القصيدة فقوله :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت بناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت : ادن دونك انني وإياك في زادي لمشتركان
فبت أسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان

و « من » تُضمَر . قال الله جل ثناؤه « وإن مِن أهل الكتاب إلا ليؤمِنَنَّ به » المعنى : إلاَّ مَنْ . ومثله « وما منَّا إلا له مقامٌ » أي : إلا مَنْ .

(مه) و (مهما)

مَهْ - زجرٌ وإسكات وأمرٌ بالتوقّف عما يريده المريد ، كأنّ قائلاً يريد الكلامَ بشيء أو فاعلاً يريد فعلاً فيُقال لهما « مَهْ » أي : قِف ولا تفعل وهذا مشهور في كلام العرب . قال :

مَهْ ماليَ الليلة ، مَهْ ماليهْ
ياراعيَ ذَوْدي وأجماليهْ

ويكون هذا على أنّ أمراً تقدّم ، فردّ عليه القائل فقال « مَهْ » ثم مرَّ في كلام نفسه . و« مهْمَا » - بمنزلة «ما» في الشرط . قال الله جل ثناؤه« وقالوا : مهما تَأتنا بهِ مِن آية » ويقال : إنّها «ما» أدخلت عليها «ما» قالوا : تكون أحداهما كالصلة كقوله جل ثناؤه « أيّاماً تدعو » فغُيِّر اللفظ .

(متَى)

مَتى - سؤالٌ عن وقت . تقول « متى يخرجُ زيد ؟ » .

و « متى » يكون شرطاً يقتضي التكرار . تقول « متى كلمتُ زيداً فعلي كذا » سمعت علياً يقول : سمعت ثعلبا يقول ذلك .

فأما « متى » التي في لغة (هُذَيْل) فليست من هذا ، لأنهم يقولون « وضعتُه متى كُمِّي » يريدون : الوسَط وينشدون :

شَرِبْنَ بماء البحر ثُمّ تصعّدت
متى لُججٍ خضرٍ لهن نئيجُ

قالوا : معناه من لجج . وقالوا : بمعنى وسط .

(نَعَمْ) و (نِعْمَ)

« نَعَمْ » ـ عِدَة تصديق . و « نِعْمَ » ـ كلمة تنبيء عن المحاسن كلها .

(هَلُمَّ)

قالوا : معناها « تعالَ » . وكان (الفرّاء) يقول : أصلها « هل » ضُمّ إليها « امّ » وتأويل ذلك أن يقال « هَلْ لكَ في كذا ، أُمَّ » أي : اقصُدو تعالَ.

وكان (الفراء) يقول : معنى « اللهم » يالله أُمَّنا بخير . فكثرت في الكلام واختلطت وتُركت الهمزة .

(ها)

قالوا : معناها « خذْ . تناولْ » تقول « ها يارجُل » . ويُؤمر بها ولا يُنهى بها . وفي كتاب الله جل ثناؤه « هاؤمُ اقرؤا كتابيَهْ » .

(هاتِ)

بمعنى « أعْطِ » على لفظ « رَام » و « عَاطِ » . قال الله جل ثناؤه « قل هاتوا بُرهانَكم » قال (الفراء) : ولم يُسمع في الاثنين ، إنّما يقال للواحد والجميع . ويقولون : أنا أُهاتِيك ، وليس من كلامهم هاتَيْتُ ، ولا يُنهى بها . وبلغني أن رجلاً قال لآخر : هات . فقال : لا أُهاتِيك ولا أُوَاتِيك.

(وَيْكأَنَّ)

اختلف أهل العلم فيها . فقال (أبو زَيْد) : معنى « ويكأنّه » ألَمْ تَرَ . وأنشد:

ألا وَيْكَ المسرّةُ لا تدومُ

ولا يبقى على الدّهر النعيمُ

وأنشد (أبو عبيدة):

سَأَلَتَاني الطَّلاقَ أن رأتاني ... قَلَّ مالي . قد جِئتماني بِنُكرِ

وَيْكَأنْ مَن يكُنْ له نَشَبٌ يُحْـ ... ـبَبْ ومَنْ يفتقِرْ يعِشْ عيشَ ضُرِّ

وحدثني علي بن ابراهيم عن محمد بن فرج عن سلمة عن (الفراء) قال : هو في كلام العرب تقرير كما يقول القائل « أما ترى إلى صنع الله » .

وحكى (الفراء) عن شيخ من البصريين قال : سمعت أعرابية تقول لزوجها : أين ابنُك ؟ فقال زوجها : ويكأنَّه وراء الباب . معناه : أما تريْنَه وراء الباب ؟

قال (الفراء) ويذهب بها بعض النحويين الى أنهما كلمتان ، يريد « وَيْكَ » إنما أراد « ويلَكَ » فحذف اللام ويجعل « أنّ » مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال : ويلك اعلم أن . وقال : إنما حذفوا اللام من « وَيْلَكَ » حتى صارت « وَيْكَ » ، فقد تقول العرب ذلك لكثرتها في الكلام واستعمال العرب إياها . قال (عنترة) :

ولقدْ شفى نفسي وأبرأَ سُقمَها

قِيلُ الفوارس وَيكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ

وقال آخرون : ويكَ « وَيْ » منفصلة من « كأنّ » كقولك للرجل : أما ترى بين يديك . فقال « وَيْ » ثم استأنف « كأنَّ الله » و « كأن » في معنى الظن والعلم . وفيها معنى تعجب . قال : وهذا وجه مستقيم ، ولم تكتبها العرب منفصلة . ويجوز أنّ يكون كثر بها الكلام فوُصلت بما ليس منه ، كما اجتمعت العربُ على كتاب « يا بْنَؤُمَّ » فوصلوها لكثرتها .

(أَوْلَى)

سمعت (أبا القاسم عليَّ بن أبي خالِد) يقول سمعت (ثعلباً) يقول « أولى له » أي : داناه الهلاك . وأصحابنا يقولون « اوْلَى » تهدُّدٌ ووعيدٌ . وهو قريب من ذلك . وأنشدوا :

أُلْفِيَتا عيناكَ عند القَفَا

أَوْلَى فأَوْلَى لك ذا واقيَهْ

وقال قوم — وأنا أبرأ مِن عهدته — : إن « أوْلَى » مأخوذ من « الوَيْل » . وكان للويل فِعْل وتصريف دَرَجَ ولم يبق منه إلاَّ « الويل » قطُّ . قال (جرير) :

يَعَمَلْنَ بالأكبادِ وَيْلاً وآئلا

فقوله « أَوْلَى » : « أَفْعَلُ » من الويل ، إلاَّ أن فيه القلبَ .

وقال قوم « أَوْلَى » : داناهُ الهلاك فليَحْذَرْ . قال :

أولى لكم ثم أولى أن تصيبَكُمُ

مِنّي نَواقِرُ لا تبقي ولا تَذَرُ

(يا)

تكون للنداء ، نحو : « يا زيدُ » . وللدعاء ، نحو « يالله » . وتكون للتعجّب ، كقوله « يالَهُ فارساً » . وفي التعجب من المذموم : « ياله جاهلاً » قال في المدح أنشد فيه (القطّان) عن (ثعلب) :

يافارساً ما أبو أَوْفى إذا شُغِلَتْ

كلتا اليدين كَروراً غيرفرّارِ

وفي الذمّ قول الآخر :

أبو حازم جارٌ لها وابنُ بُرْثُنٍ

فيالكَ جارَيْ ذِلّةٍ وصَغارِ

و « يا » للتلهّف والتأسف نحو قوله جل ثناؤه « ياحَسْرَةً على العباد » .
ويكون تنبيها كقوله :

ياشاعراً لا شاعرَ اليومَ مثلُه

جرير ولكنْ في كُليب تواضُعُ

وعلى هذا يتأوّل قوله جلّ ثناؤه « ألا يسجدوا » وقد ذكرناهُ .
و « يا » تكون للتلذّذ نحو قوله :

يا بَرْدَها على الفؤاد لو يَقِفْ

باب معاني الكلام

وهي عند بعض أهل العلم عشرة : خبرٌ . واستخبار . وامر . ونهي . ودُعاء . وطَلَب . وعَرْض . وتحْضيض . وتمنّ . وتعجّبٌ .

فهذا : (بابُ الخبَر)

أما أهل اللغـة فلا يقولون في الخبر أكثرَ مِن أنّه إعلامٌ . تقول : « أخبرتُه . أخْبِرُه » والخبر هو العلم .

وأهل النظر يقولون : الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبـه . وهو إفادة المخاطَب أمراً في ماضٍ من زمان أومستقبل أو دائم . نحو « قام زيد » و « يقوم زيد » و « قائمٌ زيد » . ثم يكون واجبا وجائزا وممتنعا . فالواجب قولنا « النار مُحرقة » . والجائز قولنـا « لقي زيد عمراً » . والممتنع قولنـا « حملت الجبلَ » .

والمعاني التي يحتملها لفظ « الخبر » كثيرة : فمنها (التعجب) نحو « ما أحسنَ زيداً » . و (التمني) نحو « ودِدتُكَ عندنا » . (والانكار) : « ما له عليَّ حق » . و (النفي) : « لا بَأْسَ عليك » . و (الأمر) نحو قوله جلّ ثناؤه « والمطلَّقاتُ يتربَّصْنَ » . و(النهي) نحوقوله « لا يَمَسُّهُ إلاّ المطهَّرون » . و (التعظيم) نحو « سبحانَ اللهِ » . و (الدُّعاء) نحو « عفا الله عنـه » . و (الوعد) نحو قوله جلّ وعز « سنريهم آياتنا في الآفاق » . و (الوعيد) نحو قوله « وسيَعلم الذين ظَلموا » . (والانكار والتبكيت) نحو قوله جلّ ثناؤه « ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيز الكريم » .

وربّما كان اللفظُ خبراً والمعنى شرطٌ وجزاء ، نحو قوله « إنّا كاشفو

العذاب قليلا إنكم عائدون » فظاهره خبر ، والمعنى : إنّا إن نكشف عنكم العذاب تعودوا . ومثله « الطلاق مرتان » المعنى : مَن طلّق امرأته مرتين فليُمْسِكها بعدهما بمعروف أو يسرّحها بإحسان .

والذي ذكرناه في قوله جل ثناؤه « ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم » فهو تبكيت وقد جاء في الشعر مثله . قال شاعر يهجو جريراً :

أبلغْ جريراً وأبلغ مَن يبلّغُه
أني الأغرُّ وأني زهرةُ اليمَنِ

فقال (جريرٌ) مبكّتاً له :

ألم تكن في وُسُوم قد وَسَمْتَ بها
من حانَ موعظةٌ يا زهرةَ اليمَنِ ؟

ويكون اللفظ خبَراً ، والمعنى دعاء وطلب وقد مرّ في الجملة . ونحوه « إيّاكَ نعبُد وإياكَ نستعين » معناه : فأعِنّا على عبادتك . ويقول القائل « استغفر اللهَ » والمعنى : اغفِرْ . قال الله جلّ ثناؤه « لا تثريبَ عليكم اليومَ يغفِرُ الله لكم » ويقول الشاعر :

استغفرُ اللهَ ذنباً لستُ مُحصِيَهُ
ربَّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ

(باب الاستخبار)

الاستخبارُ ـ طلب خُبْر ماليس عند المستخبِر ، وهو الاستفهام .

وذكر ناس أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق . قالوا : وذلك أن أُولى الحالين الاستخبار لأنك تستخبر فتجابُ بشيء ، فربّما فهمته وربّما

لم تفهمه ، فاذا سألت ثانية فأنت مستفهم تقول : أفهمني ماقلته لي . قالوا : والدليل على ذلك أن الباري جل ثناؤه يوصف بالخُبْر ولا يوصف بالفهم .

وجملة باب الاستخبار أن يكون ظاهره موافقاً لباطنه كسؤالك عمّا لا تعلمه ، فتقول « ما عندك ؟ » و « مَن رأيتَ ؟ » .

ويكون استخباراً ، في اللفظ ، والمعنى تعجب . نحو « ما أصحاب المَيْمَنَة » . وقد يسمي هذا تفخيماً . ومنه قوله « ماذا يَستعجِل منه المجرمون» تفخيم للعذاب الذي يستعجلونه .

ويكون استخباراً والمعنى توبيخ . نحو « أذهبتم طيباتكم» . ومنه قوله:

أغَرَرْتني وزعمت أنّــك لاَبِنٌ بالصيف تَامِرْ ؟

ويكون اللفظ استخباراً ، والمعنى تفجُّع . نحو « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة » .

ويكون استخباراً ، والمعنى تبكيت نحو « أأنت قلت للناس » تبكيتٌ للنصارى فيما ادعوه .

ويكون استخباراً ، والمعنى تقرير . نحوقوله جل ثناؤه «ألست بربكم» .

ويكون استخبارا ، والمعنى تسوية . نحو « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » .

ويكون استخبارا ، والمعنى استرشاد . نحو « أتجعل فيهامن يُفسدفيها» .

ويكون استخبارا ، والمعنى انكار نحو «أتقولون على الله مالا تعلمون» .

ومنه قول القائل :

وتقولُ عَزّةُ قد مَلِلتَ . فقل لها :
أيَمَلُّ شيءٌ نفسَه فأمَلَّها ؟ ..

ويكون اللفظ استخبارا ، والمعنى عَرْض . كقولك « ألا تنزل » .

ويكون استخبارا ، والمعنى تحضيض . نحو قولك « هلّا خيرا من ذلك » . و :

بني ضَوْطرَى لولا الكميّ المقنّعا

ويكون استخبارا والمراد به الافهام . نحو قوله جل ثناؤه « وما تلك بيمينك » قد علم الله أن لها أمرا قد خفي على موسى عليه السلام ، فأعلمه من حالها مالم يعلمه .

ويكون استخبارا ، والمعنى تكثير . نحو قوله جل ثناؤه « وكم من قرية أهلكناها » و « كأيّنْ من قرية » . ومثله :

كم مِنْ دَنيٍّ لها قد صِرتُ أتْبعُهُ
ولو صحا القلب عنها كان لي تبعا

وقال آخر :

وكم مِن غائط من دون سلْمى
قليلِ الأُنس ليس به كَتيعُ

ويكون استخبارا ، والمعنى نفي قال الله جل ثناؤه « فمن يَهدي من أضلّ اللهُ » فظاهره استخبار والمعنى : لا هاديَ لمن أضلّ اللهُ . والدليل على ذلك قوله في العطف عليه « ومالهم من ناصرين » . ومما جاء في الشعر منه قولُ (الفرزدق) :

أينَ الذين بهم تُسامِي دارِماً :
أمْ مَنْ إلى سَلَفَيْ طُهَيَّةَ تَجْعلُ ؟

ومنه قوله جل ثناؤه « أفأنت تُنْقذُ مَن في النار » أي لست مَنقذَهم .

وقد يكونُ اللفظ استخبارا ، والمعنى إخبار وتحقيق . نحو قوله جل

ثناؤه « هل أتى على الانسان حينٌ من الدّهر » قالوا معناه : قد أتى .

ويكون بلفظ الاستخبار ، والمعنى تعجب . كقوله جل ثناؤه « عمّ يَتَسَاءلُون » و « لِأيّ يوم أجّلتْ » ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضَع في الشرط وهو في الحقيقة للجزاء . وذلك كقول القائل « إن أكرمتُكَ تُكرِمني » المعنى : أتكرمني إن أكرمتُك ؟ قال الله جل ثناؤه « أفإن مِتّ فهم الخالدون ؟ » تأويل الكلام : أفهم الخالدون إن متّ ؟ ومثله « أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ؟ » تأويله : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات ؟

وربّما حذفت العربُ ألف الاستفهام . من ذلك قول الهُذَلِيّ :

رَفَوْنِي وقالوا : ياخويلدُ لم تُرَعْ
فقلت ـ وأنكرتُ الوجوهَ ـ هُمُ هُمُ ؟

أراد : أهم ؟ وقال آخر :

لَعمرُكَ ما أدري وإن كنتُ داريًا
شُعَيْثَ بنَ سهْمٍ ، أم شُعيثَ بنَ مِنْقَرِ ؟

وقال آخر :

لعمركَ ما أدري وان كنتُ داريًا
بسبعٍ رمَين الجمر ، أم بثمانٍ ؟

وعلى هذا حمل بعض المفسرين قوله جل ثناؤه في قصة ابراهيم عليه السلام « هذا ربي » : أي : أهذا ربي ؟

(باب الأمر)

الأمر عند العرب ـ ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصيًا . ويكون

بلفظ « افْعلْ » و « ليفعَلْ » نحو « أقيموا الصلاةَ » ونحو قوله « وَليحكمْ أهلُ الانجيل » .

فأما المعاني التي يحتملها لفظ الأمر فأن يَكون أمراً ، والمعني مسئلةٌ . نحو قولك « اللهم اغفر لي » . قال :

ما مَسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَرْ
اغفِرْ له اللهمَّ ان كان فَجَرْ (١)

ويكون أمراً ، والمعنى وعيد . نحو قوله جل ثناؤه «فتمتعوا فسوف تعلمون » . ومثله قوله جل ثناؤه « اعمَلُوا ماشيئتم» . ومنه قول (عَبيد) :

حتّىّ سَقيناهم بكأسٍ مُرَّةٍ
فيها المُثَمَّلُ ناقعاً فليشْرَبوا

ومن الوعيد قوله :

ارْوُوا(٢) عليّ وأرْضُوا بي رِحالَكُمُ
واستَسمِعوا يابني مَيْثاءَ إنشادي
ما ظنُّكم ببني مَيْثاءَ إن رَقدوا
ليلاً وشدَّ عليهم حيَّةُ الوادي ؟

وقد جاء في الحديث « إذا لم تَسْتَحْي فاصنَعْ ما شيئت » أي : إن الله جل ثناؤه مجازيك قال الشاعر :

---

(١) فجر : مال عن الصدق . وحكاية الشعر أن أعرابيا أتى عمر بن الخطاب فشكا اليه نقب ابله ودبرها واستحمله ، فلم يحمله عمر وأقسم له أنه ليس فيها مايزعم الاعرابي ، وأول قول الراجز:
أقسم بالله أبو حفص عمر

(٢) من « الرواية » .

إذا لم تَخْشَ عاقِبةَ الليالي
ولم تَسْتَحي فاصنع ما تشاءُ

ويكون اللفظ أمراً، والمعنى تسليم. نحو قوله جل ثناؤه « فاقْضِ ما أنتَ قاض ».

ويكون أمراً، والمعنى تكوين. نحو قوله جل ثناؤه « كونوا قِرَدَةً خاسِئين ». وهذا لا يجوز أن يكون إلا مِن الله جل ثناؤه.

ويَكون أمرا، وهو نَدْب. نحوقوله ثناؤه « فانْتَشِرُوا في الأرض ». ومثله:

فقلتُ لراعيها انْتَشِرْ وتَبَقَّلِ

ويكون أمرا، وهو تعجيز. نحوقوله جل ثناؤه «فانْفُذوا، لا تنفُذون إلا بسلطان». ومثله:

خَلِّ الطريقَ لمن يَبْني المَنارَ بها
وابرُز ببَرْزَةَ حيثُ اضْطَرَّكَ القَدَرُ

ويكون أمرا، وهو تعجب. نحوقوله جل ثناؤه « أسْمِعْ بهم ». قال:

أحْسِنْ بها خُلَّةً لو أنها صدقتْ
موعودَها، ولو انَّ النُّصحَ مقبولُ[1]

ويكون أمرا، وهو تمنٍّ. تقول لشخص تراه « كُنْ فلاناً ».

ويكون أمرا، وهو واجب. في أمر الله جل ثناؤه « أقيموا الصلاةَ ».

ويكون اللفظ أمرا، والمعنى تلهيفٌ وتحسير. كقول القائل « مت

---

(١) البيت لكعب بن أبي زهير رضي الله عنه. من قصيدته المشهورة التي يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ويروى « اكرم بها » مكان « أحسن بها » واول القصيدة قوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

بَغَيْظِكَ » و « مُتْ بِدائِكَ » وفي كتاب الله جل ثناؤه « قل موتوا بغيظكم »
ثم قال (جرير) :

موتوا من الغَيْظ غَمّاً في جَزيرَتِكم
لَنْ تقطعوا بطنَ وادٍ دونَهُ مُضَرُ

ويكون أمرا ، والمعنى خَبَر . كقوله جل ثناؤه « فلْيَضْحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا » المعنى : انهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيرا .

فان قال قائل : فما حال الامر في وجوبه وغير وجوبه ؟ قيل له : أمّا العرب فليس يُحفظُ عنهم في ذلك شيء ، غير أن العادة جارية بأنّ من أمر خادمه بسقيه ماءً فلم يفعل ، أنّ خادمه عاصٍ . وأن الآمر مَعْصِيّ . وكذلك اذا نهى خادمَه عن الكلام فتكلم ، لا فرق عندهم في ذلك بين الأمر والنهي .

فأما « النهي » — فقولُك « لا تَفْعلْ » . ومنه قوله :

لا تَنكِحي — إن فَرَّق الدهر بيننا —
أغمَّ القفا والوَجهِ ليس بأنْزعا(١)

وأمّا « الدعاء ، والطَّلب » — فيكون لمن فوقَ الداعي والطالب . نحو « اللهمَّ اغفِرْ » . ويقال للخليفة « انظُرْ في أمري » . قال الشاعر :

إليكَ أشكو ، فتقبَّلْ مَلَقي
واغفرْ خطاياي وثمِّرْ وَرَقي

و « العَرْض . والتحضيض » — متقاربان ، إلا أن العَرْضَ أرفقُ ، والتحضيض أعْزَمُ . وذلك قولك في العَرْض « ألا تنزل . ألا تأكلُ » .

(١) من قصيدة (هدبة بن خشرم) ومطلعها :
أقلي علي اللوم يا أم بوزعا   ولا تجزعي مما أصاب فأوجعا

والاغراء والحثُّ قولك «ألَمْ يأن لك أن تطيعني» . وفي كتاب الله جلّ ثناؤه «ألَمْ يَأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله» . والحثّ والتحضيض كالأمر ومنه قوله عزوجل «أنِ ائْتِ القومَ الظالمين ، قومَ فِرعَون ، ألاَ يتقون» فهذا من الحث والتحضيض ، معناه : ائْتِهِم ومُرْهُم بالاتّقاء .

و «لولا» يكون لهذا المعنى ، وقد مضى ذكرها . وربما كان تأويلها النفي ، كقوله جل ثناؤه «لولا يأتُونَ عليهم بسُلطان بيّن» المعنى : اتخذوا من دونه آلهة لا يأتونَ عليهم بسلطان بيّن .

و «التمنيّ» ـ قولك «وَدِدتكَ عندنا» وقوله :

وَددتُ ـ وما تُغني الوَدَادَةُ ـ أنني
بما في ضمير الحاجبيَّة عالِمُ .

قال قوم : هو مِن الاخبار ، لأن معناه «ليس» اذا قال القائل «لَيْتَ لي مالاً» فمعناه : ليس لي مالٌ . وآخرون يقولون : لو كان خبرا لجاز تصديق قائله أو تكذيبه ، وأهل العربية مختلفون فيه على هذين الوجهين .

أمّا «التعجب» ـ فتفضيل شخص من الأشخاص أو غيره على أضرابه بوصف . كقولك «ما أحسنَ زيدا» . وفي كتاب الله جل ثناؤه «قُتِلَ الانسانُ ما أكفره» وكذلك قوله جل ثناؤه «فما أصبَرَهم على النار» وقد قيل : انّ معنى هذا «ما الذي صبَّرهم» . وآخرون يقولون «ما أصبرَهم : ما أجرأهم» . قال : وسمعت أعرابيًّا يقول لآخر : ما أصبرك على الله ، أي ما أجرأك عليه .

باب الخطاب

يأتي بلفظ المذكّر، أو لجماعة الذُّكران

اذا جاء الخطاب بلفظ مذكّر ولم يُنَصّ فيه على ذِكر الرجال فانّ ذلك الخطاب شامل للذُكران والاناث . كقوله جلّ ثناؤه « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزَّكاة » . كذا تَعرِف العرب هذا . فاذا قال القائل « هذا لقوم من بني فلان » فقد ذهب أكثرُ أهل اللغة الى أن « القومَ » للرجال دون النساء ، فسمت عليَّ بن ابراهيم يقول ، سمعت ثعلباً يقول : يقال « امرؤٌ . وأمرآن . وقوم » و « امرَأة . وامرأتان . ونِسوَة » . وسمعت علياً يقول ، سمعت المفسر يقول ، سمعت عبدَ الله بن مُسْلِم يقول : « القوم » للرجال دون النساء ، ثم يُخالطهم النساء فيقال « هؤلاء القومُ قومُ فلان » ولا يجوز للنساء ليس فيهن رجل : هؤلاء قوم فلان ، ولكن يقال : هؤلاء من قوم فلان ، لأن قومه رجال والنساء منهم . قال : وانّما سمي الرجال دون النساء قوماً لأنهم يقومون في الأُمور وعند الشدائد يقال : قائم وقَوْم ، كما يقال : زائر وزَوْر . وصائم وصَوْم . ونائم ونَوْم . ومثله « النَّفَر » لأنهم ينفِرُون مع الرجل اذا استنفرَهم . قال (امرؤ القيس) :

فهو لاتَنمي رَمِيَّتُهُ مالَهُ لاعُدَّ من نَفَرِه(١)

ومما يدلّ على أن القوم للرجال قول (زهير) :

---

(١) يقول : اذا رمى هذا الرامي الرمية لم تجز موضعها حتى تموت . ثم دعا عليه بالموت ، ولكن على سبيل التعجب لا على سبيل الحقيقة . أما مطلع القصيدة فقوله :

رب رام من بني ثعل متلج كفيه في قتره

وما أدري ، وسوف إخال أدري ،
أقوم آل حصن أم نساء (١)

باب أقل العدد الجمع

الرُّتَبُ في الأعداد ثلاث : رتبة الواحد . ورتبة الاثنين . ورتبة الجماعة ، فهي للتوحيد والتثنية والجمع ، لا يزاحم في الحقيقة بعضُها بعضا . فان عُبِّر عن واحد بلفظ جماعة وعن اثنين بلفظ جماعة فذلك كله مجاز والتحقيق ما ذكرناه . فاذا قال القائل « عندي دراهمُ . أو أفراسٌ . أو رجال » فذلك كله عبارة عن أكثر من اثنين . وإلى ذلك ذهب (عبد الله بن عباس) — ومكانُه من العلم باللغة مكانُه — في قوله جل ثناؤه « فإن كان له إخوةٌ فلأمِّه السُّدُس » إلى أن الحَجْبَ في هذا الموضع عن الثلث إلى السدس لا يكون إلا بأكثر من اثنين ، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « الاثنان فما فوقهما جماعة » فانما أراد أنهما إذا صلّيا فقد حازا فضلَ الجماعة ، لا أنّ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سمّى الشخصين جماعة . وقول القائل : إن أقلّ ذلك أن يُجْمع واحد إلى واحد فهذا مجاز ، وإنما الحقيقة أن يُقال : كان واحد فثنّي ثم جمع . ولو كان الأمر على ما قالوه لما كان للتثنية ولا للاثنين معنًى بوجه ، ونحن نقول « خرجا . ويخرجان » فلو كان الاثنان جمعاً لما كان لقولنا « يخرجان » معنًى ، وهذا لا يقوله أحد .

---

(١) من قصيدته التي مطلعها :

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالحساء

باب الخطاب

الذي يقع به الإفهام من القائل، والفهم من السامع

يقع ذلك بين المتخاطبيْن من وجهين: أحدهما الإعراب، والآخر التصريف. هذا فيمن يعرف الوجهين، فأما من لا يعرفهما فقد يمكن القائل إفهامُ السامع بوجوه يطول ذكرها من اشارة وغير ذلك. وإنما المعوّل على ما يقع في كتاب الله جل ثناؤه من الخطاب أو في سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو غيرهما من الكلام المشترك في اللفظ.

فأما الاعراب ـ فبه تُميَّز المعاني ويُوقَف على أغراض المتكلمين. وذلك أن قائلا لو قال «ما أحسنْ زيدْ» غيرَ معرب» أو «ضربْ عمرْ زيدْ» غير معرب لم يوقف على مراده. فاذا قال «ما أحسنَ زيداً» أو «ما أحسنُ زيدٍ» أو «مَا أحسنَ زيدٌ» أبانَ بالاعراب عن المعنى الذي أراده.

وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرِّقون بالحركات وغيرها بين المعاني. يقولون «مِفتَح» للآلة التي يُفتح بها. و«مَفتَح» لموضع الفتح و«مِقَصّ» لآلة القص. «ومَقَصّ» للموضع الذي يكون فيه القص و«مِحْلَب» للقدح يُحلب فيه و«مَحْلَب» للمكان يُحتلب فيه ذوات اللبن ويقولون «امرأة طاهر» من الحيض لأن الرجل لا يشركها في الحيض. و«طاهرة» من العيوب لأن الرجل يَشركها في هذه الطهارة. وكذلك «قاعد» من الحَبَل و«قاعدة» من القعود. ثم يقولون «هذا غلاماً أحسن منه رجلا» يريدون الحالَ في شخص واحد. ويقولون «هذا غلام أحسنُ منه رجل» فهما اذاً شخصان. وتقول «كم رجلاً رأيتَ؟» في الاستخبار،

و « كم رجلٍ رأيتَ » في الخبر يراد به التكثير . و « هُنَّ حَوَاجُّ بيتِ الله » اذا كنّ قد حَجَجْنَ . و « حَوَاجُّ بيتَ الله » اذا أردْن الحجَّ . ومن ذلك « جاء الشتاءُ والحَطَبَ » لم يُرِدْ أنَّ الحطب جاء ، انما أراد الحاجة اليه . فان أراد مجيئهما قال « والحطبُ » . وهذا دليل يدل على ما وراءه .

وأما التصريف — فانَّ من فاته علمه فاته المُعظَم ، لأنا نقول « وَجَدَ » وهي كلمة مبهمة فاذا صرفنا أفصحتْ فقلنا في المال « وُجْداً » وفي الضالة « وِجْداناً » وفي الغضب « مَوْجِدَةً » وفي الحزن « وَجْداً » . وقال الله جل ثناءه « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حَطَبا » وقال « وأقْسِطوا ان إلله يحب المقسطين » كيف تحول المعنى بالتصريف من العدل الى الجَوْر . ويكون ذلك في الاسماء والأفعال فيقولون للطريقة في الرمل « خِبَّة » وللأرض المخصبة والمجدبة « خُبَّة » . وتقول في الأرض السهلة الخوّارة « خارتْ ، تخورُ ، خَوْزاً ، وخؤُراً » وفي الانسان اذا ضعُف « خارَ ، خَوَرا » وفي الثور « خار ، خُواراً » . ويقولون للمرأة الضخمة « ضِنَاك » وللزُّكمة « ضُنَاك » ويقولون للابل التي ذهبت ألبانها « شَوْل » وهي جمع « شائلة » . والتي شالت أذنابها لِلّقح « شُوَّل » وهي جمع « شائل » . ويقولون لبقية الماء في الحوض « شَوْل » ويقولون للعاشق « عميد » وللبعير المتأكل السَّنام « عمِد » الى غير ذلك من الكلام الذي لا يُحصى .

باب معاني الفاظ العبارات

التي يعبّر بها عن الاشياء

ومرجعها الى ثلاثة وهي : المعنى ، والتفسير ، والتأويل . وهي وان

اختلفت فان المقاصد بها متقاربة .

فاما المعنى — فهو القصد والمراد . يقال « عَنَيْتُ بالكلام كذا » أي : قَصَدْتُ وعَمَدْت . أنشدني القطان عن ثعلب عن (ابن الأعرابي) :

مثلُ البُرام غدا في أُصْدَةٍ خلَقٍ

لم يستَعِن وحوامي الموتِ تَغشاهُ

فَرَّجْتُ عنه بِصِرْعَيْنا لأَرْمَلة

وبائس جاء معناه كمعناهُ

يقول في رجل قُدِّم لِيُقتل ، وأنه فرج عنه بِصِرْعين ، أي فِرْقين من غنم : قد كنتُ أعدَدْتُها لأرملة تأتيني تسألني أو لبائس مثل هـذا المقدَّم ليقتل معناه كمعناه ، أي إن مقصدهما في السؤال والبؤس مقصد واحد ويجوز أن يكون المعنى « الحال » أي حالهما واحدة .

وقال قوم اشتقاق « المعنى » من « الاظهار » يقال « عَنَتِ القِرْبة » اذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، و « عُنوان الكتاب » من هذا . وقال آخرون : « المعنى » مشتق من قول العرب « عنَتِ الأرض بنبات حسن » إذا أنبتت نباتاً حسناً . قال الفراء « لم تَعْنُ بلادنا بشيءٍ » إذا لم تُنبت وحكى (ابن السِّكِّيت) « لم تَعْنِ » من « عَنَتْ . تعني » فان كان هذا فانَّ المراد بالمعنى الشيء الذي يفيده اللفظ كما يقال « لم تَعْنِ هذه الأرض » أي : لم تُفِدْ .

وأما « التفسير » — فانه « التفصيل » كذا قال (ابن عباس) في قوله جل ثناؤه « وأحسَنَ تفسيرا » أي : تفصيلا .

وأما اشتقاقه فمن « الفَسْر » . أخبرني القطّان عن المَعْدانيّ عن أبيه عن

معروف عن الليث عن (الخليل) قال : الفسر البيان ، واشتقاقه من فسر الطبيب الماء إذا نظر إليه ، ويقال لذلك « التَّفْسِرَة » أيضاً .

وأما « التأويل » ـ فآخرُ الأمر وعاقبته . يقال « إلى أي شيء مآل هذا الأمر ؟ » أي مَصيرُه وآخره وعقباه . وكذا قالوا في قوله جلّ ثناؤه « وما يعلم تأويلَه إلاَّ الله » أي : لا يعلم الآجال والمُدَدَ إلاَّ الله جل ثناؤه ، لأن القوم قالوا في مدّة هذه الملة ما قالوه ، فأُعلموا أن مآل الأمر وعقباه لا يعلمه الا الله جل ثناؤه .

واشتقاق الكلمة من « المآل » وهو العاقبة والمصير ، قال (عَبْدَةُ بن الطبيب) :

ولِلأَحِبَّة أيام تَذَكَّرُها
ولِلنّوى قبل يوم البين تأْويلُ

وقال (الأعشى) :

على أَنَّها كانَتْ تَأَوُّلُ حبِّها
تَأَوُّلَ رِبْعِيّ السِّقاب فأَصْحَبا

يقول : إن حبّها كان صغيراً في قلبه فآلَ الى العظَم ولم يزل يَنْبُت حتى أصحَبَ ، فصار كالسَّقْب الذي لم يزل يَشِبُّ حتى أصحب ، يعني أنه إذا استصحبته أمه صحبها .

باب الخطاب المطلق والمقيد

أمّا الإطلاق ـ فأن يُذكَر الشيء باسمه لا يُقْرَن به صفة ولا شرط ولا زمان ولا عدد ولا شيء يشبه ذلك .

والتقييد - أن يذكر بِقَرِين من بعض ما ذكرناه ، فيكون ذلك القرين زائداً في المعنى . من ذلك أن يقول القائل « زيدٌ ليثٌ » . فهذا إنما شبّهه بليث في شجاعته . فاذا قال « هو كالليثِ الحَرِبِ » فقد زاد « الحَرِب » وهو الغضبان الذي حُرِبَ فريسته ، إي : سُلِبَها . فاذا كان كذا كان أدهى له . ومن المطلق قوله :

ترائبُها مصقولة كالسَّجَنْجَلِ (١)

فشبَّه صدرها بالمرآة ، لم يزد على هذا . وذكر (ذو الرّمة) أخرى فزاد في المعنى حتى قيّد فقال :

ووجهٌ كمرآة الغريبة أسْجَحُ

فذكر المرآة كما ذكر (امرؤ القيس) السَّجنجل ، وزاد الثاني ذِكْرَ الغريبة فزاد في المعنى ، وذلك أن الغريبة ليس لها من يُعْلِمها محاسنها من مساويها فهي تحتاج أن تكون مرآتها أصفى وأنقى لتُرِيَها ما تحتاج إلى رؤيته من سُنَنِ وجهها . ومنه قول (الأعشى) :

تَرُوحُ على آل المُحَلَّق جَفنةٌ
كجابيةِ الشيخِ العِراقيِّ تَفْهَقُ

فشبّه الجفنة بالجابية ، وهي الحوض ، وقيدها بذكر الشيخ العراقي لأن العراقي اذا كان بالبدو لم يعرف مواضعَ الماء ومواقع الغيث ، فهو على جمع الماء الكثير أحرص من البدوي العارف بالمناقع والأحساء . ومن هذا الباب قول (حُمَيد بن ثَوْر) يصف بعيراً :

---

(١) عجز بيت من معلقة (امرىء القيس) وصدره :
مهفهفة بيضاء غير مفاضة

مُحَلًّى بأطواقٍ عِتاقٍ يُبِينُها
على الضُّرِّ راعي الثَّلَّةِ المُتَعَيِّفُ

فقال « راعي ثَلَّة » ولم يطلق اسم الراعي ، وذلك انهم يقولون : إنّ راعيَ الغنم أجهلُ الرُّعاة ، فيقول : إنّ هذا البعيرَ مُحَلًّى باطواق عتاق ،أي كريمة ، يُبِينُها راعي الثلة على جهله فكيف بغيره ممن يعرف .

باب الشيء يكون ذا وصفين

فيُعلَّق بحُكم من الأحكام على أحد وصفَيْه

أمّا الفقهاء فمختلفون في هذا .

فأمّا مذهب العرب فانّ العربي قد يذكر الشيء باحدى صفتيه فيؤثّر ذلك ، وقد يذكره فلا يؤثّر بل يكون الأمر في ذلك وفي غيره سواءً .ألا ترى القائل يقول :

مِنْ أُناسٍ ليسَ من أخلاقِهم
عاجِلُ الفُحش ولا سوءُ الطَّمَعْ

فلو كان الأمر على ما يذهب اليه مَن يُخالِف مذهبَ العرب لاستُجيز عاجلُ الفُحش إذ كان الشاعِرُ إنما ذكر العاجل ، وقد قال الله جلّ ثناؤه « ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به » والكفر لايجوز في حال من الأحوال . وحكى ناس عن (أبي عُبَيْد) أنّه كان يقول بالمذهب الأوّل ويقول في قول النبيّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « لَيُّ الواجِد يُحِلُّ عقوبَتَه وعِرضه » فدلّ أن غيرَ الواجد مخالف للواجد . والذي نقوله في هذا الباب أنّ (أبا عبيد) إنما سلك فيما قاله من هذا مَسلك التأوُّل ذاهباً الى مذهب من يقول بهذه المقالة ،

ولم يَحْكِ ماقاله عن العرب ، ولو حكاه عنهم للزم القولُ به ، لأنّ (أبا عبيد) ثقة أمين فيما يحكيه عن العرب ، فأما في الذي تأوّله فانّا نحن نُخالفه فيه كما نخالفه في مسئلة مُتعة الحج وفي ذوي الأرحام وغير ذلك من المسائل المختلف فيها .

باب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز

تقول في معنى الحقيقة والمجاز :

إن « الحقيقة » — من قولنا «حقَّ الشيء» إذا وجب . واشتقاقه من الشيء المحقَّق وهو المُحْكَم ، تقول « ثوب محقّق النَّسْج » أي مُحْكَمُه. قال الشاعر :

تَسرْبلْ جلدَ وجهِ أبيك إنّا
كَفَيناكَ المحقّقَة الرِّقاقا

وهذا جنس من الكلام يُصدّق بعضُه بعضاً من قولنا «حقٌّ وحقيقة. ونصُّ الحِقاق » . فالحقيقة : الكلام الموضوع موضعَه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ، ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل « أحمدُ اللهَ على نِعَمِه وإحسانه » وهذا أكثر الكلام . قال الله جل ثناؤه « والذين يؤْمنونَ بما أنزل إليكَ وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنُون » وأكثر ما يأتي من الآي على هذا . ومثله في شعر العرب :

لَمالُ المرءِ يُصلحُه فيغْني
مفاقِرَهُ أعفُّ من القُنوعِ (١)

وقول الآخر :

(١) سبق معنا أن البيت من شعر الشماخ .

وفي الشرّ نَجَاةٌ حـ ـينَ لا يُنْجيكَ إحْسانُ

وأمّا «المجاز» — فمأخوذ من «جَازَ . يَجُوزُ» إذا استنّ ماضياً تقول «جازَ بنا فلان . وجازَ علينا فارس» هذا هو الأصل . ثم تقول «يجوز أن تفعلَ كذا» أي : ينْفُذ ولا يُرَدُّ ولا يُمْنَع . وتقول «عندنا دراهم وَضَح وازِنة وأخرى تَجُوزُ جَوَازَ الوازِنَة» أي : إن هذه وإن لم تكن وازنة فهي تجوز مجازَها وجوازها لقرْبها منها. فهذا تأويل قولنا «مَجَاز» أي: إن الكلام الحقيقيّ يمْضي لِسَنَنه لا يُعْتَرض عليه ، وقد يكون غيره يجوز جوازه لقُربه منه ، إلاَّ أنّ فيه من تشبيهٍ واستعارَة وكفٍّ ما ليس في الأول ، وذلك كقولك «عطاء فلان مُزْنٌ واكِفٌ» فهذا تشبيه وقد جاز مجاز قوله «عطاؤه كثير وافٍ» ومن هذا في كتاب الله جل ثناؤه «سَنَسِمُهُ على الخُرطوم» فهذا استعارة . وقال «وله الجواري المُنْشآتُ في البحر كالأعلام» فهذا تشبيه . ومنه قول الشاعر :

ألمْ ترَ أنّ الله أعطاكَ سورَةً
تَرَى كلَّ مَلك دُونها يتذَبذَبُ
بأنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ
إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

فالمجاز هنا عند ذِكر «السُّورَة» وإنما هي من البناء . ثم قال «يتذبذب» والتذبذب يكون لِذَباذِب الثوب وهو ما يتدلّى منه فيضطرب ثم شبهه بالشمس وشبههم بالكواكب .

وجاء هذان البابان في نُظوم كتاب الله جلّ ثناؤه ، وكذلك ما يجيء بعدهما مما نذكره من سُنَن العرب لتكون حجَّة الله جل اسمه عليهم آكَد،

ولِئَلاَّ يقولوا : إنما عجزنا عن الاتيان بمثله لانه بغير لغتنا وبغير السُّنن التي نَستَنُّها . لا ، بل أنزله جل ثناؤه بالحروف التي يعرفونها وبالسُّنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ليكون عجزهم عن الاتيان بمثله أظهرَ وأشهر . ثم جعله تبارك اسمه أحد دلائل نُبوّة نبيّنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . ثم أعلمهم ألاَّ سبيل لهم الى معارَضته ، وقَطَع العُذر بقوله جل ثناؤه « قل لَئِن اجتمعتِ الانسُ والجِنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

فمن سنن العرب مخالفةُ ظاهرِ اللفظ معناه ، كقولهم عند المدح «قاتله الله ما أشعره » فهم يقولون هذا ولا يريدون وقوعه . ومن قول (امريء القيس) يصف رامياً :

فهو لا تَنْمِي رَميَّتُه مالَهُ لا عُدَّ من نَفَرِه

يقول : إذا عدَّ نفرُه لم يعدَّ معهم ، كأنه قال : قتله الله ، أماته الله ، حتى لا يعَدَّ . ومنه قولهم « هَوَتْ أمُّه . وهَبِلَتْهُ . وثَكِلَتْه » قال (كعب ابن سعد) يرثي أخاه :

هَوَتْ أمُّهُ ما يَبْعَثُ الصبحُ غادياً
وماذا يؤدّي الليلُ حينَ يؤوبُ

وهذا يكون عند التعجب من إصابة الرجُل في رميه أو في فعل يفعله . وكان (عبد الله بن مسلم بن قتيبة) يقول في هذا الباب : من ذلك الدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوعُ كقول الله جل ثناؤه « قُتِل الخَرّاصُون . وقُتِل الانسانُ ما أكْفرَه . وقاتلهم الله أنّى يؤفَكون » وأشباهُ ذلك .

قال أحمد بن فارس : وهذا وان أشبه ما تقدم ذكره فانه لا يجوز لأحد

أن يُطاق فيما ذكره الله جل ثناؤه أنه دعاء لا يراد به الوقوع ، بل هو دعاء عليهم أراد الله وقوعه بهم فكان كما أراد ، لأنهم قُتلوا واهلكوا وقوتلوا ولُعنوا ، وما كان لله جل ثناؤه ليدعوَ على أحد فتحيدَ الدعوة عنه : قال الله جل ثناؤه «تَبَّتْ يدا أبي لَهب فدعا عليه ثم قال - وتَبَّ» أيّ وقد تبّ وحاق به التباب . و (ابن قتيبة) يُطلق إطلاقات منكرةً ويروي أشياء شنعة ، كالذي رواه عن (الشَّعْبِيّ) أنَّ أبا بكر وعمر وعلياً توُفوا ولم يجمعوا القرآن . قال : وروى شَريك عن اسماعيل بن أبي خالد قال سمعت الشَّعبي يقول ويحلف بالله : لقد دخل (عليٌّ) حفرته وما حفظ القرآن . وهذا كلام شنع جداً فيمن يقول «سلُوني قبل أن تفقدوني ، سلوني فما من آية إلاَّ أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل» وروى السُّدّيّ عن عبد خيرٍ عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه رأى من الناس طَيْرةً عند وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فأقسمَ ألاَّ يضع على ظهره رداءً حتى يجمع القرآن قال : فجلس في بيته حتىّ جمع القرآن ، فهو أول مصحف جُمع فيه القرآن ، جَمعه من قلبه ، وكان عند (آل جعفر) . وحدثنا علي بن ابراهيم عن علي بن عبد العزيز قال قال أبو عبيد حدثني نصر بن باب عن الحجاج عن الحكم عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي أنه قال : ما رأيتُ أحداً أقرأ من (عليّ) صلوات الله عليه ، صلّينا خلفه فأسوأ بَرْزخاً ثم رجع فقرأه ثم عاد الى مكانه قال (أبو عبيد) البرزخ : ما بينَ كل شيئين ، ومنه قيل للميت : هو في البرزخ ، لأنه بين الدنيا والآخرة ، فاراد أبو عبد الرحمن بالبرزخ ما بين الموضع الذي أسقط علي صلوات الله عليه منه ذلك الحرفَ الى الموضع الذي كان انتهى اليه .

باب اجناس الكلام

في الاتفاق والافتراق

يكون ذلك على وجوه : فمنه اختلاف اللفظ والمعنى ، وهو الاكثر الاشهر ، مثل « رجل . وفرس » و « سيف . ورمح » ومنه اختلاف اللفظ واتفاق المعنى ، كقولنا « سيف . وعضب » و « ليث . وأسد » على مذهبنا في أن كل واحد منها فيه ماليس في الآخر من معنى وفائدة .

ومنه اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، كقولنا عين الماء وعين المال وعين الركبة وعين الميزان [1] ومنه في كتاب الله جل ثناؤه « قضى » بمعنى : حتم كقوله جل ثناؤه « قضى عليها الموتَ » وقضى بمعنى : أمَرَ كقوله جل ثناؤه « وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إيّاه » أي أمر . ويكون قضى بمعنى: أعلَمَ كقوله جل ثناؤه « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب» أي أعلمناهم . وقضى بمعنى : صنَعَ كقوله جل ثناؤه « فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ » وكقوله جل ثناؤه « ثُمَّ اقْضوا اليَّ » أي اعملوا ما أنتم عاملون . وقضى : فَرَغ .ويقال الميت: قَضَى أي فرغ . وهذه وان اختلفت الفاظها فالاصل واحد .

ومنه اتفاق اللفظ وتضادُّ المعنى كـ « الظنّ » وقد مضى الكلام عليه .

ومنه تقارب اللفظين والمعنيين كـ « الحزْم » و « الحزْن » . فالحزْمُ من الارض أرفع من الحزن . وكـ « الخضْم » وهو بالفم كله . و « القضْم » وهو بأطراف الاسنان .

---

(١) راجع قصيدة (ابن فارس) في معاني العين : صفحة (يه) من ترجمته التي صدرنا بها هذا الكتاب .

ومنه اختلاف اللفظين وتقارب المعنيين كقولهم « مدحه » اذا كان حيًّا و « أبَّنَه » اذا كان ميتا .

ومنه تقارب اللفظين واختلاف المعنيين وذلك قولنا « حَرِجَ » اذا وقع في الحَرَج و « تَحرَّجَ » اذا تباعد عن الحرج . وكذلك « أَثِمَ . وتأثَّمَ » . و « فَزِعَ » اذا أتاه الفَزَع و « فُزِّعَ عن قلبه » اذا نحّي عنه الفزع قال الله جل ثناؤه « حتىّ اذا فُزِّعَ عن قلوبهم » أرادوالله أعلم : أُخرِج منها الفزعُ .

باب القلب

ومن سُنن العرب القَلبُ . وذلك يكون في الكلمة ، ويكون في القصَّة :

فأمّا الكلمة — فقولهم « جَذَبَ وجَبَذَ » و « بَكَلَ . ولَبَكَ »وهو كثير وقد صنّفه علماء اللغة ، وليس من هذا فيما أظن من كتاب الله جل ثناؤه شيءٌ .

وأما الذي في غير الكلمات ـ فقولهم :

كما عُصِبَ العلْباءُ بالعودِ

و : كما كان الزّناءُ فريضةَ الرَّجْمِ

و : كأنّ لونَ أرضه سماؤُهُ

و : كأنّ الصفا أوْرا كُها

إنما أراد : كان أوراكَها الصفَّا، ويقولون «أدخلتُ الخاتَمَ في إصبعي»و:

تشقى الرّماحُ بالضيَّا طِرَةِ الحمُرِ .

و : كما بَطنْتَ بالفَدَنِ السيَّاعا

و : حَسَرْتُ كَفِّيّ عن السِّرْبالِ

وإنما حَسَرَ السِّربالَ عن كفه . ومثله في كتاب الله جل ثناؤه « خُلِقَ الانسانُ مِن عَجَلٍ » ومنه قوله جَلَّ ثناؤه « وحَرَّمْنا عليه المَراضِعَ من قبلُ » ومعلوم أن التحريم لايقع الا على مَن يلزَمُه الامر والنّهي ، وإذا كان كذا فالمعنى : وحرَّمنا على المراضع أن يرضِعْنَه . ووجه تحريم ارضاعه عليهن أن لايقبَل ارضاعهن حتى يُرَد الى أمّه . قال بعض علمائنا : ومنه قوله جل وعز « فانهم عدوٌّ لي الا ربَّ العالمين » والاصنام لاتعادي أحداً ، فكأنَّهُ قال : فاني عدوٌّ لهم . وعداوته لها بغضه اياها وبراءته منها .

باب الابدال

ومن سنن العرب إبدالُ الحروف واقامة بعضها مقامَ بعض ، ويقولون « مَدَحَه . ومَدَهه » و « فَرَسٌ رِفلٌ . ورِفنٌ » وهو كثير مشهور قد ألَّف فيه العلماء . فأمّا ماجاء في كتاب الله جل ثناؤه فقوله جل ثناؤه « فانْفَلَقَ فكان كلُّ فِرْقٍ » فاللام والراء يتعاقبان كما تقول العرب « فَلَقُ الصبح . وفَرَقه » . وذُكر عن (الخليل) ولم أسمعه سماعاً أنه قال في قوله جل ثناؤه « فجاسوا » : انما أراد « فحاسوا » فقامت الجيم مقام الحاء ، وما أحسب الخليلَ قال هذا ولاأحقُّه عنه .

باب الاستعارة

ومن سنن العرب الاستعارة . وهو أن يضعوا الكلمة للشيء مستعارة من موضع آخر فيقولون « انشقَّت عصاهم » اذا تفرقوا . وذلك يكون للعصا ولا يكون للقوم . ويقولون « كشفَتْ عن ساقها الحربُ » .

وفي كتاب الله جل ثناؤه « كأنهم حمر مستنفرة » يقولون للرجل المذموم : إنما هو حمار . وقال الشاعر :

دُفعتُ الى شيخ بجنب فِنائِه
هو العيرُ إلا أنّه يتكلّمُ

ومنه قوله جل ثناؤه « التفّت الساقُ بالساق » و « انّا لمردُودونَ في الحافرة » أي في الخلق الجديد . و « بَلْ رانَ على قلوبهم » وتقول العرب « رانَ به النُّعاس » أي غلب عليه . و « لقد خلقنا الانسان في كَبَد » أي ضيق وشدّة . و « لنَسْفَعاً بالنَّاصيَة » . و « امرأتُه حمالة الحطب » وقوله جل ثناؤه « فما بكَتْ عليهم السماء والأرض » وتقول العرب « ناقة تاجِرَة » يريدون أنها تُنَفِّقُ نفسها بحُسنها . وقوله جل ثناؤه « ويتخطَّفُ الناسُ من حولهم » و « ألَمْ ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون » و « ألا إنما طائرهم عندَ الله » ويُراد حظُّهم وما يحصل لهم . والعرب تقول :

فاني لستُ منكَ ولستَ مني
إذا ما طارَ من مالي الثمينُ

أي حصل . ومنه قوله جل ثناؤه « أقِمِ الصلاة » أي ائتِ بها كما أُمرتَ به و « إنَّ ربّك أحاطَ بالناس » أي عصمَكَ منهم . رواه شعْبَة عن أبي رجاء عن (الحسَن) . ومن الاستعارة قولهم « زالَتْ رِحالةُ سابح » كناية عن المرأة تستعصي على زوجها . قال (الشماخ) :

وكنتُ إذا زالت رِحالَةُ سابحٍ
شَمِتُّ به حتىَّ لقيتُ مِثالَها

وكانت امرأته نشزت عليه ، وذلك قوله :

ألا أصبحت عِرسي من البيت جامحاً
بغير بلاءٍ سيّءٍ ما بدا لها

باب الحذف والاختصار

ومن سنن العرب الحذف والاختصار ، يقولون « والله أفعلُ ذاك » يريد لا أفعل . و « أتانا عند مَغيب الشمس . أو حين أرادَ. أو حينَ كادت تغرب » قال (ذو الرّمة) :

فلمّا لبسنَ الليلَ أوحينَ نَصَّبتْ
له مِن خذا آذانها وهو جانحُ

ومنه في كتاب الله جل ثناؤه « واسئل القريةَ » أراد أهلها . و « الحجُّ أشهرٌ معلومات » . و « بنو فلان يطؤُهم الطريق » أي أهله . و « نحن نطأُ السماء » أي مطرها . و « على خوف من فرعونَ وملائهم » أي من آل فرعون . و « إذاً لأذقناكم ضِعْفَ الحياة » أي ضعفَ عذابها . و « الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدخلنّهم في الصالحين » . ومثله « أن اضربْ بعصاكَ البحرَ فانفلق » أي فضرب فانفلق . ومنه « إنيّ آمنتُ بربّكم فاسمعُوني . قيل ادْخلِ الجنةَ » أي : فلما قُتل قيل ادخلِ الجنة . ومنه « وتَرَكنا عليه في الآخرين » أراد الثناءَ الحسن . ومنه « فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله » معناه : فاذا عزم الأمر كذّبوه .

باب الزيادة

قال بعض أهل العلم : إنّ العربَ تَزيد في كلامها أسماءً وأفعالاً .

أما الأسماء — فالاسم والوَجْه والمِثْل . قالوا : فالاسم في قولنا « بسم الله » إنما أردنا « بالله » لكنه لما أشبه القسم زيد فيه الاسمُ . وأمّا الوجه فقول القائل « وَجْهي إليك » وفي كتاب الله جلّ ثناؤه « ويبقى وجهُ ربِّك » ثم قال الشاعر :

أستغفر اللهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَهُ
ربَّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

وأما المِثْل ففي قوله جل ثناؤه « فأْتوا بسورة من مِثْله » ويقول قائلهم « مثلي لا يَخضع لمثلك » أي : أنا لا أخضعُ لك . قال الشاعر :

ياعاذِلي دعْنيَ مِن عَذْلكا
مِثليَ لا يَقبَل من مثلكا

وقوله جلّ ثناؤه « وشَهِد شاهد مِن بني اسرائيل على مثله » أي عليه .

وأما الأفعال — فقولهم « كاد » في قول الشاعر :

حتىّ تناوَل كَلْباً في ديارِهم
وكادَ يسمو إلى الجُرفَيْن فارتفعا

أراد « وسما » ، ألا ترى أنه قال « فارتفعَ » . وما يُزاد أيضاً من الافعال قول القائل « لا أعلم في ذلك اختلافاً » وفي كتاب الله جل ثناؤه « أم تُنَبِّئُونه بما لا يعلم في الأرض » أراد والله أعلم : بما ليس في الأرض .

وقد تزاد حروف من حروف المعاني — كزيادة « لا » و « مِن » وغير ذلك . وقد مضى ذكره بشواهده .

باب التكرار

ومن سُنن العرب التكرير والاعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر كما قال (الحارث بن عُباد):

قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامةِ مِنّي
لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ

فكرَّر قوله «قَرِّبا مربط النَّعامة مني» في رؤس أبيات كثيرة عناية بالامر وأراد الابلاغ في التنبيه والتحذير. وكذلك قول (الأشعر):

وَكَتِيبةٍ لبَّسْتُها بكتيبة
حتى يقولَ نساؤهم: هذا فتى[1]

فكرر هذه الكلمة في رؤس أبيات على ذلك المذهب. وكتكرير مَن كرَّر:

مَهْلاً بني عمِّنا، مهلاً موالينا

وكقول الآخر

كم نعمة كانت له كَمْ كَمْ وَكَمْ

فكرّر لفظ «كم» لفرط العناية بقصد تكثير العدد. قال علماؤنا: فعلى هذه السنّة جاء ماجاء في كتاب الله جل ثناؤه من قوله «فَبأي آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبان».

فأمّا تكرير الانباء والقصص في كتاب الله جل ثناؤه — فقد قيلت فيه وجوه. وأصح ما يقال فيه أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن وعجزَ

---

(١) ويروى «هذا الفتى» ـ الاصل

القوم عن الاتيان بمثله آيةً لصحة نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع إعلاما أنهم عاجزون عن الاتيان بمثله بأي نظم جاء وبأي عبارة عبّر. فهذا أولى ماقيل في هذا الباب.

باب العموم والخصوص

العامُّ — الذي يأتي على الجملة لايغادر منها شيئاً. وذلك كقوله جل ثناؤه « خلق كل دابّة من ماء » وقال « خالق كل شيء ».

والخاصُّ — الذي يتخلّل فيقع على شيء دون أشياء. وذلك كقوله جل ثناؤه « وامرأةً مؤمنة إن وهبتْ نفسها للنبي» وكذلك قوله «واتّقونِ يا أولي الألباب » فخاطب أهلَ العقلِ.

وقد يكون الكلامان متصلين، ويكون أحدهما خاصاً والآخر عاماً. وذلك قولك لمن أعطي زيداً درهماً « أعْط عمراً، فان لم تفعلْ فما أعطيتَ » تريد: إن لم تُعطِ عمراً فأنت لم تعطِ زيداً أيضاً، وذلك غير محسوب لك. ومثله في كتاب الله جل ثناؤه «ياأيها الرسولُ بلّغْ ماأُنزلَ اليكَ من ربّك» فهذا خاص، يريد: هذا الأمر المجدَّد بلّغْه؛ فإن لم تفعل ولم تبلغ هذا فما بلغت رسالته. يريد: جميع ما أرسلتَ به.

وأمّا العامَّ الذي يراد به الخاصَّ — فكقوله جل ثناؤه حكاية عن موسى عليه السلام « وأنا أولُ المؤمنين » ولم يرد كلَّ المؤمنين لان الانبياء قبله قد كانوا مؤمنين. ومثله كثير. ومنه « قالت الأعرابُ آمنّا » وإنما قاله فريق منهم. و « الذينَ قال لهم الناس » إنما قاله (نُعيم بن مسعود)

إن الناس (أبو سفيان) و (عُيَيْنَة بن حِصْن). ومنه قوله جل ثناؤه «وما مَنَعَنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أنْ كَذَّبَ بها الأولون» أراد: الآيات التي اذا كُذِّب بها نزل العذاب على المكذبين وكذلك قوله «ويستغفرون لمن في الأرض» أراد به من المؤمنين لقوله «ويستغفرون للذين آمنوا».

وأما الخاصُّ الذي يُرادُ به العامّ — فكقوله جل وعزّ «يا أيّها النبي اتَّقِ الله ولا تُطع الكافرين والمُنافقين» الخطاب له صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والمراد الناسُ جميعاً.

باب اضافة الفعل الى ما ليس بفاعل في الحقيقة

ومن سُنَن العرب اضافة الفعل الى ما ليس فاعلاً في الحقيقة. يقولون «أراد الحائطُ أن يقعَ» وفي كتاب الله جل ثناؤه «جِداراً يُريد أن يَنْقَضَّ» وهو في شعر العرب كثير. قال (الشماخ):

أقامتْ على رَبعَيْهما جارتا صفاً
كُمَيتا الأعالي جَوْنَتَا مُصْطلاهُما[(١)]

فجعل الأثا فِيَّ مُقيمةً. وقال:

وأشعثَ وَرَّادِ العِدادِ كأنَّهُ
إذا انشقَّ في جَوْز الفلاة فَلِيقُ[(٢)]

يصف طريقاً يَرِدُ ماءً وهو لا وِرْدَ له. ومنه قوله:

---

(١) هو البيت الثاني من قصيدته التي يمدح بها (يزيد بن مربع الانصاري) ومطلعها:
أمن دمنتين عرج الركب فيهما بحقل الرخاء قد أنى ابلاهما

(٢) ورواه الاستاذ الشيخ أحمد بن الامين الشنقيطي في شرح ديوان الشماخ:
وأغبر وراد الثنايا كأنه اذا اشتق في جوز الفلاة فليق
وورد في لسان العرب مثل هذا وفي مكان لفظ «اشتق» لفظ «اجتاز».

كأني كَسوْتُ الرَّحْل أحقبَ سَهْوقاً
أطاعَ لهُ من (١) رامتَيْن حَديقُ

فجعل الحديقَ مطيعاً لهذا الحمار لِما تمكّن من رَعيه ،والحديق لاطاعة ولا معصية له .

باب الواحد يرَادُ به الجمع

ومن سُنن العرب ذكر الواحد والمراد الجميع ، كقوله للجماعة « ضَيفٌ » و « عدُوٌ » . قال الله جل ثناؤه « هؤلاء ضيفي » وقال « ثم يُخرِجكم طفلا » وقال « لا نُفرّق بين أحد منهم » والتفريق لا يكون إلا بين اثنين . ويقولون « قد كَثُرَ الدّرهَم والدّينار » ويقولون :

فقلنا أسلِموا إنّا أخُوكُم

ويقولون : كُلُوا في نِصف بطنكمُ تعيشوا

و « يا أيُّها الإنسانُ انكَ كادح » و « يا أيُّها الانسانُ ما غرّكَ بربّك الكريم » .

باب الجمع يراد به واحدٌ واثنان

ومن سُنن العرب الاتيان بلفظ الجميع والمراد واحد واثنان كقوله جل ثناؤه « وليَشهَدْ عذابَهما طائفة » يُراد به واحد واثنان وما فوق . وقال (قتَادةُ) في قوله جل ثناؤه « إن يُعْفَ عن طائفة منكم تُعَذَّبْ طائفة » : كان رجلاً من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ويَسير مجانِباً لهم فسمّاهُ الله جل ثناؤه طائفة وهو واحد . ومنه « إن

(١) في شرح الشيخ أحمد الشنقيطي لشعر الشماخ « في رامتين » مكان « من رامتين » .

الذين ينادونك من وراء الحُجُرات» كان رجلاً نادى « يامحمّد ! إنّ مدحي زَيْنٌ وإنّ شتمي شيْن » فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «ويلك . ذاك الله جل ثناؤه» . وقال «فقد صغَتْ قلوبكما» وهما قلبان وقال « بِمَ يَرجِعُ المرسلون » وهو واحد يدلّ عليه قوله جل ثناؤه «إرجعْ إليهم» .

باب آخر

العرب تصف الجميعَ بصفة الواحد كقوله جل ثناؤه «وإن كُنتم جُنُباً » فقال جنباً وهم جماعة . وكذلك قوله جل ثناؤه « والملائكة بعد ذلك ظهير » . ويقولون «قوم عدْل ورضىً » قال (زُهَيْر) :

وان يَشْتَجِرْ قوم يَقُلْ سَرَواتُهمْ
هُمُ بيننا ، فهُمُ رِضىً وهمْ عَدْلُ (١)

وربما وصفوا الواحدَ بلفظ الجميع فيقولون « بُرْمةٌ أعشارٌ »و «ثوبٌ أهْدامٌ » و « حبْلٌ أحْذاقٌ » قال :

جاء الشتاء وقميصي أخلاقْ
شَراذِمٌ يضحك منه التَّوّاقْ

فأخبرني علي بن ابراهيم عن محمد بن فرح عن سَلمة عن (الفراء) قال: التَّوّاق ابنه . ومن الباب « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » إنما أراد المسجد الحرام . ويقولون « أرض سَبَاسِب » يسمون كل بقعة منها

(١) من قصيدته التي يمدح بها (سنان بن أبي حارثة المري) ويروى البيت « متى يشتجر قوم تقل » ومطلعها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو   وأقفر من سلمى التعانيق والثقل

« سَبْسَباً » لاتّساعها .

ومن الجمع الذي يُراد به الاثنان قولهم « امرأة ذات أوْراكٍ ومآكِمَ » .

باب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع

ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، فيقال للرجل العظيم « انظروا في أمري » . وكان بعض أصحابنا يقول : إنما يقال هذا لأنّ الرّجل العظيم يقول « نحن فعلْنا » فعلى هذا الابتداء خُوطبوا في الجواب . قال الله جل ثناؤه « قالَ ربِّ ارْجِعُون » .

باب آخر

العرب تذكر جماعة وجماعة ، أو جماعة وواحداً ، ثم تخبر عنهما بلفظ الاثنين . يقول (الأسْوَدُ) :

إن المنيّةَ والحُتوفَ كِلاهما
يوفي المَخارِمَ يَرْقُبانِ سوادي

وقال آخر :

ألم يَحْزُنكَ أنّ حبالَ قَيْسٍ
وتَغْلِبَ قد تَبايَنَتا انقطاعا

وقد جاء مثله في القرآن : قال الله تبارك اسمه « ان السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقْناهما » .

باب مخاطبة الواحد خطاب الجمع

إذا أُريد بالخطاب هو ومَنْ معه

قال الله جلّ ثناؤه « يا أيّها النبيُّ إذا طلّقْتُم النساء فطلّقوهن لعِدّتهنّ »

فخوطب صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بلفظ الجميع لأنه أريد هو وأمّته . وكان (ابن مسعود) يقرأ « ارجعوا إليهم » أراد الرسولَ ومن معه . ومن قال « ارجعْ إليهم » خاطب مدبِّرَهم .

باب تحويل الخطاب من الشاهد الى الغائب

العربُ تخاطِبُ الشاهدَ ، ثم تحوّل الخِطابَ الى الغائب . وذلك كقول (النّابغة) :

يادارَ ميّةَ بالعَلياء فالسَّنَدِ
أقوتْ وطالَ عليها سالِفُ الأبَدِ

فخاطب ثم قالَ « أقوتْ » . وفي كتاب الله جلّ ثناؤه « حتى إذا كنتم في الفُلك وجَرَيْنَ بهم » وقال « وما آتيتُم من زكاة تريدون وجهَ الله فأولئك هم المُضْعِفون » . وقال « ولكن اللهَ حبّبَ اليكم الايمان — وقال في آخر الآية — فأولئك هم الراشدون » . ومنه قوله :

أسيئي بنا أوْ أحسِني لاملومةٌ
لديْنا ولا مَقْلِيّةٌ إنْ تقلّتِ

باب تحويل الخطاب من الغائب الى الشاهد

وقد يجعلون خطابَ الغائب للشاهد ، قال (الهُذَليّ) :

ياويحَ نفسي كان جِدّةُ خالدٍ
وبياضُ وجهك للتراب الأعْفَرِ

فخبّرَ عن خالد ثم واجَهَ فقال « وبياض وجهك » . ومنه :

شَطَّتْ مزارُ العاشقين فأصبحتْ
عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابْنةَ مَخْرَمِ

باب مخاطبة المخاطب ثم يجعل الخطاب لغيره

أو يُخْبَرُ عن شيء ثم يُجعل الخبر المتصل به لغيره

قال الله جلّ ثناؤه «فإن لم يستجيبوا لكم - الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ثم قال للكفار - فاعلموا أنما أُنزِلَ بعلم الله» يدلّ على ذلك قوله جلّ ثناؤه «فهل أنتم مسلمون». وقال «فمَن ربُّكما ياموسى». وقال «فلا يُخرِجنّكما من الجنة فتشقى» وقريب من هذا الباب أن يُبتدأ الشيء ثم يخبر عن غيره كقول (شدّاد بن مُعاوية):

مَن يَكُ سائلاً عنّي فإني
وجِرْوَةَ لاتَرُودُ ولا تُعارُ

و «جروَة» فرسه ، فالمسئلة عنه والخبر عن غيره . وقال (الأعشى):

وإن امرأً أسرَى إليكَ ودونَه
من الأرض مَوْماةٌ وبَهْماءُ سَمْلَقُ
لَمَحقوقةٌ أنْ تَستجيبي لصوته
وأنْ تعلمي أنّ المُعانَ موفَّقُ

وقد جاء في كتاب الله جل ثناؤه مايشبه هذا وهو قوله جلّ ثناؤه «إنّ الذينَ آمنوا والذين هادوا والصابئينَ والنّصارى والمجوسَ والذين أشركوا - فبدأ بهم ثم قال - إنّ الله يفصِلُ بينهم» بدأ بهم ثم حوّل الخطاب . ومنه قول القائل :

لَعَلِّيَ إنْ مالَتْ بيَ الريحُ مَيلةً
على (ابنِ أبي ذِبّان) أن يَتندّما

فذكر نفسه وترك وأقبل على غيره، كأنه أراد: لعل (ابنَ أبي ذِبّانَ) أن يتندم إن مالتْ بيَ الريحُ عليه. ومثله في كتاب الله جلّ ثناؤه «والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويَذَرُون أزواجاً يتربَّصْنَ» فخبَّر عن الأزواج وترك الذين. ومثله:

بَني أسَدٍ إنّ ابنَ قيسٍ وقتلَه
بغيرِ دَمٍ دارُ المذلّةِ حُلَّت

فترك (ابن قيس) وخبَّر عن القتل، كأنه قال: قتلُ ابنِ قيسٍ ذُلّ.

باب الشيئين ينسب الفعل اليهما وهو لأحدهما

وينسبون الفعل الى اثنين وهو لاحدهما. وفي كتاب الله جل ثناؤه «فلمّا بلغا مجمعَ بينهما نَسِيا حوتَهما وقد بلغا» وكان النسيان من أحدهما لأنه قال «انيّ نسيتُ الحوتَ». وقال «مَرَجَ البحرين يلتقيانِ — ثم قال — يُخرَجُ منهما اللؤلؤ والمرْجان» وإنما يُخرَجانِ من الملحِ لا العذب.

وينسبون الفعل الى الجماعة وهو لواحد منهم. قال الله جل ثناؤه «واذا قتلتم نفساً» وانما كان القاتل واحداً.

باب نسبة الفعل الى أحد اثنين وهو لهما

قال الله جل ثناؤه «واذا رأوا تجارةً أو لَهْواً انْفَضُّوا اليها» وانما انفضوا اليهما. وقال الله جل ثناؤه «والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه». وقال «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها». ثم قال الشاعر:

إنّ شرخَ الشباب والشَّعرَ الأسـ ... ـودَ مالم يُعاصَ كان جنونا

وقال آخر:

نحنُ بما عندَنا وأنت بما عنـ ... ـدَكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

باب أمر الواحد بلفظ أمر الاثنين

تقول العربُ «افعلا ذاك» ويكون المخاطب واحداً. أنشد(الفراء):

فقلتُ لِصاحِبي: لاتَحبسانا
بنزع أصوله واجدزَّ شيحا

وقال:

فإنْ تزجُراني يا ابن عفّانَ أنزَجرْ
وإنْ تَدَعاني أحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

وقال الله جل ثناؤه «أَلْقِيا في جهنم» وهو خطاب لخزنة النّار والزّبانية. قال: ونُرى أن أصل ذلك أنَّ الرُّفقة أدنى ما يكون ثلاثةُ نفر فجرى كلام الواحد على صاحبيْه، ألا ترى أن الشعراء أكثر الناس قولا «ياصاحبيَّ» و «ياخليليَّ».

باب الفعل يأتي بلفظ الماضي وهو راهنٌ أو مستقبل

وبلفظ المستقبل وهو ماضٍ

قال الله جلّ ثناؤه «كنتم خيرَ أمة» أي: أنتم. وقال جلّ ثناؤه «أتى أمرُ الله» أي: يأتي. ويجيء بلفظ المستقبل وهو في المعنى ماضٍ. قال الشاعر:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني
فمضيتُ عنه وقلتُ: لا يعنيني

فقال « أمرُّ » ثم قال « مضيت » . وقال :

وما أضحي ولا أمسيْتُ إلاّ
رأوني منهمُ في كَرَّفان

وفي كتاب الله جل ثناؤه « فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل » وقال « واتَّبعوا ما تتلو الشياطين » أي ما تلَتْ . وقال آخر :

وندمانٍ يَزيدُ الكأسَ طيباً
سقيتُ إذا تغوَّرَتِ النجومُ

ومثله « وقالت اليهودُ والنصارى : نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه ، قل : فلِمَ يعذّبكم ؟ » المعنى : فلِمَ عذَّب آباءكم بالمسخ والقتل ؟ لأن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لم يؤمَر بأن يحتجّ عليهم بشيء لم يكن ، لأن الجاحد يقول : إني لا أعذّب . لكن احتج عليهم بما قد كان .

باب المفعول يأتي بلفظ الفاعل

تقول « سِرٌّ كاتم » أي مكتوم . وفي كتاب الله جل ثناؤه « لا عاصمَ اليومَ من أمر الله » أي لا معصوم و « من ماء دافق » و « عيشةٍ راضية » أي مَرْضيٍّ بها . و « جعلنا حرماً آمِناً » أي مأموناً فيه . ويقول الشاعر :

إنَّ البَغيضَ لَمَنْ يُمَلُّ حديثُه
فانقعْ فؤادَكَ من حديثِ الوامقِ

أي المَوْمُوق . ومنه :

أنا شِرَ لازالَتْ يمينُكَ آشِرَة

أي : مأشورة .

وزعم ناس أنّ الفاعل يأتي بلفظ المفعول به . ويذكرون قوله جل ثناؤه « انّه كان وعْدُه مأْتِيًّا » أي : آتيا . قال (ابنُ السِّكّيت) : ومنه « عيشٌ مغبون » يريد أنه غابِن غيرَ صاحبه .

باب آخر

من سُنن العرب وصفُ الشيء بما يقع فيه أو يكون منه كقولهم « يومٌ عاصِف » المعنى : عاصفُ الرّيح . قال الله جل ثناؤه « في يوم عاصف » فقيل : عاصف لأنّ عُصُوفَ ريحه يكون فيه . ومثله « ليلٌ نائم » و « ليلٌ ساهِر » لانه يُنام فيه ويُسْهَرُ قال (أوْس) :

خُذِلْتُ على ليلةٍ ساهِرَهْ
بصحْراء شَرْجٍ الى ناظِرَهْ

وقال (ابنُ برّاق) :

تقول سُلَيْمى : لاتَعَرَّضْ لِتَلَفَةٍ
وليلُك مِن ليل الصعاليك نائمُ

ومثله :

لقد لُمْتِنا يا أمّ غيلان في السُّرى ونِمتِ وماليلُ المَطِيّ بنائِم

ويقولون « لايَرْقُدُ وِسادُه » وإنما يريدون متوسِّد الوِساد .

باب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر

أوّلُ ذلك (فعَّلتُ) يكون بمعنى التكثير. نحو «غلَّقت الأبوابَ». وبمعنى «أفْعَلْتُ» نحو «خبَّرْتُ. وأخبَرْتُ». ويكون ضادًّا لأفعلتُ نحو «أفْرطتُ»: جزْتُ الحدَّ. و «فرَّطتُ»: قصَّرْتُ. ويكون بنيةً لا لمعنى نحو «كلَّمت». ويكون فعَّلتُ: نسبْتُ كقولك «شجَّعْتهُ. وظَلَّمْتُهُ»: نسبتُه إلى الشجاعة والظلم.

وأما (أفْعَلَ) فيكون بمعنى «فعَّلْتُ» تقول «أسقَيْتُه وسقَّيْتُه»: قلت له «سقيًا لك». ويكون بمعنى «فعَلتُ» نحو «محَضْتُه الودَّ. وأمحَضْتُه». وقد يختلفان نحو «أجبَرْتُه على الشيء» و «جبَرْتَ العظمَ». وقد يتضادَّان نحو «نَشَطْتُ العقْدَةَ»: عقدْتها. و «أنْشَطْتُها» إذا حلَلْتَها.

و (فاعَلَ) يكون من اثنين. نحو «ضاربَ». ويكون فاعَلَ بمعنى «فعَلَ» نحو «قاتلهم الله» و «سافر». ويكون بمعنى «فعَّلَ» نحو «ضاعَفَ. وضعَّفَ».

و (تفاعل) يكون من اثنين، نحو «تخاصما». ويكون من واحد، نحو «تراءى له» ويكون إظهاراً لغير ما هو عليه، نحو «تغافَلَ»: أظهَرَ غفلةً وليس بغافل.

و (تَفَعَّلَ) يكون لتكلُّف الشيء وليس به، نحو «تشَجَّع. وتَعَقَّلَ». ويكون بمعنى «تفاعلَ» نحو «تعطَّى. وتعاطا». ويكون لأخذ الشيء نحو «تفقَّه. وتعلَّمَ». ويكون بنيةً نحو «تكلَّمَ». ويكون «تفعَّلْ» بمعنى «افعلْ» نحو تعلَّمْ بمعنى اعلَمْ. قال:

تعلَّمْ أنَّ بعدَ الشرّ خيراً
وأنّ لهذه الغُمَرِ انقشاعا

وأما (استَفعلَ) فيكون بمعنى التكلف ، نحو « تعظَّمَ . واستَعظَمَ » و « تكبَّرَ . واستكبَرَ » ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو « استَوهبَ » . ويكون بمعنى « فعلَ » : « قرَّ . واستقرَّ » .

وأمّا (افتَعلَ) فيكون بمعنى فَعلَ ، نحو « شوَى . واشتَوى » ويكون بمعنى حدوث صفة فيه نحو « افتَقرَ » .

وأمّا (انفَعلَ) فهو فعل المطاوعة . نحو « كَسَرْتُه . فانْكَسَرَ » . و « شَوَيْتُ اللحمَ . فانْشوَى » . قال

قد انْشَوَى شوَاؤُنا المرُعْبَلُ
فاقتَربوا من الغَدَاءِ فَكلوا .

باب الفعل اللازم والمتعدى بلفظ واحد

تقول « كَسِبَ زيدٌ المالَ . وكَسَبَه غيرُه » . و « هبَط . وهبَطَ غيره » . و « جبَرَتِ اليدُ . وجبَرتُها » . ويكون فَعلَ بمعنيين متضادَّين نحو « بعتُ الشيء » و « بعتُه » : اشتريته . و « رتَوْتُ الشيء » أرخيتُه وشددتُه . و « شَعَبْتُ الشيء » جمعته وفرّقتُه .

باب البناء الدال على الكثرة

البناء الدالّ على الكثرة « فَعُول . وفَعَّال » نحو « ضَرُوب . وضَرَّاب » وكذلك « مِفعال » إذا كان عادةً نحو « مِعطار » و « امرأة مِذكار »

إذا كانت تلدُ الذُّكور وكذلك « مِينَاث » في الاناث .

باب الأبنية الدالة في الاغلب الأكثر على معان وقد تختلف

يقولون: ما كان على (فَعَلان) دلّ على الحركة والاضطراب نحو «النَّزَوان. والغَلَيَان» . و(فَعْلان) يجيء في صفات تقع من جُوع وعَطَش نحو «عَطْشان. وغَرْثان» أو ما يضادّ ذلك نحو « رَيّان . وسكران » .

و (فَعِلَ) يكون في الوَجَع نحو « وَجِعَ . وحَبِطَ » أو ما أشبهه من « فَزِعٍ » . ويجيء من هذا (فَعِيل) نحو « سَقِيم » . ويكون من الباب « بَطِرٌ . وفَرِحٌ » وهذا على مُضادّة وَجِع وسَقِم .

قالوا : والصفات بالالوان تأتي على (أفْعَلَ) نحو « أحْمَر . وأسْوَد » . والافعال منها على « فَعُلَ » مثل « صَهُبَ » . وعلى « فَعِلَ » نحو « صَدِيءَ » . وعلى « افْعالَّ » مثل « احْمارَّ » . وكذلك العيوب والادواء تكونَ على « أفْعلَ » نحو « أزْرَق . وأعْوَر » . وأفعالها على « فَعِلَ » نحو « عَوِر . وشَتِرَ» . ويكون الادْواء على (فُعال) نحو « القُلاب . والخُمار» . والاصوات أكثرها على هذا نحو « الدُّعاء . والصُّراخ » . وللاصوات باب آخر على (فَعيـل) نحو « الهَدِير . والضَّجيج » . و (فُعالَة) يأتي أكثره على ما يفضُل عن الشيء ويَسقُط منـه نحو « النُّحاتة » . و (فِعالَة) في الصناعات كالتِّجارة والنِّجارة . ويكون (الفِعالُ) في الاشياء كالعيوب: كالنِّفار والشِّماس. وفي السِّمات : نحو العِلاط والخِباط ، وفي بلوغ الاشياء نهايتها : نحو الصِّرام والجِزاز . وتكون الصفات اللازمة للنفوس على (فَعيل) نحو

شريف وخفيف ، وعلى أضدادها : نحو وَضيع وكبير وصغير . هذا هو الاغلب وقد يختلف في اليسير .

باب الفرق بين ضدين بحرف أو حركة

الفرق بين ضدَّين بحرف — قولهم « يُدْوي » من الداء و « يُداوي » من الدواء . و « يَخفِر » إذا أجار و « يُخْفِر » إذا نقض : من خَفَر وأخْفَر ، وهو كثير .

وما كان فرقه بحركة — فقولهم « لُعَنَه » إذا أكثر اللعن و « لُعْنَة » إذا كان يُلْعَن و « هُزَأَة . وهُزْأة » و « سُخَرَة . وسُخْرَة » .

باب التوهم والايهام

ومن سنن العرب التوهم والايهام ، وهو أن يتوهم أحدهم شيئاً ثم يجعل ذلك كالحق . منه قولهم « وقفتُ بالربْع أسأله » وهو أكمل عقلاً من أن يسأل رسماً يعلم أنه لا يَسمع ولا يَعقل لكنه تفجع لما رأى السكن رحلوا وتوهَّم أنه يسأل الربع أين انتَوَوْا . وذلك كثير في أشعارهم ، قال:

وقفتُ على رَبعٍ لميَّةَ ناقتي
فمازلتُ أبكي عنده وأُخاطبُهْ
وأسألُ حتى كادَ مما أُبِثُّهُ (١)
تكلّمني أحجارُه وملاعبُهْ

وتوهَّم وأوهَمَ أنَّ ثَمَّ كلاماً ومكلِّماً . وبيَّن ذلك (لَبيدٌ) بقوله :

---

(١) ويروى « أبثه » بضم الاول وكسر الثاني من باب الافعال ، وهو أفصح في الاصل

فوقفتُ أسألها وكيف سؤالنا
صُمّاً خوالدَ ما يَبين كلامُها

ومن الباب قوله :

لا يُفزِعُ الارنبَ أهوالُها

إنما أراد : ليس بها أرنب يُفزَع . وكذلك :

على لاحِبٍ لا يُهتدى لِمَناره

إنما أراد : لا مَنار به.وأظهرُ ذلك قول (الجعْدي) :

سبقتُ صِياحَ فَـراريجها وصوتَ نواقيسَ لم تُضرَبِ

وقال (أبو ذويب) :

مُتَفَلِّقٌ أنْساؤُها عن قانيءٍ كالقرطِ صاوٍ غُبْرُه لا يُرضَعُ

أوهمَ أنّ ثَمَّ غبْراً ، وإنما أراد : لاغبر به فيرضع .

باب البسط في الاسماء

العرب تبسط الاسمَ والفعل فتزيد في عدد حروفهما ، ولعـل أكثر ذلك لإقامة وزن الشعر وتسوية قوافيه ، وذلك قول القائل :

وليـلة خامـدة خمودا طَخياءَ تُغْشي الجَدْيَ والفُرْقودا

فزاد في « الفَرْقَد» الواوَ وضم الفاء لأنه ليس في كلامهم «فَعْلولاً » ولذلك ضم الفاء . وقال في الزيادة في الفعل :

لو أن عَمْراً همَّ أنْ يَرْقودا

ومنه : أقولُ إذ خرّتْ على الكَلْكال

أرادَ « الكَلْكل» وفي بعض الشعر « فانْظور[١] » أراد « فانْظُرْ » .

(١) راجع صفحة ٢١ من (الصاحبي) .

وهذا قريبٌ من الذي ذكرناه في الخزم والزيادة التي لا معنى لها .

باب القبض

ومن سنن العرب القَبْضُ محاذاةً للبسط الذي ذكرناه، وهو النقصان من عدد الحروف كقول القائل :

غَرْثَى الوِشاحَيْن ، صَموتُ الخلْخَلِ

أراد الخلخالَ . وكذلك قول الآخر « وسُرُحٌ حرْجُجٍ » أراد « حُرجوجاً » وهي الضامِر . ويقولون « دَرَسَ المنا » يريدون « المنازل » و :

كأنما تُذْكي سنا بكُها الحبُا

أراد نار الحباحِب . وقال (أبو النجم) : « أمْسِكْ فلانُ عن فلِ »[1] أراد عن فلان . و :

ليس شيء على المَنون بخالِ

أي : بخالد . ويقولون :

أسعَدَ بنَ مالِ ألمْ تعجبوا ؟

وإنما أراد مالكاً . وقال آخر :

وكادت فَزَارةُ تشقى بنا فأولى فَزَارَةُ أولى فزارا .

وقال (أوس) وهو الذي يسميه النحويون « الترخيم » :

تنكَّرْتِ منَّا بعد معرفة لَمي

أراد : لَميس . وهذا كثير في أشعارهم ، وما أحسب في كتاب الله جل ثناؤه منه ، إلا أنه رُوي عن بعض القرأة أنه قرأ « ونادَوْا يامالِ »

(١) « فلان » منادى والجملة من رجز له وتمامه : في لجة امسك فلان عن فل

أراد « يا مالكُ » والله أعلم بصحة ذلك . وربما وقع الحذف في الأول نحو قوله :

بسمِ الذي في كل سُورة سِمُهْ

أراد « اسمه » و « لاهِ ابنُ عمك » أراد : لله ابنُ عمِّك .

باب المحاذاة

معنى المحاذاة — أن يُجعل كلامٌ بحذاء كلام ، فيؤتى به على وزنه لفظاً وإن كانا مختلفَين فيقولون « الغدايا والعشايا » فقالوا « الغديا » لانضمامها إلى « العشايا » . ومثله قولهم « أعوذ بك من السامَّة واللامّة » فالسّامّة من قولك « سمَّتْ » إذا خصَّتْ و « اللامَّة » أصلها « ألمَّتْ » لكن لما قُرنت بالسّامّةِ جُعلت في وزنها . وذكر بعض أهل العلم أن من هذا الباب كتابةَ المصحف ، كتبوا « والليلِ إذا سجى » بالياء وهو من ذوات الواو لمّا قُرن بغيره مما يكتب بالياء . قال : ومن هذا الباب في كتاب الله جلّ ثناؤه « ولو شاء اللهُ لسلَّطَهُم عليكم » فاللام التي في « لسلَّطهم » جواب « لو » ثم قال « فلقاتلوكم » فهذه حُوذِيَت بتلك اللام ، وإلاّ فالمعنى : لسلّطهم عليكم فقاتلوكم . ومثله « لأعذّبنَّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه — فهما لاما قسَم ، ثم قال — أو ليَأْتِيَنّي » فليس ذا موضعَ قسم لأنه عذْر للهُدهد فلم يكن ليُقسِم على الهدهد أن يأتي بعذر ، لكنّه لمّا جاء به على أثر ما يجوز فيه القسم أجراه مجراه ، فكذا باب المحاذاة . قال : ومن الباب « وَزَنْتُه فاتزن . وكِلْتُه فاكْتال » أي استوفاه كَيْلاً ووزناً . ومنه قوله جلّ ثناؤه « فما لكم عليهنّ من عِدّة تعتدّونها » تستوفونها لأنها حق للأزواج على النساء .

ومن هذا الباب الجزاء على الفعل بمثل لفظه ، نحو « إنما نحن مستهزؤن، الله يستهزيء بهم » أي يجازيهم جزاءَ الاستهزاء . و « مَكَرُوا ومَكَرَ الله » و « يَسْخَرُونَ منهم سَخِرَ الله منهم » و « نَسُوا الله فَنَسِيَهم » و « جزاء سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مثلها » . ومثل هذا في شعر العرب قول القائل :

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

باب الاضمار

من سُنن العرب الاضمار . ويكون على ثلاثة أضرُب : إضمارُ الأسماء، وإضمارُ الأفعال ، وإضمار الحروف .

فمن إضمار الأسماء قولهم « ألا يَسْلَمي » يريدون « ألا ياهذه اسلمي » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « ألا يَسْجُدوا لله » بمعنى : ألا ياهؤلاء اسجدوا . فلما لم يذكر « هؤلاء » بل أضمرهم اتصلت « يا » بقوله « اسجدوا » فصار كأنه فعل مستقبل . ومثله قول (ذي الرّمّة):

ألا يَسْلَمي يادارَ ميٍّ على البِلَى ولا زال مُنْهلاً بِجَرْعائك القَطْرُ

وأخبرني علي بن ابراهيم عن محمد بن فَرَح عن سلمة عن (الفراء) سمع بعض العرب يقول « ألا يَرْحَمْنا » يعني : ألا ياربنا ارحمنا . ويقولون :

ياهل أتاها على ما كان من حَدَثٍ

و : يقولون لي يَحْلِفْ ولست بحالفِ

يعني : ياهذا احلفْ .

ويُضْمِرُونَ من الأسماء « مَنْ » فيقولون « مافي حيِّنا إلاله إبلُ » أي: مَنْ لَهُ إبل . و « كَذبتم بني شابَ قَرْناها » أي : مَنْ شاب . وفي

كتاب الله جل ثناؤه « وما منَّا إلا له مقام » أي : من له . ويضمرون «هذا » كقول (حُميْد) :

أنت الهلالي الذي كان مرّةً سمعنا بهوالأرْحبيُّ المعلَفُ

أي : وهذا الارحبيّ ، يعني بعيره .

باب اضمار الحروف

ويضمرون الحروفَ فيقول قائلهم[1] :

ألا أي هذا الزّاجري أشهدَ الوغى

بمعنى أن أشهد . ويقولون « والله لَكانَ كذا » بمعنى لقد . ويقول (النابغة) :

لكلفتني ذنبَ امرئٍ

وفي كتاب الله جل ثناؤه « الم . غلبت الروم » قالوا : معناها لقد غلبت . إلا أنه لما أضمر « قد » أضمر اللام . وفي كتاب الله جل ثناؤه « سنعيدها سيرتها الأولى » فقالوا : الى سيرتها . و « اختار موسى قومه » أي من قومه . ويقولون « اشتقتك » أي إليك . و « هل يسمعونكم » بمعنى لكم . و « أوجاؤكم حصرت » أي قد حصرت . ويقول قائلهم « حلفتُ بالله لناموا » أي لقد . وفي كتاب الله جل ثناؤه « فان أُحْصِرْتم فما استيسرَ من الهَدْي » أي فعليكم . وقيل في قوله جل ثناؤه « وترغبون أن تَنْكِحوهنّ » معناها عن . وقوم يقولون : في أن تنكحوهن . وفي كتاب الله جل ثناؤه « ومن آياته يُريكم البرق » أي أن يريكم . وكقوله جل ثناؤه « ومن آياته أن خلق » .

---

(١) هو (طرفة بن العبد) من معلقته . ـــ راجع صفحة ١٠٤ من (الصاحبي) .

باب اضمار الافعال

من ذلك « قيل . ويقال » . قال الله جل ثناؤه « فأمّا الذين اسْوَدّت وجوههم أكَفَرْتم » معناه : فيقال لهم ، لان « أمّا » لابدلها في الخبر من فاء ، فلما أضمر القول أضمر الفاء . ومثله :

فلا تدفنُوني إن دَفْني محرّمٌ عليكم ولكن خامِري أمّ عامر

أي اتركوني للتي يقال لها « خامري » . ومنه « ثم يُخرِجكم طفلاً ثم لِتَبْلُغوا أشُدَّكم » أي : يعمّركم لتبلغوا أشدّكم . ومن باب الاضمار « أثعْلباً وتفرّ » أي : أترى ثعلباً . وفي كتاب الله جل ثناؤه « وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم » أي يقولون . و« أسَرَ رجلٌ أسيراً ليلاً فلما أصبح رآه أسودَ فقال : أعبداً سائرَ الليلة » كأنه قال : أراني أسرت عبداً . ومن الاضمار « قل لِمَنْ مافي السماوات والارض ، قل لله » فهذا مضمر كأنه لما سألهم عادوا بالسؤال عليه فقيل له : قل لله . ومن الاضمار « فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك ـ معناه : فضربوه فحَيّ ، كذلك ـ يُحيي اللهُ الموتى » . ومثله في كتاب الله كثير .

باب من الاضمار الآخر

العرب تضمر الفعل فيشتبه المعنى حتى يُعْتَبر فيُوقَفَ على المراد . وذلك كقول (الخنساء) :

ياصَخْرُ ورّادَ ماءٍ قد تَناذَرَهُ اهلُ الموارد مافي وِرْدِه عارُ

ظاهر هذا أن معناه : ماعلى من وردَه عار ، وليس في ورد الماء عار فيُتَبَجّحَ به . ولكن معناه : ما في تركِ وِرْدِهِ مخافةً عارٌ . وإنما عَنَتْ أنه ورد

ماءً مخوفاً يتحاماه الناس فيُنذرُ بعضهم بعضاً ، تقول : فهو يرد هذا الماء لجُرأته . ومثله قول (النابغة) :

فإني لا أُلامُ على دخول ... ولكن ماوراءكَ ياعصامُ

يقول : لا ألام على ترك الدخول ، لأنّ النعمان قد كان نذر دمَه متى رآه ، نخاطب بهذا الكلام حاجبه . وقال (الأعشى) :

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكارا ... وشَطَّتْ على ذي هوىً أن تُزارا؟

ظاهرُ هذا : أأزمعتَ أن تبتكر منهم . وإنّما المعنى : أأزمعت من أجل آل ليلى وشوقك إليهم أن تبتكر من أهلك ؛ لأنه عزم الرحلة إليها لاعنها ، ألا تراه يقول :

وبانتْ بها غَرَبات النَّوى ... وبُدّلتُ شوقاً بها وادّكارا

وفي كتاب الله جل ثناؤه «ألا يستأذنُك الذين يؤْمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا» التأويل : لايستأذنك الذين يومنون بالله واليوم الآخر أن يقعدوا عن الجهاد .

باب التعويض

من سنُن العرب التَّعْوِيض — وهو إقامة الكلمة مقامَ الكلمة . فيقيمون الفعلَ الماضيَ مقام الراهن ، كقوله جل ثناؤه «قل سننظر أَصدقتَ أم كنت من الكاذبين» المعنى : أم أنت من الكاذبين . ومنه «وماجعلنا القِبلة التي كنتَ عليها» بمعنى : أنتَ عليها .

ومن ذلك إقامة المصدر مقامَ الأمر ، كقوله جل ثناؤه «فسبحانَ الله حين تُمسون وحينَ تُصبِحون» والسُّبحة : الصلاة . يقولون «سَبِّحْ

سُبْحَةَ الضحى » . فتأويلُ الآية : سَبِّحُوا اللهَ جل ثناؤه ، فصار في معنى الأمر والاغراء ، كقوله جل ثناؤه « فَضَرْبَ الرِّقاب » .

ومن ذلك إقامةُ الفاعل مقامَ المصدر ، يقولون « قُمْ قائماً » قال :

قُمْ قائماً ، قُم قائما لَقِيتَ عبداً نائما

وعُشَرَاءَ رائما وأَمَةً مُراغما

وفي كتاب الله جل ثناؤه « ليس لِوَقْعَتِها كاذبة » أي تكذيب .

ومن ذلك إقامة المفعول مقام المصدر ، كقوله جل ثناؤه « بأيِّكم المفتون » أي الفتنة . تقول العرب « ماله معقول . وحلفَ محلوفَه بالله . وجَهَدَ مجهوده » . ويقولون « ماله معقول ولا مجلود » يريدون العَقْلَ والجَلَد . قال (الشماخ) :

من اللواتي إذا لانت عريكتها يبقى لها بعدها آل ومجلودُ

ويقول الآخر :

إن أخا المجلود من صبرا

ومن ذلك إقامة المصدر مقام الفعل ، يقولون « لقيت زيداً وقيلَه كذا » أي يقول كذا . قال (كعب) :

يسعى الوُشاةُ حواليْها وقيلُهمُ إنّكَ يا ابن أبي سُلْمى لمقتولُ

تاويله : يقولون . ولذلك نُصب

ومن ذلك وضعهم « فَعِيلاً » في موضع « مُفْعَل » نحو « أمرٌ حكيم » بمعنى مُحكَم . ووضعهم « فَعِيلاً » في موضع «مُفْعِل» نحو « عذابٌ أليم » بمعنى مؤلم وتقول :

أمِنْ رَيحانةَ (١) الداعي السميعُ

بمعنى : مسْمِع .

ومن ذلك وضعُهم : « مفعولاً » بمعنى « فاعـل » كقوله جل ثناؤه « حِجابا مستورا » أي ساتراً ، وقيل : مستوراً عن العيون كأنّه أُخْذَةٌ لا يُحِسُ بها أحد .

ومن ذلك إقامة الفعل مقام الحال كقوله جل ثناؤه « يا أيّها النبيُّ لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ الله لكَ تَبْتَغي مرْضاةَ أزواجك ؟ » أي مبتغياً . وقال :

الرّيحُ تَبكي شَجْوَهُ والبرقُ يَلمعُ في غمامهْ

أراد : لامعاً .

باب من النظم الذي جاء في القرآن

من نظوم كتاب الله جل ثناؤه (الاقتصاص)ـ وهو أن يكون كلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أُخرى أو في السورة معها . كقوله جل ثناؤه « وآتيناهُ أجْرَه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » والآخرة دار ثواب لا عمل ، وهو مقْتَصٌّ عن قوله « ومن يأْتِه مؤمنا قد عَمِل الصالحات فأولئك لهم الدرجاتُ العلى » . ومنه قوله جل ثناؤه « ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحْضَرين » مأخوذ من قوله جل ثناؤه « فأولئك في العذاب محضَرون » وقوله « ثمّ لنحْضرَنّهم حول جهنم » . فأما قوله جل ثناؤه « ويومَ يقوم الأشْهاد » فيقال : إنها مقتصة من أربع آيات لأن « الأشهاد » أربعة : الملائكة في قوله جل ثناؤه « وجاءت كلُّ نفْس معها سائقٌ وشهيد » والانبياء صلوات

(١) ريحانة : اسم امرأة . ـ الاصل .

الله عليهم « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » وأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله جل ثناؤه « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » والأعضاء لقوله جل ثناؤه « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ».

ومن الاقتصاص قوله جل ثناؤه « إني أخاف عليكم يوم التناد » قرأت مخففة ومشددة: فمن شدّد فهو « ندّ » إذا نفر، وهو مقتصّ من قوله « يوم يفرّ المرء من أخيه » إلى آخر القصة، ومن خفّف فهو تفاعل من النّداء مقتصّ من قوله جل ثناؤه « ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار . ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة . ونادى أصحابُ الأعراف » وما أشبه هذا من الآي التي فيها ذكر النداء .

باب الأمر المحتاج الى بيان وبيانه متصل به

قال الله جل ثناؤه « ويسألونك عن الأنفال — فبيان هذا السؤال متصل به وهو قوله جل ثناؤه — قل الأنفال لله والرسول » ومثله « يسألونك ماذا أُحِلّ لهم ، قل أُحِلّ لكم الطيبات » و « يسألونك عن الساعة ، قل إنما علمها عند ربي » ومنه « أم يقولون شاعر نتربَّصُ به ريْبَ المنون ، قل تربّصوا » فهذا وما أشبهه هو الابتداء الذي تمامه متصل به .

باب ما يكون بيانه مضمراً فيه

وذلك مثل قوله جل ثناؤه « حتى إذا جاؤها وفتّحت أبوابها » فهذا محتاج إلى بيان لأن « حتى إذا » لا بد لها من تمام فالبيان هاهنا مُضمَر، قالوا: تأويله : حتى إذا جاؤها جاؤها وفتحت أبوابها . ومثله « ولو أن قرآناً سُيِّرتَ

به الجبالُ » فتمامه مضمر كأنه قال جل ثناؤه : لكان هذا القرآن . وهذا هو الذي يسمى في سنن العرب « بابَ الكَفّ » وقد ذُكر .

باب ما يكون بيانه منفصلا منه

ويجيء في السورة معها أو في غيرها

قال الله جل ثناؤه « وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدِكم » قال أهل العلم : بيانُ هذا العهد قوله جل ثناؤه «لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي» الآية ، فهذا عهده جل ثناؤه ، وعهدُهم تمام الآية في قوله جل ثناؤه « لَأكفّرَنّ عنكم سيئاتِكم » فاذا وفَوا بالعهد الأول أُعطوا ماوعدوه. وقال جل ثناؤه « ويقول الذين كفروا ألستَ مرسلاً ؟ » فالردّ على هذا قوله جل ثناؤه « يس والقرآن الحكيم إنّكَ لَمِنَ المرسلين » وهذا هو الذي يسميه أهل القرآن جواباً . ومن الباب قوله جل ثناؤه في الاخبار عنهم « ربَّنا اكشفْ عنا العذاب إنّا مؤمنون » فقيل لهم « ولو رَحِمْناهم وكشفنا مابهم من ضُرّ لَلَجُّوا في طغيانهم » . ومن الباب قوله جل ثناؤه « وقالوا لولا نُزّلَ هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القريتين عظيم » فردّ عليهم حين قيل « وربُّك يخلق ما يشاء ويَختارُ ، ما كان لهم الخِيَرةُ » . ومن الباب قوله « وإذا قيلَ لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن » ومنه قوله « الرحمن علّم القرآن » . ومنه قوله « قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقيل لهم « لَئِنِ اجتمعَت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثله » . ومنه « وانطلقَ المَلأُ منهم أنِ امشوا واصبروا على آلهتكم » فقيل لهم في الجواب « فان يصبروا فالنار مَثْوىً لهم » . ومنه «أم يقولون

نحن جميعٌ منتصر» فقيل لهم «ما لكم لا تناصرون» . ومنه قوله جل ثناؤه في قصة من قال «لو أطاعونا ما قُتلوا» فردّ عليهم بقوله «لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتلُ الى مضاجعهم» . ومن الباب قوله جل ثناؤه «أم يقولون تقوّله» فردّ عليهم «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين» . ومنه قوله جل ثناؤه حكاية عنهم «ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق» قيل لهم «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق» . ومنه قوله جل ثناؤه «وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جُملةً واحدة» فقيل في سورة أخرى «وقرآناً فرقناه» . ومنه «ولقد أرسلنا الى ثمودَ أخاهم صالحاً أن اعبدوا اللهَ فاذاهم فريقان يختصمون» فتفسير هذا الاختصام ما قيل في سورة أخرى «قال الملأُ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أنّ صالحاً مرسَل من ربّه» الى آخر القصّة . وقال في قصة قوم «لهم البشرى في الحياة الدنيا» فالبشرى قوله جل ثناؤه في موضع آخر «تتنزّلُ عليهم الملائكةُ ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة» . ومنه حكايةً عن فرعون أنه قال «وما أهديكم إلا سبيل الرّشاد» فردّ الله عليه في قوله جل ثناؤه «وما أمرُ فرعون برشيد» . ومن الباب قوله جل ثناؤه «يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً فيحلفون له» وذِكْرُ هذا الحلف في قوله جل ثناؤه «والله ربّنا ما كنا مشركين» . ومنه قوله جل وعز في قصة نوح عليه السلام «انّي مغلوبٌ فانتصر» فقيل في موضع آخر «ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا» . ومنه قوله جل ثناؤه «وقالوا قلوبنا غلفٌ» أي أوعيةٌ للعلم فقيل لهم «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

وهذا في القرآن كثير أفْرَدْنا له كتاباً وهو الذي يسمّى (الجوابات) .

باب آخر من نظوم القران

وذلك أن تجيء الكلمة الى جنب الكلمة كأنها في الظاهر معها ،وهي في الحقيقة غير متصلة بها : قال الله جل ثناؤه « إنّ الملوكَ اذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهلها أذلةً . وكذلك يفعلون » فقوله « وكذلك يفعلون » من قول الله جل اسمه لاقول المرأة. ومنه «الآنَ حصْحص الحقّ أنا راودتُه عن نفسه وانه لمن الصادقين — انتهى قول المرأة ثم قال يوسف — ذلك ليعلم المَلِكُ أني لم أخنه بالغيب » . ومنه « ياوَيْلنا مَنْ بعثنا من مَرْقدِنا — وتمّ الكلام فقالت الملائكة — هذا ماوَعَدَ الرحمن » ومنه قوله جلّ ثناؤه « ان الذين اتَّقَوْا اذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تَذَكَّروا فاذاهم مبْصرون — فهذه صفة الاتقياء المؤمنين ثم قال — واخوانُهم يَمُدُّونَهم في الغَيّ » فهذا رَجْع على كفّار مكة أنّ كفارَ مكة يمُدُّهم اخوانُهم من الشياطين في الغَيّ .

باب اضافة الشيء الى من ليس له

لكن أضيفَ اليه لاتّصاله به

وذلك قوله « سَرْجُ الفرَس » و « ثَمَرَةُ الشجرة » و « غَنَمُ الرّاعي »

قال الشاعر :

فَروّحَهنّ يَحْدُوهنّ قَصْراً

كما يَحْدُو قَلائصَهُ الأَجيرُ

باب آخر من الاضافة

ومن ذلك اضافةُ الشيء الى نفسه والى نعته .

فالاضافة الاولى قول (النمر) :

سَقيةٌ بين أنهارٍ ودُورٍ وزَرْعٍ نابتٍ وكرومِ جَفْنِ

والجَفْن هو الكَرْم .

فأمَّا اضافته الى نعته فقولهم « بارحةَ الاولى .ويومُ الخميس . ويوم الجمعة» . وفي كتاب الله جل ثناؤه «ولَدار الآخرة» و « حقُّ اليقين » .

باب جمع شيئين في الابتداء بهما

وجمع خبريهما ، ثم يُرَدَّ الى كل مبتدء به خبره

من ذلك قول القائل « اني واياكَ على عَدْل أو على جَوْر » فجمع شيئين في الابتداء وجمع الخبرين ، ومراده : اني على عدلٍ واياكَ على جَوْر .

وهذا في كلامهم وأشعارهم كثير . قال (امروء القيس) :

كأنّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا ويابسًا

لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

أراد : كأنّ قلوبَ الطير رَطبًا العنَّاب ويابسًا الحَشفُ . ومن هذا في القرآن « وانَّا واياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين » معناه : وانَّا على هدى واياكم في ضلال . ومنه قوله جل ثناؤه « قل أرأيتم ان كان من عند اللهِ وكفرتم به وشَهِدَ شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » اذا رُدّ كل شيء الى مايَصلح أن يتصل به كان التأويل :قل أرأيتم ان كان من عند الله وشهد شاهد من بني اسرائيلَ على مثله فآمن

وكفرتم به واستكبرتم » . ومثله « وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصرُ الله ألا إنّ نصرَ الله قريب » قالوا : لمّا لم يصلح أن يقول الرسول متى نصر الله كان التأويل : وزلزلوا حتى قال المؤمنون متى نصر الله فقال الرسول ألا إنّ نصرَ الله قريب رُدَّ كلّ كلام الى من صلَح أن يكون له . ومن الباب قول (ذي الرُّمّة) :

ما بالُ عينِكَ منها الماءُ ينسكِبُ   كأنّه من كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ
وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أثأى خَوارِزُها   مُشَلْشِلٌ ضَيّعتْه بينها الكُتَبُ

فمعنى البيتين : كأنه من كلى مفرية وفراء غرفية أثأى خوارزُها سَرِبٌ مُشلشلٌ ضيّعتْه بينها الكُتب . وفي كتاب الله جل ثناؤه « ومن رحمته جعل لكم الليلَ والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » المعنى : جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه والنهارَ لتبتغوا من فضله . ومن قوله عزوجل « ولا تطرُدِ الذينَ يدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشيّ يريدونَ وجهَهُ ، ما عليكَ من حسابِهم من شيء ، وما من حسابِكَ عليهم من شيء فتطرُدَهم فتكون من الظالمين » تأويله والله أعلم : ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي فتكون من الظالمين ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطرُدهم . قال ومن هذا الباب قول (امرئ القيس) :

فلا وأبيكِ ابنةَ العامريّ   لا يدّعي القومُ أنّي أفِرْ
تَميمُ بنُ مُرٍّ وأشياعُها   وكِنْدةُ حَوْلي جميعاً صُبُرْ

معناه : لا يدّعي القوم تميمٌ وأشياعُها أنّي أفِرْ وكِندةُ حولي .

باب التقديم والتأخير

من سُنَن العرب تقديمُ الكلام وهو في المعنى مُؤخّر ، وتأخيرُه وهو في المعنى مُقَدَّم . كقول (ذي الرُّمّة) :

ما بالُ عينِكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ

أراد : ما بالُ عينك ينسكب منها الماء . وقد جاء مثلُ ذلك في القرآن قال الله جل ثناؤه « ولو ترى إذ فزِعوا فلا فَوْتَ وأُخِذوا من مكان قريب » تأويله والله أعلم : ولو ترى إذ فزعوا وأُخِذوا من مكان قريب فلا فوتَ . لأنّ لا فوتَ يكون بعد الاخذ . ومن ذلك قوله جل ثناؤه « هل أتاكَ حديثُ الغاشِيَة - يعني القيامَة - وجوهٌ يومئذ خاشعة » وذلك يومَ القيامَة ثم قال « عامِلَةٌ ناصِبَةٌ » والنَّصَبُ والعملُ يكونان في الدنيا ، فكأنه إذاً على التقديم والتأخير معناه : وجوهٌ عاملة ناصبَةٌ في الدنيا ، يومئذ - أي يومَ القيامة - خاشِعَة . والدليل على هذا قوله جل اسمه « وجوهٌ يومئذ ناعمة » . ومنه قوله جل ثناؤه « فلا تُعْجِبْكَ أموالهُم ولا أولادُهم ، إنما يُريد الله ليُعَذّبَهم بها في الحياة الدُّنيا » المعنى : لا تُعجبْك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا. وكذلك قوله جل ثناؤه « فأَلْقِه اليهم ثم تَوَلَّ عنهم فانْظُرْ ماذا يَرْجعون » معناه: فأَلقِه اليهم فانْظُرْ ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم . ومن ذلك قوله جلّ ثناؤه « إنّ الذين كفروا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أكْبَرُ من مقتِكم انفُسَكم إذ تُدعَوْنَ إلى الإيمانِ فتكفرون » تأويله : لَمَقْتُ الله إياكم في الدنيا حينَ دُعيتم إلى الايمان فكفرتم، ومقته اياكم اليومَ أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم اذا دعيتم الى الحساب وعند ندمِكم على ما كان منكم . ومنه قوله جلّ ثناؤه « ولولا كلمة

سبقتْ من ربّك لكان لِزاماً وأجلٌ مسمى » فأجلٌ معطوف على كلمةٌ ، التأويل :ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجلٌ مسمّىً —أرادَ الاجلَ المضروبَ لهم وهي الساعة ـ لكان العذاب لازماًلهم .

باب الاعتراض

ومن سُنن العرب أن يعترضَ بين الكلام وتمامه كلامٌ،ولا يكون هذا المعترضُ الا مُفيداً . ومثال ذلك أن يقولَ القائل«اعملْ ـ واللهُ ناصري ـ ما شئتَ » انما أرادَ :اعملْ ماشئتَ . واعترضَ بينَ الكلامين مااعترضَ . قال (الشمّاخ) :

لولا ابنُ عفّانَ والسلطان مرتقبٌ أوردتُ فجّاً من اللّعباء[1] جلمودي

قوله « والسلطان مرتقب » معترض بين قوله « لولا ابنُ عفّانَ » وقوله « أوردتُ » . ومن ذلك في كتاب الله جل ثناؤه « واتلُ عليهم نبأَ نُوح اذ قالَ لقومه ياقوم ان كانَ كَبُرَ عليكم مَقامي وتذكيري بآيات الله ـ فعلى اللهِ توكلتُ ـ فأجمعوا أمرَكم » إنما أرادَ : ان كانَ كبر عليكم مقامي وتذكري بآيات الله فأجمعوا أمركم . واعترضَ بينهما قوله : فعلى الله توكلت . ومثله قول (الأعشى) :

فانْ يُمْسِ عندي الهَمُّ والشيبُ والعَشا

فقد بِنَّ مِنّي والسِّلام تفلّقُ

بأشجع أخَّاذ على الدّهر حكمَهُ

فمِنْ أيّ ماتجْني الحوادثُ أفْرَقُ

(١) اسم موضع ـ الاصل

أرادَ : بِنَّ مني بأشجعَ . والسّلام تَفَلَّقُ اعتراض . ومثل هذا في كتاب الله جل ثناؤه واشعارِ العرب كثير ، وانما نذكر من الباب رَسْماً .

باب الايماء

العرب تُشيرُ الى المعنى اشارة وتومىء ايماء دون التصريح ، فيقول القائل « لو أنَّ لي مَن يقبَل مَشُورتي لأَشرتُ » وانما يَحثُّ السّامعَ على قبولِ المَشُورَة . وهو في أشعارِهم كثير . قال الشاعر :

اذا غَرَّدَ المُكَّاء في غير رَوضَةٍ
فوَيْلٌ لأَهلِ الشَّاء والحُمُرات

أومأَ الى الجدْب ، وذلك أن المُكَّاء يأْلَفُ الرِّياضَ ، فاذا أجدبت الأَرض سقط في غير روضة . ومنه قول (الأفْوَهِ)

إنّ بني أوْدِهِمُ ماهُمُ للحَرْبِ أوللجَدْبِ عامَ الشُّموسْ

أومأ بقوله «الشموس» إلى الجدب وقلة المطر والغيم ، أي إنَّ كلَّ أيّامهم شموس بلا غيم . ويقولون « هو طويلُ نِجادِ السّيف » إنما يريدون طول الرَّجُل . و « غَمْرُ الرّداء » يومؤن الى الجود . و « فداً له ثوبي » و « هو واسع جَيبِ الكُمّ » إيماءً إلى البَذْل . و « طَرِبُ العِنان » يومؤن الى الخِفَّة والرّشاقة . وفي كتاب الله جل ثناؤه « وقُل رَّبِّ أعُوذُ بِكَ مِن هَمَزاتِ الشياطين وأعوذُ بكَ ربِّ أن يَحْضُرُونَ » هذا إيماءٌ الى « أن يُصيبوني بسوء » وذلك أن العرب تقول « اللَّبَن محضور » أي : تُصيبه الآفات .

باب اضافة الفعل الى من وقع به ذلك الفعل

ومن سنن العرب اضافةُ الفعل إلى من يقع به ذلك الفعل . يقولون « ضربتُ زيداً وأعطيته بعدَ — ضَرْبِه — كذا » فينسب الضربَ الى زيد وهو واقع به . قال الله جل ثناؤه « الم . غُلبت الرومُ — فالغَلَبة واقعة بهم من غيرهم ثم قال — وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلِبون » فأضاف الغَلَبَ إليهم ، وإنما كان كذا لأن الغلبَ وان كان لغيرهم فهو متصل بهم لوقوعه بهم . ومثله « وآتى المالَ على حُبّه » . و « يُطعمون الطّعامَ على حُبّه » فالحب في الظاهر مضاف الى الطعام والمال،وهو في الحقيقة لصاحب الطعام وصاحب المال . ومثله « ولِمَنْ خاف مقامَ ربّه » و « ذلك لمن خاف مقامي» أي مقامَه بين يديَّ . ومثله قول (طَرَفَة) :

وَبَرْكٍ هُجودٍ قد أثارَتْ مَخافتي

فأضاف المخافة الى نفسه وانما المخافة للبَرْك .

باب ما يجري من غير ابن آدم مجرى بني آدم في الاخبار عنه

من سنن العرب أن تُجْرِيَ المَواتَ وما لا يَعْقِل في بعض الكلام مجرى بني آدم ، فيقولون في جمع أرض « أرضون » وفي جمع كرة « كُرون » وفي جمع إرة « إرون » وفي جمع ظُبَة السيف « ظُبُون » وينشدون :

يَرَى الرّاؤنَ بالشَّفَرات منها كنارِ أبي حُباحِبَ والظُّبينا

ويقولون « لقِيتُ منه الأقْوَرِينَ » و « أصابتْني منه الأمَرُّون » و «مضتْ له سِنون » ويتعدَّون هذا إلى أكثر منه فيقول (الجَعْدِي) :

تَمَزَّزْتُها والدِّيكُ يدعو صَبَاحَهُ إذا ما بنو نَعْشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا

وقال الله جل ذكره «في فَلَكٍ يَسْبَحون» و«لقد علمتَ ماهؤلاءِ ينطِقون» و «إني رأيت أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين» و« يا أيُّها النملُ ادخُلوا مساكِنَكم » و « لو كان هؤلاءِ آلهةً ما وَرَدُوها» ويقولون في جمع بُرَة « بُرِين » . وأكثر من قول (النابغة) قول القائل[1] :

إذ أشرفَ الديكُ يدعو بعضَ أسرَتِهِ إلى الصَّباح وهم قومٌ مَعَازِيلُ

وجعل له أسرة وسماهم قوماً .

باب اقتصارهم على ذكر بعض الشيء

وهم يريدونه كلَّه

من سنن العرب الاقتصارُ على ذكر بعض الشيء وهم يُريدونه كله ، فيقولون « قعد على صَدْر راحلته ومضى » . ويقول قائلهم :

الواطئينَ على صُدورِ نعالهم

وذكر بعضُ أهل اللغة في هذا الباب قولَ (لبيد) :

أو يرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وإنه أراد كلاًّ وذكروا في هذا الباب قوله جل ثناؤه « قل للمؤمنين يغُضُّوا من أبصارهم » وقال آخرون « من » هذه للتبعيض لأنهم أُمِروا بالغَضِّ عما يحرُم النَّظرُ إليه . ومن الباب « يحذِّرُكم اللهُ نفسَه » أي إيّاه . ومنه « تعلَم ما في نفسي » ومنه قوله :

يوماً بأجْوَدَ نائلاً منه اذا نَفْسُ البخيل تجهَّمتْ سُؤَّالَها

(١) هو (عبدة بن الطيب التميمي) . ــ الشنقيطي

ومنه « ويَبْقى وجهُ ربِّكَ » و « تواضعَتْ سورُ المدينة » . و :

رأت مرّ السنين أخَذْنَ منّي

و : طُولُ الليالي أسرعَتْ في نقضي

و : صرفُ المَنايا بالرّجال تقلَّبُ

وقال (الجَعْدي) :

جَزِعتَ وقد نالَتْكَ حَدُّ رِماحنا بِقَوهاءَ يُثْني ذِكْرُها في المحافِلِ

باب الاثنين يعبر عنهما بهما مرة وبأحدهما مرة

قال (أبو زكرياء الفراء) : العرب تقول « رأيته بعيني . وبعينيَّ » و « الدارُ في يدي . وفي يديَّ » . وكل اثنين لا يكاد أحدُهما ينفرد فهو على هذا المثال مثل « اليدين . والرّجلين » قال (الفرزدق) :

فلو بَخِلَتْ يداي بها وضَنَّتْ لكان عليَّ للقَدَر الخِيارُ

فقال « ضَنَّتْ » بعد قوله « يداي » . وقال :

وكأنّ بالعينَيْن حَبَّ قَرنْفُلٍ أو سُنْبلاً كُحِلَتْ به فانْهلَّتِ

وقال :

اذا ذَكَرتْ عيني الزمانَ الذي مضى بصحراء فَلْجٍ ظلَّتا تَكِفانِ

باب الحمل

هذا باب يترك حكم ظاهر لفظه لأنه محمول على معناه . يقولون « ثلاثة أنْفُس » والنفس مؤنّثة لأنّهم حملوه على الانسان . ويقولون « ثلاث شخوص » لانهم يحملون ذلك على أنهنّ نساء . و :

ان كلاباً هذه عشرُ أبطنٍ

يذهبون الى القبائل . وفي كتاب الله جل ثناؤه « السماءُ منْفَطِرٌ » حُمِل على السَّقْف . وهذا يتسع جداً . وقد ذُكر في هذا الباب ماتقدم ذكره من قوله جل ثناؤه « مستهزؤن ، الله يستهزئ بهم » وهذا في باب المحاذاة أحسن . ومن الحَمْل قوله « أنا رسولُ ربِّ العالمينَ » قال (أبو عبيْدَة) أرادَ الرِّسالة . ومن الباب قوله جلّ وعزّ « سعيرا ـ والسعير مذكّر ثم قال ـ إذا رأتْهم » فحمله على النار . وقوله جلّ ثناؤه «فأحيينا به بلدةً ميْتاً » حمله على المكان . ولهذا نظائرُ كثيرة .

باب من ألفاظ الجمع والواحد والاثنين

من الجمع الذي لا واحدَ له من لفظه « العالَمُ . والأنامُ . والرهْط . والنَّفَر . والمعْشر . والجنْد . والجيْش . والنّاس . والغَنَم . والنَّعَم . والإبل » .

وربّما كان للواحد لفظ ولا يجيء الجمع بذلك اللفظ نحو قولنا « امْرُؤٌ . وامرآن . وقوم » و « وامرَأَة . وامْرَأَتان . ونِسْوة » .

ومن الاثنين اللذيْن لا واحد لهما لفظاً قولهم « كِلا . وكِلْتا . واثنان . والمذْرَوان . وعقَله بثنايَيْن . وجاء يضرب أصْدَرَيْهِ . وأزْدَرَيْه . ودَوالَيْه » من التَّداول و « لبَّيْك . وسَعْدَيْكَ وحَنانَيْك » وقد قيل : ان واحدَ حنانيك « حَنانٌ » وينشد :

فقالت : حَنانٌ ما أتى بِكَ هاهنا أذو نَسَبٍ أمْ أنتَ بالحيِّ عارف

باب ماجري من كلامهم مجرى التهكم والهزء

يقولون للرجل يُستَجهَل « ياعاقل ! » ويقول شاعرهم :

فقلتُ لِسَيِّدنا : ياحليـ ـمُ إنكَ لم تأسُ أسْواً رفيقا

ومن الباب «أتاني فقريته جفاءً وأعطيته حرماناً» ومنه قوله :

ولم يكونوا كأقوامٍ علمتهم يَقْرُونَ ضيفهمُ الملويةَ الجُدُدا

يعني : السِّياط . ويقول (الفرزدق) :

قَرَيْناهمُ المأثورةَ البيضَ

وقال (عمرو) :

قَرَيْنا كمْ فعجَّلنا قِراكُمْ قُبَيْلَ الصُّبحِ مِرْداةً طَحونا

ومن الباب حكايةً عنهم «انَّكَ لأَنت الحليم الرشيد» .

باب الكف

ومن سنن العرب الكفُّ . وهو أن يكفَّ عن ذِكْر الخبر اكتفاءً بما يدلّ عليه الكلام . كقول القائل :

وَجَدِّكَ لوشيءٌ أتانا رسوله سواكَ ولكن لم نَجِدْلكَ مَدْفعَا

المعنى : لو أتانا رسولُ سواكَ لدفعناه . وقال آخر :

اذا قلتُ سِيري نحوَ ليلى لعلَّها . جرى دون ليلى مائلُ القَرْنِ أعضبُ

وتركَ خبرَ «لعلّها» . وقال :

فمَن له في الطَّعْنِ والضِّرابِ يلمع في كَفِّيَّ كالشِّهاب

أي : مَن له في سيف . ومنه قوله جلّ وعزّ في قصة فرعون «أفلا تبصرون أم» أراد : أم تبصرون . ومما يقرب من هذا الباب قوله (١) :

تضيءُ الظلامَ بالعِشاء كأنها مَنارةُ مُمْسَى رَاهبٍ متبتِّلِ

أراد : سرُج منارة .

(١) هو (امرؤ القيس) في معلقته .

باب الاعارة

العرب تُعير الشيء ماليس له . فيقولون « مرَّ بينَ سمع الأرض وبَصَرِها » ويقول قائلهم :

كذلك فعلهُ والناسُ طُرّاً ‏ ‏ بكفّ الدهرِ تقتلُهم ضُروبا

فجعل للدهر كفاً . ويقولون :

ثأرتُ (المِسْمَعَيْن) وقلت بوأ ‏ ‏ بقتلِ أخي فزارةَ والخِيارِ

قال (الأصمعي) : لم يكن واحد منهما مِسمَعاً وإنما كانا (عامراً) و (عبدَ الملك) ابني (مالك بن مِسْمَع) فأعارهما اسمَ جدّهما . ومثله (الشّعْثمان) لم يكن اسم أحدهما شَعْثما وإنما أُعيرا اسمَ أبيهما (شعثم) . ومثله (المَهالِبَة) و (الأشعرون) .

باب أفعل في الاوصاف لايراد به التفضيل

يقولون «جَرى له طائرٌ أشأم » ويقول شاعرهم (١) :

هي النَّهمُ لو أنّ النوى أصقَبَتْ بها ‏ ‏ ولكنّ كرًّا في رَكوبَةَ أعسَرُ (٢)

وقال (الفرزدق) :

ان الذي سمكَ السماء بنى لنا ‏ ‏ عِزًّا دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ

وقال (أبو ذُؤَيْب) :

مالي أَحِنّ إذا جِمالُكِ قرِّبَتْ ‏ ‏ وأصدُّ عنكِ وأنتِ مني أقربُ

وقال :

---

(١) هو (بشر بن أبي خازم) . ــ الاصل

(٢) هذا مثل للعرب تضربه في كل أمر شديد . و (ركوبة) ثنية . ــ الاصل .

بُثَيْنَةُ من آل النساء وإنما يكنّ لأدنى لاوصالَ لغائب

ويقولون : إن من هذا الباب قوله جل ثناؤه « وهو أهْوَنُ عليه » .

باب نفي الشيء جملة من أجل عدمه كمال صفته

قال الله جل وعز في صفة أهل النار « لايموت فيها ولايحيى » فنفى عنه الموتَ لأنه ليس بموت مُرِيح ونفى عنه الحياةَ لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة . وهذا في كلام العرب كثير ، قال (أبو النَّجْم) :

يُلْقِينَ بالخَبارِ والأجارِعِ كلَّ جَهِيضٍ لَيِنِ الأكارِعِ

ليسَ بمَحْفوظ ولا بِضائعِ

لأنه موجود في ذلك المكان وإن لم يوجد . ومنه قوله :

بالْماءِ لم تُحَنَّظ ولم تُضيَّعِ

وقال :

وقد أجُوبُ البَلَدَ البَرَاحا المَرْمَرِيسَ القَفْرةَ الصَّحْصَاحا

بالقوم لامرضى ولاصِحاحا

ومن هذا الباب أوقريبٌ منه قوله جل ثناؤه «لهم قلوبٌ لايفقهون بها، ولهم أعينٌ لايبْصِرون » ومنه «ولقد علموا لَمَن اشتَراهُ مالَهُ في الآخرة من خَلاق ـ فأثبت علماً ثم قال ـ ولَبِئْسَ ما شَرَوا به أنفُسَهم لوكانوا يَعلمون » لما كان علماً لم يعملوا به كانوا كأنهم لايعلمون . ومن الباب قول (مسكين):

أعمى إذا ماجارتي خرجَتْ حتى يواري جارتي السِّتْرُ

وأصَمُّ عما كان بينهما سمعي ومابالسمع من وَقْرِ(١)

(١) اقواء ـــ الأصل .

جعل نفسه أعمى أصمَّ لمّا لم ينظر ولم يسمع . وقال آخر :

وكلامٌ بسيّءٍ قد وُقِرَتْ أذني عنه وما بي من صَمَمْ

وقريبٌ من هذا الباب قوله جل وعز « وترى الناسَ سُكارى وماهم بسُكارى » أي ماهم بسكارى مشروبٍ ولكن سُكارى فزعٍ ووَلَهٍ . ومن الباب قوله جل ثناؤه « لا يَنطقون ، ولا يؤذَن لهم فيعتَذِرون » وهم قد نطقوا بقولهم « يا ليتَنا نُرَدُّ » لكنهم نطقوا بما لم يَنفع فكأنهم لم ينطقوا .

باب الشرط

الشرط على ضربين : شرطٌ واجبٌ إعماله كقول القائل « إن خرج زيدٌ خرجتُ » . وفي كتاب الله جل ثناؤه « فإن طِبنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هَنيئاً مريئاً » .

والشرط الآخر مذكور إلا أنه غيرُ مَعْزوم عليه ولا محتوم، مثل قوله « فلا جُناحَ عليهما أن يَتَراجعا إن ظَنّا أن يقيما حدودَ الله » فقوله « إن ظنّا » شرط لإطلاق المراجعة . فلو كان محتوماً مفروضاً لما جاز لهما أن يتراجعا إلاّ بعد الظنّ أن يقيما حدود الله . فالشرط هاهنا كالمَجاز غير المعزوم . ومثله قوله جل ثناؤه « فذَكِّرْ إن نَفَعَتِ الذِّكْرى » لأن الأمر بالتذكير واقع في كلّ وقت . والتذكير واجب نفع أو لم ينفع ، فقد يكون بعض الشروط مَجازاً .

باب الكناية

الكناية لها بابان : أحدهما أن يُكنى عن الشيء فيذكر بغير اسمه تحسيناً للفظ أو إكراماً للمذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه « وقالوا لجلودهم :

لِمَ شهدتم علينا ؟ » قالوا : إن الجلود في هـذا الموضوع كناية عن آراب الانسان . وكذلك قوله جل ثناؤه « ولـكن لا تواعـدُوهن سرًّا » إنه النكاح . وكذلك « أوجاء أحدٌ منكم من الغائط » والغائط : مطمئن من الأرض . كل هذا تحسين اللفظ والله جل ثناؤه كريم يكْني كما قال في قصة عيسى وأمه عليهـما السلام « ما المسيح بنُ مريمَ الا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرُّسلُ ، وأُمّهُ صِـدّيقـة ، كانا يأْكلانِ الطّعامَ » كنايةٌ عمـا لا بدّ لآكل الطعام منه .

والـكنايةُ التي للتبجيل قولهم « أبو فلان » صيانة لاسمه عن الابتذال.

والـكُنى مما كان للعرب خصوصاً . ثم تشبّهَ غيرهم بهم في ذاك .

باب الثاني من الكناية

الاسم يكون ظاهراً مثـل « زيد . وعمرو » . ويكون مَكْنياً وبعض النحويين يسميه مضمَراً ، وذلك مثل « هو . وهي . وهما . وهنّ » .

وزعم بعضُ أهل العربية أن أول أحوال الاسم الـكناية ، ثم يكون ظاهراً . قال : وذلك أن أوّل حال المتكلم أن يخبر عن نفسه ومخاطَبه فيقول « أنا . وأنت » وهذان لاظاهر لهما . وسائر الاسماء تظهر مرة ويكْنى عنها مرة .

والـكناية متصلة ومنفصلة ومستَجِنّة . فالمتصلة التاء في « حملتُ . وقمتُ » . والمنفصلة قولنا « إياهُ أردْتُ » . والمستجنّة قولنا « قام زيدٌ » فإذا كَنَيْنا عنه قلنا « قام » فتَستَّر الاسم في الفعل .

وربما كُني عن الشيء لم يجر له ذكر ، في مثل قوله جل ثناؤه « يؤفَكُ

عنه » أي يؤفك عن الدين أو عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . قال أهل العلم : وانما جاز هذا لأنه قد جرى الذكر في القرآن . قال (حاتم) :

أماويَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

فكنى عن النفس فقال « حشرجت » ويقولون :

إذا اغبرَّ أُفْقٌ وهبَّتْ شمالا

أضمر الريح ولم يجرِ لها ذكر .

ويكنى عن الشيئين والثلاثة بكناية الواحد ،فيقولون « هو أنتَنُ الناس وأخبثُه » وهذا لايكون الا فيما يقال هو أفعل ، قال الشاعر :

شَرُّ يوميها وأشقاهُ لها رَكِبتْ عنزٌ بِحِملٍ جملا

ولم يقل « أشقاهما » .

وتكون الكناية متصلةً باسم وهي لغيره ، كقوله جل ثناؤه « ولقد خلقنا الانسان من سُلالَة من طين — فهذا آدم عليه السلام ثم قال — جعلناه نُطْفَة » فهذا لِولَده لأن آدم لم يُخلق من نُطفة . ومن هذا الباب قوله جل ثناؤه « لا تَسألوا عن أشياءَ إنْ تُبدَلكم تَسوءْكم » قيل : إنها نزلت في (ابنِ حُذافة) حين قال للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : مَن أبي ؟ فقال : حذافة . وكان يُسبُّ به فساءهُ ذلك ، فنزلت « لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَلكم تسؤكُم » . وقيل : نزلت في الحج حين قال القائل : أفي كلّ عامٍ مرةً ؟ ثم قال « وإن تَسألوا عنها » يريد إن تسألوا عن أشياء أُخرَ من أمر دينكم ودنيا كم بكم الى علمها حاجة تبدلكم ثم قال « قدسألها » فهذه الهاء من غير الكنايتين لأن معناها : قد طلبها ، والسؤال هاهنا طلب ، وذلك كقوم عيسى عليه السلام حين سألوه المائدةَ ، وكقوم موسى عليه

السلام حين قالوا « أرِنا اللهَ جَهْرَةً » فالسؤال هاهنا طلب والكناية مُبتدأة.

وربما كُني عن الجماعة كناية الواحد كقوله جل ثناؤه « قُلْ أرأيْتم إن أخذَ اللهُ سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إلٰه غيرُ الله يأتيكم به ؟ » أراد والله أعلم : بهذا الذي تقدّم ذكره .

باب الشيء يأتي مرة بلفظ المفعول ومرة بلفظ الفاعل

والمعنى واحد

تقول العرب « هو مُدَجَّج . ومدَجِّج » و « عبدٌ مكاتَب . ومكاتِب » و « شأوٌ مُغرَّب . ومغرِّب » و « سجن مُخيَّس . ومخيِّس » و « مكان عامِر . ومعْمور » و « منزل آهِل . ومأهول » و « نُفِست المرأة . ونفِسَتْ » و « لا ينبغي لك . ولا يُنبَغى لك » و « عُنيتُ به . وعَنيتُ » . قال :

عانٍ بأُخراها طويلُ الشُّغُلِ

و « رُهِصَت الدّابة . ورَهِصَتْ » و « سُعِدوا . وسَعِدوا » و « زُهِي علينا . وزَهى »

باب الزيادة في حروف الفعل للمبالغة

وقد مضى في الأسماء مثله

العرب تَزيد في حروف الفعل مبالغة ، فيقولون « حلا الشيء » فاذا انتهى قالوا « احلَوْلى » . ويقولون « اقلَوْلى على فراشه » وينشدون :

واقلَوْلَيْنَ فوقَ المضاجع

وقرأ (ابنُ عباس) « ألا انهم تَثْنَوْني صدورُهم » على هذا الذي قلناه من المبالغة .

باب الخصائص

للعرب كلام بألفاظ تختص به معانٍ لايجوز نقلها إلى غيرها ، يكون في الخير والشرّ والحسن وغيره وفي الليل والنهار وغير ذلك .من ذلك قولهم « مَكانَكَ » قال أهلُ العلم : هي كلمة وُضِعتْ على الوعيد ، قال الله جل ثناؤه « مَكانَكم أنتم وشركاؤكم » كأنّه قيل لهم : انتظروا مكانكم حتى يُفْصَل بينكم . ومن ذلك قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « ما حمَلَكم على أن تتايَعوا في الكذِب كما يَتتَايعُ الفَراشُ في النار » قال (أبوعبيد) : هو التهافت ، ولم نسمعه الاّ في الشر . ومن ذلك « أولى له » وقد فسرناه . ومن ذلك « ظَلّ فلان يفعل كذا » اذا فعله نهاراً . و « بات يفعل كذا » اذا فعله ليلاً . ومن ذلك ما أخبرني به (أبو الحسن علي بن ابراهيم) قال سمعت (أبا العباس المبرّد) يقول : « التّأويب » سيرُ النهار لاتعريج فيه و « الإِسآد» سيرُ الليل لاتعريس فيه . ومن الباب « جُعلوا أحاديث » أي : مُثِلَ بهم ، ولا يقال في الخير . ومنه « لاعدوانَ الا على الظالمين » .

ومن الخصائص في الأفعال قولهم « ظننتني . وحسِبتُني . وخلْتني » لا يقال الافيما فيه أدنى شك ، ولا يقال « ضَرَبتني » .

ولايكون « التأْبين » الامدحَ الرجل ميتا . ويقال « غضبتُ به » اذا كان ميتاً . و « المساعاة » الزّنا بالاماء خاصة . و « الراكب » راكب البعير خاصة . و « ألَحّ الجملُ » و « خَلأَت الناقة » و « حرَنَ الفرس » و « نَفَشَتِ الغنم » ليلاً و « هَمَلتْ » نهاراً . قال (الخليل) : « اليَعْمَلَة »

من الابل اسم اشتق من «العَمَل» ولا يقال الاّ للاناث . قال : و «النعتُ» وصف الشيء بما فيه من حَسَن إلاّ أن يتكلّف متكلف فيقول «هذا نعتُ سوء» فأما العرب العاربة فانها تقول «للشيء نعت» يريدون به التتمة . قال (أبو حاتم) : «ليلةٌ ذات أزيز» أي :قُرٌّ شديد .ولا يقال يومٌ ذو أزيز. قال (ابنُ دُرَيْد) : «أشَّ القومُ . وتأشَّشُوا» إذا قام بعضهم إلى بعض للشر لا للخير . ومن ذلك «جزَزْتُ الشاةَ» و «حلَقْتُ العنزَ» لا يكون الحَلق في الضأن ولا الجَزُّ في المعزَى . و «خفضَتِ الجاريةُ» ولا يقال في الغلام . و «حقبَ البعيرُ» إذا لم يَتَهيأ بوله لقصد ، ولا يَحقَبُ إلا الجمل . قال (أبو زيد) : «أبلمتِ البَكْرَة» إذا وَرِم حياؤُها لا يكون إلاّ للبَكرة . و «عدَنَتِ الابل في الحمض» لا تَعْدُن الا فيه . ويقال «غطَّ البعيرُ» هدَرَ ولا يقال في الناقة . ويقال «ما أطيبَ قداوةَ هذا الطعام» أي : ريحَهُ ولا يقال ذلك إلا في الطبيخ والشّواء . و «لقَعَه ببعْرَة» ولا يقال بغيرها . و «فعلتُ ذاك قبل عيْرٍ وما جرَى» لا يُتَكلَّم به الا في الواجب ، لا يقال: سأفعله قبل عَير وما جرى . ومن الباب ما لا يقال الا في النفي كقولهم «ما بها أرِمٌ» أي ما بها أحد . وهذا كثير فيه أبواب قد صنفها العلماء .

باب نظم للعرب لا يقوله غيرهم

يقولون «عاد فلانٌ شيخاً» وهو لم يكن شيخاً قط . و «عادَ الماء آجناً» وهو لم يكن آجناً فيعود . ويقول (الهُذَلي) :

قد عادَ رَهْباً رَذِيًّا طائشَ القَدَمِ

قال :

قطعتُ الدّهرَ في الشّهَوات حتىّ أعادتني عَسِيفاً عبدَ عبدِ

ومن هذا في كتاب الله جل ثناؤه « يُخرِجونَهم من النّور الى الظلمات » وهم لم يكونوا في نور قط . ومثله « يُرَدّ الى أرْذَل العمُر » وهو لم يكن في ذلك قط . وقال الله جل ثناؤه « حتىّ عادَ كالعرْجُونِ القديم » فقال «عاد» ولم يكن عرْجوناً قبلُ .

باب إخراجهم الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك

يقولون « فلانٌ كريم غير أنه شريف » و« كريم غير أن له حسَباً » وهو شيء تنفردُ فيه العرب . قال (١) :

ولاعيبَ فيهم غيرَ أنّ سيُوفَهم ... بهنّ فُلُول من قِراع الكتائِب

وقال(٢):

فتىً كَمَلَتْ أخلاقهُ غير أنّه ... جوادٌ فما يُبقي من المال باقِيا

وهو كثير .

باب الافراط

العرب تفْرِط في صفة الشيء مجاوزةً للقدْر اقتداراً على الكلام كقوله:

بخَيْلٍ (٣) تَضِلّ البُلْقُ في حَجَراته ... ترى الأُكْمَ فيه سُجّداً لِلْحوافِرِ

ويقولون :

لما أتى خبَر الزُّبيْر تواضعَتْ ... سور المدينة وخشعت الجبال (٤)

و : بكي حارِثُ الجولان من هُلْك ربّه (٥)

و :

---

(١) هو (النابغة الذبياني) . ـ الاصل (٢) هو (النابغة الجعدي) . ـ الاصل

(٣) وفي رواية « بجيش » . ـ الشنقيطي (٤) الرواية « والجبال الخشع » . ـ الشنقيطي

(٥) « حارث » اسم جبل . و « الجولان » موضع . ـ الاصل

لو انّك تُلْقِي حَنْظَلاً فوق بَيْضِنا تَحَدْرَجَ . . . .

ويقولون :

ضَرَبْتُهُ في الملتقى ضَرْبَةً فزال عن مَنْكِبِه الكاهِلُ
فَصارما بينهما رَهْوَةً يمشي بها الرّامحُ والنّابلُ

باب نفي ضمنه اثبات

تقول العرب «ليس بُحلو ولا حامِض» يريدون انه جَمَعَ من ذا وذا. وفي كتاب الله جل ثناؤه «لاشرقيَّة ولا غَرْبيّة» قال (أبو عبيدة) : لاشرقية تضحى للشرق ولا غربية لاتضحى للشرق لكنها شرقية غربية يصيبها ذا وذا : الشرق والغرب .

باب الاشتراك

معنى الاشتراك : أن تكون اللفظة محتملة لمعنيين أو أكثر ، كقوله جل ثناؤه « فاقْذفيه في اليمّ ، فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحل » فقوله « فلْيُلْقِه » مشترك بين الخبر وبين الأمر ، كأنه قال : فاقذفيه في اليم يُلْقِه اليم . ومحتمل أن يكون اليمُّ أمر بإلقائه. ومنه قولهم . «أرأيت» فهو مرّةً للاستفتاء والسؤال كقولك « أرأيتَ ان صلى الامامُ قاعداً كيف يُصلّي مَن خلفه ؟ ». ويكون مرّةً للتنبيه ولا يقتضي مفعولاً ، قال الله جل ثناؤه « أرأيتَ إن كذّب وتولى ، ألم يعلم بأنّ اللهَ يرى » . ومن الباب قوله « ذَرْني ومَنْ خَلَقْتُ وحيدا » فهذا مشترك محتمل أن يكون لله جل ثناؤه لأنه انفردَ بخَلْقه ، ومحتمل أن يكون : خلقتُه وحيداً فريداً من ماله ووَلده .

باب يسميه بعض المحدثين : الاستطراد

وذلك أن يشبّه شيء بشيء ثم يمرّ المتكلم في وصف المشبّه، كقول الشاعر حين شبّه ناقته فقال :

كأنّي ورَحْلِيَ إذ رُعْتُها على جَمَزَى جازِيءٍ بالرّمالِ

فشبّه ناقته بثور ومضى في وصف الثّور ، ثم نقل الشبه الى الحمار فقال :

أو أصْحَمٍ حامٍ جَرامِيزَه حَزابِيَةٍ حَيَدَى بالدّحالِ

ومر في صفه العَيْر الى آخر كلمته . وقد قيل : في كتاب الله جل ثناؤه من هذا النظم قوله « إنّ الذين كفروا بالذّكر لما جاءهم » ولم يجر للذّكر خبر ، ثم قال « وانّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وجواب « ان الذين كفروا » قوله جل ثناؤه « أولئك يُنادَوْنَ من مكان بعيد » .

باب الاتباع

للعرب الاتْباع — وهو أن تُتْبَعَ الكلمةُ الكلمةَ على وزنها أو رويّها اشباعاً وتأكيدا . ورُوي أن بعض العرب سئُل عن ذلك فقال : هو شيءٌ نَتِدُ به كلامنا وذلك قولهم « ساغِبٌ لاغِب » و « هو خَبٌّ ضَبٌّ » و « خَرابٌ يَباب » . وقد شاركَتْ العجمُ العربَ في هذا الباب .

باب الاوصاف التي لم يسمع لها بافعال

والأفعالِ التي لم يُوصَفْ بها

قال (الخليل) : « ظَبيٌ عَنْبانٌ » أي نشيط ، قال : ولم نسمع للعنبان

فعلاً ، قال «يَشُدُّ شدَّ العَنَبان البارح» قال : و « الخَضِيعَةُ » صوت يخرج من قُنب الدّابّة ولا فعل لها . ويقولون في التحقير « هو دُونٌ » ولا فعل له . قال (أبو زَيْد) : يقال للجبان « إنه لَمَفْؤُدٌ » ولا فعل له . قال : و « الخَبِطةُ » مثل الرَّفض من اللبن والماء ولا فعل لها . وقال : « أمجَدْتَ الإبلَ إمجاداً » إذا أنت أشبعتها ولا فعل لها في هذا . و « المَزِيَّةُ » الفضل ولا فعل لها . قال (أبو زيد) : يقال « ماساءَهُ وناءَهُ » تأكيدٌ للأول ولم يعرفوا من « ناءَه » فعلاً ، لا يقولون « يَنُوءُه » كما يقال « يَسُوءُهُ » .

ومن الأفعال التي لم يُوصَف بها قولُنا « ذَرَأ الله الخَلْق » قال الله عز وجل « يَذْرَؤُكم فيه » ولم يُسمع في صفاته جل ثناؤه « الذّارِيء » .

باب النحت

العرب تَنْحَتُ من كلمتين كلمةً واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، وذلك «رجل عَبْشَمِيّ» منسوب إلى اسمين ، وأنشد (الخليل):

أقول لها ودمعُ العين جارٍ ألَمْ تَحزُنْك حَيْعَلَةُ المنادي

من قوله « حَيَّ على » . وهذا مذهبنا في أن الاشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد «ضِبَطْرٌ» من «ضَبَطَ» و«ضَبَرَ» . وفي قولهم « صَهْصَلِق » إنه من «صَهَلَ» و«صَلَقَ» وفي «الصِّلْدِم» إنه من «الصَّلْد» و« الصَّدْم » . وقد ذكرنا ذلك بوجوهه في كتاب (مقاييس اللغة) .

باب الاشباع والتأكيد

تقول العرب « عَشَرةٌ وعَشَرة فتلك عشرون » وذلك زيادة في التأكيد،

ومنه قوله جل ثناؤه « فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عَشَرة كاملة » وإنما قال هذا لنفي الاحتمال أن يكون أحدهما واجباً إما ثلاثة وإما سبعة فأُكّد وأزيل التوهّم بأن جُمِعَ بينهما . ومن الباب قوله جل ثناؤه « ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحيه » انما ذكر الجناحين لأن العرب قد تُسمي الاسراعَ طيراناً ؛ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم « كلَّما سَمعَ هَيْعَة طار إليها أخرى » . وكذلك قوله « يقولون بألسنتهم » فذكر الألسنة لأن الناس يقولون « قال في نفسه كذا » قال الله جل ثناؤه « ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبُنا الله بما نقول » فأعلم أن ذلك باللسان دون كلام النفس .

باب الفصل بين الفعل والنعت

النعت يؤخذ عن الفعل نحو « قامَ فهو قائم » وهذا الذي يسميه بعض النحويين (الدائمَ) وبعض يسميه (اسمَ الفاعل) . وتكون له رتبة زائدة على الفاعل . قال الله جل ثناؤه « ولا تجعلْ يدكَ مَغْلولة الى عُنُقكَ » ولم يقل : لا تغلَّ يدكَ ، وذلك أن النعت ألزمُ ، ألا ترى أنا نقول « وعصى آدم رَبَّه فغوى » ولا نقول : آدمُ عاصٍ غاوٍ ، لأن النعوت لازمة وآدم وان كان عصى في شيء فإنه لم يكن شأنه العصيان فيُسمى به ، فقوله جل ثناؤه « لا تجعلْ يدكَ مغلولة » أي لا تكونَنّ عادتُكَ المنعَ فتكون يدك مغلولةً . ومنه قوله جل ثناؤه « وقال الرسول : ياربّ إن قومي اتخذوا هذا القرآنَ مهجورا » ولم يقل هجَرُوا لأن شأنَ القوم كان هجرانَ القرآن وشأنُ القرآن عندهم أن يُهجر أبداً فلذلك قال والله أعلم « اتَّخذوا هذا القرآن مهجورا » وهذا قياسُ الباب كله .

باب الشعر

الشِّعْر — كلام موزونٌ مقفًّى دالٌّ على معنًى . ويكون أكثرَ من بيت،
وإنما قلنا هذا لأنّ جائزاً اتِّفاقُ سطرٍ واحد بوزنٍ يُشبه وزنَ الشِّعر
عن غير قصد ، فقد قيل : إن بعض الناس كتب في عنوان كتاب « للأمير
(المُسيَّب بن زهير) — مِن عِقال بن شَبَّةَ بنِ عِقالٍ » فاستوى هذا في
الوزن الذي يُسمّى « الخفيف » . ولعلّ الكاتب لم يقصد به شِعْراً .

وقد ذكر ناس في هذا كلمات من كتاب الله جل ثناؤه كَرِهْنا
ذِكرَها ، وقد نَزَّه الله جل ثناؤه كتابه عن شَبَه الشِّعر كما نزَّه نبيَّه صلى
الله تعالى عليه وآله وسلم عن قوله . فان قال قائل : فما الحِكمةُ في تنزيه الله
جل ثناؤه نبيَّه عن الشعر ؟ قيل له : أوّل ما في ذلك حكم الله جل ثناؤه بأنّ
« الشعراء يَتَّبِعُهم الغاوون ، وأنهم في كل واد يَهيمُون ، وأنَّهم يقولون ما لا
يَفْعلون » ثم قال « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ورسول الله صلى الله
تعالى عليه وآله وسلم وان كان أفضل المؤمنين إيماناً وأكثر الصالحين عَمَلاً للصالحات
فلم يكن ينبغي له الشعر بحال ، لأن للشعر شرائط لا يُسمى الانسان بغيرها
شاعراً ، وذاك أن انساناً لو عَمِلَ كلاماً مستقيماً موزوناً يتحرَّى فيه الصدق
من غير أن يُفْرِط أو يتعدَّى أو يَمِينَ أو يأتي فيه بأشياء لا يمكن كونها بَتَّةَ لما
سماهُ الناسُ شاعراً ولكانَ ما يقوله مَخْسولاً ساقطاً . وقد قال بعض العقلاء
وسُئِلَ عن الشعر فقال « ان هَزَلَ أضحكَ ، وإن جَدَّ كَذَبَ » فالشاعر
بين كَذِب وإضحاك . فاذ كان كذا فقد نزَّه الله جل ثناؤه نبيَّه صلى الله
تعالى عليه وآله وسلم عن هاتين الخصلتين وعن كل أمر دنيء .

وبعد فانّا لانكاد نرى شاعراً الامادحاً ضارعاً أو هاجياً ذا قذع، وهذه أوصاف لاتصلُح لنبي. فان قال: فقد يكون من الشّعر الحُكْمُ كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «ان من البيان لسحْراً، وان من الشّعر لحكمة» أو قال «حُكماً» — قيل له: انما نزّه الله جل ثناؤه نبيه عن قيل الشعر لما ذكرناه، فأمّا الحكمة فقد آتاه الله جل ثناؤه من ذلك القسْمَ الأجزلَ والنّصيبَ الأوفى الأزكى: قال الله جل ثناؤه في صفة نبيّه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «ويُزَكّيهم ويعلّمهُم الكِتابَ والحِكمة» وقال «واذكُرنَ مايُتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة» فآيات الله القرآن، والحكمةُ سنّته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. ومعنىً آخر في تنزيه الله جل ثناؤه نبيَّه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قيل الشعر أن أهلَ العَروض مُجْمِعون على أنّه لافَرْقَ بين صناعة العروض وصناعة الايقاع. الا أن صناعة الايقاع تَقسِم الزمانَ بالنَّغَم، وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة. فلما كان الشعر ذا ميزان يناسبُ الايقاعَ، والايقاعُ ضربٌ من الملاهي لم يصلُح ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم. وقد قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم «ما أنا من دَدٍ ولا دَدٌ مني».

والشّعر ديوانُ العرب، وبه حُفظت الأنساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلّمت اللغة. وهو حجّةٌ فيما أشْكَلَ من غريب كتاب الله جل ثناؤه وغريب حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وحديث صحابته والتابعين.

وقد يكون شاعرٌ أشْعَرَ، وشِعرٌ أحلى وأظرف. فأمّا أن يتفاوَتَ الأشعار القديمة حتى يتباعد ما بينها في الجودة فلا. وبِكُلٍّ يُحْتَجّ وإلى كلٍّ

يُحتاج . فأما الاختيار الذي يراه الناسُ للناس فشَهوات، كلٌّ مستحسنٌ شيئاً.

والشعراء أُمراء الكلام ، يقصرون الممدود ، ولا يمدّون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويومؤن ويشيرون ، ويختلسون ويُعيرون ويستعيرون. فأما لحنٌ في إعراب أو إزالةُ كلمة عن نهج صواب فليس لهم ذلك . ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتيَ في شعره بما لايجوز . ولا معنى لقول من قال :

ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمي

وهذا وإن صحّ وما أشبهه من قوله:

لما جَفا اخوانُه مصعَباً

وقوله : قِفا عند مِمّا تعرِفان رُبُوعُ

فكلُّه غلط وخطأ . وما جعل الله الشعراء معصومين يُوَقَّوْن الخطأ والغلط ، فما صحّ من شعرهم فمقبول ، وما أبَتْهُ العربية وأصولها فَمَرْدُود .

بَلَى للشاعر اذا لم يَطَّرِدْ له الذي يُريده في وزن شعره أن يأتي بما يقوم مقامه بَسْطاً واختِصاراً وابْدالاً بعد أن لايكون فيما يأتيه مُخْطِئاً أو لاحناً ، فله أن يقول :

كالنَّحْلِ في ماء رُضابِ العَذْبِ

وهو يُريد العسَل ، وله أن يقول :

مثل الفَنيق هَنَأتَهُ بِعَصيم

و « العصيم » أثر الهِناء . وانما أراد هَنَأْتَه بهِناء . وله أن يبسُط فيقول كماقال (الأعشى) :

ان تَرْكَبوا فركوب الخيل عادَتُنا أو تَنْزِلونَ فإنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ

معناه : ان تركبوا ركبنا وان تنزلوا نزلنا ، لكن لم يستقم له الا بالبسط وكذلك قوله :

وان تسكُني نجداً فيا حبّذا نجدُ

أراد : ان تسكني نجداً سكنّاه ، فبسط لما أراد اقامة الشّعر ، أنشدنيها أبي (فارس بن زكريّاء) قال أنشدني (أبو عبد الله محمد بن سعدان النحوي الهمذاني) قال أنشدني (أبو نَصْر) صاحب الأصمعي :

قَضيْتَ الغواني ، غير أنّ مودّةً لِذَلْفَاءَ ما قضيت آخِرَها بعدُ
فيا ربْوَةَ الرَّبْعَيْن حُيِّيتِ ربوةً على النأي مني ، واستهلّ بك الرّعْدُ
فان تَدعي نَجْداً نَدَعْهُ ومن به وان تسكُني نجداً فيا حبّذا نجْدُ (١)

وما سوى هذا مما ذكرتِ الرّواةُ أن الشُّعراء غلطوا فيه فقد ذكرناه في (كتاب خُضارة) وهو (كتاب نعت الشّعر) .

وهذا (تمام الكتاب الصاحبي) أتمّ الله على (الصاحب) الجليل النِّعَم ، وأسبغَ له المواهبَ ، وسَنّى له المَزيدَ من فضله ، إنه وليُّ ذلك والقادِرُ عليه . وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآله أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

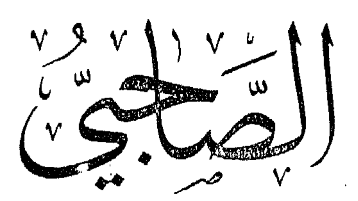
وكتب (نوح بن أحمد اللوباساني) في شعبان سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة . كذا بأصله المقروء على المؤلف وعليه خطه .

---

(١) الابيات من نظم (شمر بن عمرو) وأولها :

لمن دمنتان ليس لي بهما عهد بحيث التقى الدارات والجرع

فهـــرس



في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ تنبيه ﴾

وقع في أثناء الطبع بعض غلطات مطبعية لم ينتبه النظر اليها أثناء التصحيح ، فأحببنا أن نأتي هنا على تصحيحها رجاء أن يعود القاريء فيصححها ، كيلا تكون نسخة (الصاحبي) بعد الطبع دونها قبله ، وهذا ما كنا نزمله عند الشروع في طبعه والى القاريء تصحيح تلك الكلمات :

(صفحة ب : سطر ١) الخصيب . (ب : ٢٣) فلقيت . (ج : ١٥) الدولة . (هـ : ١٢) الانكار . (ز : ١٢) وقيتَ . (يب : ٩) فؤاده (ك ١٥) وباعلاني . (٤ : هامش) لانك . (٥ : ٨) خُصَيف . (١٤ : ٤) انشاءي . (١٦ : ٩) الايماء اللطيف والاشارة . (١٨ : ٥) ادّعى . (٢١ : ٣) الاعراب . (٢٥ : ٣) كَمَل . (٢٧ : ٦) فان . (٤٦ : ١٤) الصيام أصله . (٧٤ : ٣) قَشَعتْهُ . أترفتْ (٧٤ : ٩) يقع . (٨٠ : ٣) بني السِعْلات . (٩٩ : ٥) عمرو . (١٠٤ : هامش) ألا أيها اللاحيّ (١٠٧ : ٢٠) ولا كثيره . (١٢١ : ٦) فناديت . (١٣٩ : هامش) تنقاد . (١٤٠ : هامش) رَيَّشَتْ . (١٤٢ : ٨) الابل . (١٧٤ : ٥) السّاقُ . (١٧٨ : ١٧) العامُّ . الخاصُّ .